مركز الآثار والتراث الفلسطيني

دراسات في تاريخ وآثار فلسطين

وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية

المجلد الرابع

المحرر العلمي : الدكتور شوقي شعث
مدير مركز الآثار و التراث الفلسطيني

الطبعة الأولى - 2001 م

الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية
دمشق - ص.ب: 3397 (أو 10181
تلفاكس 2248255

اشرف على التصميم و الطباعة د. سامي برقاوي

دراسات في تاريخ و آثار فلسطين
المجلد الرابع

المحتوى :

تقديم

هذا هو المجلد الرابع في سلسلة دراسات في تاريخ وآثار فلسطين فقد ظهرت المجلدات الثلاث الأولى في مطلع الثمانينات وضمت البحوث العلمية التي قدمت في الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية التي عقدت في جامعة حلب. لقد قامت جامعة حلب بطباعة المجلدات الثلاث التي أشرت إليها المراجع العلمية في شتى أقطار المعمورة وتشجيعاً من هؤلاء وأولئك قمنا بتوجيه سام من سلطات البلاد العليا في سوريا. وقد لاقت تلك المطبوعات استحسان بإعداد المجلد الرابع من هذه السلسلة ونتمنى أن تستمر هذه السلسلة مستقبلا في الصدور تتميما للفائدة المرجوة منها.

البحوث المنشورة في المجلد الرابع هي في الأصل بحوث أعدها الباحثون المشاركون بناء على طلب من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام الفلسطينية لتكون في كتاب بمجلدين تحت عنوان "الآثار الفلسطينية" وكان محرر ذلك الكتاب_المشروع هو المحرر العلمي لهذا الكتاب إلا أن بعض الباحثين الذين كلفوا لم يتمكنوا من ارسال بحوثهم إلا أصحاب البحوث التي تنشر في هذا المجلد ونظرا للظروف التي أحاطت بالظروف المعقدة التي تعيشها المنطقة فقد أهمل كتاب الآثار الفلسطينية وطغت على السطح الأوليات حسب ترتيب المسؤولين عن الشؤون الثقافية في المنظمة العربية وفي القيادة الفلسطينية وبعد قرابة خمسة عشر عاما رؤي نشر هذه الأبحاث الهامة التي عالجت كثيرا من الموضوعات التي لم يتطرق إليها أحد، جاء التفكير في طبعها كي يطلع عليها الباحثون والدارسون العرب فأعيد النظر في البحوث ووجدت أنها مناسبة للنشر، بل من الضروري أن تنشر ورغبة في طباعة جميع البحوث التي أعدت لكتاب الآثار الفلسطينية بالتعاون مع

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وقد كتبت اليها طالبا إن كانت هناك بحوث لديها غير البحوث المتوفرة لدي، ولكنني لم أتلق جوابا حتى الآن . وانطلاقا من ضرورة نشر تلك الدراسات والتزاما بما وُعِد به الباحثون من أن هذه البحوث لابد وأن تنشر، جاءت الرغبة في نشرها وطباعتها. وهكذا كان الالتزام بنشرها ضرورة ثقافية وضرورة وطنية والتزاما بما وعدنا به الباحثون.

يضم هذا المجلد ستة بحوث تتراوح ما بين الطويل والقصير إلا أنها جميعا تسد فراغا كبيرا في الدراسات التاريخية والأثرية الفلسطينية تصدى لكتابتها باحثون مشهورون من الوطن العربي يأتي في طليعتهم: المرحوم الدكتور شاكر مصطفى المؤرخ العربي السوري الذي رافق القضية الفلسطينية وقدم لها الكثير إبان عمله الجامعي وعمله في السلك السياسي السوري ثم في جامعة الكويت، وظل حتى آخر حياته حريصا علي الإسهام في كتابة ودراسة تاريخ فلسطين بشكل خاص وتاريخ الأمة العربية بشكل خاص. ومنهم المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العش الأثري السوري المتخصص في النقود العربية الإسلامية ، شارك في الندوة العالمية للآثار الفلسطينية ثم تأتي مشاركته هذه بمقالة طويلة حول النقود العربية المضروبة بفلسطين مبينا فيها أهمية فلسطين الاقتصادية والسياسية والتي تجدها في مراكز سك النقود بفلسطين. ومنهم الدكتور صفوان التل الباحث الأردني المتخصص في الفنون الإسلامية وقد شارك بدراسة جادة حول الفنون المبكرة بفلسطين ومنهم عدد لا بأس به من الباحثين الأردنيين ذوي الأصول الفلسطينية وهم متخصصون في دراساتهم وبحوثهم في فلسطين وأكثرهم بل ربما جميعا ممن كان يعمل في سلك التدريس الجامعي والبحث العلمي.

مثل هؤلاء الباحثين لا يمكن أن يغض المرء الطرف عن بحوثهم سيما وأنها جاءت لتعالج طرفا من القضية الثقافية الفلسطينية، ونحن لازلنا مقصرين في هذا الباب، إذا تذكرنا أن صراعنا مع العدو الصهيوني هو في ماهيته صراع ثقافي أبدي لا يمكن لاتفاقية أو اتفاقات جاءت من هذا الطرف أو ذاك، ان توقف ذلك الصراع، إنه متأصل في جذورها التاريخية وفي عقيدتنا وفي ثقافتنا فلا يمكن لأحد كائنا من كان أن يلغي هذا الصراع أو أن يخفف منه فهو مستقر في وجدان الناس يوّرثونه لابنائهم جيلا بعد جيل.

إن الثقافة العربية قوية ولا خوف عليها، إلا أنه من الضروري أن تؤصل هذه الثقافة من وقت لآخر ،وما كتابنا هذا الذي نقدمه اليوم إلى القارئ إلا وسيلة من وسائل التأصيل الذي تحتاجه خاصة ما يرتبط بالصراع مع العدو الصهيوني الذي لا يترك مناسبة إلا ويحاول تشويه التاريخ العربي الإسلامي، بل حاول تشويه القرآن الكريم وفشل أيضا، وعاد ليجد لنفسه مكانا في التاريخ بعيدا عن الصراع إلا أنه لم ينجح.

ترتكز الصهيونية على ظاهرة القوة التي تتباهى بها وهي ولا شك ليست قوة ذاتية إنما قوة مستوردة ولا يمكن لمثل هذه القوة أن تصمد مع الزمن وهي بمقاييس التاريخ قوة زائلة لا محالة، إن هذا الكلام هو ما يقوله التاريخ، وحكم التاريخ قوة لا تقهر.

من هنا جاء إيماننا الراسخ بتراثنا وتاريخنا وثقافتنا.

كم كنت أتمنى أن يتبنى مثل هذا الكتاب مؤسسة أو مركز رسمي أو شبه رسمي، إلا أن هذا غائب في الوقت الحاضر لأسباب عدة ولعل الأيام المقبلة تسمح بإصدار مثل هذه الدراسات.

أعود لأقول إن هذا الجهد المتواضع الذي بذلناه لابد أن يجد القبول لدى جمهورنا العربي

والله ولي التوفيق.

المحرر العلمي

د. شوقي شعث

العصر الحجري القديم حتى نهاية العصر البرونزي القديم

د. معاوية ابراهيم

د. زيدان كفافي

تسمية فلسطين

أقدم الأسماء التي تنطبق على الأرض الفلسطينية ووردت بوضوح في المصادر التاريخية "أرض كنعان" كما جاء ذلك في مسلة ادريمي ملك الالاخ (تل عطشانة) من منتصف القرن الخامس عشر ق.م. وأقدم ذكر لهذه التسمية في المصادر المسمارية من نوزي يعود إلى نفس الفترة تقريباً، وهذه التسمية (Kinavna أو Kinavvi) تقارب الصيغة التي وردت كثيراً في رسائل تل العمارنة (Aharoni 1967, 61).

غالباً ما يكون أصل كلمة فلسطين "فلستيا" التي ترد في السجلات الآشورية من أيام الملك الآشوري أدد نيراري الثالث (حوالي ٨٠٠ ق.م)، إذ يذكر هذا الملك على مسلته أنه في السنة الخامسة لحكمه أخضعت قواته فلستو (Palastu) وأجبرت أهلها على دفع الضريبة. وفي سنة ٧٣٤ ق.م جعل تجلات بيلاسر الثالث "أرض فلشتا" هدفاً له، وترد تسمية مشابهة "أرض الفلستينيين" في العهد القديم. ويبدو من الروايات الآشورية أن المنطقة كانت تضم مجموعة من الدول الفلسطينية التي كان أشهرها الدولة الساحلية حول مدينة أسدود العاصمة. كما كانت هذه الدول تتحالف فيما بينها خاصة عندما كان يقع عليها هجوم خارجي، ويرد في أحد النصوص الذي يتضمن اتفاقية بين الملك الآشوري اسرحدون وبعل ملك صور ذكر اسم "أرض الفلستين" بجانب "أرض آشور". على ايــة حال يستنتج من النصوص المختلفة على أن المقصود من هذا المصطلح الساحل الفلسطيني، إلا أنه في غالب الأحيان قصد به كامل الأرض الفلسطينية الممتدة بين سيناء جنوباً وغور الأردن شرقاً.

ترتكز صيغة التسمية عند هيرودوت (H E R O D O T) على أسس آرامية "بالستاين" وتجد عنده أحياناً أنه مكان يطلق على الجزء الجنوبي من سوريا اسم "سوريا الفلسطينية" بجوار فينيقيا وحتى حدود مصر. واستعمل هذه التسمية المؤرخون الرومان من أمثال أغارثارشيدس (AGARTHARCHIDES) وسترابو (STRABO) وديودور (DIODOR). ويشير بعض هؤلاء إلى المنطقة الجبلية من فلسطين على أنها"يوديا" اعتماداً على النص لبعض التوراتي ولدى تفسيرهم حوادث التوراة أو استشهادهم بها مثل "أدوميا" للجنوب من فلسطين

و"يودا" للمنطقة الجبلية الجنوبية و"سمرتيس" لمنطقة سبسطية والجليل لشمالي فلسطين وبيريا لشرقي الأردن (NOTH 1971, 294-308).

أصبح اسم فلسطين في العهد الروماني ينطبق على جميع الأرض المقدسة وغدا مصطلحا رسمياً منذ عهد هدريان. انتشر استعمال الاسم في الكنيسة المسيحية على نطاق واسع وكان يشار إليه دائماً في تقارير الحجاج المسيحيين. أما في العهد الإسلامي فقد كانت فلسطين جزءاً من بلاد الشام ويقول الإمام البغدادي في معجم البلدان (الجزء الرابع ٢٧٤ــ٢٧٥) بأن فلسطين "هي آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبتها البيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وعمان ويافا وبيت جبرين، وقيل في تحديدها: إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب، وطولها للراكب مسافة ثلاثة أيام، أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون من ناحية الغور وعرضها من يافا إلى أريحا نحو ثلاثة أيام أيضاً وزغر ديار قوم لوط، وجبال الشراة إلى أيلة كله مضموم إلى جند فلسطين وغير ذلك..".

وكان لفلسطين منزلة خاصة في نفوس العرب والمسلمين إذ قال ابن الكلبي في قوله تعالى:

{يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}، هي أرض فلسطين، وفي قوله تعالى: {الأرض التي باركنا فيها للعالمين}، قال هي فلسطين.

مقدمة في جغرافية فلسطين التاريخية

فلسطين في مفهومنا الحالي هي المنطقة الواقعة ما بين نهر الأردن شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً والبحر الأحمر وسيناء جنوباً ولبنان وسوريا شمالاً. لكن وفي فترات سابقة يبدو أن هذه الحدود الجغرافية كانت تختلف من فترة لأخرى فمثلاً نرى أن المنطقة الواقعة حول بحيرة طبرية وسهل مرج ابن عامر كانت خارجة عن نطاق الحدود الحالية لفلسطين (REICKE AND ROST 1966: 1366; HENNESSY 1967:1).

لقد لعب موقع فلسطين المتوسط ما بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبادوراً كبيراً، خاصة وأنها تعتبر المدخل الرئيسي لهذه القارات كما أنها حلقة الوصل ما بينها بشكل عام وما بين مصر والمناطق الآسيوية بشكل خاص. لذلك نرى أنها كانت وما تزال موضع تأثر وتأثير خاصة وأنها كانت تتصل بالبلاد الأجنبية عن طريق التجارة أحياناً والغزوات أحياناً أخرى. كذلك يستطيع الباحث أن يستنبط بأن تاريخ هذه المنطقة

كان مرتبطاً معظم الأوقات مع القوى الكبرى (مصر وبلاد الرافدين) المحيطة بها. ومثال ذلك أن فلسطين خلال فترة العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ ـــ ١٢٠٠ ق.م) كانت خاضعة للنفوذ المصري كغيرها من المناطق السورية، يؤيد هذا القول رسائل تل العمارنة في الفترة نفسها.

كما يجب أن نذكر هنا أيضاً أن الصلات التجارية ما بين فلسطين ومنطقة الأناضول تعود إلى أقدم العصور، والدليل على ذلك أنه عثر في مدينة أريحا وأثناء الحفريات التي أجرتها كاثلين كنيون وفي طبقات العصر الحجري الحديث، ما قبل الفخار، على عدد من الأدوات المصنوعة من حجر السبج (الأوبسديان) المستورد من هذه البلاد مقابل تصدير الملح والقار (de vaux 1966:7).

يمكن للناظر لخارطة فلسطين أن يقسمها طولياً إلى عدة أقسام جغرافية تبدأ بالساحل والسهل الساحلي الفلسطيني ومنطقة السفلة ومن ثم سلسلة الجبال الداخلية، ثم منطقة وادي الأردن الممتدة على ضفتي نهر الأردن شرقاً وغرباً والتي هي جزء من حفرة الانهدام السورية الممتدة من سهل العمق شمالاً عبر وادي الأردن والبحر الميت ووادي عربة، والتي تستمر داخل البحر الأحمر. ويطل على هذا الوادي من الناحية الشرقية سلسلة من الجبال والتي تمتد من جبل الدروز في الشمال يتبعه سلسلة جبال عجلون فجبال البلقاء، ومن ثم جبال الشراه إلى الشرق من هذه السلسلة والتي يتخللها مجموعة الأنهار (اليرموك والزرقاء) والأودية (مثل وادي العرب، ووادي زقلاب، ووادي كفرنجة، وادي الموجب ووادي الحسا) وتلي هذه السلسلة منطقة الصحراء الأردنية (Smith 1896: 49; Aharoni 1967: 19-33).

يجادل هنسي (Hennessy) بأنه لم يكن في فلسطين خلال فترة الألف الثالث ق.م موانئ طبيعية رئيسة هامة ويعزز ذلك إلى أن الساحل الفلسطيني يتصل بسلسلة الجبال الداخلية من جهة وببعض الأنهار من جهة أخرى (Hennessy 1967:1). لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك موانئ قطعاً، فعلى سبيل المثال القصة المصرية والتي تعود إلى هذه الفترة والمسماة قصة "أخذ يافا" "Taking Joppa" (Pritchard).

يختلف السهل الساحلي الفلسطيني في عرضه من منطقة لأخرى، فبينما يبلغ في المنطقة التي تطل منها جبال الكرمل على البحر الأبيض المتوسط حوالي (٢٠٠) يــاردة نرى أنه يتسع عند غزة وعسقلان ليتراوح ما بين ٢٠ ـــ ٣٠ ميلاً. ومع أن هذه المنطقة تعاني من الانجرافات والمستنقعات في بعض المناطق إلا أنها تعتبر من المناطق الخصبة والصالحة للزراعة وتعتبر المصدر الرئيس لانتاج الحنطة في البلاد.

ويمكن تقسيم السهل الساحلي الفلسطيني إلى ثلاث مناطق جغرافية هي: أولاً شريط ضيق على شكل مثلث في الشمال ويحده من الشمال جبال الكرمل ومن الجنوب نهر الزرقاء (حمار ١٩٦٩:٢٤). ثانياً سهل سارونا المعروف باسم "سهل شارون" (حمار ١٩٦٩: ١٢٩، Reicke, Band L. Rost 1966; 1673) والذي يمتد بين نهر الزرقاء شمالاً ونهر روبين جنوبي يافا جنوباً. وثالثاً السهل الساحلي الفلسطيني والذي يمتد جنوباً إلى وادي غزة.

يقسم سهل مرج بن عامر سلسلة الجبال الداخلية إلى قسمين فيما نجد أنه يربط بين منطقتي غور الأردن والبحر الأبيض المتوسط.

وسهل مرج بن عامر هي تسمية أطلقت على مجموعة من السهول تحت اسم واحد. هذه السهول تفصل بينها مجموعة من الهضاب الجبلية. فعلى بعد تسعة أميال من البحر وبالقرب من تل القسيس (Tell el Kesis) نجد أن جبال الجليل تقترب من جبال الكرمل تاركة فقط المجال بينهما لنهر المقطع للجريان. وعلى مسافة ثمانية أو تسعة أميال إلى الشرق من هذه المنطقة وبالقرب من اللحون التي ربما تكون موقع "مجدو" القديم (Smith 1896:380) تمتد سلسلة هضاب من الشمال إلى الجنوب، وهنا يتابع نهر المقطع جريانه. وعلى بعد ٢٤ ميلاً من الساحل نجد أن هناك انحداراً يتجه ناحية الشرق والذي يفصل ما بين سهل مرج بن عامر ووادي ضيق ينحدر باتجاه نهر الأردن.

تتخذ منطقة سهل مرج بن عامر شكل مثلث وتتكون من ثلاثة أجزاء هي سهل عكا والسهول الداخلية والمنطقة المطلة على الأردن. تمتد قاعدة هذا المثلث الجنوبية حوالي (٢٠ ميلاً) من تل القسيس على سفح جبال الكرمل غرباً إلى جنين شرقاً. أما الجهة الشمالية فتمتد ما بين مرتفعات الناصرة ومنطقة التقاء هذه المرتفعات وجبل الطور، أما الجهة الشرقية فتمتد ما بين جبل الطور وجنين. وهذه الجهة تختلف عن غيرها بأنها محاطة بالهضاب لكنها تحتوي على ثلاثة انكسارات طبيعية تتجه نحو الشرق واحد يمتد ما بين جبل الطور وجبل الضاحي على شكل ممر ضيق يستمر حتى يصل نهر الأردن. وآخر يمتد ما بين جبل "فقوعة Gilboa" وجبل "الضاحي Moreh" وهو عبارة عن واد طويل ما بين نهر الأردن وبيسان. وأخيراً انكسار آخر يمتد بين جبل "فقوعة" والهضاب المحيطة بجنين لكنه لا يصل لنهر الأردن هنا. وترتفع المنطقة الوسطى لسهل مرج ابن عامر حوالي ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، لكن وبالقرب من بيسان أي كلما اتجهنا شرقاً نجد أن الحال يختلف إذ أنه ينخفض حوالي ٤٠٠ قدم تحت سطح البحر.

تعتبر سلسلة الجبال الداخلية امتداداً لسلسلة جبال لبنان وتنتهي هذه السلسلة بجبال الخليل حيث نرى أنها بعدها تتكون من مجموعة من التلال الصغيرة حتى تصل إلى خليج العقبة مروراً بصحراء النقب. ويتراوح ارتفاعها في منطقة جنوبي الخليل ما بين ٢٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ قدم. تتكون هذه السلسلة من جبال الجليل التي تقف عند سهل مرج ابن عامر ثم تبرز مرة أخرى مكونة جبال الكرمل ثم جبال نابلس والقدس والخليل. يتخلل هذه الجبال مجموعة من الأودية والممرات التي غالباً ما كانت تستعمل للطرق التجارية بالإضافة إلى عدد كبير من الكهوف (Anati 1963:30; Hennessy 1967:3).

ابتداءً من منطقة الخليل تبدأ سلسلة الجبال بالانخفاض مشكلة تلالاً صغيرة مبتدئة من وادي الخليل شمالاً حتى وادي السبع جنوباً والذي يتجه غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط. هذه التلال الصغيرة تقف عند بلدة الظاهرية، والتي تعتبر الحد الفاصل بين المنطقة الجبلية وصحراء النقب. وتعرف كلمة النقب على أنها تعني الجنوب (Smith 1896: 278)، لكن ترجمتها الحرفية تعني المنطقة الجافة (Aharoni 1967:23).

إلى الجنوب من بئر السبع وقبل الوصول للمنطقة الصحراوية نجد أن هنالك منطقة جبلية تمتد حوالي ٦٠ ميلاً إلى الشرق والغرب. وتتوفر في هذه المنطقة إمكانية الاستقرار والزراعة ولكن هذا يعتمد كلياً على كمية نزول الأمطار والتي تختلف من سنة لأخرى. فبعد سقوط الأمطار مباشرة تظهر الأعشاب وإن كانت بشكل ضعيف. لكن هذه الأعشاب تكون نادرة جداً في فصل الصيف (Smith 1896: 280; Aharoni 1967:24). كذلك من الواجب ذكره هنا أن منطقة بئر السبع الصحراوية تحوي مجموعة من الينابيع يبلغ عددها سبعة على الأقل.

هناك واديان رئيسان في منطقة النقب هما وادي الشريعة ووادي الشلالة يلتقيان قرب البحر المتوسط. حول هذين الواديين تقع مجموعة مهمة من المواقع الأثرية أهمها تل الشريعة وتل أبو هريرة وتل الفارعة الجنوبي (شاروهين) وتل جمة.

من أهم الطرق المعروفة في منطقة صحراء النقب الطريق الرئيسي من بيتين Bethel إلى الخليل وبئر السبع والتي تستمر عبر الجبال الغربية، ومن ثم تتفرع بعدها لعدة أفرع صغيرة منها الطريق التي تنحرف جنوباً متوجهة إلى العقبة والجزيرة العربية والطريق الموصلة إلى سيناء.

تنحدر سلسلة الجبال عند جبهتها الشرقية حيث تطل على منطقة غور الأردن الممتد ما بين بحيرة طبرية في الشمال والبحر الميت في الجنوب ويبلغ طوله ٦٥ ميلاً (١٠٣ ــ ١٠٥ كم) ويختلف عرضه من منطقة لأخرى، فبينما نرى أن عرضه يبلغ ما بين ٣ ــ ٤

ميلاً في المنطقة الواقعة جنوبي بحيرة طبرية نجد أنه يصل إلى حوالي ١٣ أو ١٤ ميلاً عند أريحا وبيسان. وتعتبر هذه المنطقة من المناطق الزراعية الخصبة في فلسطين. وهي جزء من حفرة الانهدام السورية، والتي تبدأ بسهل العمق في شمالي سوريا شمالاً حتى البحر الأحمر جنوباً مارة بوادي عربة أيضاً.

تقع منطقة غور الأردن بكاملها تحت مستوى سطح البحر، وتعتبر أكثر منطقة في العالم انخفاضاً، إذ تنخفض حوالي ٣٩٤م عن سطح البحر (Perrot 1968: 307_312). يجري داخل هذه المنطقة نهر الأردن الذي يمتاز بكثرة تعاريجه، وسرعة انحداره مما جعله غير ملائم للملاحة (Abel 1967:80). وقد اتفق العلماء على تقسيم منطقة غور الأردن إلى ثلاث مناطق جغرافية تبدأ بالمنطقة المنبسطة أمام سلسلة الجبال المعروفة باسم "الغور" والتي يتراوح عرضها ما بين ٣ـ٥ كم في الشمال لتتسع حتى تبلغ ما بين ١٠ـ١٣ كم في الجنوب. تلي هذه المنطقة منطقة الكتار التي تتكون من هضاب منخفضة تفصل ما بين منطقة الغور عن المنطقة الثالثة والمسماة "الزور" وهي منطقة الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن (Smith 1896:47; Abel 1967;80, Blankenhorn 1914; 83-84). بعد هذا تستمر حفرة الانهدام عبر البحر الميت ووادي عربة مارة بالبحر الأحمر.

وفي الجهة الشرقية لغور الأردن تجري مجموعة من الأنهار والوديان التي تزود نهر الأردن بالمياه، وبعض هذه الوديان، لا تجري في فصل الصيف من هذه الأنهار نهر اليرموك ونهر الزرقاء، ومن الوديان: وادي العرب، وزقلاب، والجرم، وشعيب وحسبان (Smith 1896:49; Abel 1967: Carets IX &X). وفي هذه الجهة من الوادي وفي عام ١٩٦٠ شقت قناة غور الأردن الشرقية التي تروي هذه المنطقة.

إلى الشرق من غور الأردن والبحر الميت ووادي عربة تمتد سلسلة من الجبال المرتفعة أهمها: جبال عجلون، والبلقاء، وتسير هذه السلسلة جنوباً مكونة جبال الشراه حتى تصل إلى خليج العقبة. ثم إلى الشرق من هذه السلسلة تمتد صحراء بلاد الشام التي من ضمنها الصحراء الأردنية.

يعتبر مناخ فلسطين مثل مناخ بقية المناطق الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط، إذ أنه يكون حاراً جافاً صيفاً، تختلف فيه نسبة الرطوبة من منطقة لأخرى ودافئ بعض الشيء في الشتاء. وقد تتساقط الثلوج في بعض الأحيان خاصة فوق قمم المرتفعات الجبلية.

ويتراوح معدل درجات الحرارة في فصل الصيف في مناطق حيفا وتل أبيب ما بين ٢٦ و٢٧ درجة مئوية، بينما متوسط درجات الحرارة في هذه المدن في فصل الشتاء

حوالي ١٤ درجة مئوية. ولوقوع مثل هذه المواقع على الساحل نرى أن نسبة الرطوبة في جميع أوقات السنة تكون عالية نسبيا وتبلغ ذروتها خلال أشهر الصيف، يبدأ سقوط الأمطار في فلسطين والأردن عادة في الفترة الواقعة ما بين شهري تشرين الثاني وكانون الثاني، ويبلغ متوسط هطول الأمطار في حيفا حوالي ٥٩٠ ملم، بينما في تل أبيب ٥٢٠ ملم، وتتناقص هذه الكمية كلما سرنا باتجاه الجنوب. أما في المناطق الجبلية فلا يختلف الحال كثيرا عنه في المناطق الساحلية، فنرى أن متوسط معدل درجات الحرارة في فصل الشتاء في مدينة القدس يبلغ ٨ درجات مئوية بينما يبلغ في شهر آب حوالي ٢٣ درجة مئوية، كذلك بلغت نسبة سقوط الأمطار في هذه المدينة حوالي ٦٠٠ ملم. أما نسبة الرطوبة في الأماكن المرتفعة أقل بنسبة ١٠ــ١٥% عنها في الأماكن الساحلية. ولهذا نرى أن السكن في الأماكن المرتفعة في فلسطين أيام الصيف أفضل منها في المناطق الساحلية.

لكن الأحوال في منطقة الأغوار تختلف كثيرا عنها في المناطق الأخرى إذ يبلغ المعدل الوسطي لدرجات الحرارة في منطقة طبرية في الشتاء حوالي ١٢،٥ درجة مئوية بينما ترتفع إلى حوالي ٣٠،٥ درجة مئوية في فصل الصيف. أما في المنطقة الجنوبية لهذا الغور فترتفع درجة الحرارة في فصل الصيف لحوالي ٤٥ درجة مئوية، وخاصة في منطقة أريحا وهذا يعود إلى أنها أكثر انخفاضا عن سطح البحر، ولهذا يكون الجو جافا جدا صيفا في منطقة الأغوار (Smith 1896:61; Reicke & Rost 1966; 1368-1369).

بالنسبة للموارد المائية في فلسطين فهي تعتمد بشكل واضح على النواحي المناخية والجيولوجية وطبيعة البلاد الجغرافية. فهنالك الكثير من الأنهار والوديان في المنطقة الشرقية لغور الأردن وكذلك الغربية. لكن عدد الأنهار الدائمة الجريان محدود جدا (المقطع، إبراهيم)، ويلاحظ الإنسان أن نسبة المياه في هذه الأنهار تنخفض خاصة في أوقات الصيف الحارة، وعندما تكون الأمطار شحيحة. كذلك هنالك مجموعة من الأودية، أو الأنهار الصغيرة التي تروي سهل مرج ابن عامر، مثل نهر العوجا، ونهر روبين، والدالية.

أما النهر الرئيسي في فلسطين وكما هو الحال في الأردن، فهو نهر الأردن، الذي ينبع من جبل الشيخ ويتوجه جنوبا مارا ببحيرة الحولة (التي قامت السلطات الإسرائيلية بتجفيفها)، وبحيرة طبرية، ويواصل جريانه عبر غور الأردن حتى يصب في البحر الميت. ويغذي هذا النهر مجموعة من الأنهر والأودية من الناحية الشرقية (أنظر أعلاه)، ووادي الفارعة، والمالح من الناحية الغربية. وبما أن الجبال التي تحيط هذه الأنهار والوديان تتكون من صخور صلبة جدا، لذا نرى أن مجرى النهر أو الوادي يكون عميقا جدا.

تعتمد الثروة النباتية أكثر ما تعتمد على سقوط الأمطار، لذا يستطيع الإنسان في فصل الربيع مشاهدة وورود برية مثل شقائق النعمان والنرجس وغيرها من الأعشاب، كذلك نرى أن اشجار الدفلى تعم منطقة وادي الأردن، وكما هو الحال في المناطق الواقعة حول البحر المتوسط فإننا نرى أن اشجار الزيتون والتين والبرتقال هي أهم الأشجار المثمرة في فلسطين. كما أن هناك أشجار الخروب والرمان والمشمش والخوخ والتوت واللوز، ويستطيع المرء أن يشاهد أشجار النخيل والموز في المناطق الساحلية والأغوار، أما الأشجار الحرجية فتتركز في مناطق الجبال المرتفعة، ومن هذه الأشجار البلوط والصنوبر والبطم.

أما بالنسبة للحبوب فإننا نرى أن القمح والشعير هما المحصولان الرئيسيان بالإضافة إلى محاصيل الفاصولياء، والعدس، والقرع، والبطيخ، والخيار، والبصل، والخس وغيرها. بالإضافة إلى محاصيل تجارية مثل التبغ والقطن.

.(Smith 1896: 76ff; Reicke and Rost 1966:1370)

مقدمة في تاريخ البحث وتفسير الآثار الفلسطينية

جرت العادة عند استعراض تاريخ البحث في الآثار الفلسطينية أن تسرد النشاطات الميدانية كأعمال المسح والحفريات الأثرية والتقارير الصادرة بشيء من الإعجاب، وإذا ما تعرضت النتائج لنقاش فإنه غالباً ما ينحصر في تأريخ أثر أو طبقة أو إعادة هذا وذلك إلى حضارة أو أصول معينة، إلا أنه قلما تطرق الباحثون إلى الظروف والدوافع والأسس التي قامت عليها ومن أجلها هذه الأعمال.

إننا نعتقد أن النتائج المترتبة على النشاطات الميدانية والدراسات النظرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأهداف والدوافع. وفي الحقيقة فإن الأخيرة هي التي دفعت الأعداد الكبيرة من الأفراد والمؤسسات للقيام بأعمالهم الأثرية ودراساتهم التاريخية. لذا نحاول هنا أن نستعرض بشكل سريع الجوانب الرئيسة المتعلقة بهذا الموضوع مع الإشارة إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في المنطقة العربية بشكل عام والمنطقة الفلسطينية بشكل خاص.

المؤرخون والجغرافيون منذ العهد الهلنستي وحتى البيزنطي:

تعتبر الكتب (The Histories) التي تركها المؤرخ اليوناني هيرودوت (Herodotus) من أقدم لدينا من كتب التاريخ (منتصف القرن الخامس ق.م). يصف هيرودوت في كتبه

المناطق التي زارها والشعوب التي سكنتها مع عاداتهم وتقاليدهم. وقد شملت رحلاته أفريقيا والهند والبحر الأحمر وضمنها أسماء المدن والمواقع الساحلية. أما المعلومات المتعلقة ببلاد الشام وفينيقيا وفلسطين نجدها مبعثرة، ويركز المؤرخ الهلنستي الوثائق المعروفة ببرديات زنون على علاقة الامبراطورية الفارسية بفينيقيا. ولدينا من العهد (Zenon Papyri) من منصف القرن الثالث ق.م، التي تعتبر من الوثائق التاريخية الهامة عن الأوضاع الداخلية في فلسطين والأردن بما في ذلك الحياة الزراعية والاقتصادية والاجتماعية. يلي ذلك تواريخ بوليبيوس (Polybius Histories) من حوالي ٢٠٨-١٢٦ ق.م. وكتب ثيودور الصقلي (٨٠-٢٠ ق.م) ويتحدث كلاهما عن الحوادث السياسية المتعلقة ببلاد الشام وفلسطين، والكتب من رقم ٥ وحتى ١٦ لبوليبيوس مفيد للغاية، إذ أن المؤرخ كان على معرفة شخصية بعدد من حكام بلاد الشام.

ومن المؤرخين الرومان: سترابو (Strabo) الذي ترك مجموعة من الكتب (٦٣-٢١م) عن جغرافية الامبراطورية الرومانية في عهد أغسطس، وكتابه السادس عشر يبحث في آسيا وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام والجزيرة العربية ويتطرق إلى السكان والأماكن والإنتاج والعادات بالإضافة إلى ممالك بلاد الشام بما في ذلك الأنباط. وهناك مرجع آخر (حوالي ٧٩م) لصاحبه بليني الكبير (Pliny the elder) الذي خصص فصلاً من كتابه الخامس في التاريخ الطبيعي عن سوريا وفلسطين ويصف فيه الفنون والعلوم والصناعات في المنطقة كجزء من العالم اليوناني والروماني. وقد ترك لنا كلاوديوس بتلومي (Claudius Ptolemy) أقدم أطلس من منصف القرن الثاني الميلادي متضمناً خرائط وأسماء الأماكن في سوريا وفلسطين وبعض المعلومات عنها. وزودنا سوتونيوس (Suetonius) من بداية القرن الثاني وكاسيوس ديو (Cassius Dio) معلومات تاريخية عن فلسطين، وبشكل خاص في عهد كاليغولا (Caligula) وتراجان (Trajan)، وهدريان (Hadrian)، بما في ذلك قوائم الأقاليم والحكام.

وتركت لنا عدداً من السجلات والمصادر البيزنطية من أهمها: يوسيبيوس (Eusebius) وهو أسقف قيسارية الفلسطينية (Caesarea Maritiam)، وتعتبر كتبه من أهم المصادر عن فلسطين من عهد قسطنطين الكبير، ومن هذه الكتب "تاريخ الكنيسة" (History of the church) الذي يتضمن تفاصيل عن المعابد والكنائس المسيحية، وألف كتاب "الجغرافيا" (Dnomastikon) وكتاب "حياة قسطنطين". ونشير هنا إلى إميانوس مارتشيلونس (Ammianus Marcellinus) الإيطالي من القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادي وضمنه معلومات هامة عن فلسطين. وهناك كتب لجيورجيوس كيبريوس

(Georgios Kyprios) بعنوان "وصف العالم الروماني" يبين فيه قوائم مدن وأقاليم بلاد الشام وفلسطين قبيل الفتح العربي الإسلامي.

الجغرافيون والرحالة العرب

تعتبر بعض الكتب والتقارير من المصادر الهامة التي تركها لنا الجغرافيون والرحالة العرب في العهد الإسلامي من المصادر الهامة للتعرف على معالم فلسطين وطوبوغرافيتها ومدنها وقراها، وتناولت بعض هذه المصادر النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والديموغرافية لبلاد الشام ولفلسطين بشكل خاص.

فقد تطرق الاصطخري (مسالك الممالك ١٩٦٧، ٥٥-٦٨) إلى طبوغرافية فلسطين ومعالمها الأثرية البارزة وتعرض إلى أجناد بلاد الشام وحدودها، كما وعلل تسمية بعض الأماكن والتضاريس فالغور سمي كذلك لأنه غائر بين جبلين، وأنه يمتد من بحيرة طبرية شمالاً وحتى مدينة أيلة (العقبة) على البحر الأحمر جنوباً مروراً بغور الصافي ووادي عربة. وقام برسم خارطة بين فيها المدن الرئيسة والجبال والأنهار والبحيرات.

وذكر البلاذري (فتوح البلدان، ١٩٧٨) أسماء المواقع والمدن الشامية دون إعطائها وصفاً جغرافياً، من هذه المدن: حلب وحماه وحمص وطرابلس ودمشق وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا والرملة والقدس وطبرية وعمان والكرك والشوبك وأيلة وفحل وبيسان وجرش وبيت راس وجدارا (أم قيس) وقيسارية وغزة. وقام ابن الفقيه (كتاب البلدان، ١٩٦٧، ١٧١) بوصف معالم بعض المدن الرئيسية من مساجد وغيرها مثل المسجد الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في بيت المقدس وتعرض إلى إسلوب بنائها وما تضمنته من نقوش وزخارف فنية متميزة.

قد يكون المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٦٧، ١٥١-١٩٢) خير من كتب في طبوغرافية فلسطين من الجغرافيين العرب، فذكر المدن والقرى والمعالم الأثرية والتضاريس وضمن كتابه وصفاً منهجياً للمشاهد والمزارات والقباب والكهوف... إلخ، واعتمد على زياراته الهادفة وقام بقياسات لبعض المعالم الأثرية بنفسه.

ومن المصادر التي يجدر الإشارة إليها كتاب صورة الأرض لابن حوقل (ليدن ١٩٦٧) حيث أورد معلومات عن بلاد الشام مدعمة بالمخططات والخرائط الجغرافية لمختلف المناطق بما في ذلك تلك الواقعة على الساحل السوري الفلسطيني.

الحجاج والرحالة

جذبت فلسطين أنظار الحجاج المسيحيين ـــ بشكل خاص الأوروبيـــين منـــهم ـــ الذين وفدوا إليها، ورجعوا إلى بلادهم، فدونوا ملاحظاتهم، أو تقاريرهم التي هي أشبه مـا تكون بمذكرات عن الأماكن المقدسة التي زاروهـــا (Donner 1979)، إلا أن الاهتمـــام بالمخلفات والمعالم الأثرية في فلسطين ـــ خاصة تلك المعالم والمواقع الدينية ـــ قـــد بـــدأ يحتل دوراً ملحوظاً منذ العصور الوسطى ومع نهاية الحروب الصليبية التي دفعت عدداً من المهتمين ورجال الدين للتحرك إلى البلاد المقدسة وزيارة محطاتها الدينية. ومع أن تقـــارير هؤلاء قد جاءت بأسلوب جاف يطغى عليه التعصب الديني، إلا أن بعضها لا يخلو مـــن معلومات وحقائق كتلك التي قدمها السويسري فيلكس شمت (Felix Schmidt) الذي زار فلسطين بين سنة ١٤٨٠-١٤٨٣، وكذلك الفيزيائي الألمـــاني ليونهارد راوخ فولـــف (Leonhard Rauchwolf) الذي زارها سنة ١٥٧٥، ووصف طبيعة تضـــاريس المنطقـــة، وضمن تقريره تصنيفاً مفيداً للنباتات والأشجار التي كانت تنمو على الأرض الفلسطينية. وهناك تقارير مزودة برسومات للمخلفات المعمارية قام بها كل من البلجيكـــي يوهـــان زولارت (Johan Zuallart) والهولندي يوهان فان كوتفيك (Johan van Kootwyck) في نهاية القرن السادس عشر.

نلاحظ بشكل عام ازدياد الاهتمام في المنطقة في القرنين السابع عشر والثامن عشـــر حيث كتبت معظم التقارير الموجودة لدينا من قبل دارسي اللاهـــوت المتعصبـــين الذيـــن انتقدهم الهولندي ادريان ريلاند (Adrian Reland) في مؤلفه الهام ـــ فلسطين مصورة مـــن خلال معالمها القديمة ـــ (Palaestina ex Momumentis veterbibus illustrata) والـــذي صدر عام ١٧٠٩. وأصبحنا نجد وصفاً أكثر موضوعية في النصف الأول من القرن التاســـع عشر، خاصة لتلك المعالم الكلاسيكية وما بعدها، ومن الذين يستحق ذكرهـــم في هـــذه الفترة الألماني أولرش ياسبر ســـيتزن (Ulrich Jasper Seetzen) (١٨٠٠) والسويســـري يوهان لودفيج بوركهارت (Johan Ludwig Burckhardt) (١٨٠١-١٨١٢) اللذان سجلا للغرب إعادة اكتشاف عدد من المدن التاريخية الهامة في شرقي الأردن من بينها عمان وجـــرش والبتراء. وهناك جهد واضح في تسجيل أسماء المواقع الفلسطينية التي قام بها إدوارد روبنســـون (Edward Robinson) ورفيقه الي سميث (Eli Smith) الذي كان يتقن اللغة العربية. ومـــع أنهما لم يمكثا أكثر من خمسة شهور سنة ١٨٣٨ ومن ثم ١٨٥٢ إلا أن إنتاجهما يشـــكل أساساً هاماً لدراسة طوبوغرافية فلسطين مع ذكر مفصل لأسماء المواقع كما أخذهـــا عـــن سكانها العرب الأصليين (Moorey 1981,20).

تأسيس الجمعيات الأثرية والتوراتية ونشاطاتها

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولاً واضحاً في البحث عن الآثار الفلسطينية، إذ أصبح العمل الأثري موجهاً من قبل جمعيات ومؤسسات غربية أنشئت لهذه الغاية. لقد أخذت هذه الجمعيات من التوراة منطلقاً لدراساتها وأعمالها الميدانية، كما تضمن بعضها أهدافاً ذات طابع سياسي عسكري. أولى هذه الجمعيات صندوق استكشاف فلسطين (Palestine exploration fund) التي تأسست عام ١٨٦٥ "بهدف البحث في الآثار والجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ الطبيعي لفلسطين". وعندما صدر أول عدد من المجلة الدورية للصندوق عام ١٨٦٥ ظهر على غلافها "جمعية من أجل البحث الدقيق والمنظم في الآثار والطبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليد الأرض المقدسة لغاية التوضيح التوراتي" (de vaux 1970,67). بعد مضي خمس سنوات على تأسيس الصندوق البريطاني، تأسست عام ١٨٧٠ جمعية أميركية (Palestine exploration Society) التي لم تشبع رغبة مؤسسيها أهداف الجمعية البريطانية وإنما تعدتها "لتوضيح الكتاب المقدس والدفاع عنه" وتضمن برنامجها نداء: "إلى الضمير الديني مسيحياً كان أم يهودياً من أجل البرهنة على صحة الكتاب المقدس" (Palestine exploration Society, first statment 1871) وشهدت نفس السنة ١٨٧٠ إنشاء جمعية بريطانية أخرى (Society of biblical archaeology) ووضعت من أهدافها "البحث في الآثار والتسلسل الزمني والتاريخ القديم والحديث لبلاد آشور والجزيرة العربية ومصر وفلسطين وغيرها من المناطق التوراتية، وصرح رئيس لها وهو صاموئيل بيرش (Samuel Birch) بأن "هدفها الآثار وليس اللاهوت ولكنها ستحقق للاهوت هدفاً هاماً" (de vaux 1970,67-68). وتأسس على غرار هذه الجمعيات جمعيات غربية أخرى أهمها المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والأثرية التي أسسها الدومينيكان عام ١٨٩٠، وأنشأ الألمان جمعيتان: الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية عام ١٨٩٧ (Deutsch Orient Gesellschaft) والجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية عام ١٨٧٧.

باستثناء الجمعية الأمريكية للأبحاث الفلسطينية التي لم تعمر طويلاً وحل محلها عام ١٩٠٠ المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس، فقد تركز النشاط الأثري في فلسطين من خلال الجمعيات الآنفة الذكر وما يترتب على هذه الأعمال من نتائج أصبح مقروناً بما ورد ذكره في الكتاب المقدس وغدت حلقة التسلسل الزمني ترتكز على المعطيات والحوادث التوراتية. وحتى أن المصطلحات للفترات الزمنية أصبحت في الغالب مستمدة من التراث. وحاول أصحاب هذه المدارس الربط بين المواقع الأثرية وتلك التي

ورد ذكرها في التوراة، وكثيرا ما عرفوا هذه المواقع باسماء توراتية دون وجـــود دليـــل واضح واضح على تبرير هذه التسميات، وما يترتب عليها من تفسيرات. فعرفوا على سبيل المثال تل السلطان على أنه أريحا التوراتية (Jericho)، وتل المتسلم على أنـــه مجدو (Megiddo) وتل أبو شوشة بالقرب من تل الجزر على أنه جيزر (Gezer) وتل سيلون بأنه شيلو (Shiloh) وتل الدوير بأنه لخيش (Lachish)، وتل القدح بأنه حـــاتصور (Hazor)، والتل بأنه عي (Ai)، وبيتين بأنه (Bethel) ...إلخ.

وقد نشأ عن هذا الأسلوب في البحث الكثير من التشويش والمغالطات التي لا يسهل التخلص منها حتى الآن. وركز الباحثون في أعمالهم الميدانية ودراساتهم علـــى الفـــترات الزمنية التي اعتقدوا بأن لها علاقة بالتوراة، ولم يولوا اهتمامهم للفترات السابقة واللاحقـــة حتى أصبحت حلقة التسلسل التاريخي لعنصر في كثير من الأحيان علـــى (إســـرائيلي١، إسرائيلي٢، وإسرائيلي٣) وهكذا.

لقد كانت جمعية (أو صندوق) استكشاف فلسطين أكبر هذه الجمعيات في الميدان و اكثرها نشاطا. ويبدو أن لهذه الجمعية أهدافا أخرى بالإضافة إلى العـــامل التـــوراتي، إذ أخذت توفد مهندسين من الضباط العسكريين للقيام بأعمـــــال المســـح والتنقيـــب في فلسطين. مع أن المهام الملقاة على عاتق هؤلاء لم تكن ذات غايات علمية خالصة ولو بدا عليه ذلك في بعض الأحيان، إلا أن المعلومات التي دونوها تخدم الآثاريين والعسكريين في آن واحد. من هؤلاء الضباط تشارلز وارن (Charles Warren) الذي بدأ عمله في القـــدس عام ١٨٦٧ وكأنه يقوم بحفر خنادق عسكرية (Moorey 1981, 21) واستخدم مثل هـــذا الأسلوب أثناء الحفريات التي أجراها في تل السلطان (أريحا القديمة).

وفي عام ١٨٦٨ قامت مجموعة من سلاح الهندسة الملكية بإشراف ولســـون بـــإعداد مخطط لمدينة القدس بمقياس إنش للميل الواحد. وفي الفترة ما بين ١٨٧١-١٨٧٧ أشـــرف كل من الضابطين كوندر (C.R. Conder) وكتشنر (H.H. Kitchener) على عمليات مســـح منظمة كان من أهم نتائجها إصدار أول أطلس مضبوط لفلســـطين (Map of Western Palestine). يضم هذا الأطلس ستا وعشرين لوحة، ويتضمن تفاصيل طبوغرافية وســـكانية وزراعية، بالإضافة إلى أسماء المدن والقرى والمواقع الأثرية. والجدير بالذكر أن المواقع هنـــا مثبتة بأسمائها العربية قبل أن يدخل عليها التحريف والتغيير الذين طرأ فيما بعد. يرافق هـــذا الأطلس مجموعة مجلدات تتضمن وصفا مختصرا للمواقع وخاصة الأثرية منها. وفي الحقيقـــة فإنه لا غنى عن هذا الأطلس وما يرافقه من نصوص في الدراســـات الأثريـــة والتاريخيـــة والسكانية والجغرافية بالرغم ما تم إنجازه من خرائط وأعمال بعد صدروه.

في عام ١٨٩٠ أوفدت جمعية صندوق استكشاف فلسطين واحدا يعتبر من أبرز من عمل في الآثار الفلسطينية وهو السير فلندرز بيتري (Flinders Petrie)، وبدأ عمله في تل الحسي في جنوبي فلسطين وكان قبل ذلك قد اكتسب خبرة في التنقيب أثناء عمله في مصر. تمثل أعمال بيتري في تل الحسي أولى المحاولات لفصل الطبقات السكنية في موقع مرت عليه مراحل متعددة ومتعاقبة. كما أوجد تصنيفا سريعا للمكتشفات الأثرية من أواني فخارية وأدوات معدنية وحلي وأختام وتعاويذ وحاول تأريخها من خلال تصنيفها إلى مجموعات ومقارنتها بمكتشفات مصرية.

اتسمت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بإنشاء عدد آخر من الجمعيات والمدارس التي تعنى بالتوراة والآثار الفلسطينية في آن واحد، فتأسست في عام ١٨٩٢ المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والتوراة (L'Ecol pratique d'Etudes Biblique) ومركزها القدس، وما زالت تصدر مجلة دورية (Revue Biblique)، كما أنشأ الألمان جمعيتين، واحدة تعنى بالأبحاث الفلسطينية (Deutscher Verein zur Erforschung Palastinas) وبالاتفاق معها أنشأت الكنيسة البروتستانتية عام ١٩٠٢ المعهد البروتستانتي الألماني للدراسات التاريخية في الأرض المقدسة في مدينة القدس (Deutsches Evangelisches Institut fur Altertumswissenschaft Zeitschrift des deutschen). وصدر عنهما منذ البداية حولية تعرف باسم (Zeintschfift des duetschen Palastina-Vereins). أما الجمعية الثانية فهي الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية (Deutsche Orient-Gesellschaft) التي تأسست عام ١٨٩٨ برعاية القيصر الألماني وأخذت تنظم بعثات تنقيب لمختلف المناطق الشرقية بما في ذلك فلسطين. ففي الفترة ما بين ١٩٠١-١٩٠٤ أوكلت هذه الجمعية مهمة التنقيب في عدد من المواقع الأثرية إلى الباحث التوراتي ارنست سيلين (Ernst Sellin) الذي أشرف على التنقيب بمفرده، أو بالاشتراك مع شوماخر (Schumacher) في تل تعنك وتل المتسلم، كلاهما في مرج ابن عامر. رغم العثور على عدد من المكتشفات الهامة في الموقعين إلا أن منهج العمل الذي اتبع في التنقيب عنهما لم يكن يعتمد على أسس علمية. أما الحفريات التي أجراها سيلين في أريحا بمساعد المهندس الألماني كارل فاتسنجر (Carl Watzinger) في الفترة ما بين ١٩٠٧-١٩٠٩ تعتبر نقطة تحول في تاريخ البحث والتنقيب عن الآثار الفلسطينية. فظهرت نتائج التنقيب التي نشرت عام ١٩١٣ في مجلد خاص متضمنا وثائق بالصور والرسومات والمخططات وتفسيرات تفوق غالبية ما يعاصرها من أعمال ميدانية ودراسات (Sellin, Watzinger 1913).

في الوقت الذي كانت فيه التنقيبات الألمانية قام ستيوارت مكسا لستر (Stewart Macalister) بحفرياته في تل أبو شوشة (Gezer) بإشراف فردي وبدعم من صندوق استكشاف فلسطين. وطريقة مكالستر في التنقيب اشبه بعمل المقاولين، ففي ثماني سنوات (١٩٠٢-١٩٠٩) كشف عن أكثر من نصف الموقع حتى الصخر الطبيعي بالإضافة إلى ٢٥ مدفنا مستخدما بذلك عددا كبيرا من العمال المحليين. ونستنتج من المطبوعات الرئيسية الثلاث (GEZER I,II,III) أن عملية التوثيق لم تكن مضبوطة وقد أغفل طبقات رئيسية في الموقع، كما استعان برسومات وصور كثيرة لا تمت في كثير من الأحيان إلى الطبقات التي وجدت فيها. كما استعمل المنقب مصطلحات غير مبررة مثل "ما قبل الساميين" و"الساميين" عند تصنيفه للمكتشفات، وقسم اللقى التي نسبها للساميين إلى "سامي أول" و"سامي ثان" و"سامي ثالث" و"سامي رابع" (Semitic I-IV). والجدير بالذكر أن الجدول الزمني الذي اتبعه مكلستر وبليس (F.J. Bliss) في حفرياتهما في جنوبي فلسطين، وهي تل صندحنه، وتل الصافي، وتل زكريا، وتل جديدة، حتى عام ١٩٠٢ مبني على المعطيات التوراتية، وليس له علاقة بالشواهد الأثرية في هذه المواقع، ويظهر على النحو التالي:

عصر ما قبل الإسرائيليين المبكر حتى ١٥٠٠ ق.م

عصر ما قبل الإسرائيليين المتأخر ١٥٠٠-٨٠٠ ق.م

المرحلة اليهودية ٨٠٠ - ٣٠٠ ق.م

المرحلة السلوقية ابتداء من ٣٠٠ ق.م

استعمل الألمان سيلين وفاتسنجر خاصة في حفريات تل السلطان مصطلحات مماثلة أساسها التوراة: كنعاني، وإسرائيلي، ويهودي، ويهودي متأخر. اختلط الأمر على هؤلاء جميعا حتى أن بعض مكتشفات الألف الثالث والثاني ق.م نسبت إلى "الإسرائيليين" وأخرى من الألفين الثالث والثاني ق.م أطلق عليها مصطلح "يهودي" و"يهودي متأخر".

مع أن بعثة جامعة هارفرد في سبسطية (١٩٠٨-١٩١٠) بإشراف رايزنر (G.A. Reisner) المختص بالآثار المصرية بالاشتراك مع فشر (C.S. Fisher) لم تستطع التخلص من مصطلحات الجدول الزمني التوراتي، إلا أن عملهما تميز بأمرين رئيسيين جديدين في حقل الآثار الفلسطينية هما: أولا أن الحملات التنقيبية لا بد وأن تضم تخصصات مختلفة تتناسب وحجم الموقع وطبيعته، وثانيا أن الأساس في التنقيب هو تمييز وتوثيق التغيرات والمعالم المعمارية مع رسمها وتصويرها بشكل دقيق وإعدادها للنشر (Reisner 1924).

كانت مدينة القدس باستمرار محط أنظار الدارسين التوراتيين والطامعين في الكنوز الأثرية إلا أن كثرة المباني التاريخية في المدينة وخيبة الأمل التي أصابت الكثيرين منذ أن عمل فيها الكابتن الإنجليزي ورن عام ١٨٦٧ بسبب صعوبة ربط آثارها بالحوادث التوراتية أدى إلى فترة انقطاع عن التنقيب فيها. ويظهر أن السلطات العثمانية كانت حذرة من منح تصاريح للكشف عن المعالم المدفونة في المدينة حتى عام ١٩٠٩. في هذه السنة تمكن الكابتن الانجليزي باركر من الحصول على تصريح للعمل جنوبي منطقة الحرم الشريف، إلا أنه خدع المسؤولين الأتراك وأخذ ينقب ليلا في منطقة الحرم نفسه إلى أن اكتشفت السلطات أمره وتمكن من الهرب قبل صدور الحكم ضده (Albright 1974, 33-35).

في هذه الأثناء كانت المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية قد تأسست في القدس من قبل عدد من الجامعات ومعاهد اللاهوت الأميركية وعمل تشارلز توري (Charles C. Torrey) أول مدير لها عام ١٩٠٠ ولم تزاول هذه المدرسة نشاطها الميداني إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

فترة ما بين الحربين العالميتين ودور الصهاينة في الآثار الفلسطينية

لم تكن الفترة التي تلت عام ١٩٠٠ بما في ذلك سنوات الحرب العالمية الأولى حافلة بالنشاط الثري في فلسطين. أدت هذه الحرب إلى تراجع الامبراطورية العثمانية ووقوع فلسطين تحت السيطرة البريطانية التي اصبحت تقرر السياسة الثقافية في المنطقة بما في ذلك النشاطات الأثرية فيها. وفي عام ١٩٢٠ أنشأ المندوب السامي البريطاني هيربرت صموئيل (Herbert Samuel) دائرة للآثار الفلسطينية بإدارة جون جارستانغ (John Garstang) من جامعة ليفربول الذي اكتسب خبرة في التنقيب قبل ذلك في مصر والحبشة وشمالي سوريا. رحب العاملون في الآثار من البلدان الغربية باحتلال الانجليز لفلسطين ووجدوا من السلطة الجديدة جوا يساعدهم على تحقيق أهدافهم.

كان الانجليز قبل ذلك قد قطعوا للحركة الصهيونية وعد بلفور عام ١٩١٧ واستغل الصهاينة هذه الفرصة، وأخذوا يرسلون من أعضاء الحركة وممن يتعاطف معها إلى فلسطين لتوجيه المفهوم التاريخي بما يتفق وأهدافها التي منها تأسيس دولة من اليهود دون غيرهم، كما اتخذت الحركة الصهيونية من بعض الحقول العلمية وخاصة الآثار، واجهة تتستر من ورائها. كما أرادت من الآثار تبرير ما أسماه الصهاينة بالحق التاريخي المزعوم لليهود في فلسطين.

لم تكن الأهداف الصهيونية لتتعارض مع الدراسات التوراتية بأسلوبها التقليدي، وعلى العكس من ذلك فقد وجد الصهاينة الموفدون ترحيبا حارا من قبل دارسي التوراة من أمثال وليم أولبرايت الذي كان يراس المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٦، لقد رأى أولبرايت لزاما عليه توجيه المهتمين بالآثار من الصهاينة وأخذ يوزع عليهم واجبات محددة الأمر الذي لا يخفيه أولبرايت نفسه (Albright 1970, 58-60). ولا غرابة في أن يصدر الصهاينة فيما بعد مجلدا خاصا تخليدا لذكرى وليم أولبرايت يتضمن تقديما "لن يجد اليهود والإسرائيليون صديقا مثل ما وجدوا في وليم أولبرايت" (El 9, Albright volume). يضاف إلى ذلك أن المجال أصبح مهيئا للنشاط الصهيوني بعد الاحتلال البريطاني بما ينسجم ووعد بلفور.

من أبرز الآثاريين الصهاينة الذين قدموا إلى فلسطين بعيد الاحتلال البريطاني جوزيف كلاوزنر (Joseph Klausner) والعيزر بن يهودا (Eliezer Ben Yahuda) من أصل بولندي الذي قطع دراسته للطب وذهب إلى فلسطين وأصدر فيها جريدة باللغة العبرية لعدة سنوات بالإضافة إلى اهتماماته الأثرية. وأول حفريات يهودية أجراها ناحوم سلوش (Nahum Slouch) في موقع إلى الجنوب من طبرية اعتقد أنه يحتوي على كنيس يهودي. كان الصهاينة السابق ذكرهم يفتقرون إلى أي تدريب على الآثار والتنقيب عنها، وإنما اقتصرت وظيفتهم على جلب الاهتمام لما أسموه بالآثار اليهودية دون غيرها. كما أرسلت الحركة الصهيونية العيزر ليبا سوكنيك (Eliezer Lipa Sukenik) لدراسة الآثار الكلاسيكية في برلين وجاء إلى فلسطين عام ١٩٢٢ وبدأ عمله الميداني بحفر عدد من المدافن بالقرب من القدس والتحق ببعض الدورات والمساقات الأثرية في المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، ومن ثم أصبح محاضرا في الجامعة العبرية، فأستاذا إلى أن أصبح رئيسا لدائرة الآثار اليهودية في الجامعة نفسها. وقد دفع سوكنيك ابنه ييغائيل يادين الذي غير اسمه لدراسة الآثار، وكان ييغائيل هذا أول رئيس لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، إلى أن أصبح استاذا للآثار في الجامعة العبرية، وأشرف على عدد كبير من التنقيبات الأثرية، وأعلى منصب شغله نائب لرئيس الوزراء الإسرائيلي. وبعد ذلك جاء بنحامين مازار (Benjamin Mazar) الذي لجأ إلى فلسطين عام ١٩٢٨ بعد أن حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة جيسن (Giessen) الألمانية وشارك مع أولبرايت في حفريات تل بيب مرسيم ويعتبره أولبرايت من الذين أسسوا ما أسماه بالآثار الإسرائيلية (Albright 1970, 60) ومن هؤلاء أيضا شموئيل ييفين (Shemuel Yeivin) الذي أصبح فيما بعد أول مدير لدائرة الآثار الإسرائيلية، ومؤسسا لمتحف الآثار

الإسرائيلي بعد أن غدا متحف الآثار الفلسطيني في الجزء الشرقي من القـــدس. ومـــن الصهاينة البارزين من الجنسية الأميركية نلسون غلوك (Nelson Glueck) الذي حصـــل على الدكتوراه من جامعة يينا (JENA) الألمانية. التحق غلوك عــــام ١٩٢٨ بحفريـــات أولبرايت في تل بيت مرسيم، وبدأ مسوحات واسعة النطاق منذ عام ١٩٣٢ في شـــرقي الأردن التي عرف من خلالها. تدرب غلوك على أولبرايت وأصبح يتجـــول في المنـــاطق المختلفة حاملا التوراة في يده محاولا تفسير وتأريخ المواقع التي يتعرف عليها من خـــلال العهد القديم. كما قام بحفريات في خربة التنور وتل الخليفة بالقرب من خليج العقبة. بعد تجزئة فلسطين عام ١٩٤٨ كشف غلوك عن هويته، وانتقل إلى الجنوب مـــن فلســطين لإجراء دراسات سطحية في منطقة النقب (Wright 1970, 28-31).

والجدير بالذكر أنه تأسس لدائرة الآثار الفلسطينية منذ إنشائها عام ١٩٢٠ مجلـــس ضم عددا من الصهاينة وأنصارهم بمن فيهم وليم أولبرايت وجوزيف كلاوزنر وكـــان الأخير ممثلا لمصالح اليهود. ولم يكن بين أعضاء المجلس من يمثل المصالح العربية أو حـــتى يرعى شؤون الآثار العربية الإسلامية في فلسطين. وتأسس في نفس الوقت تقريبا دائـــرة للآثار الأردنية بإدارة إنجليزية أيضا.

زادت النشاطات الأثرية بعد الحرب العالمية الأولى بشكل ملحوظ. ومع أن علمـــاء اللاهوت يسيطرون على العمل الميداني في فلسطين، إلا أنه ظهرت التيارات النـــاقدة أو المناهضة لأسلوب التوراتيين التقليديين في العمل، لا يتسع المجال هنا لسرد جميع الأعمـــال والدراسات الميدانية أو تصنيفها، لذا سنعرض أهم النشاطات، وأهميتها في تاريخ البحـــث الذي نحن بصدده.

كانت القدس محط أنظار المنقبين، وكلما انتهت بعثة من التنقيب فيها زاولت بعثـــة أخرى حتى الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٢٣-١٩٢٤ أشرف فيل (R. Weill) علـــى الحفر في الهضبة الجنوبية الشرقية من المدينة، وعمل في الوقت نفسه (١٩٢٣-١٩٢٥) في السفح الشرقي من الهضبة كل مـــن ماكلســـتر (R.A.S. Macalister) ودانكـــن (J.G. Duncan). ونقب في السفح الغربي منها (١٩٢٧-١٩٢٨) كروفـوت (J.W. Crowfoot) وفتسجيرالد (G.M. Fitzgerald) بينما تركزت حفريات سوكينك (E.L. Sukenik) ومـــاير (L.A. Mayer) في الفترة ما بين ١٩٢٥-١٩٢٧ ومن ثم عام ١٩٤٠ في الجزء الشـــمالي خراج سور المدينة القديمة بحثا عن الأسوار "التوراتية". أما هاملتون (R.W. Hamilton) فقد كشف عام ١٩٣٠ ومن ثم ١٩٣٧-١٩٣٨ عن أجزاء من المنطقة الممتدة لمحاذاة الســـور الشمالي الحالي عند باب العمود وإلى الشرق منه. وأشرف جونـــز (C.N. Johns) علـــى

حفريات القلعة في الفترة ما بين ١٩٣٤-١٩٤٠. ويظهر أن أعمال التنقيب في القدس قد توقفت لمدة تزيد عن عشرين عاما إلى أن واصلتها ١٩٦٢-١٩٦٧ كاثلين كنيون (K. Kenyon) بالاشتراك مع رولاند ديفو (R. de vaux) في الهضبة الجنوبية الشرقية فوق منطقة عين سلوان، وفي المرستان، وحي الأرمن، وباب العمود. ومنذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ والحفريات تجري على قدم وساق وباستمرار في مناطق متعددة من المدينة للكشف عن المخلفات الأثرية التي يحاول الإسرائيليون ربطها بالتوراة، خاصة بعد أن عجزت بعثات التنقيب السابقة من إظهار ما يطمعون فيه. ومن هذه الحفريات تلك التي قام بها مازار (B. Mazar) وعميران (A. Amiran) وايتان (E. Eitan) وكذلك افيجاد (N. Avigad) وافي يوناح (M. Avi- Yonah)، وباحات (D. Bahat)، وبروشي (M. Broshi)، وغيرهم. ومع أن حفريات المحتلين شملت مناطق مختلفة إلا أن تركيزهم كان حول منطقة الحرم الشريف مما استفز مشاعر المسلمين والعلماء والمؤسسات المعنية بالتراث الإنساني، خاصة وأن بعض هذه الحفريات غير المشروعة كانت تتطلب إزالة آثار عربية إسلامية وغيرها أو تهددها بالسقوط.

لقد كانت حفريات عسقلان (١٩٢٠-١٠٢١) أولى أعما ل التنقيب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى والتي أشرف عليها جارستانغ (J. Garstang) وفيثيان آدمز (Phythian - Adams). كشفت هذه الحفريات عن مخلفات هامة في الألف الثاني وحتى العصور العربية الإسلامية، وتميز الموقع بوجود مكتشفات فلسطينية (Philistine) من النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد (Garstang 1921; Garstang 1922; Phythian-Adams 1923).

في عام ١٩٢٧ عاد فلندرز بيتري للعمل في فلسطين بعد غياب طويل وقام بالتنقيب عن عدد من المواقع الجنوبية من فلسطين مثل تل العجول بالقرب من غزة وتل الفارعة الجنوبي وتل الجمة. ولقد كان من بين محاولات بيتري إيجاد العلاقات المصرية بفلسطين عبر قرون طويلة. (Petrie 1928; Petrie ١٩٣٠).

واتجهت بعثة بريطانية أخرى لمواصلة أعمال التنقيب (١٩٢٩-١٩٣٦) في أريحا (تل السلطان) بإشراف جارستانغ (Garstang 1948). وكشفت هذه الحفريات معلومات جديدة وهامة بالنسبة للمراحل السكنية القديمة ابتداء من العصر الحجري الحديث، إلا أن غموضا اكتنف تسلسل الطبقات في الموقع وخاصة بما يتعلق بالمراحل المتأخرة ابتداء من العصر البرونزي المتأخر وحتى أواخر العصر الحديدي. هذا وقد اتضحت أمور كثيرة من خلال الحفريات المنظمة التي أشرفت عليها كاثلين كنيون في سنوات ١٩٥٢-١٩٥٨.

وأجرت بعثة بريطانية أخرى حفريات (١٩٣٢-١٩٣٨) في موقع تل الدوير (Lachish) في منتصف الطريق تقريبا بين غزة والقدس، بإشراف ستاركي (J.L. Starkey) الذي اغتيل عام ١٩٣٨ قبل الانتهاء من أعمال التنقيب، وقام بعد ذلك عدد من المشاركين بالعمل بنشر النتائج في أربع مجلدات (Lachish I-IV). وبقي العمل الميداني بعيدا عن الموقع إلى أن تابعه (١٩٦٦-١٩٦٨) أهاروني (Y. Aharoni)، ومن بعده منذ عام ١٩٧٣ أوسشكين (D. Ussishkin).

وهناك بعثة بريطانية أميركية شاركت فيها الجامعة العبرية في موقع سبسطية (SAMARIA) إلى الشمال الغربي من نابلس لتواصل العمل الذي بدأته جامعة هارفارد (١٩٠٨-١٩١٠). استمر عمل البعثة بمساعدة كاثلين كنيون (K. Kenyon) وسوكينك (E.L. Sukenik) كممثل عن الجامعة العبرية. وفي عام ١٩٦٨ واصل بازل هنسي (B. Hennessy) العمل في الموقع نيابة عن المدرسة البريطانية للآثار في القدس.

وجهت المؤسسات والجامعات الأميركية اهتماما أكبر بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبحت تنظم بعثات لتعمل على نطاق أوسع كما هو الحال في المواقع التالية:

١ ـــ حفريات جامعة بنسلفانيا في بيسان: تمثل هذه أحد حملات التنقيب الرئيسية في فلسطين تقوم بها جامعة أميركية، وقد أشرف على إدارتها فيشر (C.S. Fisher) في السنين الأولى (١٩٢١-١٩٢٣)، وتعاقب عليها روي (A. Rowe) يساعده فيتسجيرالد (G. Fitzgerald) في الفترة ما بين ١٩٢٥-١٩٢٨، وواصل فيتسجيرالد الإشراف عليها على نطاق أضيق في سنوات ١٩٣٠ - ١٩٣١ و١٩٣٣. وكشف الحفريات عن ثماني عشرة طبقة في التل الرئيسي بالإضافة إلى عدد من المدافن. تمثل هذه مراحل سكنية تمتد من العصر الحجري الحديث وحتى المرحلة الصليبية.

٢ ـــ حفريات جامعة شيكاغو في تل المتسلم (مجدو): نظم هذه البعثة جيمس هنري برستيد (J,H. Breasted) من معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو الأميركية. وقومت على أسس مختلفة عن حملات التنقيب الأميركية الأخرى. جاءت هذه البعثة من منطلقات تتفق ومفهوم برستيد المنافي للمفاهيم والأهداف التوراتية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. لقد أكد القائمون على البعثة على ضرورة تتبع الطبقات في المواقع ودراسة كل طبقة بعد توثيق جميع التغيرات فيها. استمر عمل البعثة (١٩٢٥-١٩٣٩) بإشراف فيشر (C.S. Fisher) وجاي (P.L.O. Guy) وتوقفت بسبب الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من العديد من الملاحظات فإن المطبوعات والتقارير الصادرة عن معهد الدراسات الشرقية منسجمة مع منهج وأسلوب متطورين في العمل الميداني في فلسطين. كما تدلنا هذه

النتائج على طريقة أكثر موضوعية في توثيق المكتشفات ومعالجة جميع المراحل الزمنية التي نشرت عن الموقع، وحسبما أبرزها الحفريات سواء بسواء، إلا أن هذه الطريقة الأميركية اقتصرت على بعثة جامعة شيكاغو، و لم يتعداها إلى البعثات من جامعات أميركية أخرى.

٣ ــ حفريات المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في تل بيت مرسيم: يلتصق اسم وليم أولبرايت (W.F. Albright) بحفريات تل بيت مرسيم إلى الجنوب الغربي من الخليل التي استمرت تحت إشرافه لأربعة مواسم بين سنوات ١٩٢٦-١٩٣٢. كان أولبرايت قبل ذلك قد تدرب على الحفر في ادر وباب الذراع بالقرب من الكرك، ورغم أنه كان واسع الاطلاع على اللغات القديمة وتصنيف الفخار، إلا أن منهجه في العمل وتفسيره للمكتشفات ومنطلقاته التوراتية قد تعرضت لنقد شديد. لم تتضمن تقاريره عن حفريات تل بيت مرسيم رسما مقطعيا يبين فيه تسلسل الطبقات في منطقة أو مربع معين، كما يبدو واضحا أن أولبرايت يحاول تفسير الطبقات من خلال المعلومات والحوادث التوراتية، ولا يعتمد هذا التفسير على الشواهد والمتغيرات الأثرية نفسها. والخطأ الرئيسي عند أولبرايت كان محاولاته المستمرة تفسير الحوادث التوراتية والبرهنة على صحتها من خلال الآثار.

٤ ــ حفريات المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في تل النصبة: في الوقت الذي كانت فيه حفريات تل بيت مرسيم استمرت حفرات تل النصبة شمالي القدس (١٩٢٦-١٩٣٥) بإشراف ماكون (C.C. Macown) الذي اتبع أسلوب أولبرايت التوراتي في التنقيب.

واصلت المدرسة الأمركية للأبحاث الشرقية في القدس أعمال التنقيب في عدد من المواقع الأثرية حيث اعتقد دارسو التوراة أن لها علاقة بالمواقع التوراتية. من هذه المواقع: خربة الطبيقة (Beth-Zur) على طريق القدس ــ الخليل حيث بدأ العمل عام ١٩٣١ بإشراف سلرز (O.R. Sallers) ووليم أولبرايت (W.F. Albright) وواصل سلرز التنقيب في الموقع عام ١٩٥٧. كما بدأ أولبرايت التنقيب في بيتين (Bethel) سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك أجرى كيلسو (J.L. Kelso) ثلاثة مواسم في سنوات ١٩٥٤، ١٩٥٧، ١٩٦٠. وفي الوقت الذي أجرى فيه نلسون غلوك (Nelson Glueck) مسوحاته الأثرية لشرقي الأردن (١٩٣٣-١٩٤٦) أشرف على حفريات المعبد النبطي في خربة التنور في وادي الحسا وأخرى في تل الخليفة (Ezion - Gober) في الفترة ما بين ١٩٣٧-١٩٤٠. يسيطر على هذه الأعمال الميدانية أسلوب ومنهج التوراتيين خاصة المتعصبين منهم من أمثال وليم أولبرايت وتلامذته.

ويتبين من النشاطات الأثرية المبينة أعلاه أن غالبية الأعمال الميدانية قد أجريت من قبل بعثات بريطانية وأميركية، إلا أن بعض هذه الأعمال لنجزتها بعثات تمثل جنسيات أخرى. من بين هذه البعثات بعثة المعهد التوراتي بروما (Pontifical Biblical Institute) في موقع تليلات الغسول في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الميت بإشراف مالون (A. Mallon) وكوبل (R. Kocppel) ونويفيل (R. Neuville). اكتسبت الحفريات في تليلات الغسول (١٩٢٩-١٩٣٨) أهمية خاصة بسبب طبيعة المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها، وتبين فيما بعد أنها تسبق حضارة العصر البرونزي القديم وقد أمكن اتباعها إلى العصر الحجري النحاسي وأصبحت مكتشفات معاصرة في كثير من الأحيان تنسب إلى حضار غسول. وفي عام ١٩٦٠ واصل المعهد التوراتي المذكور عمله لموسم واحد بإشراف الأب نورث (R. North). وعمل فيه بازل هنسي (B. Hennessy) لعدة مواسم (١٩٦٧-١٩٧٨) نيابة عن المدرسة البريطانية للآثار في القدس ومن ثم جامعة سدني الأسترالية.

في عام ١٩٣٢ عادت بعثة ألمانية لمواصلة العمل في تل بلاطة (Sichem) بإشراف سيلين (E. Sellin) وشتيكافيه (H. Steckaweh) وفلتر (G. Welter)، ولم يسفر عمل هذه البعثة عن نتائج هامة بسبب خلاف حاد بين المشرفين عليها. وبقيت أمور كثيرة غامضة في الموقع إلى أن قامت بعثة أميركية بتنظيم بعثة (١٩٥٦-١٩٦٩) على نطاق واسع بإشراف أرنست رايت (G.E. wright) ومن ثم (١٩٧٢-١٩٧٣) بإشراف وليم ديفر (W.G. Dever).

مع أن الفرنسيين كانوا قد ركزوا نشاطهم الأثري في شمالي سوريا خلال فترة ما بين الحربين إلا أنهم نظموا حملة للكشف عن آثار التل (Al) بالقرب من دير دبوان بإشراف السيدة جودت ماركوت - كراوزة (Judith Marquet- Krauze) إلا أن العمل توقف بعد ثلاثة مواسم (١٩٣٣-١٩٣٥) بسبب وفاة المشرفة. وبعد ذلك بفترة طويلة (١٩٦٤) تم تنظيم بعثة أميركية ـــ بريطانية بإشراف جوزيف كلاواي (J. Callaway) الذي جاءت نتائج أعماله متقاربة مع تلك التي حصلت عليها ماركوت ـــ كراوزه من حيث تمييز الطبقات الرئيسة وتتابعها في الموقع.

مفاهيم جديدة في البحث والتنقيب عن الآثار

ظهر من بين أصحاب المدرسة التوراتية تيار ناقد ممثل في علماء التوراة الألمان أمثال البرشت ألت (Albrecht Alt) ومارتن نوث (Martin Noth) الذين حذروا من الربط بين

الآثار والتوراة باي ثمن وأن الموضوع أكثر تعقيدا مما تصوره التوراتيون الأميركان وخاصة أولئك الممثلين في وليم أولبرايت وأتباعه (Noth 1971, 3-16). واتبع مثل هذا المنهج الأب الفرنسي رواند ديفو (de vaux 1970, 64-78) الذي صرح بأنه «لا يمكن فهم الآثار للبرهنة على صحة التوراة، وأن لكل من الآثار والتوراة منهجا مختلفا في البحث عن الآخر». ومه أن هانك فرانكن الهولندي جاء من خلفية دينية توراتية إلا أنه غدا من كبار نقاد الآثاريين التوراتيين، وأعلن أنه لا يجوز المزج بين الآثار وأعمال التنقيب من جهة، والتفسير التوراتي من جهة أخرى (Franken 1970).

بالإضافة إلى بعثة جامعة شيكاغو في تل المتسلم التي ورد ذكرها، هنالك ظاهرة جديدة لدى الآثاريين الانجليز برزت منذ أن تم تأسيس معهد الآثار التابع لجامعة لندن والذي كان يرأسه جوردن تشايلد (Gordon Childe) الذي رفض مثل هذا الأسلوب التقليدي في البحث، وأكد على أهمية البحث عن الآثار على أساس المادية التاريخية كمنطلق للتطور الحضاري، وضرورة تكريس جميع الوسائل العلمية للكشف عن الآثار ومعالجتها من خلال وظيفتها وإطارها العام المرتبط بطبيعة المجتمع الذي وجدت فيه. وقد أثر جوردن تشايلد على عدد من تلاميذه مثل كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) لاتباع مثل هذه الطريقة المتقدمة في البحث الأثري، وكان للأخيرة نشاط بارز في حقل الآثار الفلسطينية يتميز عن من عاصرها في دقة الحفر، ورغم أن تطلعاتها في الآثار بقيت في إطار التفكير المثالي إلا أن تحذيرها من الوقوع في خطأ الربط بين الحفريات الأثرية والحوادث التوراتية له أهميته وتأثيره على عدد من تلامذة كنيون الذين ما زالوا يعملون في هذا المجال.

بقاء المنهج التوراتي غالبا وأهمال الآثار العربية الإسلامية

بعد هذا الاستعرض السريع يتوجب القول أن الأسلوب التقليدي في البحث والتنقيب بقي مسيطرا، رغم دخول عناصر جديدة كان لها تأثيرها على تغيير بعض مفاهيم التطور الاجتماعي والتاريخي، مضافا إليها وسائل التنقيب الحديثة وتراكم المكتشفات الأثرية التي أرغمت العديد من العاملين في الآثار الفلسطينية والشرقية القديمة على إلقاء ضوء جديد على حلقة التسلسل التاريخي، إذ أصبح من غير الممكن التمسك بالتقسيمات الحضارية التي أرادها أصحاب المدرسة التوراتية، وأصبح هنالك اهتمام نسبي بالعصور التي سبقت النصف الأول من الألف الثاني ق.م ابتداء من العصور الحجرية، إلا أن الموسسات والجمعيات التقليدية ظلت تحتكر البحث والتنقيب إلى حد بعيد، وظلت

تربي أجيالا تسير على الطريقة القديمة وأصبحت المواقع التي عاصرت فترات ما قبل التاريخ وحتى العصور البرونزية تعاني من قبل هؤلاء. وكثيرا ما قاست هذه المخلفات الحضارية من تفسيرات خاطئة، إذ كثيرا ما أجريت محاولات للربط بينها وبين ما أسمي بالفترة التوراتية، خاصة بعد أن غدا حقل الآثار الفلسطيني مفتوحا على مصراعيه أمام المنظمات الصهيونية، وأخذت تخطط بشكل منظم لخلق صورة تاريخية تتفق وأهدافها العدوانية والعنصرية، والتي أصبحت تعمل مع المؤسسات الغربية لتحقيق ما تريده. ولم تحظ المخلفات الحضارية العربية باهتمام يذكر. أما زحف هذه المنظمات والذي مما لا شك فيه أنها كانت تهدف إلى خداع الرأي العام العالمي بضعف أو حتى عدم تواجد أسس للحضارة العربية في فلسطين، فكثيرا ما أخفيت مخلفاتها في تقارير المنقبين أو أنها ذكرت على هامش هذه التقارير. ولسوء حظ هذه الحضارة أنه لم توجد طوال هذه الحقبة الطويلة مؤسسة عربية واحدة ترعى شؤون الآثار العربية في فلسطين، حتى السجلات والتقارير تكاد تخلو من أسماء عربية تهتم بهذا الأمر. رغم أننا لسنا من أنصار ممارسة تاريخ الأمجاد، إلا أنه للموضوعية يتوجب القول أن جو البحث الأثري كان قاسيا جدا على الحضارة العربية ومهيئا، بل مركزا لخدمة غايات دينية وعسكرية أولا، ومن ثم أهداف سياسية صهيونية استعمارية تم التخطيط لها بحنكة وعلى نطاق واسع.

النشاط الأثري بعد الاحتلال الصهيوني لعام ١٩٤٨

وما أن جاءت سنة ١٩٤٨ بانسحاب قوات الانتداب البريطاني عن المنطقة التي خلقت فيها إسرائيل ضمن الحدود التي سبقت عدوان ١٩٦٧ حتى أنشئت دائرة الآثار الإسرائيلية، ومعها العديد من المعاهد الجامعية والجمعيات التاريخية والأثرية التي أخذت على عاتقها القيام بالنشاط الأثري والتاريخي بشكل أوسع ضمن الإطار الثقافي للنظام الإستيطاني العنصري الجديد الذي أصبح بمقدوره انتقاء المعاهد والمؤسسات الغربية التي تسير موازية لهذا التيار، وأخذت تفرض على البعثات الأثرية التي تستغني الآن عن تعدادها أسلوب التنقيب والنتائج المترتبة عليه.

ومما يلفت النظر أن جميع المواقع الأثرية في فلسطين أخذت تحمل أسماء عبرية لإبعاد الصبغة العربية عنها لتربط بالتاريخ الإسرائيلي. وأصبح كل موقع تقريبا يمثل بطولات وأمجاد أو محنة لليهود من أجل تقوية الروح العنصرية وجلب المزيد من المهاجرين من ناحية ومحاولة كسب عواطف الرأي العام الغربي من ناحية أخرى. فلا عجب إذا قيل بأن الآثار كما تفهمها الصهيونية مدرجة في إسرائيل ضمن مادة ما يسمى بالتربية الوطنية.

إن نظرة سريعة على تقارير الحفريات والمكتشفات الإسرائيلية، وكذلك المطبوعات الأثرية العامة تسترعي الانتباه بأن نتائج الحفريات التي أجريت في المواقع القديمة تظهر تحت مقالات وملاحظات قصيرة، خاصة إذا ما قورنت بالمواقع المصنفة تحت اسم "توراتي" والتي يجري نشرها بشكل مبالغ فيه وبلغات متعددة، وبصورة أوضح فإن الغالبية العظمى من هذه المطبوعات التي تضاهي بجودة طباعتها وصورها، وأسلوب نشرها المطبوعات الغربية، تظهر وكأنها تربط تاريخ أمجاد اليهود بأهداف الحركة الصهيونية والكيان الإسرائيلي وغدا أسلوب البحث الأثري يتضمن بوضوح النوايا العدوانية لإسرائيل، وتبرير سياسة التوسع الصهيوني بحجة إنقاذ الآثار اليهودية التي لا يستطيع أحد تحديد المنطقة التي تتواجد فيها.

بهذا النهج المتطرف في الاثار وخلطها بالسياسة الصهيونية والحياة اليومية في إسرائيل، يستحيل على الإنسان أن يطلع على تقرير أثري دون أن يكون منسوجا بالدعاية والفلسفة الصهيونية التي تقف سدا أمام الناشئين من الآثاريين العاملين لدى إسرائيل ويرفضون المفهوم الصهيوني في كتابة التاريخ.

ومن الناحية الأخرى لم يكن بين العرب إلا قلة قليلة تهتم بالآثار الفلسطينية وظلت دائرة الآثار في الجزء المتبقي من فلسطين، الذي انضم إلى شرقي الأردن بعيد تأسيس الكيان الصهيوني في ايدي الانجليز الذين استمروا في مقاومة الوطنية و لم يكن حتى نهاية الخمسينات من الفلسطينيين والأردنيين إلا بضعة أشخاص يستطيعون ممارسة البحث والتنقيب الأثري، وفي ظل إدارة الآثار الانجليزية ظل الآثاريون الغربيون التقليديون وخاصة التوراتيون منهم، هم الذين يقومون بأعمال التنقيب والبحث حتى في الجزء غير المحتل من فلسطين وكثيرا ما كانت تقاريرهم ونتائج حفرياتهم مغرضة ومعادية للعرب.

إعداد الكوادر ومرافق البحث الأثري في الأردن

بقيت دائرة الآثار الأردنية التي تأسست عام ١٩٢٣ تدار من قبل الانجليز وعلى رأسها لانكستر هاردنج (Lankester Harding) حتى عام ١٩٥٦. ولم يكن في خطة هذه الدائرة إعداد كفاءات وطنية متخصصة في الاثار، وكانت نشاطاتها حكرا على الأجانب. وفي عام ١٩٥٦ تولى سعيد الدرة إدارة الآثار كأول مدير أردني لها يساعده الدكتور عوني الدجاني الذي تسلم إدارتها لعشر سنوات منذ عام ١٩٥٨. لقد أدرك عوني الدجاني ومساعده محمود العابدي ضرورة تدريب كفاءات عربية وساهما في إيفاد عدد من الشبان

المهتمين بالآثار في بعثات دراسية إلى معاهد متخصصة في أوروبا وأميركا الشمالية. وعاد هؤلاء للعمل في دائرة الآثار أو في قسم الآثار في الجامعة الأردنية وقاموا بعدد من الأبحاث والدراسات الميدانية. منذ وفاة عوني الدجاني عام ١٩٦٨ أصبح عدنان الحديدي عام ١٩٧٧ أول مدير عام للآثار متخصص في هذا الحقل بعد أن تولى هذه الإدارة عدد من غير المتخصصين. ومن الذين انضموا إلى دائرة الآثار بعد أن أنهوا دراستهم: معاوية ابراهيم (١٩٧٠) الذي انضم فيما بعد إلى جامعة اليرموك ليدرس الآثار القديمة فيها مع عدد من الزملاء منهم سعد أيوب وزيدان كفافي، وغيرهم من جنسيات أميركية روبرت جوردن وجاري رولفسون وسكوت رولستون. وكان قبل ذلك بوقت طويل، أي منذ تأسيس الجامعة الأردنية عام ١٩٦٢ قد أنشئ قسم للتاريخ والآثار برئاسة عبد الكريم غرايبة، ومن ثم أصبح قسم الآثار مستقلا التحق به عدنان الحديدي ومحمود أبو طالب وعاصم البرغوثي، وخير ياسين، وصفوان التل، ونبيل خيري، وعبد الجليل عمرو، ولطفي خليل، وصبري عبادي، كما انضم إلى دائرة الآثار فوزي زيادين، وغازي بيشة وزاهدة صفر وعدد من ذوي الاختصاص الفنيين. لقد أصبح بمقدور هذه المؤسسات الوطنية القيام بأعمال التنقيب والدراسات وغدا المجال مفتوحا أمام المهتمين من الطلبة لدراسة الآثار في كل من عمان واربد.

وتجدر الإشارة هنا بأنه تم افتتاح مركز للآثار الفلسطينية عام ١٩٨٢ في دمشق يديره شوقي شعث، وبدأ هذا المركز عددا من النشاطات بما في ذلك إنشاء مكتبة متخصصة، وإصدار المطبوعات والنشرات المتعلقة بالآثار الفلسطينية، وكذلك استضافة الندوات والمحاضرات. وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلم، قد عقدت عام ١٩٨٠ الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية في حلب بالإشتراك مع منظمة التحرير الفلسطينية وجامعة حلب. كما أعدت دائرة الآثار الأردنية مؤتمرين لآثار وتاريخ الأردن عقد الأول عام ١٩٨٠ في أكسفورد، وتناول موضوعات مختلفة منذ أقدم العصور حتى العهد العثماني، بينما عقد الثاني عام ١٩٨٣ في عمان وله موضع محدد في الآثار والبيئة.

بعد الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية والأراضي العربية الأخرى قامت بعض مراكز الآثار الأجنبية المقيمة في القدس بفتح فروع لها في عمان مثل: المركز الأميركي للأبحاث الشرقية ـــ القدس، وكذلك المدرسة البريطانية للآثار والمعهد الألماني البروتستانتي للأراضي المقدسة. كما فتحت مراكز أو معاهد صغيرة تتبع كلا م فرنسا وإيطاليا وبلجيكا. والغرض الرئيسي لهذه المراكز تسهيل الدراسات والأعمال الميدانية الأثرية التي تقوم بها هذه البلدان، مع أن المؤسسات الوطنية

أصبحت تقوم بأعمال ميدانية ودراسات أخرى تتعلق بالنقوش والفن القــديم، إلا أن نشاط المراكز الأجنبية والمؤسسات أو الجامعات التي تدعمها بقي غالبا.

العصور الحجرية في فلسطين

تعتبر مرحلة العصور الحجرية أطول مرحلة مر بها الإنسان، إذ تبدأ منذ بدأ الإنسان الأول يصنع أدواته الحجرية التي عثر على أقدمها في منطقة أولدفان (Oldwan) في شرق أفريقيا ووجد أنها تعود إلى حوالي ما قبل المليوني سنة (Bar-Yousef 1980:105) وتنتهي بمعرفة الإنسان للكتابة، وكان ذلك في الألف الرابع قبل الميلاد.

في دراستنا لعصور ما قبل التاريخ نعتمد في جزء كبير منها على الدراسات الجيولوجية. فقد استطاع الجيولوجيون التعرف على عدة أزمنة جيولوجية هي الإيوسين والأوليكوسين والميوسين والبلايوسين والبلايستوسين وأخيرا الهولوسين، وهي التي تمثل الفترة التي نعيش فيها. هذه الفترات تضمنت عصورا جليدية هي جنس "Guens" ومندل "Mindel" ورس "Ress" وفيرم "Wurm" تخللتها فترات دافئة تدعى بالمطيرة "Pluvial Period".

إن الاهتمام بدراسة مخلفات إنسان ما قبل التاريخ قد بدأت في بداية هذا القرن ومن قبل علماء الآثار الأوروبيون والأمريكيون. لكن الدراسة الفعلية لهذه المخلفات لم تتم بشكل عليمي وجيد إلا في الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وكانت على يد مجموعة من الأشخاص أمثال (D. Gerrod) و R. Neuville و A. Rust و M. Stekelis وآخرون. وقد وضع لنا هؤلاء من خلال حفرياتهم ومسوحاتهم الأثرية إطارا لدراسة فترات ما قبل التاريخ.

كذلك فإننا غالبا ما نستعمل نفس الطرق والأساليب في تصنيف الأدوات والاصطلاحات والتسميات التي استعملوها في أبحاثهم الأثرية في أوروبا أثناء دراستنا لمخلفات هذا الإنسان الأول في بلاد المشرق. فعلى سبيل المثال نجد أن اصطلاح "Palaeolithic" قد أطلق على الأدوات الصوانية الصغيرة التي تعود لفترة البلايستوسين، واسم "Mesolithic" على الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم المصنوعة في فترة الهولوسين.

وأخيرا اصطلاح "Neolithic" والذي أطلق على الأدوات الصوانية في مرحلة الهولوسين أيضا، سواء أكان ذلك في مرحلة ما قبل اكتشاف الفخار أو بعده، علما أن توصل إلى معرفة صناعة الأدوات الفخارية في منتصف هذه الفترة.

وكما ذكرنا أعلاه فقد اعتبرنا أن التوصل إلى معرفة الكتابة في الألف الرابع قبل الميلاد في كل من بلاد الرافدين ومصر هو الحد الفاصل ما بين فترتين مختلفتين هما ما قبل التاريخ والفترات التاريخية. وبما أن حديثنا هنا سيتركز على فترات ما قبل التاريخ فإننا سنبدأ بالحديث عن المرحلة الأولى للإنسان الأول، والتي كان فيها إنسانا صيادا وجامعا للقوت.

العصر الحجري القديم "PALAEOLITHIC" (١،٥٠٠،٠٠٠-٨،٠٠٠ ق.م)

يصعب علينا حتى الآن ذكر رقم دقيق لأقدم مكتشفات هذا العصر رغم التطور الملحوظ الذي تشهده دراسة مكتشفات ما قبل التاريخ لنلقي أضواء جديدة على حياة إنسان العصر الحجري القديم، إذ أن المادة التي يتعامل معها الدارسون محدودة للغاية وذات طبيعة خاصة. إن أهم ما يميز هذه الفترة الطويلة من حياة الإنسان أنه عاش متنقلا جامعا لقوته الضروري لإبقائه على قيد الحياة. بقي هذا الإنسان في غالب الأمر بعيدا عن الأمن ويعيش بلا وقاء مع أنه لجأ أحيانا إلى الكهوف الصخرية ليقي نفسه فيها وأوضح مثال على هذا هو كهوف جبل الكرمل في فلسطين.

وعلى الرغم من التجانس النسبي في المكتشفات طوال هذا العصر فإن العاملين في الآثار وعلماء ما قبل التاريخ يحاولون وضع تسلسل زمني من خلال أنماط الحيلة البدائية واللقى الصوانية، وبقايا العظام الحيوانية والبشرية. ويبدو أن السبب الرئيس لوجود هذه الكميات الكبيرة من الأدوات مرجعه إلى تراكمها في ترسبات البحار والأنهار والتي، بالإضافة إلى هذه الأدوات، حوت بقايا نباتية وحيوانية. ويعتمد العلماء في تأريخ مكتشفاتهم من أدوات العصر الحجري القديم على التطور البيئي الذي طرأ على الأدوات الصوانية وعلى طريقة الكربون المشع (C14) الذي يمكن تطبيقه على المواد العضوية مثل النباتات والعظام. أما أحدث طريقة استخدمت لتأريخ آثار ما قبل التاريخ فهي طريقة بوتاسيوم أركون (K/Ar) والتي تمتاز بقدرتها على التاريخ حتى ولو كان بملايين السنين،في في حين أن طريقة

الكربون المشع لا تستطيع أن تسجل تاريخا يزيد على ثمانين ألف سنة مضت (National Geographic Magazine 1961: 546-592).

وعلى هذا الأساس فلقد استطاع علماء الآثار وما قبل التاريخ تقسيم فترة العصر الحجري القديم إلى أربع مراحل متعاقبة هي:

١ ـ العصر الحجري القديم المرحلة الأولى "الأسفل" (Lower Palaeolithic).
حوالي ١،٥٠٠،٠٠٠ ـ ١٠٠،٠٠٠ ق.م.

٢ ـ العصر الحجري القديم المرحلة الثانية "الأوسط" (Middle Palaeolithic)
حوالي ١٠٠،٠٠٠ ـ ٤٠،٠٠٠ ق.م.

٣ ـ العصر الحجري القديم المرحلة الثالثة "الأعلى" (upper - Palaeolithic)
حوالي ٤٠،٠٠٠ ـ ١٧،٠٠٠ ق.م.

٤ ـ العصر الحجري القديم المرحلة الأخيرة (Epi-palaeolithic).
حوالي ١٧،٠٠٠ ـ ٨،٠٠٠ ق.م.

العصر الحجري القديم المرحلة الأولى (Lower Palaeolithic):

عثر على معظم المخلفات التي تعود إلى هذه الفترة في منطقة حفرة الانهدام الآفرو ـ آسيوية، والتي تبدأ من سهل العمق بشمالي سوريا مارة في سهل البقاع وغور الأردن ووادي عربة ثم البحر الأحمر إلى أفريقيا. إن التكوين الجيولوجي لمنطقة حفرة الانهدام جعل من العسير علينا العثور على مواقع محفوظة بحالة جيدة، وتعود لفترة البلايستوسين الأسفل والأوسط. فعلى سبيل المثال نجد أن معظم المنطقة السفلى لوادي الأردن مغطاة ببقايا نباتية وحيوانية تعود في أصولها لبحيرة البلايستوسين الأعلى، والتي تشكلت في تلك الفترة والمعروفة باسم اللسان (Yousef 1980:105 Bar). بل وأكثر من هذا فإن معظم المناطق الواقعة على السهل الساحلي الفلسطيني وهي المكان المناسب للإنسان الصياد، والجامع للقوت، مطمورة ولا يمكن الوصول إليها إلا بأعمال حفريات عميقة. كذلك فإن تغير شكل وطبيعة الأرض والتآكلات الناتجة عن حركات فجائية كالبراكين والزلازل قد لعبت دورا كبيرا ومهما في إخفاء أو تدمير المواقع الأثرية والتي تعود إلى فترة البلايستوسين الأسفل والأوسط. وإن العثور على العديد من الفؤوس الحجرية أو الأدوات الأشولية فوق سطح الأرض أو في الوديان أو الأنهر إن دلت على شيء فإنما

تدل على العدد الكبير من المخلفات الأثرية المطموسة والتي تعود إلى هذه الفترة. ونادرا ما نجد مخلفات أثرية تعود لفترة البلايستوسين الأسفل في موقعها الأصلية نتيجة للعوامل السابق ذكرها. لكن إمكانية العثور على مثل هذه المواقع واردة في مناطق السهل الساحلي السوري والفلسطيني وعلى أنهار العاصي، والكبير، والليطاني، وفي وادي الأردن. وبينما نرى أن منطقة وادي الأردن كانت مكونة في الغالب من بحيرات نجد أنها كانت في المناطق الأخرى عبارة عن وديان نهرية متكونة من تجمعات رسوبية.

عند إمكانية الحصول على مخلفات أثرية كالأدوات الصوانية والعظام تعود في تاريخها إلى فترة العصر الحجري القديم المرحلة الأولى (الأسفل) من مواقع أثرية حفرت بشكل منتظم، أو بمعنى آخر جاءت الطبقات السكنية متتابعة بشكل منتظم حينها وضع تسلسل زمني لهذه الفترة في منطقة فلسطين والأردن.

أما الأدوات التي كانت تستعمل بشكل كبير خلال المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم (الأسفل) فهي الأدوات الصوانية البيضوية الشكل والمشذبة الوجهين (Bifaces)، والفؤوس الحجرية اليدوية. ومن خلال دراسة أشكال هذه الأدوات من قبل علماء ما قبل التاريخ استطاعوا تمييز أربعة أوجه لفترة العصر الحجري القديم وهي التي ذكرناها أعلاه.

لقد كشفت لنا الحفريات الأثرية عن عدد من المواقع التي تنسب إلى فترة العصر الحجري القديم "المرحلة الأولى" "الأسفل" في منطقة سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. ونذكر هنا مواقع ست مارخو (Sitt Markho) وبيرزين (Berzine) على نهر الكبير واللطامنة (Latamne) وجوب جنين II (Joub Jannine II) ومعيان باروخ (Maayan Baruch) وجسر بنات يعقوب وعقرون (Evron) ومغارة الطابون وحولون (Holon) وأم قطفة والعبيدية وتل أبو الخس (Bar - Yousef 1980-109 - 114).

بالنسبة لموقع أبو الخس فقد اكتشف حديثا في وادي الحمة إلى الشمال من موقع طبقة فحل في الجهة الشرقية لغور الأردن (Villiers 1980, 1982). ويبدو أن الموقع قد زاره مجموعة من الناس الصيادين والجامعي القوت خلال المرحلتين الأولى والثانية للعصر الحجري القديم. وأما الأدوات الصوانية التي عثر عليها في هذا الموقع فقد وصفت على أنها آشولية مبكرة ذات شكل بيضوي وتتكون في الغالب من الفؤوس اليدوية والفؤوس والمهارس وبعض الشظايا الرؤية الصنع وتأتي أهمية هذا الموقع بأنه يمثل وجود الإنسان الأول في المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم في الأردن.

ويعتبر موقع العبدية في الجزء الشمالي لغور الأردن في فلسطين أهم المواقع التي ذكرناها آنفا بل وأشملها لهذا نقدم فيما يلي عرضا وافيا لهذا الموقع:

العبيدية:

اكتشف هذا الموقع في عام ١٩٥٩ عن طريق الصدفة وذلك عندما كانت إحدى الجرافات تقوم بعملية حفر في شمالي وادي الأردن. ومن ثم أجريت أعمال حفر باشتراك بيكارد (Picard) وبيدا (Baida) وبار ـــ يوسف (Bar - Yousef) وتخرنوف (Tchernov) (Bar - Yousef 1978: 1216). ويقع هذا الموقع الذي ينخفض حوالي ٢٥٠ متر عن سطح البحر إلى الجنوب من بحيرة طبرية.

أجريت الحفريات في ثلاثة أماكن متباعدة في نفس الموقع. ولقد استطاع العلماء إرجاع المخلفات الإنسانية من هذه الأماكن إلى مجموعتين مختلفتين الأولى تعود إلى ما قبل الفترة الابيفللية والثانية إلى الفترة الابيفيللية (Bar - Yousef 1978: 1214). إن التكوين الجيولوجي لهذا الموقع كون صعوبة أمام المنقبين خاصة وإن الطبقات المكتشفة عثر عليها داخل مياه بحيرة، لكن وفي فترة البلايستوسين الأوسط جاءت مغطاة ومتجعدة ومتصدعة. وربما يكون هذا ناتجا عن عوامل طبيعية، وذلك لملاحظة أن هذه الطبقات جاءت مختلفة في سمكها (Bar - Yousef 1980: 107).

إن دراسة الطبقات الرسوبية للموقع دلت على أن معظم الآثار متداخلة بين فترتين للبحيرة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على اختلاف في المناخ. على أية حال، لا يمكننا إيضاح أي صلة مباشرة لتسلسل الحوادث اعتمادا على عمق مركز البحر والرواسب والشواطيء، لكن غنى المخلفات العظمية (Fauna) والتي جمعت من الطبقات الأثرية، مكنت العلماء من وضع دراسة مقارنة مع مخلفات مشابهة عثر عليها في مناطق مختلفة من أوروبا. إن أهمية المخلفات العظمية للعبيدية راجعة لكونها تمثل حلقة وصل ما بين المخلفات العظمية لفترة البلايستوسين الأوسط والأعلى، خاصة عظام الحيوانات القارضة.

إن المنطقة المحيطة بموقع العبيدية تتضمن منطقة جبلية مغطاة بغابات بحر أوسطية مع مناطق صخرية، كما أن هناك واد يكون مع الترسبات الطينية شبه دلتا داخل بحيرة وشواطئ حصوية، وكذلك مناطق رعوية عند أسفل الوادي. إن العثور على بقايا عظمية تعود لحيوانات برية وقارضة في الغابات يشير إلى أن المناخ كان أكثر رطوبة وأقل دفئا في منطقة غور الأردن عما هو عليه الآن.

أمكن تمييز نوعين من الأدوات الحجرية التي أكتشفت في هذا الموقع. في النوع الأول جاءت الأدوات المصنوعة من حصى شواطئ البحار والبحيرات، وفي الثاني مصنوعة من حصى الوديان. ولقد بلغ مجموع الطبقات التي احتوت على أدوات حجرية حوالي ٦٢ طبقة حفر منها بشكل منتظم (دقيق) ١٢ طبقة فقط والتي زودتنا بمجموعة كبيرة من أشكال الأدوات الحجرية. هذه الأدوات جاءت مصنوعة من مواد مختلفة فالمفارم (Choppers) كانت مصنوعة من الصوان وحجارة الرمي (حجارة كروية الشكل) (Spheroids) جاءت من الحجر الجيري بينما الأدوات المشذبة على الوجهين (Bifaces) والفؤوس اليدوية كانت مصنوعة من البازلت، مع العلم أن بعضها كان مصنوعاً من الحجر الجيري. وهناك تشابه كبير في طريقة صنع هذه الأدوات والتي عثر عليها في طبقات مختلفة حيث أنها جاءت مصنوعة بواسطة الطرق المباشرة (Percussion) (Bar -) .(Yousef 1980: 107

كشفت لنا الدراسة العددية للأدوات المكتشفة في العبيدية عن أربع مجموعات، المجموعة الأولى والأقدم تضم فقط مفارم وحجارة رمي كروية الشكل ولا تضم أدوات مشذبة على الوجهين (no bifaces). في المجموعة الثانية والتي كونت ١٠% من مجموع الأدوات كانت كلها أدوات مشذبة على الوجهين. في المجموعة الثالثة عثر فقط على أدوات مشذبة على الوجهين (Bifaces) ومفارم و لم يعثر على حجارة رمي. ولوحظ تناقص عدد الأدوات المشذبة على الوجهين في المجموعة الرابعة (Bar - Yousef 1980: .(109

أما المخلفات الحيوانية التي أمكن التعرف عليها في العبيدية فقد ضمت فقاريات مائية والأصداف، والأسماك، وزواحف أخرى، ومن ثم الطيور، والزرافة، والفيلة، أما البقايا العظمية الإنسانية فكانت عبارة عن ثلاث قطع عظمية سميكة جدا، وسنين، وربما تكون أحدث في تاريخها من العظام الأخرى الملتقطة في نفس الموقع.

العصر الحجري القديم "المرحلة الثانية" "Middle Palaeolithic"

أطلق اسم المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم على الأدوات الصوانية المصنوعة في نهاية الفترة الآشولية، وما قبل المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم Upper Palaeolithic، وهي تضم الأدوات الموستيرية والأدوات المعاصرة لهذه الأدوات وخاصة الموستيرية تميزت بالصناعة اللافالوازية Levallois Techinque، والتي بدأت في نهاية المرحلة الأولى للعصر الحجري القديم Lower Palaeolithic، وأصبحت عامة بل ومسيطرة في هذه

المرحلة. ومن أهم الأدوات التي استعملت في هذه المرحلة هي المكاشط والأدوات المدببة (Perrot 1968; Bar - Yousef 1980: 112).

لقد تم حتى الآن العثور على أكثر من خمسين موقعا في المنطقة الواقعة ما بين تدمر في سوريا وجبال لبنان في الشمال وبين جبال الكرمل وصحراء النقب في الجنوب. لكن، وعلى أية حال، فإن المواقع التي يمكن الإستفادة من دراستها والاعتماد عليها للتاريخ فهي تلك المواقع التي لها علاقة مباشرة مع تغييرات سطح البحر بالإضافة إلى الكهوف ذات الطبقات الرسوبية التي تحوي بعض حبوب اللقاح (Horowits 1979).

وبعد دراسة شاملة للمواقع الأثرية التي تعود لهذه المرحلة، بدا لعلماء ما قبل التاريخ والآثار أن الطقس اختلف، وأن فترة من الأحوال الجوية الباردة والرطبة قد بدأت في منطقة المشرق في الفترة الانتقالية من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية في فترة العصر الحجري القديم، وتمثل هذا في مغارة الطابون في فلسطين. وفي هذا الموقع بالذات جاءت الأدوات المكتشفة تمثل حلقة وصل ما بين أدوات الفترة الآشولية (خاصة المكتشفة في يبرود)، والأدوات الموستيرية، ومثل هذه الأدوات استمرت صناعتها في مواقع مختلفة، وإلى هذه الفترة المبكرة تعود المرحلة الموستيرية في النقب (Marks 1976: 383ff) ومواقع أبو سيف وكهف القفزة في فلسطين.

وقد أشارت تواريخ الكربون المشع (C14) التي تم الحصول عليها من بعض المواقع إلى أن التاريخ المقبول لهذه المرحلة يجب أن يكون، وعلى أية حال من الأحوال يعود إلى ما قبل التاريخ ٥٠،٠٠٠ سنة منذ الآن. وأن مرحلة البلايستوسين الأعلى كان يسودها طقس جاف بشكل عام، كما تخللها انجرافات، وظهر هذا بشكل واضح في كهوف الطابون، وقفزة والشقبة. ودعمت هذه النظرية أيضا بعد العثور على بقايا حيوانات ثديية في عدد من الكهوف، وأكبر دليل على هذا العثور على العديد من عظام الأيل الأسمر (Fallow deer) في كهف الطابون، والذي يمكن تفسيره على أنه نتيجة لاستعمال المكان كمصيدة للحيوانات (Jelinek et al 1973; 151-185) شواهد تثبت هذا أيضا أنه خلال فترة الانتقال من بداية المرحلة الموستيرية إلى نهاية هذه المرحلة اختفت عناصر معينة من الحيوانات الصغيرة خاصة الفقاريات وبدأت أنواع حديثة وجديدة في الظهور.

هذه الملاحظات القليلة بالإضافة إلى تراكم طبقات من الحجر الجيري في الوديان وترسبات هذه الوديان الغنية، وتكوين بحيرة اللسان التي كانت تغطي في الغالب كل سطح منطقة غور الأردن زودتنا بفكرة عن تغيير البيئة في الفترة الموستيرية،، وعن الإنسان الذي عاش خلال هذه المرحلة. أما السؤال عن ماهية هذا الإنسان فقد استطعنا

الإجابة عليها من خلال المكتشفات الآدمية التي عثر عليها في كهوف قصـــار عقيـــل، وكبارا، والطابون، والعامود، ومقبرتان في مغارة السخول وقفزة. ولقد استطاع العلمـــاء التعرف على إنسان نياندرتال وأشكال الإنسان الحالي، وأخرى انتقالية ما بين النوعـــين بين أجزاء الهياكل العظمية التي وجدت. ولقد ربط العلماء ما بين مجموعة من الهيـــاكل العظمية التي عثر عليها في الطابون، وكبارا والعامود مع أخرى من شـــانيدر في جبـــال زاغروس وهي تمثل الأقدم بينما تلك التي عثر عليها في قفزة والســـخول تمثـــل النـــوع الأحدث. ولقد تميز إنسان نياندرتال من كهوف السخول وقفزة بأنـــه شـــديد الشـــبه بالإنسان الحالي أكثر من أية بقعة أخرى في العالم. وعلى هذا الأساس فإن هذا يقودنـــا للقول بأن الإنسان الحالي كان ظهوره لأول مرة في هذه المنطقة من العالم.

يبدو أن الإنسان توصل إلى معرفة عادة الدفن في الفترة الموستيرية حيـــث عـــثر في مغارة السخول في فلسطين على مدفن منتظم، علما أن هناك مثالا أفضل، ألا وهو مغارة قفزة، حيث تم العثور على مدفن لشخصين أحدهما بالغ، والثاني طفل، يبلغ عمره حـــوالي الست سنوات. وفي مدفن آخر تم العثور على شخص يبلغ عمره حوالي ١٣ عاما ملقـــى على ظهره ويداه موضوعتان بشكل مثني على الصدر فوقهما قرن وعـــل. وفي منطقـــة المدافن في كهف قفزة تم العثور على أصداف من البحر المتوسط وقشر بيض نعامة (Bar-Yousef 1980: 113).

لقد عثر على بقايا لإنسان الفترة الموستيرية في مناطق مختلفة وبكثافة مختلفة، فمثـــلا جاءت مخلفات هذا الإنسان في منطقة القدس والخليل مثل تلك التي من وادي العـــامود أفقر من مخلفات الإنسان الذي سكن الكهوف الواقعة على طول الساحل اللبناني ومنطقة جبل الكرمل. لكن وحتى في هذه المواقع الغنية، نجد أن الإنسان استقر هناك لوقت قصـــير كما هو الحال في مغارة الطابون (Tabun C) وفي طيرة الكرمل، وفي الطبقات الســـكنية الأولى في كهف قفزة.

من المواقع المهمة، والتي تم اكتشافها حديثا في الأردن، موقع وادي الحمـــة يبعـــد حوالي ١كم إلى الشمال من موقع أبو الخس شمالي طبقة فحل. الأدوات التي عثر عليـــها تضمنت أدوات لافالوازية الصنعة، ومجموعة من الـــ Cores بشكل قرص وأدوات مدببـــة وشفرات ورقائق صوانية. بالإضافة إلى هذا الموقع تم العثور على مواقع أخرى مختلفـــة في وادي الحمة تعود إلى المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم وهذا مما يشير بـــأن هـــذا الوادي كان أحد المراكز المهمة في هذه المرحلة (Villers 1982).

طبقا للدراسات الأولية التي أجراها كل من جارود ونيوفيل ورست فإن الأدوات الموستيرية وصفت وحللت حسب طريقتين، الطريقة الأولى وتمثل الأفكار التي طرحها Bordes في محاولته لتصنيف الأدوات الصوانية الموستيرية المكتشفة في غربي أوروبا وذلك حسب أشكالها. وقد أدخلت هذه الطريقة إلى المشرق بواسطة "سكنر" و"بيروت" (Perrot 1968; Skinner 1965). الطريقة الثانية وهي تتبع الانطباع الأول لجارود ونيوفيل في محاولة لدراسة الفترة الموستيرية بشكل حقيقي وفعلي وهذا الرأي دعمه كل من كوبلاند Copeland وجلنك Jelinek. وأخيرا طريقة مختلفة تماما عن الطريقتين السابقتين قدمت لنا من خلال العمل الذي قدمه لنا Binford حاول فيها تحليل المجموعات الموستيرية على أساس أنها تمثل نشاطات موسمية من خلال مجموعة من الناس المتنقلين والذين كانوا يشتغلون في الصيد (Bar - Yousef 1980:114).

واعتمادا على الطريقة الأولى المذكورة أعلاه فإنه يمكن تقسيم الأدوات الصوانية الموستيرية، وحسب تقسيم بودريان Bordian، والذي اعتمد فيه على تقنية الأشكال (طريقة صناعة الأدوات) إلى عدة أشكال، وكل شكل من هذه الأشكال يمتاز بملامح عديدة مختلفة، أما طريقة Skinner فتضم ثلاث مجموعات مختلفة هي: اليبرودية، والآشولية، والتي هي أحد الأوجه اليبرودية، وأخيرا مجموعة من مجموعة من هذه المجموعات الأربع الأخيرة كانت تتميز عن الأخرى من حيث الشكل المحلي للأدوات، وهذه المواقع هي أبو سيف والطابون ويبرود وعرق الأحمر. أما تقسيم بيروت Perrot للأدوات فهو يتبع طريقة Bordian حيث ضمت مجموعاته: الأدوات الموستيرية على الطراز الآشولي، ثم الموستيرية المتمثلة في الأدوات اللافالوازية والموستيرية المكونة من أدوات مدببة ومستطيلة (طراز أبو سيف)، ومن ثم الموستيرية الأصلية وأخيرا الموستيرية (Denticulatedالمسننة Mousterian).

هناك نموذج آخر اقترح من قبل كوبلاند Copland في تقسيم الأدوات الصوانية التي تعود إلى المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم، واعتمدت فيها تسلسل الطبقات السكنية في مغارة الطابون. حيث لاحظت جارود Garrod اختلافا واضحا بين هذه الطبقات. فالطبقة "D" وهي الطبقة الأقدم كانت متميزة بأدوات مدببة الرأس ومستطيلة الشكل وبشفرات مصنوعة بطريقة اللافالوا، الطبقة " " والتي تمثلت فيها الشظايا "Flakes" البيضوية الشكل والمكاشط وأما الطبقة "B" فقد تميزت بالقليل من أدوات اللافالواز المدببة Lavallois - Points. لكن كوبلاند Copeland لاحظت هنا المشاكل الموجودة في التقسيم من حيث أننا لا نستطيع أن نربط ما بين مغارة الطابون، وبقية

المواقع إلا من حيث الملامح المميزة للأدوات الصوانية. وعلى أية حال، فقد ذكرت بأنها عثرت في لبنان على بعض المواقع حيث جاءت فيها صناعة "الطابون" معاصرة للطابون "B" (Bar - Yousef 1982:114).

أما جلنك (Jelinek) فقد عالج هذه المسألة من زاوية مختلفة (Jelinek et al 1973: 151-183) حيث قام بقياس الأدوات المكونة من الرقائق والشفرات الصوانية Flakes/ blades والتي كونت الأدوار الرئيسة المشذبة. كذلك استطاع أن يحسب نسب العرض/ السمك (حيث أخذ القياس من منتصف كل قطعة). وباستعمال المعدل الوسطي للأدوات في كل طبقة من طبقات الطابون وجد أن النسبة تأخذ بالارتفاع ابتداء من الفترة الآشولية وإلى نهاية الموستيرية. والخلاصة الأولية التي خرج بها هي أنه وفي وقت من الأوقات حصل تغيير في تقنية صناعة الأدوات الموستيرية.

العصر الحجري القديم "المرحلة الثالثة" "Upper Palaeolithic"

بعد الدراسة التي أجريت خلال العقدين الماضيين حول هذه المرحلة تبين لنا أن نماذج المجموعات والصناعات هي أكثر تعقيدا عما اعتقد في السابق.

وأكثر من هذا فإن قلة التواريخ المعطاة بواسطة الكربون المشع، وندرة الشواهد على حصول التقلبات الجوية، علما أنها كانت واضحة أثناء حصولها، وفوق كل هذا الأشكال العديدة للأدوات الصوانية خلال المجموعات الصغيرة التي نشرها علماء ما قبل التاريخ، جعل من الصعب جدا علينا وضع إطار لتصنيف هذه الأدوات.

لقد ظهرت عدة مشاكل حول الأحوال التي كانت سائدة خلال هذه الفترة، ونذكر منها هنا: كيف كانت الأحوال المناخية خلال المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم، أي في المرحلة التي تقع تقريبا ما بين ٤٠،٠٠٠ - ١٧،٠٠٠ ق.م؟ وهل كانت هناك فترة انتقالية في تقنية الأدوات في الفترة الواقعة ما بين الأدوات الموستيرية وأدوات هذه المرحلة؟ وكم هي عدد الطرق التقنية التي يمكن تميزها في الشرق الأوسط وما هي الصفات الرئيسية لهذه التقنيات؟ وهل باستطاعتنا التعرف على أوجه إقليمية بين المجموعات المتوفرة لدينا على أساس طريقة صناعة الأدوات الصوانية؟ أو ما هي الأشياء المعروفة ــ غير الأدوات الصوانية ــ حول هذه المرحلة؟!.

بالنسبة للسؤال الأول فإن الشواهد على التقلبات الجوية تعتبر قليلة. لكن وعلى الرغم من هذا، فإن كثرة عدد المواقع التي تعود إلى هذه المرحلة يستطيع الإنسان من

خلالها تكوين فكرة ما. الفترة الانتقالية ما بين نهاية الفترة الموستيرية وبداية المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم كانت على الأغلب فترة باردة وجافة، وقد تبعها في حوالي ٣٢،٠٠٠ ق.م موجة رطبة، حيث تم العثور على عدد من المواقع في صحراء النقب وشمالي سيناء تمثل هذا. لكن وفي حوالي ٢٠،٠٠٠ ق.م أصبحت الأحوال الجوية أكثر جفافا، واستمرت على هذه الحالة حتى حوالي ١٢،٥٠٠ ق.م حين بدأت الأحوال الجوية بالتحسن. على جميع الأحوال فإنه وبمقارنة المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم بالمرحلة الثانية (الموستيرية) من هذه الفترة نجد أنها كانت أكثر جفافا وبرودة (Bar - Yousef 1980:115).

إن الانتقال من الفترة الموستيرية إلى بداية المرحلة الثالثة من العصر الحجري في صناعة الأدوات الصوانية يبدو هذه الأيام أقل مثارا للجدل عنه في الوقت السابق خاصة بعد أن تم العثور على بقايا الإنسان العاقل Homo Sapiens في الطبقات الموستيرية في كهف القفزة، وفي موقع "بوكر تخطيط" "Boker Tachtit" في فلسطين، وفي المواقع اللبنانية التي تميزت بصناعة الشفرات والرقائق الصوانية (Marks 1977). لكن الجواب على السؤال المطروح هو: من هو الإنسان الذي صنع هذه الأدوات؟ لم يلق الإجابة حتى الآن، علما أن الإنسان العاقل كان موجودا في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت. إن صناعة الأدوات بطريقة اللافالوا التقليدية كانت متمثلة على الرقائق Flakes الأدوات المدببة Points والشفرات الصوانية في المواقع اللبنانية، بينما استعملت في صناعة الأدوات المدببة في موقع بوكر تخطيط Boker Tachtit في فلسطين. وهذا الموقع الأخير يعطي أمثلة جيدة على صناعة كل من الشفرات الصونية blades التي تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، والأدوات المدببة المصنوعة من نفس خامة هذه الشفرات blades cores (Marks 1977). أما من ناحية التواريخ التي حصلت عليها من هذا الموقع فلا تزال مثارا للجدل من حيث أنها تعتبر أقدم من ٤٠،٠٠٠ ق.م وتقع ضمن مجموعة من تواريخ الفترة الموستيرية أي المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم.

لكن أهميتها ناتجة من أننا نستطيع الربط بشكل عام ما بين الأدوات الصوانية في كل من فلسطين ولبنان والتي تتكون من الرقائق flakes، وشفرات blades ذات حافة مكونة بواسطة ضربة عكسية transversal blow، وهذه الأدوات كانت معاصرة لبعضها البعض. تقع جميع المواقع اللبنانية التي تعود إلى هذه المرحلة في منطقة لا تتجاوز البضعة كيلومترات مما يشير إلى بداية حضارة إقليمية متنوعة في منطقة الشرق الأوسط. ومن المواقع التي لا يزال يدور حولها الجدل في فلسطين كهف أميرة Emireh Cave، خاصة وأن

مثل هذا الموقع يظهر تشابها مع المواقع اللبنانية من حيث العثور على كثير من الرقائق بشكل أكثر من الشفرات والتي تظهر الصنعة اللافالوائية. ولقد تم العثور على أدوات كهف الأميرة في الأصل ضمن هذه الصناعة المتأخرة لمرحلة العصر الحجري القديم الثانية، ولهذا فقدت أهميتها كدليل يعتمد عليه.

إن المجموعات المذكورة آنفا قدمت لنا طريقتين صناعيتين مختلفتين في صناعة الأدوات الصوانية التي ظهرت في المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم. الطريقة الأولى تتمثل في تفوق إنتاج الرقائق أكثر من الشفرات. وقد جاءت الشفرات الصوانية تحمل صفات تختلف عن بعضها البعض في الغالب، وفي عدد من المجموعات التي عثر عليها جاءت سميكة نسبيا. ومن الأدوات غير المشغولة (الغفل) استطاع الإنسان الأول أن يصنع المكاشط اليدوية والمناقيش **burins**. مثل هذه الأدوات الصوانية تم العثور عليها داخل كهوف مثل قصار عقيل وعرق الأحمر وكذلك في العراء. ومن خلال التغير الذي طرأ على أنواع وأشكال هذه المجموعات أصبح باستطاعتنا التمييز ما بين الطبقات والأماكن وحتى ما بين المراحل الزمنية. ومن هذه المجموعات التي صنعت على هذا الغرار تلك التي عثر عليها في مواقع قصار عقيل (**Ksar Akil Phase A,BI**)، وعرق الأحمر الطبقات **f-d** وبعض المواقع المختلفة في العراء **open-air sites** في فلسطين في النقب مثل سيدي دفشون **Sde Divshon** وعركوف **Arkov** (**Marks 1977**). المراحل النهائية لفترة العصر الحجري القديم المرحلة الثالثة تمثلت في مواقع بوكر (**Boker be layer**) و(**Boker C**) "يورخان لحوالي ٢٢،٠٠٠ ق.م" ومجموعات أخرى جمعت تحت اسم العتليتية **Atlitian** أو **Upper Palaeolithic phase IV** ما بين بداية المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم (حوالي قبل ٤٠،٠٠٠ ــ ٤٣،٠٠٠ ق.م) ونهاية المرحلة المتمثلة في موقع عين عكف (**Ein Aqev**) (تؤرخ لحوالي ١٥،٠٠٠ ق.م) كان هناك كثير من أشكال الأدوات الصوانية والتي ربما تكشف الدراسات المستقبلية عنها.

وهنا يستطيع الدارس أن يسجل ملاحظة هامة ألا وهي أنه خلال المجموعات المختلفة والمذكورة أعلاه كانت هنالك طريقتان مختلفتان في صناعة الأدوات الصوانية. الأولى وهي الرئيسية، فقد كانت إنتاج الرقائق **flakes production**، بينما الثانية هي صناعة الشفرات الجيدة وذات الحجم المتوسط والتي استعملت في صناعة الأدوات المدببة في مغارة الواد **El-Wad point**. وهذه الأدوات المدببة كانت مصنوعة بواسطة أنواع مختلفة من التشذيب **retouch**.

كما ذكرنا أعلاه فإن الطريقة الثانية لصناعة أدوات هذه المرحلة كانت تتركز في إنتاج الشفرات والشفرات الصغيرة **blades/ bladeslets** وقد تم العثور على مثلها بين الأدوات المكتشفة في مغارة القفزة وبالتحديد في الطبقات **E/D** والمؤرخة إلى حوالي ٣٧،٠٠٠ ـــ ٣٠,٠٠٠ ق.م وموقع بوكر "أ" **Boker A** (مؤرخ بواسطة الكربون المشع لأكثر من ٣١،٠٠٠ ق.م وربما يكون حوالي ٣٧،٠٠٠ ق.م). بالإضافة إلى هذه التواريخ فإن هنالك الكثير من التواريخ التي حصلنا عليها من مواقع مختلفة في شمالي سيناء وفي صحراء النقب **Marks 1977; and phillips 1977 Bar - Yousef**. إن كثرة عدد الشفرات زاد في عدد الأدوات المدببة. كما هو الحال في العديد من الشفرات الصغيرة المشذبة. كذلك ظهرت هناك أدوات أخرى مثل المكاشط اليدوية والمناقيش **burins** ولكن بأعداد أقل من الشفرات. وبما أن صناعة الشفرات كان هي السائدة في هذه المرحلة فإن هذا يقودنا إلى القول بأن صناعة مثل هذه الأدوات في الفترة اللاحقة وهي الـ **Epi - Palaeolithic** مستمدة أو مأخوذة من هذه الصناعة.

هناك تقليد أو طراز آخر في صناعة الأدوات الصوانية المنسوبة إلى هذه المرحلة ويمكن اعتباره كوحدة مستقلة خلال الطراز أو الطريقة الأولى ويعرف باسم الصناعة الأورجينسية "ب" **Levantine Auragnacian B** (- **Besancon; Copeland & Hours 1975 77**). وهذه تتميز بصناعة المكاشط التي لها رأس بشكل غير منتظم **carinated**. والشفرات الأورجينسية بالإضافة إلى مجموعة فقيرة من الأدوات العظيمة وكل هذه الأدوات تشابه أدوات الفترة الأورجينسية في فرنسا. أما المواقع التي ظهرت فيها مثل هذه الأدوات فجاءت موزعة في المنطقة الواقعة ما بين وادي السبع جنوبا وسلسلة جبال لبنان شمالا ويبرود في سوريا شرقا. وتبعا لتواريخ الكربون المشع **C14** والتي حصلنا عليها من قصار عقيل **Ksar Akil** وغيره من المواقع تؤرخ هذه الصناعة وبشكل تقريبي للفترة الواقعة ما بين ٣٢،٠٠٠ ـــ ٢٦،٠٠٠ ق.م. ومن ميزاتها أيضا أن الأدوات المدببة المنسوبة إلى مغارة الواد ظهرت بشكل كثيف في أولى مراحل الصناعة الأورجينسية ثم تناقصت بالتدريج.

وبغض النظر عن معرفتنا الجيدة بالأدوات الصوانية التي ظهرت في هذه المرحلة، فإننا لا زلنا نجهل الكثير عن النواحي الأخرى من حياة الإنسان الذي عاش في هذه المرحلة. حتى أن التتابع الزمني الطويل لموقع قصار عقيل لم يزودنا بكثير من الأمور التي تساعدنا في تأريخ هذه المرحلة. كذلك جاءت الأدوات العظمية قليلة العدد، وكانت مدببة إما برأس واحد أو برأسين، وظهرت هذه الأدوات بشكل رئيس في مواقع قصار عقيل ويبرود والواد. وكذلك تم العثور على بلاطة حجرية مع مدقتها والتي كانت تستعمل

للطحن في كهف القفزة، كما عثر على واحدة أخرى مماثلة في موقع عين عكـــف Ein Aqev، وكذلك تم العثور في مغارة القفزة على جمجمتين مكسرتين لا نـزال لا نعـرف عنهما أي شيء، كما وجد مدفن في موقع وادي عين جف Nahal Ein Gev I (Arensburg 1977:294).

وبالنسبة لمساحة المواقع الأثرية والتي تعود إلى هذه الفترة فقد أشـــارت الدراســة للمخلفات التي عثر عليها في بعض المواقع إلى أن مساحة الموقع قد تبلغ حوالي ٢٠٠ متر مربع أو أقل. وفي كثير من الكهوف التي لوحظ فيها آثار سكنية لهذا الإنسان مثل الـواد وكبارا وغيرها أن مساحة محدودة جدا من الموقع قد احتوت على بقايا إنسانية، أو بمعنى آخر تشير إلى سكنى الإنسان الأول.

والتوزيع الجغرافي للمواقع التي تعود إلى هذه المرحلة يشير إلى أن المواقع الأثرية قـد غطت الشرق الأوسط بكاملها عدا بعض الاستثناءات. فمثلا لا توجد مواقع فوق التلال التي ترتفع أكثر من ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر. ويبدو أن المواقع التي عثر عليـها في النقب وسيناء قد تمثلت بها فترات مختلفة، وهذا ناتج عن تحسن المناخ. ونفس القول يمكن أن ينطبق على مواقع جبال القدس والخليل المطلة على البحر الميت، ولكن لم يظهر لنـا أي موقع أنه قد سكن بشكل مستمر ولفترات طويلة إلا موقع قصار عقيل.

البقايا الحيوانية المتمثلة في هذه الفترة والتي عثر عليها في مواقع مختلفة مـن سـوريا وفلسطين أظهرت لنا كثرة الحيوانات الثديية على غيرها من الحيوانات الأخرى خاصـة المصطادة على عكس ما كان يعتقد سابقا. ففي منطقة لبنان نجد أن الأيل الأسمر والـ roe deer (نوع من الأيائل) والوعل الشائعة، لكن فلسطين وغور الأردن نجد أن الأيـل السمر والغزال بالإضافة إلى الحيوانات البقرية هي الأكثر استعمالا، وشيء مهم لا بد من ذكره هنا وهو أن غياب البقايا النباتية جعل من الصعب جدا على الدارسين إعطاء فكـرة عن مصادر الغذاء النباتية الأولية في هذه المرحلة.

وأخيرا، وباختصار فإنه يظهر لنا أن التحركات البسيطة لمجموعات الإنســان الأول والذي كان لا يزال صيادا وجامعا للقوت قد كونت أساسا لوحدات اجتماعية خـلال هذه المرحلة. لكن هذه الوحدات الاجتماعية المختلفة قد احتفظت بطـرق الصناعـات التقليدية التي كانت مستعملة منذ آلاف السنين السابقة.

نهاية العصر الحجري القديم (المرحلة الرابعة) Epi Palaeolithic

ظهر اسم Epi Palaeolithic للوجود خلال الخمس عشرة عاما المنصرمة لتصبح محورا رئيسيا لأبحاث علماء ما قبل التاريخ في بلاد الشرق الأوسط. وقد عرفـت في السـابق

باسم العصر الحجري المتوسط Mesolithic (Clark 1980) وتمثل المرحلة بداية التغير في البيئة إلى الأحوال التي نعيشها حاليا. ونتج عن هذا قلة في المصادر الحيوانية والنباتية مما حدى بالإنسان أن يتجمع في مجموعات في مستوطنات صغيرة المساحة. ولقد تم الكشف عن العديد من المواقع والمجموعات الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة، وسواء أكان ذلك بطريقة عفوية أم ضمن مشاريع أثرية فقد تم دراسة هذه المكتشفات والتي زودتنا بفكرة عن حياة إنسان هذه المرحلة.

ونتيجة لزيادة البقايا الملتقطة من مخلفات هذه الفترة فإن نظرتنا إليها قد اختلفت عن السابق من حيث تقديرنا لأهميتها وعلاقتها مع المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. ونتيجة لذلك فقد غيرت هذه الفكرة عن إنسان عصور ما قبل التاريخ الذي كان يوصف دائما بأنه ساكن كهوف، وانتقل إلى مواقع العراء في نهاية البلايستوسين. هذا التفسير لسكنى الإنسان الأول مأخوذ عن الأبحاث التي أجريت في القنر التاسع عشر في منطقة أوروبا الغربية حيث جاءت معظم مواقع العصر الحجري القديم متمثلة في كهوف ومآوي صخرية. لكننا استطعنا وبشكل عام أن نحصل من مثل هذه المواقع على تسلسل للطبقات السكنية وأن نكون فكرة عن التتابع الحضاري. مثل هذه الحالة تكون مفيدة بشكل خاص في حالة عدم وجود تواريخ مؤكدة مثل تلك المعطاة بواسطة الكربون المشع على سبيل المثال، لهذا نعتمد في تأريخنا على دراسة مقارنة للأدوات التي حصلنا عليها من خلال الطبقات السكنية. وفي خلال هذا القرن ركز العلماء أبحاثهم خاصة في كل من أوروبا وأفريقيا على المواقع المكشوفة في العراء أكثر من مواقع الكهوف وخرجوا بنتيجة هي أن السكنى في الكهوف والمغاور الجبلية جاءت أقل من بقية المواقع السكنية الأخرى (Bar - Yousef 1980:118). إن الاستعمال المكثف لطريقة التأريخ الراديومترية "Radiometric Dating" خلال السنوات الأخيرة جعل بالإمكان وضع جدول زمني خاصة للمواقع المكشوفة في العراء في عدد من الأقاليم وشجعت على عمل دراسة لمناطق الشرق الأوسط المماثلة. ويلاحظ المتتبع لنتائج هذه الدراسات توفر العديد من تواريخ الكربون المشع للمرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم (Bar - Yousef, phillips 1977).

لقد صنفت المواقع المنسوبة إلى المرحلة الرابعة والأخيرة من العصر الحجري القديم في المشرق Epi - Palaeolithic حسب ما احتوته من أدوات صوانية والتي غالبا ما تكونت من الشفرات الصغيرة جدا "Bladelets" والتي تطورت إلى أدوات صغيرة جدا

"Microlithic" وبأشكال مختلفة. لكن مثل هذا التصنيف أصبح في هذه الأيام أقل أهمية عما كان عليه في أوقات سابقة. والسبب مرجعه إلى أن هناك أدوات تعود إلى هذه المرحلة مشابهة في طريقة صنعها لأدوات ظهرت في فترات أقدم (Bar - Yousef 1980:119). إن بداية المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم في بلاد الشرق الأوسط تمثلت في مجموعة الأدوات المكتشفة في كهف كبارا في جبال الكرمل في فلسطين. وأقدم تاريخ حصلنا عليه لفترة كبارا حوالي ١٧،٠٠٠ ق.م، ولكنه من الممكن إضافة بعض آلاف السنين إلى هذا التاريخ وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التتابع السكني لبعض المواقع المكتشفة في الشرق الأوسط مثل وادي الفلاح في فلسطين، وقصار عقيل في لبنان (Besancon; Copeland and Hours 1975-77; noy; Legge and Higgs 1973).

إن الأحوال المناخية خلال فترة كبارا (١٧،٠٠٠ ــ ١٢،٥٠٠ ق.م) كانت باردة وجافة في الجزء الشمالي من الشرق الأوسط وباردة ورطبة في النصف الجنوبي لهذه المنطقة. ويبدو أن المناطق الصحراوية كان أيضا باردة وجافة. مثل هذا التقرير كان يعتمد على شواهد لدراسة البقايا النباتية ورواسب الوديان (Bar - Yousef; Goldberg and Leveson 1974).

وبعد إجراء العديد من المسوحات الأثرية في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام وفلسطين والأردن بشكل خاص استطعنا تكوين فكرة جيدة عن التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة. فجاءت المواقع نادرة الوجود في مناطق النقب وشمالي سيناء وقليلة جدا في الواحات.

واعتمادا على العديد من مجاميع الأدوات المتوفرة لنا والتي تعود لفترة كبارا يستطيع الدارس أن يقسمها إلى فترات فرعية ومناطق إقليمية مختلفة. وأقرب مثال على هذا هو توزيع الشفرات المدببة ذات القاعدة المكسورة أو المشذبة والتي عثر عليها في منطقة الأردن وفي جنوبي سوريا (Bar - Yousef 1980:119). وهذا يشير إلى احتمال وجود دلائل سكنية تعود لفترات ما قبل التاريخ في منطقة رسمت حدودها مجموعات الإنسان الأول الذي كان صيادا وجامعا للقوت. إن إمكانية التعرف على وحدات أو مجموعات سكانية أصغر تبدو واضحة في المناطق الجغرافية التي تضم مجموعة صغيرة جدا من الأدوات أو وجود مجموعة من هذه الأدوات خلال منطقة تتراوح ما بين ٣٠-٤٠ كم. ويمكن التعرف على مثل هذه المجموعات في مناطق السهل الساحلي الفلسطيني وفي سلسلة الجبال اللبنانية.

لقد ظهر في هذه المرحلة ابتكار جديد وهو استعمال الأجران والمدقات كـأدوات. وهذه الأدوات جاءت مصنوعة من الحجر البازلتي أو الحجر الكلسي وكانت مصحوبة في بعض الأحيان بأدوات طحن. إن ظهور مثل هذه الأدوات يدل على تغير في تطور التقنية في الحصول على الأغذية النباتية وربما يكون هذا هو طحن الحبوب البرية. إن التعرف على الأغذية النباتية في هذه المرحلة لا يزال غير واضح، وذلك لأننا لم نعثر في موقع كبارا على بقايا نباتية كافية تعطينا فكرة عن هذا الأمر. كذلك فإن العثور على حبوب قمح مهجنة في موقع وادي الفلاح لا يعتبر دلالة كافية لمثل هذا الموضوع، وذلك للعثور على هذه الحبوب في طبقات سكنية مختلفة من هذا الموقع (Noy; Legge and Higgs 1973).

إن العثور على قليل من بقايا الحيوانات البحرية الرخوية مبعثرة في موقع كبارا يشير إلى الصلة ما بين هذا الموقع وشواطئ البحر المتوسط. لكن انتقال مثل هذه الأشياء إلى مثل هذه المناطق كان محدودا جدا كما هو الحال في المرحلة السابقة. يستدل على التقلبات المناخية في الفترة الواقعة ما بين ١٢،٥٠٠ ـــ ٨٠٠٠ ق.م من بقايا حبوب اللقاح النباتية والترسبات مدعومة بالتوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة. ويصنف عدد من هذه المواقع على أنه يعود لفترة "Geometric Kebaran A" خاصة تلك الواقعة في الصحراء والبعيدة عن مصادر المياه الدائمة. وتمتد مثل هذه المواقع داخل شبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس. ولقد سميت إحدى مجموعات الأدوات الصوانية المعاصرة لهذه الفترة باسم الموشابية "Moshabian"، واعتمادا على تقنية أشكال هذه الأدوات فقد اعتبرت بأن أصولها مستمدة من شمالي أفريقيا. ولقد أشارت التقنيات الحديثة والتي جرت مؤخرا في منطقة شمالي سيناء والنقب بأن أشكال الأدوات الصغيرة جدا، وكذلك الاستعمال المكثف لتقنية المنقاش الصغير "Microburin" هما دليلان على المؤثرات الأجنبية في صناعة أدوات المشرق. جاءت المواقع التي ضمت أدوات موشابية موزعة حتى سفوح الجبال الواقعة غربي البحر الميت وحتى حدود البحر المتوسط (Bar - Yousef and Phillips 1977).

وبعبارة أخرى فإن الأدوات المنسوبة إلى فترة (Geometric Kebaran A) نجد أنها قد صنعت ولو بشكل جزئي بطريقة الكبارا العادية وذلك بإنتاج الشفرات الصغيرة وقليلة العرض. وعلى أية حال سواء أكانت هذه هي المرحلة الأخيرة للكبارا أو أنها تمثل صناعة تخص منطقة معينة لا تمت إلى هذه المرحلة فإنه كان هناك انتقال إلى صناعة الشفرات الصغيرة الأكثر عرضا. إن الأشكال الكاملة التي حصلنا عليها لهذه الشفرات الصغيرة

bladelates جاءت بشكل شبه منحرف وكانت إما قليلة العرض (٤-٧ ملم) أو عرضة (٧-١٠ ملم). ولقد جاء استعمال الـ **microburin** بشكل قليل في معظم المجموعات التي حصلنا عليها.

خلال عمليات الحفر الأثرية في مغارة الواد تم التعرف على أربع مراحل سكنية تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم (**Upper Palaeolithic**) فوق طبقات المرحلة الثانية من نفس العصر وتحت طبقات أطلقت عليها جارود اسم العصري الحجري القديم الوسيط (**Mesolithic** ١٠،٠٠٠-٨،٠٠٠ ق.م) (**Garrod and Bate 1973**). هذه الطبقات العليا سميت "بالناطوفية" نسبة إلى وادي الناطوف غربي القدس حيث كشف عن معالم هذه الحضارة ولأول مرة في كهف شقبة الذي يقع في هذا الوادي (**Garrod and Bate 1942**).

تعتبر الفترة الناطوفية الخطوة الأولى للمجتمعات الزراعية في منطقة الشرق الأوسط. ولا زال بعض العلماء يطلق عليها اسم العصر الحجري الوسيط (**Mesolithic**)، وتعتبر على أنها تشكل مرحلة انتقالية ما بين مرحلة العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، أو بعبارة أخرى ما بين حياة التنقل والتجوال حيث كان الإنسان صيادا وجامعا للقوت، وحياة شبه مستقرة حيث أصبح الإنسان منتجا للقوت. وربما يكون سبب هذا التغيير ناتجا عن تغر في الأحوال المناخية والتي أصبحت أكثر ملاءمة لاستقرار هذا الإنسان. ولقد أظهرت الأدوات الصوانية الناطوفية بعض ملامح أدوات فترة الكبارا، ومثال ذلك الشفرات والمنقاش واستعمال قرن الوعل والعظام في صناعة الأدوات (**Clark 1980:25**). وتميزت الأدوات الصوانية الناطوفية بأنها جاءت في معظمها صغيرة الحجم ذات حد مستقيم وهلالية الشكل من الخلف وحتى الآن لم يعرف أصل هذه الصناعة، لكن وعلى أية حال يبدو لنا أنها كانت مستوحاة من حضارة سكان فلسطين الأصليين والتي امتدت من أواسط لبنان وسوريا شمالا وحتى مدينة حلوان في مصر جنوبا. وعلى هذا الأساس فإنه بإمكاننا اعتبار الحضارة الناطوفية حضارة محلية استمدت جذورها من المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم (**Clark 1980:28**). ومن الممكن العثور على العديد من مواقع هذه الفترة داخل فلسطين. وجاءت معظم الشواهد التي تعود للفترة الناطوفية من كهوف علما أن هذه الكهوف سكنت على فترات متقطعة. وعلى هذا الأساس فإننا لا نستطيع التوقع بأن نعثر على طبقات سكنية ناطوفية ثابتة أو ليس من الضورة بمكان أن تكون هذه الطبقات تقع مباشرة فوق طبقات المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، ولكن في كهف شقبة وكما ذكرنا أعلاه فقد جاءت الطبقات الناطوفية فوق

طبقات المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم مباشرة بينما في مغارة الواد جـــاءت فـــوق طبقات المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم. وحتى في مغارة كبارا فإننا لم نجد أية إشـــارة تدلنا على وجود بقايا ناطوفية تعلو طبقات العصر الحجري القديم للمرحلة الثالثـــة والـــتي سميت بالكبارا. ولكن الحفريات الحديثة في موقع وادي الفلاح على الســـهل الســـاحلي الفلسطيني إلى الشمال من كهف المغارة أشارت إلى وجود نموذج سابق لصناعـــة الأدوات الصغيرة الحجم التي تنسب إلى الفترة الناطوفية (Noy, Legga and Higgs 1973).

إن تواريخ الكربون المشع التي حصلنا عليها من طبقات فترة الكبار في موقـــع وادي الفلاح هي (Layer IX, UCLA - 1776c: 18250 ± 320 BP) ومن موقع راكيفت Rakefet (I. 6856: 18910 ± 300 BP). وهذا مما يشير بأن هذه الفترة بدأت في فلســـطين في حـــوالي ١٧،٠٠٠ ق.م. كذلك أشارت بعض تواريخ الكربون المشع الأخرى التي حصلنا عليها مـــن موقع وادي الفلاح إلى أن هذه الفترة كانت مزدهرة في حوالي ١٤،٠٠٠ ق.م أي قبل بداية الفترة الناطوفية في حوالي ١٠،٠٠٠ ق.م (CLARK 1980:28).

أما بالنسبة للمساكن الناطوفية فقد جاءت دائرية الشكل بقطر يتراوح بـــين ٩-٤ متر كما هو الحال في موقع عين الملاحة شمالي بحيرة الحولة (PERROT 1966c, 1969). كما أنه تم العثور على آثار لحفر صغيرة ربما كانت تستعمل لوضـــع الأعمـــدة الـــتي ترفـــع السقوف. ولقد وجدت مخلفات تعود للفترة الناطوفية في مناطق مختلفة مـــن فلســـطين والأردن وسوريا بالإضافة للمواقع التي ذكرناها آنفا نذكر هنا على سبيل المثال للذكر لا للمناقشة أريحا والبيضا والمريبط وغيرها الكثير.

وهكذا نكون أنهينا الحديث عن حياة الإنسان الأولى والتي كان بها إنسانا بدائيـــا يلتقط قوته اليومي التقاطا وعاش معظم وقته في الكهوف، علمـــا أن بعـــض المواقـــع المكشوفة قد تم العثور عليها. بعد هذا ننتقل إلى الحديث عن مرحلة أخرى من حياة هـــذا الإنسان والتي كانت الدرجة الأولى على سلم استقرار هذا الإنسان، مرحلة المجتمعـــات الزراعية.

بداية المجتمعات الزراعية

"العصر الحجري الحديث"

أصبحت هذه الفترة محط أنظار علماء ما قبل التاريخ منذ أن حاول بريدوود Braiwood الكشف عن ماهية حضارة المجتمعات المتمدنة والتي أطلق عليها اسم العصر الحجري الحديث (Braidwood 1972, Singh 1974, Mellart 1975, Cunvin 1978, Kafafi 1982).

يقسم علماء الآثار هذه الفترة إلى عدة مراحل مختلفة، وبعد حصولنا على المزيد من التواريخ المعطاة بواسطة الكربون المشع أصبح باستطاعتنا تكوين فكرة وافية عن هذه المراحل المبكرة في تاريخ الإنسان. هذه المراحل اختلف العلماء في تسميتها، بينما نجد أن كاثلين كنيون وهي التي نقبت في مدينة أريحا في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٢ ــ ١٩٥٩ واعتمادا على الاختلاف في الطرز المعمارية تقسم المرحلة المبكرة والتي تسمى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار إلى فترتين أ وب. المرحلة الأولى تتمثل في الأبنية دائرية الشكل وأما المرحلة الثانية فتتمثل في الأبنية المنتظمة الشكل سواء أكانت مربعة أم مستطيلة. أما الفترة اللاحقة والتي ظهر فيها استعمال الفخار فتقسمها أيضا إلى قسمين أ وب، وذلك تبعا لاختلاف أنواع الفخار وماهيته (Kenyon 1953) كذلك نجد أن Pere Buzy والذي قام بمسح أثري في منطقة وادي الطاحونة والتي تبعد حوالي ٣ كم إلى الجنوب من مدينة بيت لحم، قد أطلق على الأدوات الصوانية الملتقطة اسم "الطاحونية". هذه التسمية استعمال من قبل بعض علماء ما قبل التاريخ أمثال Neuville في وصفه للأدوات الصوانية المكتشفة في الطبقات العليا في موقع الخيام (Neuville 1934) وجارستنج Garstang عند تحدثه عن فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (PPNB) في أريحا. لكن G. Echegaray والذي أعاد حفرة موقع الخيام في عام ١٩٦٢ نجد أنه قد قبل اسم

الطاحونية للأدوات المكتشفة في الطبقات العليا في هذا الموقع بينما نجد أنه استعمل اسم "الخيامية" للفترة التي أطلق عليها Neuville اسم Natufian IV (Echegaray 1966).

كذلك نجد أن Payne قد اقترح اسم "السلطانية SULTANIAN للأدوات المكتشفة في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار PPNB) B) في أريحا لبيان أهمية هذه المرحلة في هذا الموقع (Payne 1976: 134)، وكذلك أطلق اسم "الظبيانية Dhobanian" على الأدوات المكتشفة في موقع وادي ظبي في شرق الأردن (- Waechter and Seton Williams 1938: 174) نجد أيضا أن ألبرايت Albright قد أطلق اسم الحضارة الريحاوية Jerichoan على الأدوات المكتشفة في الطبقة التاسعة IX في أريحا والحضارة اليرموكية على الأدوات المكتشفة في الطبقة الثامنة لنفس الموقع (Albright 1971:49)، إن اسم الحضارة اليرموكية كان قد أطلق في السابق على الأدوات المكتشفة في موقع شعار هجولان على نهر اليرموك (Stekelis 1950 51:19; 1972:36). وقد اعتبر ستكلس Stekelis الطبقة الثامنة في أريحا بأنها تعود إلى فترة العصر الحجري النحاسي Chalcolithic واعتبر الحضارة اليرموكية معاصرة للطبقة التاسعة في أريحا (Stekelis 1972: 43,44).

وأكثر من هذا، فإننا نجد أن التقسيمات الجغرافية قد أخذها بعض العلماء بعين الاعتبار حين أطلقوا التسميات على حضارة العصر الحجري الحديث، فمثلا نجد أن اسم "حضار الساحل في العصر الحجري الحديث Coastal Neolithic" قد أطلقت على صناعة الأدوات المكتشفة على سواحل البحر المتوسط وشمالي فلسطين (Anati 1963: 269; de Vaux 1966:16).

ومن العلماء الذين اهتموا بدراسة هذه المرحلة من حياة البشرية هو A.M.T. Moore والذي أطلق في بداية الأمر اسم العصر الحجري الحديث المبكر على حضارة الـ PPNA والـ PPNB والطبقات ٦-٣ في المنحطة، واسم العصر الحجري الحديث المتأخر على الفترة التي ظهرت فيها صناعة الفخار في كل من أريحا والطبقة ٢ في المنحطة واليرموكية (Moore 1973:36). ومن ثم فقد قسم الحضارة الأخيرة إلى مرحلتين الأولى والتي تضم أريحا الطبقة التاسعة IX واللد، وتليلات البطاشي الطبقة الرابعة ووادي ربه وتل الدوير ومجدو الطبقة عشرون XX وبيسان وكفار جلعادي Kfar Giladi وهجوشيريم Hagocherim. وهذه المرحلة تقابل في نظره الأدوات المكتشفة في عين النفيخ وتل أرض التليلي وتل النبعة الفوار الواقعة في سهل البقاع في لبنان (Copeland and Wescombe 1965, 1966; Moore 1973:56). وفي مواقع تل الرماد الطبقة الثالثة وفي جبيل Byblos في سوريا.

وتميزت المرحلة الثانية من العصر الحجري الحديث المتأخر بتطور في العمارة وبتغير أشكال الأدوات الفخارية. وتقابل هذه المرحلة الأدوات المكتشفة في أريحا الطبقة الثامنة وفي تل الفارعة الشمالي الطبقة الأولى، وفي المربعات وفي وادي غزة موقع "د، D" وفي بيسان في الحفر السكنية وفي الطبقة الثامنة عشر التي تعلو هذه الحفر وفي شعار هجولان والمنحطة طبقة ٢ب 2B، وفي مجدو والحميدية الطبقة الثالثة، وفي هتسوريا **Hazoria** **(Moore 1973: 57-63)**.

ولكننا، وفي وقت متأخر نجد أن **Moore** قد غير رأيه في هذه التسميات حيث أطلق اسم العصر الحجري الأول والثاني والثالث والرابع **(Moore 1978)** العصر الحجري الحديث الأول ويتمثل في المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم **Epi-Palaeolithic**، والفترة الانتقالية ما بين هذه المرحلة وبداية المجتمعات الزراعية، وفترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار في أريحا **(Moore 1978:159)**. المرحلة الثانية من العصر الحجري الحديث وتتمثل في حضارة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار في أريحا وفي المنحطة الطبقات ٦-٣،وفي حضارة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار **B** وفي البيضا **(Moore 1978:150)**. وتضم المرحلة الثالثة الأدوات التي ظهرت في أريحا الطبقة التاسعة **IV** وفي تليلات البطاشي الطبقة الرابعة، وتل المتسلم الطبقة عشرون **XX** والمنحطة طبقة **2B** وفي شعار هجولان **(Moore 1978: 359-380)**. وأخيرا المرحلة الرابعة والتي تمثلت في الأدوات المكتشفة في أريحا الطبقة الثامنة والمربعات وتل الفارعة الشمالي والمنحطة الطبقة **2A** والشيخ علي في الطبقات **IA,BC** وفي وادي ربة وتليلات الغسول وتل السعيدية الغربي في شرقي الأردن **(Moore 1978: 453-460)**.

أما رايت **G.E. WRIGHT** فقد كان له رأي آخر في تصنيف الطبقة الثامنة في أريحا والتي يعتبرها معظم علماء الآثار بأنها تمثل المرحلة الأخيرة من فترة العصر الحجري الحديث، حيث أنه اعتبرها تعود إلى فترة العصر الحجري النحاسي **Chalcolithic** وحلول ربطها بالطبقة "د، D" في سهل العمق بشمالي سوريا **(Wright 1951:53)**. كما نجد أنه أطلق اسم الحضارة الطاحونية والريحاوية على الفترة الواقعة ما بين ٨٠٠٠ ــ ٥٠٠٠ ق.م، واسم العصر الحجري النحاسي المبكر **Early Chalcolithic** على الفترة الواقعة ما بين ٥٠٠٠ ــ ٣٥٠٠ ق.م **(Wright 1961: 78-79)**.

من العلماء الذين اهتموا أيضا بدراسة فلسطين في فترة ما قبل التاريخ العالم الفرنسي **R. de Vaux** والذي قال بأن الفترة الانتقالية ما بين الفترة الناطوفية وبداية العصر الحجري الحديث **(PPNA)** يمكن ملؤها بواسطة الفترة المسماة **Proto- Neolithic** وهذه تمثلت في

أريحا ووادي الفلاح، لكنه ذكر بأنه كانت هناك فجوة ما بين فترات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار والفخاري وأضاف بأن بعض مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار لم تسكن ثانية في فترة العصر الحجري الحديث الفخاري (de Vaux 1978: 33036). لكن بناء على الحفريات التي جرت مؤخرا فإننا لا نوافق de Vaux على وجود هذه الفجوة الواسعة وذلك اعتمادا على ما ذكرته Kirkbride من خلال حفريتها في موقع عين أبو نخيلة في منطقة وادي رم في الأردن والتي ذكرت بأن الأدوات المكتشفة من هذا الموقع من الممكن اعتبارها حلقة الوصل ما بين فترة ما قبل الفخار والفخار (Kirkbride 1978:9)، علما بأن ديانا كيركبرايد كانت قد وافقت de Vaux على هذا الاقتراح في البداية واعتبرت أن هذا مرده إلى تغييرات مناخية (Kirkbride 1971:282).

كما ذكرنا آنفا فإن مرحلة العصر الحجري الحديث قد تبعتها فترة استطاع الإنسان فيها التوصل إلى استعمال الأدوات الفخارية في استعماله اليومي. هذه المرحلة الأخيرة يمكننا أن نطلق عليها اسم العصر الحجري الحديث المتأخر وهذه المرحلة تمثلت في الفخار الأسود المصقول DFBW والفخار المشابه للفخار الذي ظهر في أريحا في الطبقات ٩ و٨. إن الفخار الأسود المصقول والذي يعتبر البداية الأولى للفخار ظهر في مناطق مختلفة في سوريا ولبنان وجنوبي الأناضول أما في فلسطين فقد ظهر في مواقع المنحطة طبقة ٢ (Perrot 1964)، وفي الشيخ علي II (Prausnits 1960a: 120)، وتليلات البطاشي IV (Kaplan 1958a: 83)، وكفار جلعادي (Kaplan 1966: 272) (Lechevallier and Dollfus 1973a) وفي تل الترمس (Perrot 1963b: 559)، وتل أبو زريق "Hazorea" (Perrot 1963b: 559; Anati 1972) وقد جاءت الأواني الفخارية المصنوعة من هذا النوع من الفخار مصنوعة بواسطة اليد ومحروقة بشكل جيد.

وفي نظرنا فإنه بالإمكان تقسيم فترة العصر الحجري الحديث الفخاري إلى فترتين: الفترة الاولى وتضم تحتها أريحا الطبقة التاسعة PNA، والحضارة اليرموكية، أما الفترة الثانية فتحوي أريحا الطبقة الثامنة PNB، والأدوات المشابهة التي ظهرت في موقع عروبة في الأردن (Mallaart 1956) وفي المنحطة الطبقة....

ختاما للحديث عن التسلسل التاريخي لفترة العصر الحجري الحديث في فلسطين فإنه بإمكاننا أن نميز مرحلتين مختلفتين. المرحلة المبكرة والتي تميزت ببداية بسيطة للزراعة وهذه كانت مرتبطة بأن الإنسان كان لا يزال يعتمد أيضا في حياته على الصيد وعلى جمع قوته. والمرحلة المتأخرة والتي تميزت باستعمال الأواني الفخارية وباقتصاد زراعي حيث

أصبح الإنسان منتجا للقوت بشكل فعلي وأفضل من المرحلة السابقة. وفيما يلي نحـــاول أن نفرد موضوعا لكل فترة من هاتين الفترتين:

مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر:

تضم هذه المرحلة الفترات التي أطلق عليها علماء ما قبل التاريخ اسم **PPNA, PPNB**، **PROTO, Neolithic**، أما فترة الانتقال فقد أطلقت عليها كنيون **Proto - Neolithic** فقـــد اعتبرناها هنا جزءا من هذه المرحلة، وذلك بناء على البقايا النباتية التي تم العثور عليــها في الطبقات التي تعود إلى هذه الفترة في أريحا (**Kenyon 1960: 99, 1981:18, 175<220**). وقـــد اعتبرت الأدوات الصوانية والتي تعود لهذه الفترة الانتقالية على أنهـــا تطـــور لـــلأدوات الصوانية الناطوفية، وأنها تمـــيزت بـــرؤوس الســـهام **bifacials, notched arrow-heads** (**Kirkbride 1960d: 115**).

أما البقايا الحيوانية المصطادة والتي عثر عليها في فلسطين وتعود إلى هذه المرحلـــــة، فكانت تتكون من عظام الغزال والماشية والخنزير والثعلب (**Clutton - Brock 1969: 337-345, 1971: 41-55**). وبناء على هذا الأساس فإنه يبدو أن حياة الإنسان في فلســـــطين في هذه المرحلة لم تكن تختلف عنها في المرحلة السابقة حيث عاش الإنسان صيادا وجامعـــا للقوت.

وبالإضافة إلى أريحا فقد عثر على بقايا تعود إلى هذه الفترة في موقع وادي الفـــلاح على الساحل الفلسطيني (**Noy, Legge and Higgs 1973**).

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ):

في مدينة أريحا وفوق بقايا الطبقة الانتقالية ما بين الفترة الناطوفية والعصـــر الحجـــري الحديث استطاعت المنقبة أن تميز بيوتا دائرية الشكل مبنية بواسطة طوب ترابي ذو شـــكل أفقي ـــ محدب **Plano-Convex**. ويظهر من الجدران المتبقة والتي لوحظ أنها تميل إلى الداخل قليلا إلى أن سقوف هذه البيوت ربما تكون مقببة، كما تم العثور على درجات تقـــود إلى داخل البيوت التي كانت مبنية تحت مستوى سطح الأرض. كذلك تم العثـــور في الجهـــة الغربية للموقع على جدار يبلغ عرضه ١،٥ متر وبلغ ارتفاع الأجزاء المتبقية من هذا الجـــدار حوالي ٣،٩٠ متر في الجهة الداخلية لهذا الجدار بني برج يبلغ ارتفاعه ٨،٥ متر، وبداخلـــه درجات تقود من أسفله إلى أعلاه، ولقد بررت كنيون بناء مثل هذا البرج لأغراض دفاعيـــة (**Kenyon 1956:69, 195, 1956a: 6-7**).

بيوت دائرية أو إهليلجية الشكل عثر عليها أيضا في مواقع مختلفة من فلسطين مثـــل عين الملاحة (الفترة الناطوفية) (Perrot 1966c: 437-460). وفي وادي الفلاح والتي تبعـــد حوالي ١٠ كم إلى الجنوب من حيفا (Stekelis and Yisraili 1963:5). كذلك لوحظ هـذا الطراز من المساكن في تل المريبط (Van Loon 1968: 266; Cauvin 1972:106; 1974:48). وفي تل الأسود (De Contenson 1977:40) في سوريا.

أدوات صوانية تنسب إلى هذه المرحلة وجدت في مواقع وادي الفـــلاح والخيـــام وجلجال Gilgal ونحال ـــ لافان موقع ١٠٨ "Nahal Lavan Site 108" في فلسطين. هـذه الأدوات تميزت بـــ notched arrow- heads و burin ومثـــاقب borers مشـــذبة علـــى الوجهين وإزاميل chisels وفؤوس adzes وشفرات منـــاجل sickle- blades وشـــفرات صوانية، بعض الفؤوس الصوانية تميزت بـــ transverse flaking وعثر على مثلها في موقـع وادي الفلاح (Noy, Legge and Higgs 1973: 79-81).

ومع العلم أنه قد تم العثور على بقايا بـــذور شـــعير hordeum distichun وقمـــح "tricticum dicoccum" وتين "ficus" في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخـــار (أ) في أريحا (Hopf 1965: 355-360)، إلا أنه يبدو أن الصيد كان لا يزال يلعب دورا كبيرا في حياة الإنسان في هذه الفترة. ويبدو أن الحيوان الذي كان يصطاد ويؤكل بكـــثرة في هذه المرحلة هو الغزال والدليل على هذا البقايا العظمية التي عثر عليها في أريحـــا ووادي الفلاح (Zeuner 1955:70; Noy, Legge and Higgs 1973: 90-91). كذلـــك تم العثـــور في موقع وادي الفلاح على بقايا بذور عدس "Vicia" (Noy, Legge and Higgs 1973: 92).

ذكر R. de Vaux بأنه خلال هذه الفترة كان هناك صلات تجارية بين فلسطين وبلاد أخرى حيث تم العثور على عدد من الأدوات المصنوعة من مادة الأوبســـديان Obsiden والذي تصدره بلاد الأناضول. وأضاف R. de Vaux بأن أريحا ربما صـــدرت "minerals" المعادن من منطقة البحر الميت مثل الملح والقار والسلفور sulphur (de Vaux 1966:7).

وهكذا نخلص إلى أن الإنسان في هذه المرحلة كان يعتمد في حياته اليوميـــة علـــى الصيد بالاضافة الى زراعة بعض الحبوب مثل القمح والشعير والعدس. لكنه لم يتوصل في هذه الفترة إلى تربية الحيوانات. كذلك فإنه كانت هناك صلات تجارية بـــين فلســـطين وأواسط بلاد الأناضول.

أما خلاف المواقع الفلسطينية فقد تم العثور على بعض المواقع في الأردن والتي مـــن المحتمل إرجاعها إلى هذه الفترة نذكر منها جبل عويند (Uweinid 6A, 6B) والحرانـة IV في

منطقة الأزرق (Garrard and Price 1977: 118-120) وربما أيضا في وادي اليابس في منطقة غور الأردن (Kirkbride 1956).

ولا يعرف حتى الآن بالضبط فيما إذا كانت هذه الفترة قد انتهت في مدينة أريحا عن طريق عوامل طبيعية كالزلازل أو على يد قادمين جدد، لكن كنيون ذكرت بأنه هناك فجوة في موقع أريحا في الفترة الواقعة ما بين هذه الفترة (PPNA) والفترة اللاحقة (PPNB) (Kenyon 1956:73; 1981: 269).

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (PPNB):

بعد أن هجر موقع أريحا في نهاية العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) نرى أنه قد أعيد سكناه مرة ثانية، وربما يكون هذا على يد جماعة جدد! وقد تميزت أدوات هذه الفترة باختلافها عن أدوات المرحلة السابقة من عدة نواح فنرى أن الأدوات الصوانية قد تميزت بشفرات رقيقة طويلة نسبيا (Kirkbride 1960d: 117). كذلك الأمر من الناحية المعمارية حيث جاءت البيوت مبنية بشكل منتظم وغالبا ما تكون مربعة ومبنية من الطوب الترابي المنبسط، ويظهر على هذا الطوب آثار أصابع الصانع (Kenyon 1956:72; 1981:11, 270). ومن ناحية أخرى فقد جاءت الجدران والأرضيات مقصورة وأحيانا مغطاة بطبقة من الدهان الأحمر اللون (Garstang 1937:69; Kenyon 1981:11, 175). وفي موقع أريحا بالذات عثرت كنيون على غرفة مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها ٦×٤ متر وأرضية هذه الغرفة مغطاة بطبقة من القصارة المصقولة ربما تكون معبدا (Kenyon 1954:51).

أما من الناحية الاقتصادية فيبدو أن الإنسان كان لا يزال يعتمد بعض الشيء في حياته اليومية على الصيد إلى جانب الزراعة، وفي موقع أريحا ظهرت أولى بوادر الحيوانات المدجنة مثل الماعز والكلب والوعل إلى جانب الحيوانات غير الأليفة (الخنزير، الماشية) (renueZ ١٩٥٥: ٧٠-٧٥; ١٩٥٨: ٥٢-٥٥). وفي موقع البيضا الذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الشمال الشرقي من البتراء في جنوب الأردن فقد لوحظ أن الإنسان في هذا المكان كان يعتمد على زراعة المحاصيل ورعي المواشي بالإضافة إلى الصيد في معيشته اليومية (Kirkbride 1966a: 207) وفي الطبقة الثالثة التي تعود إلى نهاية الـ PPNB في موقع المنحطة في شمالي فلسطين تم العثور على بقايا حيوانية تمثل ماشية وماعز وأغنام وخنازير (Perrot and Tzori 1977: 871). وأما في سوريا وفي موقع تل أبو هريرة

بالذات فيبدو أن الغزال هو الذي كان يستعمل بكثرة في غذاء الإنسان اليومي بالإضافة إلى الأغنام والماعز والماشية والخنازير (Legge 1975:75).

أما النباتات التي كان يزرعها الإنسان الأول في فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار B فكانت متنوعة أيضا فقد تم العثور في مدينة أريحا على بذور شعير (tow-row (hulled barely وقمح emmer وeinkorn وبازلاء وعدس ونبات علقي (hopf 1969:355).

بالإضافة إلى هذا فقد تم التعرف في موقع البيضا على بقايا بذور الفستق والبلوط (Halbaeck 1966:61-66; Kirkbride 1966:69). مثل هذه المزروعات وجدت أنها كانت تزرع أيضا في تل الرماد والمريبط في سوريا (De Contenson 1966c: 154; 1971: 278; Leroi - Gourhan 1974:443 van Zeit 1970: 167-169; van Loon 1966a: 216; 1968:280).

وقد جاءت معظم الأدوات مصنوعة من مادة الأوبسديان في أريحا في فلسطين كما هو الحال في موقع تل الرماد الطبقات I-II من بلاد الأناضول ومن الشفتلك Ciftlik، بينما جاء بعضها الآخر والذي عثر عليها في الطبقة الخامسة في البيضا في الأردن وبقرص في سوريا ونمروت داغ Nemrut Dag بالقرب من بحيرة فان Lake Van.

أما من ناحية الأجران وأدوات الطحن فقد كانت غالبا ما تتكون من مادة البازلت، وتميزت بأنه كان لها double - saddle وبدون حافة، كذلك كانت هناك بالإضافة للأجران مدقات ومهارس مصنوعة من حجر الغرانيت كما هو الحال في موقع البيضا في الأردن (Kirkbride 1966: 32-35). من مميزات فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار هو استعمال أواني مصنوعة من العجينة البيضاء اللون Wihte Ware هذه العجينة كانت تتركب من الحجر الجيري أو الجبص بالإضافة إلى الرماد وقد تميزت هذه الأدوات بأن جاءت في الغالب كبيرة الحجم وكانت جدران الإناء سميكة جدا، وكانت سطوح الآنية غالبا ما تكون مصقولة. مثل هذه الأدوات عثر عليها في موقع المنحطة في فلسطين (Perrot 1966a:53).

في موقع عين غزال في الأردن (غير منشورة) وفي مواقع تل الرماد والطبقات الثانية والثالثة (Van Liere and de Contenson 1963:180) وفي رأس شمرة الطبقات VA وVB (de Contenson 1977: 46) وفي تل سوكاس ٨٢ـ٨٤ (Riis and Thrane 1974:10, 83) وفي جبيل بيبلوس (Cauvin 1968: 41) هذه المواقع جميعها في سوريا أما في لبنان فقد عثر على أواني تعود لهذه المرحلة في مواقع تل النبعة الفوار (Copeland 1960:90) وفي صيدح Saaydeh (Hours 1969:39) وفي لبوة Labweh الطبقات الثانية والثالثة (Kirkbride 1969c:49).

في عام ١٩٣٥ تم العثور على مجموعتين من التماثيل الصغيرة في أريحا، وقد ذكــــر بأنهما يعودان إلى فترة العصر الحجري الحديث الفخــاري (Garstang 1935:166) بينمـــا تعتقد كنيون بأنهما يجب أن يؤرخا إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبــــل الفخـــار (Kenyon 1960:91). وقد كانت كل مجموعة تمثل رجل وامرأة وطفل، وقد جاء شـــعر الرأس واللحية مرسومة بأشرطة من الدهان بينما العيون مستعاضة بصدفتين صغـــيرتين، وذكر de Vaux بأن هذه المجموعة لها صفة دينية وتمثل كل واحد منها إله وآلهة وإله طفـلي (de Vaux 1960:10).

وبشكل عام فإن الناس في فترة الـــ PPNB قد عبدوا أو قدسوا أسلافهم حيث عـثر على مجموعة من الجماجم المفصولة عن الهياكل العظمية في أريحا وتعود إلى هذه الفـــترة. العيون جاءت مستعاضة بالأصداف البحرية وعضلات الوجه استعيض عنها بطبقة مـــن القصارة، وإحدى هذه الجماجم مرسوم عليها رسوما تمثل الشارب (Kenyon 1957a: 59-64). والهياكل العظمية التي تخص هذه الجماجم جاءت مدفونة تحت أرضيات البيـــوت. وهذه العادة وهي تقديس الأسلاف، ربما تكون استمرارية للفترة السابقة حيث عثر علـى مجموعة من الجماجم مفصولة عن الهياكل العظمية في فترة الـــ PPNA في أريحا (Kenyon 1956: 75). مثل هذه العادة وجد أنها مورست في هذه الفترة ليس فقط في فلسطين وإنمـا في مناطق مختلفة من سوريا والأردن (تل الرماد، والبيضا، عين غزال).

كذلك يبدو أن الأحوال الجوية قد تحسنت في هذه الفترة عن الفترة السابقة (Crown 1972) وهذا مما سبب في زيادة الاستقرار وانتشار المواقع الأثرية التي تعود إلى هذه الفـــترة في منطقة البحر المتوسط من هشلار في جنوب الأناضول شمالا وحتى كلـــوة في شمـــال الجزيرة العربية، ومن المواقع المهمة التي تمثلت بها هذه المرحلة موقع أبو غوش بالقرب مـــن القدس حيث عثر هناك على بيوت مستطيلة الشكل مبنية بواسطة الحجارة وبأرضيـــات مقصورة مشابهة للأرضيات التي تعود إلى هذه المرحلة وعثر عليها في أريحا (Lechevallier M. 1978). بالإضافة إلى هذا فإنه كان هناك أيضا تشابه بين الأدوات الصوانيـــة الـــتي تم العثور عليها في أريحا مع الأدوات التي عثر عليها في أبو غوش علما بأنه في الموقع الأخـــير لم يعثر على فؤوس ومحارف صوانية، إلا أن التشابه كان حـــــاصلا في رؤوس الســـهام وشفرات المناجل وفي المدقات والأجران والأدوات المصنوعة من مادة الأوبسديان.

ويبدو أن الإنسان الذي عاش في موقع أبي غوش في هذه المرحلة قد اعتمد كثـيرا في معيشته على أكل لحوم الماشية والماعز بالإضافة إلى الغزلان والثعالب والخنـــازير البريـــة كذلك تم التعرف على عظام تعود إلى السلاحف والقطط البرية (Perrot 1975:4).

ومن هنا يمكن القول إن حياة السكان في" أبو غوش "في هذه الفترة كانت تعتمـــد على الصيد بجانب الزراعة. كما ذكرنا أعلاه فإن موقع أبو غوش يمكن اعتباره أن يكـون معاصرا لموقع أريحا في فترة الـــ PPNB (Perrot 1952a: 1-4; 1967b: 267; 1968a: 265; 1969a: 423; 1975:4; Lechevallier 1970a: 223; 1971: 227; 1071a: 407; 1972: 400; Prausnitz 1970: 145). بيوت مستطيلة الشكل وبأرضيات مقصورة تم التعـرف عليـــها أيضا في مواقع مختلفة من فلسطين منها موقع وادي الفلاح والذي عثر فيه أيضـــا علـــى أدوات صوانية مختلفة وأدوات طحن تعود إلى فترة الــــ PPNB (Stekelis & Yisraely 1963: 2ff). أما في موقع المنحطة الذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الجنوب من بحيرة طبريـــة فقد تم العثور على مثل هذه البيوت في الطبقات ٦-٣ وجاءت صناعة الصـــوان أيضـــا مشابهة لتلك التي عثر عليها في أريحا وأبو غوش (Perrot 1963a; 1963d; 1964a; 1965a; 1965b; 1967; 1967a; 1967c; 1968a; Perrot and Tsory 1964; 1977).

بالإضافة إلى المواقع التي ذكرناها أعلاه فإن هناك العديد من المواقع الأخرى الـــتي تم التعرف عليها في فلسطين وتعود إلى هذه المرحلة ونذكر منها الشيخ علـــي (Prausnits 1959; 179; 1960a: 120; 1960b: 389-390; 1970: 160ff; 1975: 61-63) وعــــين أم الفـــوس (Tzori 1958: 46) وبيســـامون (Perrot 1966: 271-272; Le Burn 1969: 116-117; Lechevallier and Perrot 1973: 108; Ferembach and Lechevallier 1973: 233) وفي عـــين هشومر (Lechevallier and Dollvus 1973a. 17) وفي الخيام (Echegaray 1966) والحميديـة (Tzori 1958:45; Keplan 1965: 543-544) وكفـــار جلعـــادي (Kaplan 1966: 273; Lechevallier and Dollvus 1973a:19) وغيرها الكثير.

كذلك يستطيع الإنسان الربط بين الإنسان الذي عاش في فلسطين في هذه الفـــترة وفي المواقع المختلفة من منطقة سوريا من حيث عادة تقديس الأسلاف ومن ناحية الطـرز المعمارية المستعملة في الأبنية. هذه الأمور يستطيع الباحث أن يلاحظها في موقـــع تـــل الرماد الطبقتين الأولى والثانية (Van Lier and de Contenson 1966: 154; 1967: 228-229. 1969: 27; 1966: 31-34; 1970; 1971; 1974; 1977; 44-45; Prausnitz 1970b: 156-158; Hooljer 1966: 194-195; van Zeit and S.Bottema 1966; de Contenson and van Leire 1966a; Ferembach 1969; F. Leonard and de Contenson 1973; and Leroi - Gourhan 1974:448). وفي الشيخ حسان (Cauvin 1977) والكوم (Domemann 1966: 68) وبقـــوص (van Liere and de Contenson 1963: 182; Hooljer 1966 de Contenson and van Liere 1966c: 187) وفي غريفة (Leroi - Gourhan 1974: 448; de Contenson 1975a: 17-22 and

وفي تل أبو هريرة (Moore 1977:45 Shaeffer 1939; 1962; 153; and Perrot 1977: 45). وفي الطبقة الثانية في موقع تل أسود (de Contenson 1971: 79; Cauvin, M. Claire 1974a; 1974b, and de Contenson 1977:44).

وكذلك في موقع المريبط (van Loon 1966: 215-216, 1966b: 216; 1968: 266-269, Skenner 1968; van Zeit 1970; Cauvin M. Claire 1974; 1974a; Stroeder - Yadid 1974; and Lerio - gourhan 1974). وجميع هذه المواقع عثر عليها في سوريا.

أما في شرقي الأردن فيعتبر موقع البيضا والذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة البتراء يمثل أهم المواقع التي تعود إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار PPNB، حيث استطاعت كيركبرايد أن تعطينا صورة واضحة لإنسان هذه الفترة في هذا الموقع من خلال حفرياتها التي أجرتها في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٨-١٩٦٧ (Kirkbride 1960b; 1960c; 1960d; 1962a; 1962b; 1963, 1964, 1966a, 1966b, 1967a, 1966a, 1967a, 1967b, 1968a, 1968b).

كذلك استطاعت المنقبة أن تميز في هذ الموقع والذي يغطي مساحة ٥ كم مربع فترتين مختلفتين. الأولى تعود إلى الفترة الناطوفية حيث تم العثور على مواقد للنار وعظام حيوانات وقطع صوانية ترجع إلى هذه الفترة. أما في الفترة الثانية وهي الـ PPNB فقد تمكنت من تمييز ست طبقات سكنية. حيث عثرت في الطبقة السادسة وهي أقدم طبقة تعود إلى هذه المرحلة على بيوت شبه دائرية الشكل واستعملت الحجارة والقضبان الخشبية في عملية البناء وكانت مجاورة لبعضها البعض على شكل ما يشبه خلية النحل. أما في الطبقة الخامسة فجاءت البيوت مبنية أيضاً بشكل دائري ولكن كان كل بيت يقف وحده، وفي الطبقة الرابعة جاءت البيوت مستطيلة الشكل بزوايا دائرية. لكن الحال اختلفت أيضاً في الطبقات الثانية والثالثة حيث عثر على أبنية تتكون من ممر ضيق أطواله ١×٨ متر وبني على جانبه غرف مختلفة الأحجام أطوال الغرفة الواحدة ١×١.٥ متر. وجاءت بعض البيوت مبنية على مستوى سطح الأرض، وعلى هذا الأساس بنيت درجتان تؤديان إلى داخل الغرف أما الطبقة الأولى فقد عثر فيها على بقايا تعود للفترة النبطية (Kirkbride 1977a: 201; 1967:10).

مرحلة العصر الحجري الحديث المتأخرة:

تميزت هذه الفترة بمعرفة الإنسان الأول لمادة الفخار واستعمالها في صناعة أدواته اليومية، ففي مدينة جبيل (بيبلوس) في لبنان وفوق طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) تم اكتشاف نوع من الفخار الأسود المصقول (Mellaart 1975:68) Dark Faced Burnished Ware وهذا النوع من الفخار اكتشف في مواقع مختلفة من فلسطين ذكرناها آنفاً.

وفي نهاية مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر وبداية المتأخر يبدو أن فلسطين كغيرها من مناطق البحر المتوسط قد تعرضت لتغيرات مناخية، حيث رأينا أنه في منطقة الأردن قد تراجعت مناطق السكن في نهاية المرحلة المبكرة من العصر الحجري الحديث من المناطق المعروفة بالصحراء الأردنية الآن إلى المناطق الجبلية ومنطقة وادي الأردن. لكن ما يجب ذكره هنا أن بعض المواقع قد عثر عليها في الصحراء الأردنية وتعود إلى PPNB لكنها ربما تكون قد استعملت كمخيمات أو مناطق غير دائمة للسكن وأن بعض المجتمعات تحولت إلى رعوية وتربي المواشي ومن أهم هذه المواقع موقع في وادي رم اسمه عين أبو نخيلة (Kirkbride 1980).

وقد اعتمد الناس في هذه المرحلة في معيشتهم على زراعة المحاصيل الزراعية وتربية الحيوانات المستأنسة. ولقد ذكر بأنه أخذت في هذه الفترة القرى الزراعية في التوسع (Mellaart 1975: 277) ويبدو أن التجارة في هذه المرحلة لم تلعب دوراً كبيراً كما كان عليه الحال في السابق علماً أن بعض الأدوات الصوانية ربما تكون خاماتها قد استوردت من مناطق أخرى لم تحدد بالضبط بعد (Mellaart 1975: 229).

ومن خلال دراستنا للمخلفات الإنسانية المكتشفة في فلسطين والتي تعود بتاريخها إلى هذه المرحلة أمكننا تقسيمها إلى قسمين فرعيين. القسم الأول والذي نسميه العصر الحجري الحديث المتأخر الأول وهذا يتمثل في الحضارة اليرموكية التي استمدت أصولها من مواقع مختلفة من غور الأردن وفي أريحا الطبقة التاسعة أي المرحلة الأولى التي استعمل فيها الفخار في هذا الموقع وفي المنحطة الطبقة ٢ب (2B). أما العصر الحجري الحديث المتأخر الثاني فيتمثل في أريحا الطبقة الثامنة والمنحطة الطبقة ٢أ١ (2A1) ومواقع فلسطينية أخرى. وفيما يلي نلقي الضوء على كل فترة على حدة.

العصر الحجري الحديث المتأخر الأول:

في موقع أريحا تبع سكان مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر (ب) أناس عرفوا صناعة الأدوات الفخارية. هذه الأدوات تميزت بأنها كانت مدهونة بزخارف حمراء اللون

ومصقولة وقد اتفق على أنها تمثل البداية في صناعة الفخار (Kenyon 1957a: 81). وهـــذا النوع من الفخار عثر عليه في أريحا في حفر كانت مقطوعة في الطبقات العليا من المرحلة السابقة. أما في بقية فلسطين فقد تم العثور على مثل هذا النوع من الفخار في المنحطـــة الطبقة (٢ب) (Perrot and Zori 1977: 872) وفي الطبقة الرابعة في موقع تليلات البطاشـــي (Kaplan 1958a: 83) وفي جفعات هابرسا Givat he- Parsa (Noy 1977: 290). ولقـــد أظهرت هذه المواقع جميعها على أن الإنسان في هذه الفترة استعمل الحفر للسكن.

ولقد ذكرت كنيون أنه ليس من الممكن معرفة ما إذا كانت أريحا قد هجرت لبعض الوقت قبل بداية العصر الحجري الحديث المتأخر أم أن الموقع قد دمر بواســـطة قـــادمين جدد (Kenyon 1957a: 81). وبينما نجد أن de Vaux يعتقد بأن صناعة الفخار قد دخلـت إلى أريحا عن طريق قادمين جدد (de Vaux 1966:13). نجد أن Mellaart يجادل بأن هـــذه الجماعة قد أتت من الاتجاه الشمالي الشرقي لفلسطين (Mellaart 1975: 238). على أيـــة حال، فإن كنيون قد ذكرت بأنه كان هناك فجوة سكانية واسعة في أريحـــا في الفـــترة الواقعة ما بين نهاية مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر وبداية المتأخر، وهذا الشيء غير متمثل في جميع المواقع السورية ـــ الفلسطينية.

في فلسطين يبدو لنا أن الحضارة اليرموكية تمثل المرحلة الأولى في صناعة الفخـــار. واسم اليرموكية كان قد أطلق من قبل M. Stekelis على الأدوات المكتشفة في موقع شعار ـــ هجولان عند مصب نهر اليرموك في وادي الأردن. والذي اعتبر هذه الأدوات أقـــدم في تاريخها من الأدوات الفخارية التي اكتشفت في الطبقات التاسعة والثامنـــة في أريحـــا (Stekelis 1950-15, 1953a, 1972)، وهذا ما تثبت صحته مقارنة مع ما ظهر في المنحطـــة إلى الجنوب من بيسان. حيث استطاع Perrot في هذا الموقع الأخير التعرف على طبقتـــين مختلفتين تعودان لحضارة العصر الحجري الحديث المتأخر هما (٢أ و٢ب). واعتبر الطبقـــة ٢ب٢ (2B2) هي الأقدم والتي تضمنت أدوات مماثلة لما عثر عليه في شعار هجولان، وأما الطبقة ٢ب (2B1) فقد اعتبرت مماثلة للطبقة التاسعة في أريحا IX/PNA. وذكر بأن الطبقـــة ٢أ (2A) احتوت مواد مماثلة لأريحا الطبقة الثامنة VIII/ PNB ووادي ربه. ولقـــد جـــاءت جميع الأدوات المكتشفة في شعار هجولان من طبقة واحدة مكونـــة تـــراب رمـــادي (Stekelis 1950-51, Prausnits 1970: 150).

ولقد تميزت الحضارة اليرموكية بفخار محزز ومزخرفة بالزخرفة المسماة زخـــارف عظام ظهر السمكة herring- bone. وتماثيل صغيرة محفورة على الحصى (Stekelis 1952)

وبأدوات صوانية مختلفة الأشكال منها المناكيش والأزاميل والمخارز وشفرات المناجل التي كانت أسنانها بارزة بشكل كبير (Deeply serrated sickle- blades). وبندرة رؤوس السهام (Stekelis 1950- 51, 4:8, Noy 1975: 128-130).

واعتماداً على تسلسل الطبقات في موقع المنحطة فإنه يمكننا أن نعتبر أن الفخار الذي ظهر في الطبقة التاسعة (IX/ PNA) في أريحا يمثل المرحلة الثانية لفخار شعار هجولان. ولقد ذكرت Kirkbride بأن أريحا IX معاصرة للعمق A/ Early B (Kirkbride 1971: 285)، وهذا ما لا نوافقه، وعدم الموافقة هذه نابعة من أن الفترة A/ Early B في موقع العمق في شمالي سوريا قد حوت نوعاً من الفخار والمسمى DFBW والذي هو أقدم من أريحا IX و لم يظهر في هذا الموقع أيضاً. على أية حال، فإن فخار الطبقة التاسعة في أريحا تتميز بالأشكال البسيطة مثل الصحون والجرار البيضوية الشكل وبأن العجينة كانت مخلوطة بالقش. أما الزخارف فكانت مدهونة باللون الأحمر على بطانة لونها كريمي وبأشكال مثلثات أو خطوط بسيطة أو بشكل زقزاق (Droop 1935: 169-171, Ben Dor 1936: 77-92).

أما الإنسان فقد اعتمد في حياته اليومية على صيد الأسماك والحيوانات وتربية قطعان الماشية والزراعة على درجة أفضل من الفترات السابقة. بالإضافة إلى المواقع المذكورة أعلاه فقد اكتشفت مواقع أخرى في الأردن تعود إلى هذه الفترة نذكر منها الذراع في جنوب الأردن (Bennett 1980: 30-39) وفي الأزرق وعويند (٩) والخرانة (٢) (Garrard and Price 1977: 114, 116, 120).

العصر الحجري الحديث المتأخر الثاني:

خلال الأدوات الفخارية المكتشفة في أريحا وتعود إلى فترة العصر الحجري الحديث استطاعت كنيون تمييز نوعين من الفخار وعثر عليهما معاً في حفر استعملت للسكن. النوع الأول الذي سمي (أ) PNA ويقابل الطبقة التاسعة التي اكتشفتها Garstang في نفس الموقع والنوع الثاني (ب) PNB والذي يماثل الطبقة الثامنة (Kenyon 1957a: 85). ويجادل العديد من علماء الآثار بأن فخار PNA جاء مختلطاً مع PNB في أريحا، وبناء على هذا نجد أنهم يفضلون اعتبارهما يعودان لفترة واحدة (de Vaux 1966:17). لكننا واعتماداً على الحفريات التي أجريت في موقع المنحطة حيث عثر على كل من النوعين السابقين في طبقة منفصلة عن الأخرى فإننا نفضل اعتبارهما يعودان لفترتين مختلفتين متتاليتين.

أما المباني التي عثر عليها في الطبقة الثامنة BNP في أريحا فقد وجد أنها مبنية بواسطة الطوب الترابي، وبشكل مسمى depahs –nub يختلف عن الطوب الذي استعمل في الفترات السابقة واللاحقة. وجاءت الطوبة الواحدة ذات مقطع دائري الشكل بقاعدة مبسطة وبسطح منحني، وموضعة فوق ملاط طيني ومبنية فوق جدار تأسيسي مبني من صف واحد من الحجارة (Kenyon 1957a: 86).

وقد تميزت هذه الفترة بتطور كبير في صناعة الأدوات الفخارية والصوانية. حيث تميزت الأدوات الفخارية بزخارف محفورة حلت محل الزخارف المرسومة على بطانة من الكريم، والعجينة جاءت أكثر صلابة وأفضل حرقاً من الفترة السابقة. أما استعمال القش في العجينة فقد جاء في الفترة السابقة. وبالإضافة إلى هذا فقد ظهرت أشكال جديدة للآنية نذكر منها على سبيل المثال الجرار ذات الحافة على شكل قوس bow-rim jars بأيدي على شكل حلقة واسعة تصبح عريضة عند اتصالها سواء بالبدن أو بالعنق. ولقد اقتصرت عملية الصقل على الأدوات الصغيرة (Kenyon 1957a: 85).

بالإضافة إلى أريحا فقد ظهرت هناك العديد من المواقع التي تعود إلى هذه الفترة منها تل المتسلم (Loud 1948: 59-60) وبيسان (Fitzgerald 1934: 13ff, 1935:6-8 de Vaux) والشيخ علي (Prausnitz 1975:63) وبلاطة (Toombs and Wright 1961: 11ff) وتل الفارعة (de Vaux 1974: 394-433, 1948: 544-580, 1955: 541-584, 1961: 557-592). ولقد ظهرت أيضاً مواقع في الأردن تعود إلى نهاية العصر الحجري الحديث المتأخر، منها غروبة Ghrubba، وتل الشونة الشمالي، وتل أبو هابيل (Mellaart 1956, 1962. and de Contenson 1960).

العصر الحجري النحاسي

لم تكن مرحلة الانتقال من العصر الحجري الأخير إلى هذا العصر حاسمة من حيث التغيير في أنماط المعيشة ووسائل الإنتاج، إلا أن العاملين في الآثار لجأوا إلى الفصل بين العصرين من خلال تغيرات في بعض المكتشفات كالأواني الفخارية والأدوات الصوانية والعظمية، وكما يستنتج من التسمية فإن تصنيع النحاس قد دخل في حياة سكان المنطقة، غير أن الأدوات النحاسية لم تظهر إلا في أواخر هذا العصر وبكميات قليلة وبقيت الأدوات الحجرية والصوانية وكذلك الفخارية هي الغالبة في الاستعمال (de Vaux). وتتواجد مواقع هذا العصر المعروفة لدينا حول الوديان والأنهار ومصادر المياه الأخرى وفي المناطق الخصبة أو مناطق أخرى سهل على السكان استغلالها وجلب المياه إليها.

ويبدو واضحاً زيادة عدد السكان والمواقع السكانية في هذه المرحلة، بالرغم من استمرار نمط المجتمعات القروية الزراعية التي بدأت على شكل قرى صغيرة تطورت بالتدريج دون تخطيط مسبق وذلك على غرار العديد من المجتمعات القروية الزراعية في فلسطين خلال هذا العصر المتجانسة، إذ أثرت في كل منها عوامل بيئية ومقومات اقتصادية متنوعة.

أولى هذه المواقع التي أمكن التعرف عليها وأوضحها هو موقع تليلات الغسول على الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الميت حتى أن هذه الفترة كانت وما تزال تنسب إلى الموقع لتعرف باسم حضارة غسول (Ghassul Culture)، مع أنه تبين فيما بعد أن لهذه الحضارة انتشاراً واسعاً يغطي غور الأردن بأكمله، ومرج ابن عامر والساحل الفلسطيني، وفي الجنوب بئر السبع ووادي غزة، وفي الشرق المناطق الجبلية إلى أن تتصل بالمنخفضات باتجاه الصحراء.

لقد كشفت أعمال المسح والتنقيب عن عدد كبير من مواقع العصر الحجري النحاسي في مناطق فلسطين المختلفة. وتدلنا المكتشفات الأثرية أن لكل منطقة مميزات متنوعة تختلف عن الأخرى رغم التشابه في كثير من عناصرها. يعزى هذا الاختلاف في كثير من الأحيان إلى العوامل البيئية بشكل رئيسي. وعوامل البيئة هذه تتنوع في مناطق أكثر من غيرها مما كان لها أثر على حياة السكان في كل منطقة.

فسكان المنطقة الشمالية أعادوا سكنى مواقع العصر الحجري الأخير التي غالباً ما تتواجد في مناطق زراعية، بينما نجد المواقع الجنوبية في منطقة شبه جافة قريبة من الصحراء، ولا بد من البحث عن الأسباب الحقيقية والمقومات الاقتصادية لوجودها. هناك عدد كبير من المواقع الشمالية التي تدل على استقرار السكان أكثر مما هو الحال في الجنوب، ففي بعض المواقع الشمالية استعمل السكان الحجر والطوب في بناء مساكنهم وتنوعت أدواتهم وأوانيهم الفخارية لتنسجم مع إنتاجهم مع الزراعة التقليدية، مع أنه لبعض هذه المكتشفات صبغة دينية أو فنية تطورت بعض المواقع الشمالية مع نهاية الألف الرابع ق.م لتشكيل بداية مرحلة التمدن في فلسطين. بينما نجد عدداً من المواقع في الجنوب قد اقتصر وجودها على مرحلة معينة من العصر الحجري النحاسي وهجرت بعد ذلك.

وبالرغم من التباين في طبيعة هذه المواقع ومكتشفاتها فإنها تمثل بلا شك ترابطاً حضارياً، وهناك احتمال كبير على أن بعض المواقع الرئيسة قد نشأت بالتعاقب. وقد يعزى هذا التباين إلى اختصاص السكان في كل موقع أو مركز حضاري بصناعات معينة لها علاقة بتوافر هذه المواقع التي أجريت فيها دراسات وأعمال ميدانية.

تليلات الغسول ووادي الأردن

يتكون هذا الموقع من مجموعة من التلال الصغيرة والمنخفضة الواقعة في وادي الأردن إلى الشمال الشرقي للبحر الميت. وتعود أهمية هذا الموقع إلى مكتشفاته الأثرية المتنوعة والتي تميز العصر الحجري النحاسي (٤٥٠٠- ٣٢٠٠ق.م)، والجدير بالذكر أن مكتشفات هذا الموقع صبغت الفترة الزمنية المشار إليها حتى أصبحت تعرف أو تستبدل بالحضارة الغسولية (Ghassulian Culture). وأول من أدرك أهمية تليلات الغسول هو مالون (A. Malon) الذي قاد حملة تنقيب بالاشتراك مع كوبل (R. Koppel) من المعهد البابوي التوراتي بروما في الفترة ما بين ١٩٢٩ و١٩٣٨، وقد أرسل المعهد نفسه عام ١٩٦٠ الأب نورث (R. North) لمواصلة العمل الميداني في الموقع. وفي فترة متأخرة (١٩٦٧- ١٩٧٨) قام بازل هنسي بالإشراف على حفريات تليلات الغسول نيابة عن المدرسة البريطانية للآثار وجامعة سدني الأسترالية.

أمكن من خلال الحفريات المبكرة تمييز أربع مراحل أو طبقات رئيسة (Phases I-IV) تمثل حضارة واحدة عرفت بحضارة غسول وفيما بعد بحضارة غسول / بئر السبع. أما بازل هنسي فقد تمكن من تمييز تسع مراحل سكنية رئيسة يعود أقدمها إلى العصر الحجري الأخير لما قبل صناعة الفخار.

تشير مخلفات الموقع بأنها تمثل مجتمعاً من مجتمعات القرى الزراعية التي انتشرت في فلسطين وغيرها من مناطق الشرق القديم، إذ لم تكن مستوطنة تليلات الغسول كغيرها من المواقع الفلسطينية المعاصرة محاطة بسور دفاعي كما هو الحال في عصر دويلات المدن اللاحقة في الألف الثالث ق.م.

كشفت الحفريات عن مجموعات من البيوت المتجانسة مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة والطوب الطيني أما سقوفها فكانت من القصب والطين. أرضيات البيوت مرصوفة أو مقصورة ولغالبية البيوت ساحة مسورة كانت تستعمل للطبخ والخزين وسائر الحياة اليومية بدليل وجود مواقد وحفر للخزين فيها. ووجد في حفر الخزين قمح وذرة وتمر وبذور الزيتون. وكشفت الحفريات الأخيرة عن غرفة كبيرة ومستطيلة الشكل يعتقد بأنها كانت معبداً.

وأبرز مكتشفات تليلات الغسول بضع أدوات نحاسية تعتبر من أقدم ما عثر عليه من معدن مصنع إلى الآن، وهذا ما يبرر تسمية هذه الفترة بالعصر الحجري النحاسي، ووجد على جدران البيوت طبقات من اللوحات الجدارية (Frescos) المزخرفة بألوان مختلفة تتضمن أشكالاً هندسية ونجوماً وصوراً وأقنعة وأشكالاً أخرى ميثولوجية وخرافية،

ولبعض الأشكال صبغة واقعية مثل صورة لطير له ذيل طويل، وهناك مشهد ديني يتضمن معبودا جالسا وأمامه أشخاص واقفين يقدمون له الطاعة والولاء.

كان سكان تليلات الغسول يدفنون موتاهم، وبخاصة الأطفال، في جرار فخارية وجدت ضمن المنطقة السكنية وبعضها تحت مصاطب البيوت.

أما المكتشفات الأخرى فتضم أعدادا كبيرة من الأدوات الصوانية كالفؤوس ورؤوس السهام والسكاكين والمناشير والمثاقب، وهناك العديد من الأواني البازلتية كالصحون العميقة والمزهريات التي ترتكز على قواعد يتخللها فتحات، ويكثر وجود الأواني والأدوات البازلتية التي كانت تستعمل للجرش والطحن. تشمل المكتشفات رؤوس الدبسات الحجرية والرخامية التي استعملت لأغراض عسكرية ودينية، ومن بينها أيضا المغازل بأعداد كبيرة ووزنات النسيج كدليل على هذه الصناعة.

أما تنوع الأواني الفخارية التي صنع معظمها على العجلة البدائية البطيئة فيظهر أنها تتعلق باستعمالات السكان وإنتاجهم الزراعي وكذلك بوظيفة جزء من الموقع كمركز ديني. من هذه الأواني جرار كبيرة للخزين والمزهريات المرتكزة على قواعد كمثيلاتها من البازلت والأواني المدببة وأخرى للتعليق تشبه ممخضة اللبن. العديد من الأواني مزخرف بصفوف من النقاط المحفورة وأفاريز ملصقة مضغوطة بواسطة أصابع اليد واستعملت على الكثير منها زخارف بالألوان البيضاء والبنية المائلة إلى الإحمرار بأشكال هندسية بسيطة.

المراجع

A. Mallon, R. Koppel, Preliminary Reports in Biblica (1930- 1938);

A. Mallon, R. Neuville, Teleilat Ghassul I, Rome, 1934;

R. Koppel, H. Senes, J.W. Murphy, G.S. Mallon, Ghassul II, Rome, 1940;

W.F. Albright, Recent Progress in the Late Prehistory of Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research 42, 1931, 14f;

W.F. Albright, the Chalcolithic Age in Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research 48, 1932, 10ff,

R. North, Ghassul 1960 Excavation Report, Rome 1961, B. Hennessy, Levant I, 1969; 1-24.

مع أن موقع تليلات الغسول تحتل حتى الآن مكان الصدارة في التعريف على معالم حضارة العصر الحجري النحاسي، الا أن مواقع هذا العصر في وادي الأردن كثيرة وقد يضاهي بعضها تليلات الغسول من حيث الحجم، وفي الحقيقة فإن منطقة وادي الأردن تعتبر أكثر مناطق فلسطين كثافة في مواقع مجتمعات القرى الزراعية التي تعود غالبيتها إلى الألفين الخامس والرابع ق.م، كما دلت المسوحات الأثرية والتنقيبات المحدودة في هذه المنطقة.

وتمتد غالبية المواقع المشار إليها حول مصادر المياه كالسيول والينابيع والوديان الممتدة بين بحيرة طبرية شمالا والبحر الميت جنوبا مثل وادي الكفرين ووادي نمرين ووادي الزرقاء ووادي راجب ووادي كفرنجة ووادي اليابس، ووادي العرب، ووادي اليرموك (Ibrahim and others 1976). من أهم هذه المواقع تل غنام وتل عفاش وغربة على وادي نمرين، تل أم حماد الشرقي والرويحة وذراع الحصيني على وادي الزرقاء، تل السعيدية وتل القلايا على وادي كفرنجة وكذلك تل أبو حامد إلى الشمال منه، تل أبو هبيل إلى الجنوب من وادي اليابس وتل الري وتل الشونة على وادي العرب والباقورة بالقرب من مصب نهر اليرموك في وادي الأردن. تم تأسيس الجزء الأكبر من هذه المواقع في العصر الحجري النحاسي أو الحجري الأخير مع الأخذ بعين الاعتبار صعوبة تمييز حد فاصل بين الفترتين من خلال المكتشفات السطحية، كما اقتصر استعمال عدد منها في هذه المرحلة إذ لم تكن مثل هذه المواقع ذات طابع استراتيجي فلم تعد صالحة لأغراض دفاعية وتحصينية كمواقع العصر البرونزي القديم.

ويبدو واضحا من طبيعة المواقع السكنية وارتباطها بمصادر المياه بأن سكان وادي الأردن إلى الشمال من البحر الميت كانوا مزارعين بينما يرتبط وجود مواقع العصر الحجري النحاسي والبرونزي القديم في وادي عربه إلى الجنوب من البحر الميت بمصادر النحاس واستخراجه كما هو الحال في خربة أفدان وقينان وأخرى كثيرة على الامتداد الغربي لوادي عربة (Rothenberg 1972, 24-26).

بئر السبع والمواقع الجنوبية

هناك ثلاثة مواقع هامة بالقرب من بئر السبع وتتبع حضارة واحدة ضمن العصر الحجري النحاسي، وهي خربة البيطار (Horvat Betar)، وبئر الصفدي، وتل أبو مطر. وهذه المواقع الثلاث متشابهة، وتقع ضمن فترة متأخرة من تليلات الغسول (النصف الثاني للألف الرابع ق. م.)، إلا أنها تنتظم معها في إطار حضاري واحد. وقد اعتمد

الاقتصاد المحلي لهذه المواقع على زراعة القمح والشعير، وكذلك حياة الرعي والاستغلال الجزئي للنحاس بالإضافة إلى التجارة مع المناطق المجاورة (Perrot 1979, 156-158).

أجريت تنقيبات في المواقع المشار إليها (١٩٥١-١٩٦٠) من قبل بعثة الآثار الفرنسية بإشراف جان بيرو (J. Perrot) الذي تمكن من تمييز ثلاث مراحل سكنية متعاقبة تقع جميعها ضمن الألف الرابع ق.م اعتمادا على عينات تم فحصها بواسطة الإشعاع الكربوني (١٤) وكذلك مقارنتها بمكتشفات من مواقع فلسطينية ومصرية من فترة ما قبل عهد الأسرات.

أقدم هذه المراحل ممثلة من خلال مباني تحت الأرض تتضمن غرفا مستطيلة الشكل متوسط أطوالها ٣×٧ متر ولكنه يصل طول بعضها حوالي ١٠ متر. يمكن الوصول إلى الغرف بواسطة مدخل رأسي أو جانبي وترتبط فيما بينها من خلال ممرات ضيقة. يؤدي المدخل في العادة إلى ساحة حيث وجد فوقها مواقد الطبخ وأماكن الخزين. ووجد في أرضيات الغرف حفر للخزين تتسع من الأسفل وتضيق باتجاه الأعلى. ولم تعمر مثل هذه المرافق السكنية طويلا، ويظهر أنها هجرت فجأة، إذ وجد فوق بعض الأرضيات أدوات وأواني في وضعها الأصلي.

ويمثل المرحلة السكنية الثانية غرف دائرية أو مخروطية بنيت من الطوب المجفف فوق أساسات من الحجارة، أما السقوف فتتكون من لوحات خشبية متعارضة ومغطاة بطبقة طينية.

وبقي الموقع مهجورا بعد المرحلة الثانية لفترة يصعب تحديدها تماما، غير أنه تبع ذلك مرحلة ثالثة وأخيرة تم إنشاؤها فوق منازل المرحلة الثانية من الطوب المجفف فوق طبقات من الحصى. وتأخذ الغرف هنا شكلا مستطيلا بأطوال مختلفة إلا أن بعضها تميز بكبر الحجم إذ يبلغ طول الغرفة الواحدة حوالي ١٥ متر. كما وجدت أبنية يتألف كل واحد منها من عشر غرف تصطف حول فناء كبير.

هناك دلائل واضحة على تصنيع المعدن في مواقع بئر السبع حيث وجدت أدوات وأفران لصهر النحاس الذي غالبا ما تم جلبه من المنحدرات باتجاه وادي عربة. من بين المكتشفات النحاسية فؤوس ومخارز وأزاميل وهراوات بالإضافة إلى بعض أدوات الزينة، رغم ذلك فقد بقيت الأدوات الصوانية أكثر استعمالا مع أنها أقل تنويعا من المواقع التي تم العثور عليها في الشمال ومواقع غور الأردن.

تضمنت الأدوات الصوانية مكاشط وأدوات للقطع ومثاقب وأزاميل وبعض رؤوس سهام وشفرات وفؤوس. كما وجدت أواني وأدوات حجرية أخرى كالبازلت والهيماتيت التي استعملت للصقل والدق، وصنعت رؤوس الهراوات من الحجر العادي.

غالبية الأواني الفخارية صناعة يدوية مع أنه يظهر أن بعض الأشكال البسيطة كالصحون مدارة على العجلة. غالبا ما يكون الفخار باهت اللون ويسهل كسره نتيجة لخلطه بالرمل. من الجرار التي يكثر وجودها نوه بفوهة كبيرة وبدون رقبة (hole- mouth) ونجدها في بعض الأحيان مزينة بطبعات الأصابع على حافة الجرة. وتتضمن الزخارف على الفخار أشرطة من الطلاء الأحمر أما على الحافة أو على جسم الإناء. وهناك نوع متميز من الفخار الأبيض أو البيجي يظهر على شكل مزهرية برقبة قصيرة وجسم منتفخ حوله سلسلة من المقابض على شكل آذان.

أهم ما يميز اللقى في مواقع بئر السبع (خاصة في بئر الصفدي) عد من التماثيل (الدمى) الآدمية من العاج تمثل رجالا ونساء. تعتبر هذه التماثيل من أقدم العاجيات المصنعة في الشرق القديم وتمثل تطورا ملحوظا في هذه الصناعة. والجدير بالذكر أنه وجد في بئر الصفدي مصنع للحلي والدمى العاجية والعظمية، مما يدل على أن هذه المكتشفات صنعت محليا وبشكل مستقل عن الحضارات الشرقية القديمة المجاورة.

امتدت حضارة بئر السبع لتشمل الجزء الأكبر من شمالي النقب ابتداء من مواقع وادي غزة في الغرب وتل عرار في الشرق. يبدو أن غالبية مواقع العصر الحجري النحاسي في هذه المنطقة لم تعمر أكثر من مائة سنة، وحتى أن العديد منها لم يسكن إلا لفترات موسمية، وكأنها ترتبط بحياة الرعي والصيد أكثر من كونها مجتمعات زراعية متطورة .(de Vaux 1966, 31)

يرتبط بهذه الحضارة عدد آخر من المواقع من أهمها الكهوف الصخرية التي استعملت للسكن كما هو الحال في كهوف أم قطفة وأم قلعة وعرق الأحمر إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم. ويبدو واضحا أن سكان الكهوف كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع أصحاب القرى الزراعية. هناك عدد آخر من الكهوف المماثلة على امتداد الأودية غربي البحر الميت بما في ذلك وادي سدر ووادي حبرا ووادي سيال.

وجدت مثل هذه الكهوف السكنية أيضا في جرف قمران والمربعات على الشاطئ الغربي للبحر الميت حيث وجدت أدوات صوانية وأمثلة فخارية تماثل تلك التي وجدت في حضارة غسول ـــ بئر السبع. ووجد في أحد كهوف وادي محرس (Nahal Mishmar)

أواني فخارية ولقى أخرى متنوعة من الجلد والقماش وسلال القش ومثسـات اللقـى النحاسية المختلفة ورؤوس الهراوات من الهيماتيت وبعض الأشكال العاجية والتعاويذ.

لم تشهد منطقة الكهوف الصخرية إلى الغرب من البحر الميـت نشـاطا سـكانيا ملحوظا كذلك الذي عاشته في العصر الحجري النحاسي، وهنالك ما يدل علـى أنهم مارسوا طقوسا دينية معينة، إذ وجد معبد من بين مجموعة أبنية فوق مصطبة في منطقـة عين جدي إلى الجنوب من المربعات. ويتضمن المعبد ساحة كبيرة يتصل بها بناء رئيسـي في الجهة الشمالية، وآخر أصغر حجما في الجانب الشرقي، وللمعبد مدخلان يقابل كـل منهما نبع. ويقع المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ويضم غرفة صغيرة مستطيلة الشـكل بمدخلين متقابلين ومقعد يحيط بها من الداخل.

الساحل الفلسطيني

استمر ظهور بعض أنواع الفخار النيوليثي خاصة من النوع المحزز الأحمر المصقول في مواقع الساحل الفلسطيني من العصر الحجري النحاسي. من الصعب اعتبار المكتشـفات من المواقع السكنية الساحلية وحدة مستقلة عن غيرها من مواطن حضارة العصر الحجري النحاسي في فلسطين، إذ تعتبر اللقى الفخارية والصوانية التي وجدت في كل من خربـة الشيخ ميصر (Meser) ومواقع مختلفة في ضواحي يافا وتل أبيب مشابهة لحضارة غسـول ــ بئر السبع (de Vaux 1966, 32) كما لا تتميز المخلفات المعمارية القليلة التي تم الكشف عنها حتى الآن عن بقايا معمارية أخرى في الغسول، إلا من خلال الوظيفة ومواد البنـاء الميسرة. الأثر المعماري الرئيسي الذي عثر عليه في خربة الشيخ ميصر من العصر الحجري النحاسي (Stratum III) عبارة عن بناء مستطيل الشكل أطواله ١٣×٦ متر وله مدخل من الجانب العريض يؤدي إلى غرفة كبيرة تتصل بأخرى أصغـر حجمـا (Dothan 1957, 2170228). حتى أن هذا البناء يشبه في شكله الخارجي المعبد الذي كشف عنـه بـازل هنسي في موقع تليلات الغسول.

إلا أنه من الواضح أن سكان الساحل الفلسطيني مارسوا عادات دفن تختلـف عـن المواقع الجنوبية اوالشرقية ــ أي المرتبطة بتليلات الغسول وبئر السبع. بينما نجد في تليـلات الغسول مدافن فردية داخل جرار فخارية ــ غالبيتها لأطفال، فقد وجـدت في المواقـع الساحلية مدافن جماعية داخل توابيت أو صناديق من الصلصال المجفف على شكل بيـوت، وجدت الصناديق في عدد من المواقع (الخضيرة وياوزر وابن براق) على شكل مجموعـات داخل كهوف كبيرة تم قطعها في الصخر الطبيعي أو الترسبات الرملية. وللكهوف مداخـل

رأسية ويحيط بها من الداخل مصطبة مرصوفة بالحجارة حيث كانت توضع عليها التوابيت الفخارية، (Ory 1946; Perrot 1961; Sukenik 1937) وهذه الصناديق متنوعة ويكاد كل واحد منها يختلف عن الآخر، ولكنها تكون على الأغلب مستطيلة عند القاعدة، ويتخللها فوهة مربعة من الجانب الضيق تتسع لإدخال جمجمة إنسان. وللصناديق سقف قوسي مخروطي. تحمل هذه الصناديق من الخارج زخارف ورسومات هندسية متنوعة، وغالبا ما يتخللها من الأمام صورة وجه إنسان أو شكل حيواني، ويحمل بعضها زخرفة بارزة لقرون حيوانات وأفاعي، غالبيتها منبسطة عند القاعدة إلا أن لبعضها أرجل صغيرة.

وتتضمن الزخرفة الملونة خطوطا متوازية أو مثلثات، وتدل بعض الأمثلة الزخرفية على عناصر معمارية كسقف من الخشب أو أغصان النخيل.

وقد وجدت العظام داخل توابيت الدفن غير كاملة وتتبع شخصا أو أكثر، والواضح أنه تم وضع العظام في الصناديق بعد مرحلة متأخرة من الوفاة، وقد تم حرقها أحيانا ووجد الرماد موضوعا مع العظام.

تدل هذه المكتشفات على تطور واضح في عادات الدفن والمعتقدات الدينية المرتبطة بها والتي تكاد تكون محصورة حتى الآن في الساحل الفلسطيني، مع أنه وجد بعض الأمثلة المشابهة لهذه الصناديق في كهوف أم قطفة وأبو اصبع خارج المنطقة السلحلية (de Vaux 1966, 33).

ويدور نقاش طويل حول أصل المجموعات البشرية التي تنسب إليها صناديق الدفن المشار إليها. يعتقد البعض بأنهم جاؤوا من شرقي الأناضول إذ يتميزوا بجمجمة عريضة وأنف طويل وشعر غزير (Mellaart 1966, 22-23) بينما يرجح الأب ديفو بأنهم ممن مارسوا حياة البداوة وسكنوا منطقة النقب، ولجأوا بقطعانهم للمنطقة الساحلية، وأبقوا مدافنهم فيها (de Vaux 1966, 33).

المنطقة الشمالية

تشكل مواقع المنطقة الشمالية في العصر الحجري النحاسي حلقة وصل بين جنوبي فلسطين وشمالي سوريا. وتتركز المواقع الشمالية في مرج ابن عامر وحول مدينة نابلس وشمالي وادي الأردن، وقد كشف النقاب عن العديد من مواقع هذا العصر كما هو الحال في تل المتسلم، بيسان، تل الشونة الشمالي، إلا أن الموقع الذي أجريت فيه أعمال ميدانية واسعة النطاق هو تل الفارعة على بعد ١١كم إلى الغرب من نابلس بإشراف الأب ديفو. وتمكن المنقبون من تمييز طبقتين رئيسيتين في تل الفارعة وظهرت فيهما مكتشفات

تتشابه جزئيا مع اللقى التي كشف عنها في كل من تليلات الغسول وبئر السبع. ورغم ذلك فإن ديفو يعتقد بأن التطور الذي حصل في المنطقة الشمالية جاء متميزا ومختلفا عنه في المناطق الأخرى (de Vaux 1966, 34). ومن بين المكتشفات التي أظهرتها البعثة الفرنسية أدوات صوانية وأخرى بازلتية وأواني فخارية لونها فاتح. والأواني الفخارية هنا مصنوعة يدويا وحرقها غير مستكمل بالإضافة إلى أن العديد منها مزين بواسطة أفاريز من الصلصال مضافة على السطح الخارجي للإناء. وغالبا ما تكون هذه الأفاريز مزخرفة من خلال حزوز أو بصمات أصابع الصانع.

الهضاب الشرقية

دلت الدراسات السطحية وأعمال المسح الأثرية على وجود عدد كبير من المواقع الأثرية التي تعود للعصر الحجري النحاسي. تمتد هذه المواقع من وادي اليرموك شمالا وحتى خليج العقبة جنوبا، إلا أن المواقع التي أجريت فيها تنقيبات حتى الآن قليلة للغاية. وتجدر الإشارة هنا إلى موقع سحاب إلى الجنوب الشرقي من عمان حيث أجرت دائرة الآثار وجامعة اليرموك الأردنيتين حفريات تبين من خلالها أن الموقع وجد أكبر اتساع له في العصر الحجري النحاسي. وقد تم الكشف عن عدد من البيوت أو الوحدات السكنية المبنية من الحجر، ووجد معها أرضيات مقصورة، وعدد كبير من حفر الخزين التي وجد في بعضها كميات من القمح والشعير. أحد هذه الوحدات السكنية عبارة عن مجموعة من الغرف تصطف حول ساحة مقصورة يتخللها حفر كبيرة للخزين غالبا ما كانت لأغراض جماعية، وأرضيات بعض الغرف مقطوعة جزئيا في التربة الطبيعية لتظهر على شكل مصطبة مرتفعة. ومن بين ما كشف عنه عدد من الكهوف الصخرية التي استعملت لأغراض السكن في العصر الحجري النحاسي. ويتصل بالكهوف جدران من الحجر تم بناؤها أمام المدخل الجانبي للكهف، ووجد في بعض الكهوف أرضيات متعاقبة مما يدل على أنها استعملت لفترات متقطعة. وتدل اللقى التي وجدت في الكهوف والبيوت السكنية على علاقة واضحة بحضارة غسول ـــ بئر السبع، وتضم هذه اللقى أدوات صوانية وأواني فخارية متنوعة وأخرى بازلتية (Ibrahim 1972, 23; 1974. 55-61; 1975, 69-82).

بقي أن نذكر الأنصاب الحجرية المعروفة بالدولمن (dolmens) والتي هي عبارة عن بلاطات صوانية كبيرة على جانبها فوق مصاطب وسقفت بواسطة بلاطة مماثلة تخرج عن أطراف البلاطات الجانبية ويحيط بها في العادة ساحة دائرية مرصوفة. تظهر الدولمن

أحيانا على شكل صفوف متصلة ضمن ساحة واحدة. وتنتشر على شــكل حقــول أو مجموعات وتتمركز بشكل رئيس فوق الهضاب المطلة على وادي الأردن، إلا أن غالبيتـها تتواجد على الهضاب الشرقية بالقرب من كفر يوبا ودامية ووادي حســبان والعظيمــة وناعور. و لم يتمكن الدارسون بعد من معرفة تاريخ دقيق أو وظيفة محددة لهذه الأنصــاب مع أنها كثيرا ما تنسب للألفين الخامس والرابع ق.م، وتشير بعــض الأمثلــة إلى أنهــا استعملت كمدافن. ومن المحتمل أن أصحاب الدولمن كانوا يمارسون حياة غير مســتقرة، أو أنهم كانوا من الرعاة الذين أرادوا إبراز مدافنهم على شكل صــروح (de Vaux 1966, 42-43).

(ظهور دويلات المدن)

العصر البرونزي القديم (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)

المرحلة الأولى: (٣٢٠٠- ٢٠٠٠ ق.م)

شهدت منطقة الشرق القديم بما في ذلك فلسطين مع نهاية الألف الرابع ق.م تغيرا حاسما في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية. وأكثر ما يميز هذه المرحلة في فلسطين ظهور أعداد كبيرة من المدافن المقطوعة في الصخر (Shaft tombs) تنسب إلى جماعات وضعت نهاية لحضارة العصر الحجري النحاسي أو حضار غسول ــ بئر السبع، و لم يكشف إلى الآن عن مواقع سكنية تتناسب والعدد الكبير لهذه المدافن، وإذ ما وجدت مثل هذه المواقع فإنها غالبا ما تكون أقرب إلى معسكرات أو مواقع مؤقتة أو موسمية منها إلى مواطن استقرار دائمة على غرار مجتمعات القرى الزراعية المتطورة التي تميز الألفين الخامس والرابع ق.م في فلسطين.

تظهر هذه المدافن في فلسطين لأول مرة وتنتشر على نطاق واسع، كما واستعملت لأغراض الدفن الجماعي ليصل عدد الهياكل العظمية في المدفن الواحد أحيانا إلى بضع مئات مما يدل على أنها تغطي مرحلة استعمال طويلة. ومع أن بعض الكهوف الصخرية الطبيعية استعملت لأغراض الدفن إلا أن الغالبية العظمى للمدافن التي تم العثور عليها مقطوعة في الصخر أو التربة الطبيعية ويتفرع عن مداخلها الرأسية غرف (تجاويف) جانبية تتراوح من غرفة واحدة إلى أربع غرف. وجد مع الهياكل العظمية في كل غرفة عدد كبير من اللقى أو المرفقات الجنائزية بشكل رئيس أواني فخارية وبازلتية، وبعض الأدوات البرونزية.

واختلف العاملون في الآثار الفلسطينية في تفسير هذه المرحلة الانتقالية، وأطلقوا عليها مصطلحات وتسميات مختلفة تبعا لمفاهيمهم في تفسير المكتشفات أو للشواهد التي ظهرت في المواقع التي أشرفوا على التنقيب فيها. لذا نسبها الأب رولاند ديفو إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري النحاسي (Late Chalcolithic) اعتمادا على حفرياته في تل الفارعة بالقرب من نابلس (de Vaux 1966, 36-42) وجاءت كاثلين كنيون بمصطلح "ما قبل التمدن" (Proto- Urban) نتيجة لحفرياتها في تل السلطان (Kenyon 1960, 4-10) وتبعها هنسي (Hennessy 1967, 6-18) وأنـاتي (Anati 1963, 343-374)، وكـلاوي (Callaway 1964). واعتبر الكثيرون هذه المدافن وما وجد فيها من مكتشفات بالإضافة إلى الطبقات السكنية المعاصرة على أنها مرحلة مبكرة من العصر البرونزي القديم (Wright 1958, 37-45; Amiran 1970, 83- 96; Lapp 1970. 101). كما وقع خلاف في تصنيف المكتشفات، وفي أصل أصحاب المدافن، إلا أنه من الواضح أن نوعين جديدين من الفخار قد ظهرا، أحدهما في شمالي فلسطين والوسط، خاصة في منطقة مرج ابن عامر من النوع الرمادي المصقول، والأخر في الجنوب من النوع الأحمر المصقول أحيانا. وقد نسبت كنيون وغيرها كل نوع إلى مجموعة بشرية جاءت إلى فلسطين في أواخر الألف الرابع ق.م من جهات مختلفة، وغالبا ما تكون من الشرق والشمال (Kenyon 1970, 84-100)، ويعتقد بعض الباحثين أن أشكالا فخارية معينة قد تطورت من تلك التي كانت معروفة في العصر الحجري النحاسي (Hennessy 1967, 46-47).

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف الطبقات السكنية التي تمثل هذه المرحلة إلا أنه أمكن تمييزها في عدد من المواقع مثل تل المتسلم (Levels XX- XIX)، وبيسان (Levels XVII-XVI)، والعفولة، وتل أبو زريق، وتل الأساور، وخربة الشيخ ميصر (Levels II-I)، وخربة الكرك، وتل أبو حماد الشرقي، وتلول أبو العلايق، وأريحا، وباب الذراع، وتل الفارعة الشمالي، وياوزر والتل (عي)، وتل الدوير (de Vaux 1966, 36-42).

تبدو عادات الدفن في هذه المرحلة غريبة، ولقد أشرنا سابقا إلى أن جميع القبور مقطوعة في الصخر، واستعملت لأغراض الدفن الجماعي، إلا أنه لم يعثر بالضرورة على جميع أجزاء الهياكل العظمية، كما وجدت بعض العظام مرتبة حول غرف الدفن من الداخل وجد البعض الآخر في الوسط. والجدير بالذكر أن عددا من الهياكل العظمية التي وجدت في أريحا كانت قد حرقت قبل وضعها داخل القبور. وتدلنا بعض مجموعات المدافن على أنها قطعت في الصخر من قبل مجموعة متخصصة في حفرها وتهيئتها، كما ويظهر بأن الأواني الفخارية التي يتكرر وجودها بكثرة قد صنعت خصيصا في مصانع

مركزية لتوضع مع الموتى. ومن المحتمل أيضا أن بعض حقول المدافن الكبيرة كتلك التي وجدت في تل المتسلم وتل الفارعة وأريحا وباب الذراع وغيرها قد استعملت لمناطق أوسع من المواقع المحيطة بالمدافن.

تشير الدراسات المقارنة التي أجريت حتى الآن على وجود علاقات وطيدة بين فلسطين والمناطق المجاورة في نهاية الألف الرابع ق.م. وقد ظهر العديد من المكتشفات المتشابهة (الفخارية والأختام الأسطوانية ورؤوس الهراوات كمثرية الشكل) في كل من فلسطين ومصر، حتى أن بعض الجرار الفخارية غالبا ما تم تصديرها إلى مصر، أو أنها تقليد للصناعة الفلسطينية. كما وجدت أقرب الأمثلة للفخار الفلسطيني من النوع الرمادي المصقول في أواسط وشرقي الأناضول، وكذلك في مواقع الساحل السوري مثل طرطوس وطبارا الأكراد. وظهر ما يشبه هذا الفخار في عدد من مواقع بلاد ما بين النهرين من مرحلة الوركاء.

ويبدو أن سكان فلسطين أخذوا في تزايد مستمر، وأصبحوا يطورون في مواقعهم السكنية تدريجيا حتى أصبحت مدنا محصنة ذات طابع مستقل يصنع المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم.

المرحلة الثانية (٣٠٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م)

تتميز المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم بتأسيس العديد من المدن المسورة التي يعود الفضل في إنشائها إلى أصحاب المدافن ذات المداخل الرأسية. ويلاحظ انتشار المدن المحصنة هذه في جميع المناطق الفلسطينية بما في ذلك المنطقة الساحلية ومرج ابن عامر وسلسلة الجبال الغربية ووادي الأردن والهضاب الشرقية في الأردن وحتى موقع جاوة في الصحراء. كما وأصبح تأسيس المدن ومرافقها الدفاعية والعامة والسكنية يفرض شيئا من التخطيط المسبق، وغدت المدن الرئيسة تمثل وحدات سياسية مستقلة أشبه بدويلات المدن التي يتبع لها عدد من القرى الزراعية. ويحتل عدد من هذه المدن هضابا استراتيجية، ولكنها ليست بالضرورة فوق المرتفعات الجبلية العالية.

ومن أهم هذه المواقع: تل المتسلم وتل تعنك وبيسان والعفولة في مرج ابن عامر، وتل الفارعة بالقرب من نابلس، خربة الكرك (Beit Yareh) على بحيرة طبرية، وأريحا وتل أم حماد الشرقي وغيرهما من مواقع وادي الأردن، وباب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت، وكذلك التل (عي) وتل النصبة والقدس في الوسط، وتل الدوير (Lachish) وعراد (Arad) وتل أبو شوشة (Gazer) وتل بيت مرسيم في الجنوب، ورأس العين وخربة

الشيخ ميصر (Meser) وتل الشيخ أحمد العريني (Gath) بالقرب من الساحل الفلسطيني. وهناك موقع جاوة في الصحراء على بعد حوالي ٧،٥ كم إلى الشرق من المفرق حيث أظهرت الحفريات أسوار مدينة فوق مرتفع طبيعي.

وتتميز هذه المرحلة باستعمال عجلة الفخار على نطاق واسع واهتدى سكان فلسطين إلى خلط النحاس بنسبة معينة من القصدير فأنتجوا أدوات برونزية متعددة الأشكال والوظائف.

المرحلة الثالثة (٢٧٠٠ - ٢٣٠٠ ق.م)

لم تشهد هذه المرحلة تغيرا حاسما في الإنتاج أو العمارة، وكثيرا ما استمر سكنى المواقع سالفة الذكر مع بعض التغييرات أو الإضافات على مرافقها المعمارية، مع أن بعض المواقع قد هجرت تماما مع بداية هذه المرحلة. وأكثر ما يميزها فخار من النوع المعروف بفخار خربة الكرك نسبة إلى الموقع الذي أمكن التعرف فيه على هذا النوع لأول مرة، إلا أنه ظهر فيما بعد أنه له انتشارا واسعا يضم المواقع التالية: تل الشونة وتل المتسلم والعفولة وتل تعنك وأريحا وبيت ساحور والتل وتل أبو شوشة (Gezer) وتل الحسي ورأس العين وخربة الطبائق (رأس الناقورة).

هذا النوع من الفخار مصنوع يدويا من طينة خشنة مخلوطة ببعض الكسر الحجرية والتبن، ويغطي جسم الإناء من الخارج قشرة مصقولة لامعة ويتخللها أحيانا زخارف بارزة أو أخاديد، أما لونها بين بني فاتح إلى أحمر — بني أو أسود، وأحيانا خليط بين هذه الألوان نتيجة لكيفية حرق الأواني.

وتتنوع أشكال الأواني ولكن الشكل الغالب هو الصحن العميق بأحجام مختلفة الذي يظهر أحيانا في بعض المواقع دون غيره، كما يتصل ببعض الأواني يد واحدة بين الحافة والكتف.

ومن الواضح أن هذا النوع من الفخار لا يتصل مباشرة بالصناعة التقليدية للفخار في فلسطين، وقد أمكن تتبع مصدره حتى شرق وأواسط الأناضول مرورا بمواقع أو مناطق ساحلية شمالية وأخرى داخلية مثل سهل العمق وحماة ونهر العاصي (Hennessy 1967, 75). وقد رأى البعض أن وجود هذا الفخار كان نتيجة لهجرة أو هجوم بشري من الشمال (Amiran 1952, 89-103)، في الوقت الذي لم يرافق ظهور فخار خربة الكرك تغير واضح أو تدمير للمدن والمواقع الفلسطينية الأمر الذي دفع هنسي وغيره إلى اعتبار وجود

هذا الفخار عن طريق التجارة أو من خلال فئات صغيرة جاءت من الأناضول إلى شمالي سوريا وفلسطين (Hennessy 1967, 74-76).

العمارة في المرحلتين الثانية والثالثة:

أ ـ المساكن:

لقد كانت مادة البناء الرئيسة في المدن والقرى الفلسطينية من الطوب المجفف على أرضية من الحجارة الملساء، مع أن الحجارة غير المهندمة استعملت في عدد من المواقع. وغالبا ما كانت أرضيات البيوت من التراب أو الحور المرصوص وكانت الأرضيات المرصوفة قليلة أو أنها محصورة في ساحات البيوت التي كانت تضم مرافق الطبخ والخزين. وقد خزن أصحاب هذه البيوت حبوبهم في جرار كبيرة التي كثيرا ما وضعت داخل حفر. واستعان السكان في هذه الفترة بالأخشاب لتشكل المادة الرئيسية في سقف البيوت والتي كانت تدعم بأعمدة من الخشب أيضا، وأوضح الأمثلة على ذلك تلك التي وجدت في تل الفارعة والتل (عي) وعراد وباب الذراع.

وكثيرا ما كانت البيوت مؤلفة من غرفة واحدة وقد أضيفت غرف أخرى تبعا لحاجة السكان وإمكاناتهم، وهنالك منازل للأغنياء مؤلفة من غرفتين أو أكثر كتلك التي وجدت في بيسان وتل الفارعة.

ب ـ المعابد والمباني العامة:

احتوت كل مدينة من مدن العصر البرونزي القديم في العادة معبدا أو أكثر، وقد ظهر ذلك خاصة في المواقع التي تم الكشف عن أجزاء واسعة منها كما هو الحال في التل (عي) الذي عثر فيه على معبد أعيد بناؤه ثلاث مرات أو أنها تمت على ثلاث مراحل أبرزها المرحلة الثالثة حيث يتألف المعبد من ثلاث غرف. أحد هذه الغرف عبارة عن قاعة أطوالها ٨،٥×٦ متر، ووجد فيها مقعد من التراب المرصوص على جانبين من جدرانها الداخلية. وعثر على هذا المقعد أواني التقدمات ذات طابع ديني. وتضم هذه التقدمات جرار كبيرة مغروسة في الأرض، بالإضافة إلى حجرتين مربعتي الشكل. كما وجد في غرفة أخرى مذبح (Altar) وغرفة مقدسة (Cella)، وفوق المذبح صينية ضمت أواني فخاريةورخامية وصحنا من الغرانيت صناعة مصرية وقطعا أخرى تتعلق بالطقوس الدينية. بنيت جدران المعبد هذا من الحجارة تغطيها طبقة من القصارة.

كما كشفت حفريات تل الفارعة عن معبد صغير من المرحلة الأولى يتكون من جزئين: الغرفة المقدسة لها مدخل من الجهة الشرقية وتضم مذبحا وطاولة تقدمات، وصحنا مقدسا. وقد أعيد استعمال هذا المعبد في مرحلة لاحقة وبطل استعمالها لأغراض دينية.

كذلك تم العثور في الطبقة السابعة في أريحا (المرحلة الأولى أ) على معبد، وهو عبارة عن غرفة تبلغ أبعادها حوالي ٥،٢٥×٢،٥٠ متر ، يحيط بجدران هذا المعبد عند الطرف الشمالي ــ الغربي دكة مرتفعة تشكل منصة، وأما المدخل فيوجد في الحائط الشمالي الطويل. وقد جاءت الجدران والأرضيات مقصورة بشكل جيد، ويفصل ما بين غرفة هذا المعبد والبيوت المجاورة جدران قوية. وقد عثر على معابد مشابهة لهذا المعبد في بلاد الرافدين، وسوريا (de Vaux 1966: 16).

كشفت الحفريات في موقع تل المتسلم، وفي الطبقة السابعة عشرة أو السادسة عشرة عن كومة من الحجارة بشكل إهليلجي نوعا ما، ويصعد إليها بواسطة درج. وربما كانت تستعمل كمذبح حيث تم العثور على عدد كبير من العظام الحيوانية والأواني في هذا المكان وهذا مما يدل على أنها كانت تستعمل كمكان لتقديم القرابين. وهذا النوع من الأماكن المرتفعة كان معروفا بل شائعا في البلاد الكنعانية.

ومن أشهر المعابد التي عثر عليها في فلسطين، إلى مرحلة العصر البرونزي القديم الثالث ذلك الذي تم العثور عليه في موقع التل (عي). وقد جاءت الملتقطات الفخارية من هذا المعبد مشابهة لتلك التي عثر عليها في قبر في أريحا وبيسان الطبقة XII وتعود إلى المرحلة الثالثة من العصر البرونزي القديم (Hennessy 1967: 25).

المدافن:

تبقى المدافن الشاهد الرئيسي على الفترة الزمنية التي تسبق عصر دويلات المدن، وقد وجدت غالبا في مواقع سكنية تطورت إلى مدن محصنة كما هو الحال في تل المتسلم، أريحا، بيسان، تل الفارعة وباب الذراع. وقد تم قطع هذه المدافن في الصخر الطبيعي على شكل كهف أو بئر. ويتضمن المدفن في العادة عددا من الغرف الجانبية تتفرع عن المدخل الرأسي. واستعملت جميع الأمثلة المعروفة لدينا لأغراض الدفن الجماعي، إذ يصل عدد الهياكل العظمية في المدفن الواحد إلى العشرات أو المئات، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأنها تغطي فترة زمنية قصيرة قد تصل إلى ٢٠٠ ـــ ٣٠٠ سنة.

لا شك بأن المدافن ذات المداخل الرأسية تمثل شيئا جديدا في عادات الدفن لم تكن معروفة من قبل، ويعزو بعضهم هذه الظاهرة الجديدة إلى مهاجرين جدد أدخلوا عادات دفن مغايرة لما كان سائدا في العصور السابقة، ويرى هؤلاء أن المرفقات الجنائزية، وبشكل خاص الأواني الفخارية ذات اللونين الأحمر والأسود المصقولين، وكذلك الفخار الملون من إنتاج القادمين (Kenyon 1960, Lapp 1970: 101-131)، بينما يعتقد ديفو أن هذا التطور كان محليا واعتبره استمرارا لحضارة غسول ـ بئر السبع (de Vaux 1970). وجدت مدافن هذا النوع في مختلف المواقع الفلسطينية خارج المواقع السكنية، وهي متجانسة إلى حد كبير من حيث شكلها ومحتوياتها، لذا نورد هنا وصفا مختصرا للمدافن التي تم الكشف عنها في موقع باب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت.

استطاع المنقبون تمييز أربعة أنواع رئيسية من المدافن في باب الذراع. يمثل كل نوع مرحلة زمنية لتغطي بمجموعها مراحل العصر البرونزي القديم، أي في أواخر الألف الرابع حتى نهاية الألف الثالث ق.م (Lapp 1960, 1968, 1970; Ibrahim 1972; Rast and Shaub 1978; 1980, Ortner 1981; Frohlich and Ortner 1982).

النوع الأول والأقدم (Shaft Tombs):

وهو عبارة عن تجويف عمودي مقطوع في الصخر يزيد عمقه على المترين وقد يصل إلى أربعة أمتار. يتسع في الأسفل ويتفرع عنه تجويف آخر أو أكثر. واستعملت التجاويف أو الغرف الجانبية لأغراض الدفن. والمدخل بيضوي أو أسطواني الشكل تقريبا، وأحكم أغلاقه بتراب كلسي من نفس الصخر الذي قطع فيه القبر، وفي حالات أخرى تم تغطية المدخل بلوحة حجرية كبيرة تم وضعها بدقة تحت الفوهة بقليل، أما مداخل التجاويف الجانبية فقد أغلقت بواسطة بلاطات حجرية يتخللها أحيانا حجارة أصغر حجما، ووجد خلف كل مدخل درجة تؤدي إلى أرضية الغرف الجانبية.

والجدير بالذكر أن البعثة التي تنقب في باب الذراع منذ عام ١٩٦٥ قد كشفت عن عشرات بل مئات المدافن من هذا النوع، ويظهر أن غالبيتها بقيت بعيدة عن أيدي العابثين واللصوص.

محتويات المدافن:

غالبا ما احتوى المدفن الواحد على كوم من العظام لعشرات الموتى ألقيت على أرضية من الرمل الناعم أو الحصير، الكبيرة منها مرتبة بالتوازي والصغيرة دون انتظام

ووضعت الجماجم على حدة. تمثل الجماجم رجالا ونساء وأطفالا مصطحبين بـــأعداد كبيرة من الأواني الفخارية، وكثيرا ما وجد وعاء أو وعاءان من البازلت، وكذلك هــراوة من الرخام أو البازلت، وظهرت في بعض المدافن دمى من الطين أو الفخـــار وأســاور وأسلحة برونزية. وتعد الأواني الفخارية التي استخرجت من مدافن باب الذراع بعشرات الآلاف تتضمن أصنافا محدودة تم صناعتها على ما يبدو في مصانع مركزية، ويظـهر أنها صنعت خصيصا لأغراض الدفن و لم يسبق أن استعملت لأغراض أخرى.

ما زالت المدافن ذات المداخل الرأسية ومحتوياتها هي مصدر معلوماتنا الرئيسية عـــن نهاية العصر الحجري النحاسي وبداية العصر البرونزي القديم. أما بالنسبة للمواقع السكنية المعاصرة لها فإنها تكاد تقتصر على ما هو أشبه بالمعسكرات كما هو الحـــال في بـــاب الذراع (Lapp 1966, 1970)، أريحا (Kenyon 1957: 93-102; Hennessy 1067)، تلول أبـــو العلايق بالقرب من أريحا (Prichard 1058; 14ff)، خربة الكرك على بحيرة طبرية (Maisler and Stekelis 1952: 16ff). قد يشكل موقع جاوه الذي يقع على بعد حوالي ١٤٠ كـــم إلى الشمال الشرقي من عمان، استثناء حيث عثر المنقب سفند هيلمز على مدينة محصنـــة يعيدها إلى مرحلة المدافن ذات المداخل الرأسية (Hemls 1981).

النوع الثاني: المدافن القببية

هناك عدد قليل من مدافن باب الذراع التي تلي النوع الأول زمنيا وقد تشكل حلقة وصل بين المدافن ذات المداخل الرأسية والمدافن المستطيلة. تم بناء هذا النوع من الطـــوب على شكل قبة، يستدير في الأسفل ويضيق باتجاه الأعلى وله مدخل ضيق نسبيا يحيط بـــه بلاطتان حجريتان يعلوهما بلاطة ثالثة. يسبق المدخل باحة صغيرة مســـورة ومرصوفـــة بالحجارة. مادة البناء والمدخل مع الباحة المرتبطة به تشبه إلى حد كبير الوضع في مدافـــن النوع الثالث (المدافن المستطيلة). يعيد المنقبون تاريخ هذا النوع إلى مرحلة مبكرة مـــــن العصر البرونزي القديم ــــ أي مستهل الألف الثالث ق.م.

النوع الثالث (Charnel House):

وهو عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل جدرانها مبنية من الطوب على طبقـــــة مـــن الحجارة غير المنتظمة. وتبلغ أطوال المدافن المتوسطة الحجم ١١،٥٠×٥،٥٠ متر، بينمـــا كشف عن مدفن أطواله ١٥،٥٠×٧،٨٠ متر ليشكل أكبر مدفن في الموقع حــــتى الآن،

يتخلل المدفن مدخل منطقة وسطية للجانب العريض للغرفة كما هو الحال في المنازل والمعابد الكنعانية. ويصطف على جانبي المدخل بلاطتان حجريتان يعلوهما لوحة أخرى، بينما أغلق المدخل بواسطة بلاطة أو أكثر من نفس النوع. ويوصل المدخل بأرضية الغرفة درجةأو درجتان. ووجدت غالبية المدافن مرصوفة بالحصى، وهناك دلائل واضحة على أنه سقف بواسطة لوحات خشبية بعرض الغرف شوهد حريق شمل عددا من هذه المدافن، ومن المحتمل أن الحريق قد تسبب من المهاجمين للمنطقة ودمروا المدينة المحصنة الواقعة إلى الشمال من منطقة المدافن.

وتتضمن موجودات هذه المدافن أكواما من العظام بلغ ارتفاعها أحيانا أكثر من المتر. وبعض هذه الأكوام كانت مصنفة حسب أحجام العظام، فيظهر أن العظام الكبيرة قد وضعت على جانب والصغيرة على جانب آخر، والجماجم منفصلة عنها، وكذلك حال الأواني الفخارية التابعة لها، إلا أنه يجب القول أنه عثر على هذه الأكوام أحيانا بشكل يخالف هذا التصنيف.

ويستدل من الكيفية التي وجدت فيها محتويات المدفن وأنواع الأواني الفخارية بأن هذا النوع من المدافن استعمل لفترة طويلة قد تصل إلى مئات السنين لتغطي مرحلتين رئيسيتين من مراحل العصر البرونزي القديم (Early Bronze Age II-III). وتتضمن الأدوات الفخارية تنويعا أكثر من المدافن الأقدم، فمنها ما هو مصقول ومغطى بقشرة رقيقة ملساء أومطلي باشكال هندسية، وألصق على جوانب العديد منها أيساد مختلفة الأشكال والأحجام بشكل أفقي. وهناك عدد وافر من الأواني المعروفة بأباريق أبيدوس مصرية الأصل. والجدير بالذكر أن الأواني الفخارية التي وجدت في هذه المدافن مدارة على العجلة وتشبه إلى حد كبير ما يعثر عليه في المدن والمواقع السكنية المعاصرة لها، كما عثر بداخل المدافن على لوحات ودبسات من الحجر ومجموعات من الخرز وبعضها من الذهب، وكذلك أسلحة تضم فؤوسا وخناجر طويلة. ومن بين المكتشفات بقايا من القماش والخشب شمله الحريق.

ويتصل بالمدخل من الخارج باحة مستطيلة مرصوفة بالحجارة ويحيط بها جدار منخفض من الطوب، يعتبر باب الذراع من أهم المواقع في فلسطين والأردن من عصر دويلات المدن للألف الثالث قبل الميلاد، والتي تلت المواقع ذات المدافن الرأسية كما تقدم المدافن المستطيلة أمثلة ليس لها مقارنات مباشرة في المنطقة. وبالرغم من انتشار المدن على نطاق واسع فإن المدافن التي تم الكشف عنها حتى الآن قليلة نسبيا. الأمثلة المعروفة لدينا من الألف الثالث قبل الميلاد توجد خارج المدن أو المناطق السكنية، وغالبا ما دفن سكان

المنطقة موتاهم في كهوف أو غرف صخرية وجدت على جوانب الهضاب والمرتفعات. فوهات هذه المدافن على مستوى أرضياتها تقريبا بخلاف المدافن ذات المداخل الرأسية. أما غرف الدفن فكانت إما لعائلة أو لمجموعة بشرية تم دفنها عبر مرحلة طويلة، وقد وضعت الجثث تبعا لنظام معين بحيث يترك مكان لوفيات جدد. لم نستطع التعرف تماما على الكيفية التي دفن فيها الموتى بسبب الدمار الذي أصاب غالبيتها، إلا أن بعض الأمثلة التي تشير بأنها وضعت على جانبها، كان لها وضع قرفصائي، أي بثني الركبتين وضم اليدين أمام الوجه. وهناك أمثلة تدل على حرق الموتى قبل دفنهم، كما هو اىلحال في خربة الكرك على بحيرة طبرية، وفي بعض مدافن باب الذراع المستطيلة. ووجدت بعض هذه المدافن في أريحا وتل الجزر في الجنوب من فلسطين (Kenyon 1960: 52ff: 8-11; de Vaux 1966: 17-19).

النوع الرابع (Calrn Tombs):

عبارة عن حفرة عامودية محفورة في الصخر يتفرع عنها غرفة جانبية أو أكثر (صفحة ١٥٥). وجد في الغرفة هيكل عظمي واحد بصحبته بضعة أواني فخارية صنعت باليد عدا العنق الذي تظهر عليه آثار العجلة، وغالبا وضع فوق الفوهة كوم من الحجارة. لم يعثر في باب الذراع حتى الآن إلا على عدد قليل من هذا النوع إلا أنه ينتشر في عشرات المواقع الفلسطينية الأردنية، ويمتد وجود هذه المدافن حتى شمالي سوريا. وعلى أي حال تختلف هذه المدافن مع موجوداتها عن الأنواع سالفة الذكر.

ووجدت مثل هذه المدافن في العديد من المواقع في الأردن حول مدينة عمان (جبل التاج، المدينة الرياضية، المشيرفة، أم الرجوم، المدينة الطبية). وكذلك في تل الحصن بالقرب من إربد، وفي مزربانة وعين سامية والجيب وحبلة العمود وبيت ساحور في منطقة القدس، وخربة كوفين وبيسان وتل المتسلم في مرج اين عامر وتل العجول بالقرب من غزة وتل بيت مرسيم وغيرها. وقد اسهب بول لاب في دراسة هذا النوع من المدافن عند استعراضه لمدافن ظهر مزربانة (Lapp 30-85)، كما قامت كاثلين كنيون بتصنيف المدافن التي كشفت عنها في أريحا إلى سبعة أنواع تبعا لشكلها وطبيعة المكتشفات التي وجدت بداخلها (Kenyon 1965; 1971: 11-17).

ومع أن النقاش يطول حول ماهية هذه المدافن، إلا أن هناك إجماع على أنها تعود لأواخر الألف الثالث ومستهل الألف الثاني قبل الميلاد لتشكل الشاهد الرئيسي على المرحلة الانتقالية ما بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط، إذ أن المواقع السكنية

المعاصرة للمدافن قليلة جدا. وغالبا ما كان أصحاب هذه المدافن من جماعـــات أشـــبه بالرحل يعيشون في معسكرات أو مواقع زراعية بسيطة للغاية، لم تكن المرحلة الانتقاليـــة التي تعيشها لتقتصر على جنوبي سوريا، وإنما شملت معظم بلاد الشرق بما في ذلك مصـــر وبلاد الرافدين. وهناك اعتقاد بأن المجموعات القبلية وراء هذا التحول هي نفسها التي ترد في سجلات السومريين والبابليين القدماء وعرفوا السومرية باسم (مرتو) والبابلية باســـم (أمورو) (Kenyon 1966: 6ff).

نهاية العصر البرونزي القديم

ومرحلة الانتقال للعصر البرونزي المتوسط (٢٣٠٠ ـــ ٢٠٠٠ ق.م):

يكتنف نهاية العصر البرونزي القديم الكثير من الغموض مما جعل العاملين في الآثـــار الفلسطينية يختلفون في طبيعة هذه الفترة ومميزاتها وحتى إنسابها إلى فترة زمنية محـــــددة، فبينما نسبها وليم رايت ورولاند ديفو إلى مرحلة رابعة من العصـــر الـــبرونزي القـــديم (Wright 1937, 51-52. deVaux 1966, 8) اتبعتها كنيون إلى مرحلة انتقاليـــة مـــا بـــين العصرين البرونزي القديم والمتوسط (Kenyon 1960, 135-161) أما أمـــيران وأولـــبرايت وغيرهما فقد اعتقدوا بأنها تمثل مرحلة مبكرة من العصر البرونزي المتوسط (Amiran 1969, 79ff; Albright 1961, 60)، ولجأ بول لاب إلى تقسيمها لمرحلتين ضمن المرحلة الانتقاليـــة بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط (Intermediate Bronte I,II) لدى معالجته لمدافـــن ظهر مرزبانة (Lapp 1966, 86-116) وقدم فيما بعد اقتراحا مختلفا بعض الشيء عن اقتراحه الأول في ضوء حفرياته في باب الذراع بحيث أطلق على الجزء الأقدم من هذه المرحلـــة اصطلاح "العصر البرونزي القديم الرابع" (EBIV) والجزء المتأخر منـــها لبدايـــة العصـــر البرونزي المتوسط (Lapp 1970, 114-115, 124).

مع أن النقاش حول هذا الموضوع معقد ويطول البحث فيه و لم يصل إلى نهايته بعد، إلا أن الواضح بأن نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تشهد تحولا جذريا في النواحي السياسية والدينية والمعمارية والتجارية، ليس فقط في فلسطين وإنما في أنحاء مختلفة مـــن الشـــرق القديم. والشاهد الرئيسي على هذه المرحلة قد استخرج حتى الآن من المدافن التي وجدت بأعداد كبيرة في فلسطين والأردن، و لم يعثر بالمقابل على مواقع سكنية تتناسب والعـــدد الضخم من المدافن الفردية. وإذا ما وجدت مثل هذه المواقع السكنية فإنها غالبا ما تكـــون

أشبه بالمعسكرات أو قرى زراعية صغيرة وبسيطة، خاصة إذا ما قورنت بالمدن المحصنة التي انتشرت على نطاق واسع في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي القديم.

وجدت مثل هذه المدافن في عشرات المواقع الفلسطينية الأردنية كما هو الحال في تل العجول بالقرب من غزة (Kenyon 1956 b) وتل الدوير (Tufnell 1958) وعين سامية وظهر مرزبانة (Lapp 1966) والجيب (Pritchard 1962, 153) وخربة كوفين (Smith 1962) وتل المتسلم (Guy 1938) وأريحا (Kenyon 1960 d, 180-262)، ويتوالى ظهور مثل هذه المدافن في العديد من مواقع غور الأردن مثل تل اكتنو وتل أم حماد الشرقي وسيل الحمة وحتى تل القدح إلى الشمال من طبرية. كما امتد انتشار مقابر المرحلة الانتقالية لتظهر باب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت (Lapp 1970)، وكشفت الحفريات في السنوات الأخيرة عن أعداد منها في مواقع مختلفة داخل وحول مدينة عمان (Zayadine 1978)، وقبل ذلك في موقع الحصن بالقرب من إربد (Harding 1953).

وتتميز مدافن هذه المرحلة أنها استعملت لأفراد بخلاف الأنواع الأخرى التي سبقتها من العصر البرونزي القديم، وقد تم قطعها في الصخر أو الأرض الطبيعية، ولها في العادة مدخل رأسي يتفرع عنه تجاويف و غرف جانبية، ويكون المدخل أحيانا كما هو الحال في مدافن تل المتسلم. صنفت كاثلين كنيون المدافن التي عثرت عليها في أريحا إلى سبعة أنواع تبعا لحجمها، وشكلها وطبيعة.المكتشفات التي وجدت بداخلها كالأواني الفخارية والمعدنية والحلي، وقادها هذا التصنف إلى الاعتقاد بأن أصحاب هذه المدافن يمثلون مجموعات قبلية من أصول واحدة (Kenyon 1965; 1971: 11-17). أما أميران فقد قسمت الأواني الفخارية التي ظهرت في مثل هذه المدافن إلى ثلاث عائلات أو مجموعات تبعا لتسلسل زمني وتوزيع جغرافي، وحاولت إيجاد علاقة مباشرة مع مقارنات وجدت في شمالي سوريا وما بين النهرين (Amiran 1960).

وتكاد تكون لمرفقات الجنائزية بداخل المدافن متجانسة إلى حد كبير، إذ غالبا ما يضم المدفن الواحد بضعة أواني فخارية، وأحيانا بعض الأسلحة البرونزية، وفي حالات قليلة ضمت بعض الحلي من الخرز والبرونز، أما الهيكل العظمي فقد وجد في الغالب بوضع قرفصائي وليس له اتجاه معين.

وغالبا ما كان أصحاب هذه المدافن من جماعات أشبه بالرحل جاءت إلى فلسطين على شكل موجات متلاحقة، و لم تكن شواهد المرحلة الانتقالية لتقتصر على جنوبي سوريا، وإنما شملت معظم بلاد الشرق القديم بما في ذلك مصر وبلاد الرافدين. وهنالك اعتقاد بأن المجموعات القبلية التي يعتقد بأنها وراء هذا التحول هي نفسها التي ترد في

سجلات السومريين والبابليين القدماء، وعرفوا بالسومرية باسم "مرتو" والبابلية القديمة باسم "أمورو" (Kenyon 1966: 6ff).

ويبدو أن هذه الجماعات أخذت بالاستقرار التدريجي لتؤسس فيما بعد عددا من المواقع السكنية والمدن المحصنة من العصر البرونزي الوسيط في فلسطين وشمالي سوريا، في الوقت الذي اعتبر هؤلاء مسؤولين عن تأسيس الامبراطورية البابلية القديمة في بلاد ما بين النهرين.

الصناعة والتجارة:

إن تطور حياة المدينة زاد في الحركة العمرانية التي تدل على نمو سكاني، وارتفاع مستوى المعيشة، وتقدم ملحوظ في نظام الزراعة مثل الحبوب والزيتون واللوز (Tufnell 1958: 72)، وقد تم العثور في معظم المواقع التي جرت فيها أعمال الحفر أدوات للزينة مصنعة محليا، أو مستوردة، مثال ذلك الخرز والعظام والأحجار الكريمة، وبعض القطع الذهبية (Maca- ostra 1912).

وهنالك أمثلة قليلة من الأختام الأسطوانية التي ظهرت في بعض المواقع الفلسطينية مثل تل المتسلم وأريحا وأماكن أخرى وتشابه في أسلوبها أختام عصر جمدت نصر وعصر السلالات المبكر في بلاد الرافدين (Ben- Tor 1978; Sellin and Watsinger 1913).

ومن الصناعات التي كانت معروفة في السابق واستمرت خلال هذه المرحلة، ولكن بشكل أفضل هي صناعة الفخار. فقد أصبحت صناعة الأدوات الفخارية بواسطة الدولاب منتشرة على نطاق واسع، وكذلك أصبحت مادة الفخار معدة على أسس أفضل بخلط مادة الصلصال بكسر من الحور والكوارتز. وقد مكنت التحسينات صانعي الفخار من إعطاء أشكال متنوعة أكثر انتظاما من العصور السابقة (de Vaux 1948: 551; 1955: 558; 1961: 582).

وكذلك أصبح في هذه الفترة النحاس والبرونز ينتج على نطاق واسع حيث استخرجت أعداد كبيرة من الأدوات البرونزية في العديد من المواقع مثل كفار مناش الذي يقع ما بين حيفا وتل أبيب حيث وجد فيه (٣٥) قطعة معدنية ضمت خناجر ورؤوس حراب وفؤوس وسكاكين ومنشارا (Hestarin and Todmor 1963). اكتشف أيضا مجموعات معدنية مشابهة في موقع تل الحسي (Bless 1894) وأريحا (Kenyon 1955)

وتل الفارعة (de Vaux 1948: 555) وتل الجزر قرب أبو شوشة (Macalister 1912) وتـــل الدوير (Tufnell 1958).

وبالإضافة إلى هذه الأدوات المختلفة فقد استمرت صناعة الأدوات الصوانية في هذه المرحلة، ولكن بطريقة أسهل، حيث عثر على مجموعة من من الأدوات في مواقع مختلفـــة والتي جاءت بعض أشكالها استمرارية للتي كانت معروفة في الســـابق مثـــل الفـــؤوس والمكاشط ورؤوس السهام والشفرات، أما الأدوات العظمية فقد تكونت في الغالب مـــن الأبر والمخارز.

لقد أدى التقدم في الزراعة والصناعة إلى زيادة الرخاء الاقتصادي كما هو ظـــاهر في تطور الحياة المدنية. فأصبح من الضروري قيام علاقات اقتصادية ما بين المدن المختلفـــة والبلدان الأجنبية الأخرى، فعلى سبيل المثال كان زيت الزيتون ينتج لسد الحاجة المحليـــة، وبعضه كان يصدر إلى مصر، وأصبح يحسب حساب خزن هذه المنتجـــات في البنـــاء والتنظيم حيث أصبحت تبنى المخازن الكبيرة لحفظها (Maisler and Stekelis 1952: 223).

المرحلة الانتقالية من العصر البرونزي القديم إلى العصر البرونزي المتوسط (EBIV - MBI):

لم يستطع علماء الآثار تحديد نهاية العصر البرونزي القديم بشكل دقيـــق والســـبب يعود إلى أنه لم يظهر أي موقع من المواقع الرئيسية التي تعود إلى هذه المرحلة اســـتمرارية واضحة في الطبقات السكنية. فعلى سبيل المثال نجد أنه في موقع التل (عي) ظهر هنـــالك انقطاع مفاجئ في السكنى في نهاية المرحلة الثالثة من العصر الـــبرونزي القـــديم (EBIII) كذلك الحال في مواقع تل الفارعة ورأس العين. علما بأنه في مواقع تل المتسلم وبيســـان وأريحا استطاع المنقبون أن يميزوا شواهد استمرارية ما بين العصـــر الـــبرونزي القـــديم والمتوسط علما أنها جاءت فقيرة.

وحتى نستطيع أن نميز مرحلة رابعة للعصر البرونزي القديم نجد أنه من الضـــروري القيام بأعمال تنقيب في بعض المواقع التي سكنت في هذه المرحلة، علما أن مواقع أخـــرى مثل تل بيت مرسيم وعين شمس وبيتين وباب الذراع وأدر وأريحا وتـــل المتســـلم قـــد أظهرت مخلفات تعود إلى هذه المرحلة. على أية حال فإن المرحلة الرابعة للعصر الـــبرونزي القديم إنما تمثل مرحلة انتقالية ما بين هذه المرحلة وبداية العصر البرونزي الوسيط (Wright 1937).

أريحا (تل عين السلطان):

تقع مدينة أريحا في منطقة وادي الأردن وتبعد حوالي ١٠ كم إلى الشمال من البحر الميت، كما أنها تنخفض حوالي ٢٥٠ متر عن سطح البحر، وتعتبر أكثر المناطق انخفاضا في العالم، وتتزود المدينة بالمياه بواسطة نبع عين السلطان ونبع عين ديوك Ein-dug والذي يبعد حوالي ٣ كم إلى الشمال الغربي للمدينة. ويرتفع تل عين السلطان حوالي ٢١،٥ متر عن المنطقة المحيطة بها، ويغطي مساحة قدرها ٤ هكتار.

أولى التنقيبات الأثرية في هذا الموقع أجرتها جمعية اكتشاف فلسطين بإشراف ضابط إنجليزي اسمه Warren الذي لم يستطع العثور على أي شيء مهم خلال هذه التنقيبات. ولذا قامت بعثة ألمانية في الفترة الواقعة ما بين ١٩٠٧ ــ ١٩٠٩ وبإشراف كل من E. Sellin و C. Watzinger بالتنقيب مرة أخرى في هذا المكان، حيث كشفت التنقيبات هذه المرة عن بقايا عمائرية وغيرها تعود إلى العصر البرونزي المبكر والمتوسط. وجاءت نتائج التنقيبات مقبولة إلى حد ما، علما بأنه وفي ذلك الوقت لم يكن هنالك تسلسل زمني مقبول من جميع علماء الآثار. لكن وفي فترة لاحقة وبعد أن ازداد الاهتمام بالآثار وأصبح العلماء على دراية أفضل من السابق قامت بعثة أثرية بإشراف J. Garstang وفي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٣٦ بالتنقيب مرة أخرى في هذا الموقع، لكن، ومع هذا، وجدنا أن التواريخ المعطاة لفترة العصور البرونزية جاءت خاطئة حيث لم يكن هناك أي شيء يعود إلى العصر البرونزي المتأخر عكس ما ذكره Garstang. وأهم ما كشفه لنا هذا المنقب كان الوصول إلى طبقات العصر الحجري الحديث وخاصة مرحلة ما قبل الفخار. لكن أهم التنقيبات التي أجريت في هذا الموقع، بل وأفضلها كانت تلك التي قامت بها المدرسة البريطانية للآثار في القدس في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٢ ــ ١٩٥٨ بإشراف K. Kenyon.

وكما ذكرنا أعلاه، فإن أقدم البقايا الإنسانية التي عثر عليها في أريحا تعود إلى الفترة الناطوفية ومن ثم تم العثور على بقايا تعود إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أو الفخار (حوالي ٨٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ ق.م)، وبعد هذه الفترة يبدو أن الموقع قد هجر حتى قدوم جماعة جديدة من الناس الذين سكنوا الموقع لمرة أخرى وكان هذا في نهاية الألف الرابع ق.م، وقد جلبوا معهم أشكالا فخارية جديدة، وقد أطلقت كنيون على هذه الفترة اسم Proto-Urben، لكن دراسة عملية وشاملة ووافية لهذه الفترة لم تتم علما أنه تم العثور على العديد من القبور المقطوعة في الصخر والتي لم يكشف إلا على بقايا سكنية قليلة معاصرة لها.

وقد عثر في هذه القبور الجماعية على عدد من الأدوات الفخارية والجثث الإنسانية، لكنه كان من الصعب جدا محاولة إعطاء فكرة أو تفسير لهذه الأمور، وذلك لأن أسطح هذه القبور والـ Shaft كانت إما مفقودة أو متآكلة. على هذا الأساس نجد أن القبور استعملت لعدة مرات لكننا، واعتمادا على الشواهد الحالية، لا نستطيع أن نطلق حكما سواء أكانت هذه القبور يخص كل قبر جماعي منها لعائلة معينة أم كانت لعامة الناس، ولقد جاءت نهاية العصر البرونزي المبكر في أريحا بشكل مفاجئ، حيث أظهرت المرحلة البنائية الأخيرة للجدار بالمدينة بأنه دمر من جراء حريق هائل. وجاءت بنايات المرحلة التالية لهذه الفترة وبواسطة لبن طيني مخضر اللون. على أية حال هذه البيوت لم تأت بشكل مباشر فوق طبقات العصر البرونزي المبكر، وذلك لأنه تم العثور على طبقة فاصلة بين الطبقتين، وتحتوي على عدد من قطع الفخار بأشكال جديدة وربما تكون هذه مرتبطة بقادمين جدد، والذين كانوا من المحتمل يسكنون الخيام بدلا عن البيوت، وقد أطلق على هذه الطبقة الفاصلة وعلى محتوياتها اسم EB IV- MBI، على اعتبار أنها تمثل مرحلة اتصال ما بين فترتي نهاية العصر البرونزي المبكر وبداية العصر البرونزي المتوسط. وهؤلاء القادمون الجدد ربما كانوا بداة ورعاة. وحتى عندما بدأوا ببناء منازل لهم نجد أنها جاءت بسيطة جدا، ولم يعثر على أي جدار يحيط بالمدينة في هذه الفترة. وقد ظهرت سمات البداوة والقبلية من خلال عادات دفنهم. فقد كان الإنسان يدفن بشكل فردي في قبر منفصل، وهذا ملمح يميز هه الفترة عن الفترات السابقة واللاحقة. لكن ضمن هذا الملمح العام كان هنالك اختلافات متميزة جعل المنقبة تصنفها إلى سبعة مجموعات مختلفة. وجاء هذا التمييز اعتمادا على الاختلاف في موضع الجثة وحالة الجسم ومن ثم شكل وحجم القبر والحفرة العامودية (Shaft) وطراز التقدمات الجنائزية. وربما تمثل هذه الاختلافات عادات دفن مختلفة لمجموعات بشرية منفصلة. لكنه كان هناك صفة مشتركة تظهر في عدد من المدافن من حيث العناية بالمدفن والدفن في قبر عميق وواسع وهياكل عظمية متآكلة وغير كاملة على الأغلب. وهذا يمكن أن يكون شاهدا على طريقة حياة بدوية، والتي يظهر فيها أنه عند موت أحد الأشخاص أثناء الهجرات الموسمية يعاد إحضارهم إلى أحد المدافن عند عودة القبيلة إلى أحد الأماكن المعروفة لديهم.

ويبدو أن سكان فترة EBIV- MBI كانوا منتشرين بشكل كبير في فلسطين ومع العلم بأن الأدوات والعادات في الدفن كانت تختلف من مكان لآخر لكن هذا يؤكد الطبيعة القبلية لهؤلاء الناس. كذلك عثر على بقايا تعود إلى هذه الفترة في سوريا مما تشير إلى ظهور الأموريون وانتشارهم في سوريا. والذين تذكرهم المصادر السومرية التي تعود إلى

زمن سرحون الآكادي (٣٢٧١ ـــ ٢٣١٦ ق.م) والأسرة الثالثـــة في أور (٢١١٣ ـــ ٢٠٠٤ ق.م)، وهؤلاء الأموريون هم المسؤولون عن تدمير مدينة جبيل (بيبلوس)، وبعـد هذا كون الأموريون عنصراً هاماً للعناصر السكانية في فلسطين والأردن في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن الملاحظ أيضاً في أريحا أنه كان هناك تغيير مفاجئ ما بين نهاية فـــترة (EBIV-MBI) وبداية العصر البرونزي المتوسط. وهذا التغيير كـــان في عـــادة الدفـــن والأدوات والأسلحة والأدوات الفخارية والتي تعتبر بداية مرحلة جديدة أطلق عليها اسم العصــــر البرونزي المتوسط.

المراجع

C. Warren, in Conder- Kitchener, SWP 3, 224 ff.

E. Sellin and C. Watzinger, Jericho, Leipzig, 1913.

J. Garstang, AAA 19 (1932), 3-22, 35-54; 20 (1933), 3-42; 21 (1034), 99-136; 22 (1935), 143-68; 23 (1936), 67-76.

I. Ben - dor, Ibid., 77-90.

G.M. Fitzgeraly, London, 1948.

K.M. Kenyon, PEQ (1951), 101-38; (1952), 62-82; (1953), 81-96; (1954), 45-63; (1955), 108-17; (1956), 67-82; (1960), 33-113, idem, Excavations at Jericho I, The Tombs Excavated in 1952- 1954, London, 1960; 2,... 1955- 1958, London, 1965.

F. E. Zeuner, PRQ (1954), 67-82,

K.M. Kenyon, Digging Up Jericho, London, 1957.

F.E. Zeuner, PEQ (1958), 52-55.

D. Kirkbride, PEQ (1960), 114-19.

M. Avi- Yonah, The Jews of Palestine, Oxford, 1962, passim; Idem, The Holy land, Grand Rapids, Michigan , 1962,

Passim. G. Alon, A History of the Jews in the Land of Israel 2, Tel Aviv, 1955/56, 261 ff. (Hebrew).

A. Schalit, Koenig Herodes, Berlin, 1969 '(includes bibliography). Schuerer, GJV 2, 3-4, 380n. 67, 382.

L. Mowry, BA 15 (1952), 33f. Conder- Kitchener, SWP 2, 224-25. C. Watzinger- E. Sellin- A. Noldeke, MDOG, 41 (1909), 30 ff.

E. Sellin- C. Watzinger, Jericho, Leipzig, 1913, 12, n. 1, 88-92.

J.L. Kelso- D. C. Baramki, Excavations at New Testament Jericho and Khirbat en- Nitla (= AASOR 29/30 (1955)).

J.B. Pritchard, The Excavations at Herodian Jericho, 1951 (= AASOR 23/33 (1958)).

R. de Vaux, RB 66 (1959), 155-58. K.M. Kenyon, Antiquity 33 (1959), 231-34.

C.H. Kraeling, AJA 64 (1960), 302-03.

D.C. Baramki, QDAP 6 (1938), 73-77.

M. Avi- Yonah, Rabinowitz Bulletin 3 (1960), 35.

D.C. Baramki, QDAP 5 (1936), 82-86.

J.L. Kelso- D.C. Baramki, AASOR 29/30 (1955),

Passim. Y. Tsafrir, Qadmoniot 7 (1974), 24-26 (Hebrew).

E. Netzer, Ibid., 27-36; Idem, IEJ 23 (1973), 260 (both Hebrew).

عراد:

تقع عراد في منطقة النقب الفلسطينية إذ تبعد حوالي ٣٠ كم شمال شرقي بئر السبع. وهذا الموقع عبارة عن تلة صغيرة ترتفع بشكل واضح بين تلال منطقة النقب. وبما أن المكان يفتقد إلى المصادر المائية كالينابيع والأنهار فهو يعتمد على مياه الجمع.

بدأ الموسم الأول للحفريات الأثرية في هذا الموقع في عام ١٩٦٢، وكان ذلك بإشراف كل من **A. Aharoni** و**R. Amiran**. أما الموسم الثاني والذي كان في عام ١٩٦٣ فكان بإشراف **Y. Aharoni** بمساعدة **M. Kochavi**. وبعد الموسم الثالث أي في عام ١٩٦٤ أصبحت الحفريات الأثرية تجري سنوياً هنا، ولكن في منطقتين مختلفتين الأولى وهي منطقة التل ويشرف عليها **Y. Aharoni**، والثانية منطقة مدينة العصر البرونزي المبكر، وهي المنطقة المنخفضة من التل وتشرف عليها **A. Amiran**، واستمرت الحفريات حتى عام ١٩٧١.

وتم الحفر في موقع مدينة العصر البرونزي المبكر على ستة مواسم متتالية تم العثور في أثنائها على نظام لتوريد المدينة بالمياه، وعلى نظام للتحصينات مبنية بشكل جيد، وعلى أماكن سكنى خاصة وعامة ومعبد. ولقد بلغ سمك الجدار الذي يحيط بالمدينة حوالي ٢،٣ ـــ ٢،٤ متر، بينما بلغ محيطه حوالي ١٢٠٠ متر. ويبدو أن طوبوغرافية الموقع والتي من الواضح أنها تسهل عملية جلب المياه لتخزينه في مركز المدينة هي التي ساعدت على اختيار هذا المكان وجعله مناسباً للاستقرار، والدليل على هذا الملام هو وجود منطقة منخفضة واسعة على شكل صحن ربما كانت تستعمل لمكان لتجميع المياه.

استطاع المنقبون في موقع مدينة العصر البرونزي أن يتعرفوا على أربعة مراحل زمنية. أقدمها المرحلة **IV** الرابعة والتي تمثل بداية السكنى في هذه المدينة (**EBI**)، ويبدو أن الناس سكنوا في ذلك الوقت داخل كهوف. ويبدو أن المدينة بلغت أوج عظمتها وازدهارها أيام المرحلتين الثالثة والثانية، وقد أشارت الدلائل الأثرية أنه لربما قد كانت نهاية هاتين المرحلتين بواسطة هجوم تعرضتا له من قبل مهاجمين. ولكنه كان من الواضح وتبعاً للتتابع الزمني أن الأربعة مراحل جاءت متتالية دون أية فجوة زمنية، وبدون أي تغير عرقي لسكان المدينة خلال هذه المدة.

ويشير نظام التحصينات على دراية في تخطيط المدن، وعلى مجتمع منظم، وعلى عمارة عسكرية متميزة. فقد جاءت أساسات الجدار المحيط بالمدينة مبنية على الصخر، وهذا الجدار مزود بمجموعة من الأبراج الشبه دائرية الشكل، والمبنية من الحجارة يبعد

الواحد منها عن الآخر مسافة تتراوح بين ٢٠ ـــ ٢٥ متراً. هذه الأبراج جاءت متشابهة في الحجم ولها ممرات يستطيع الإنسان بواسطتها الدخول إلى داخل المدينة.

أما بالنسبة للبيوت السكنية فقد جاءت ملامحها العمائرية مميزة لفترة العصر البرونزي المبكر الثاني بشكل عام. أحد نماذج البيوت التي عثر عليها كان متشابها في المراحل السكنية الثالثة والثانية والأولى، وتميز المنزل في عراد بمساحته الواسعة، ويتكون من غرفة رئيسة، وغرفة إضافية أخرى ربما استعملت للتخزين أو كمطبخ بالإضافة إلى ساحة. وجاءت أبعاد الغرفة الواحدة تتراوح ما بين ٧،٣٠ متر في ٥،١ متر إلى ٣،٤×٣،٣ متر. وفتحة المدخل الرئيسي (الباب) كانت دائماً في الجهة العريضة ولها درجات تقود إلى داخل الغرفة، إذ كانت أرضية المنازل تحت مستوى الشارع أو الساحة. وكان السقف بلا شك مستوياً وكان يدعم بواسطة القضبان الخشبية. ويبدو أنه لم يكن هنالك منافذ أو شبابيك لمثل هذه البيوت. ولقد تم العثور داخل البيوت على أواني فخارية، وأدوات للطحن، وأجران، وأدوات نحاسية، وصوانية، وعظمية، وخرز.

من أهم المباني العمائرية التي عثر عليها في هذا الموقع هو المعبد المسمى بالمعبد التوأم Twine-Tomble، والذي يتكون من مساحة واسعة عليها بناء ضخم يضم قاعتين واسعتين يفصل بينهما حائط قليل الارتفاع، ويفتحان على ساحة، وكلاهما يقابل الشرق حيث كان المدخل من هذه الناحية. ولقد كان المعبد الذي بني في الجهة الشمالية قد أقيم في المرحلة السكنية الثالثة للموقع لكنه حصل عليها تغيرات في المرحلة الثانية. أما القاعة الجنوبية فقد أضيفت في المرحلة اللاحقة. ويشابه هذا المعبد المعابد التي عثر عليها في تل المتسلم وعين جدي والتل (عي).

أما الأدوات الفخارية التي عثر عليها في عراد تكونت من صحون وأطباق وأسرجة على شكل صحون وأباريق وأباريق صغيرة وفناجين صغيرة الحجم وجرار مختلفة الأحجام. وكان هنالك أواني مدهونة مثل الأباريق الصغيرة والتي عثر على ما يشابهها في كل من بيسان وأريحا والتل.

بعد هذا العرض عن مدينة عراد نقول بأن بداية السكنى لهذا الموقع كان في فترة العصر البرونزي المبكر الأول، واستمر خلال الفترة الثانية لهذا العصر، علماً أنه تم العثور على حفر محفورة داخل الأرض حوت قطع فخارية مشابهة للتي عثر عليها في بئر السبع وتليلات الغسول ويعود تاريخها إلى العصر الحجري النحاسي.

المراجع

Y. Aharoni and Ruth Amiran, Yedlot 27 (1963), 217-34 (Hebrew); IEJ 12 (1962), 144-45; RB 70 (1963), 565-66; IEJ 14 (1964), 131-47; Archaeology 17 (1964), 43-53. Ruth Amiran, BASOR 179 (1965), 30-33.

Y. Yadin, IEJ 15 (1965), 180. B. Mazar, JNES 24 (1965), 297-303.

Y. Aharoni, IEJ 16 (1966), 1-7; 17 (1967), 233-49. Ruth Amiran, IEJ 16 (1966), 273-74.

S. Yelvin, ibid., 153-59. Ruth Amiran and Y. Aharoni, Ancient Arad, Catalogue of the Israel Museum, 1967.

C. Nylander, IEJ 17 (1967), 56-59. Y. Aharoni, BA 31 (1968), 1-32. Ruth Amiran and Elise J. Baumgratel, BASOR 195 (1969), 50-53. Ruth Amiran, in Essays in Honor of Nelson Gluek, Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, ed.

J. A. Sanders, New York, 1970, 83-100. Y. Aharoni, BASOR 197 (1970), 16-42. Ruth Amiran, IEJ (1972), 86-88.

التل (عي):

يقع لتل إلى الشرق من قرية بيتين في محافظة القدس، وتغطي مساحة مقدارها ٢٧،٥ هكتار. ولقد أجريت فيها أولى الحفريات الأثرية في عام ١٩٢٨، وكان ذلك بإشراف J. Garstang والذي لم يقدم لنا الكثير عن هذا الموقع خلال تقريره المكسون من ثلاث صفحات ملخصة عن هذه الحفريات.

وفي الفترة الواقعة ما بين المواسم ١٩٣٣ ــ ١٩٣٥ قامت السيدة (Marqet Krause) بالحفر مرة أخرى في هذا الموقع، وركزت أعمالها في المنطقة المرتفعة من التل. وكشفت هذه الحفريات عن بقايا أثرية تعود لفترة العصر البرونزي القديم فيها معبد وقبور وقصر. وكذلك، وفي موسم عام ١٩٣٤ استطاعت المنقبة العثور في الجهة الشرقية من التل على قرية تعود بتاريخها إلى العصر الحديدي. كذلك اكتشفت في عام ١٩٣٥ نظام للتحصينات في الجزء الأسفل للموقع وهذه تتكون من بوابة خلفية لها أبراج إهليلجية الشكل. لكن أهم الملاحظات التي قدمت لنا عن مكتشفات هذا الموسم هي ملاحظة أن بيوت العصر الحديدي الأول جاءت مبنية على أنقاض بيوت العصر البرونزي القديم الثالث.

وما بين أعوام ١٩٦٤ ــ ١٩٧٠ قام J. A. Callaway بالحفر للمرة الثالثة في هذا الموقع، ومواقع أخرى في نفس المنطقة مثل خربة حيان، وخربة خضرية، وخربة Raddana، حيث لوحظ أنها تعود للفترات الرومانية والبيزنطية.

نتيجة لهذه الحفريات جميعها استنتج بأن بداية السكنى في هذا الموقع كان في العصر البرونزي القديم الأول (ب) (٣١٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م)، واستمرت دون انقطاع حتى نهاية العصر البرونزي القديم الثالث (ب) أي في حوالي (٢٧٢٠ ــ ٢٤٠٠ ق.م)، ومن ثم أعيد سكناها في بداية العصر الحديدي.

ففي الفترة الأولى للسكنى (EBI b) في هذا الموقع لوحظ أن الموقع لم يكن محصناً، وقد تم العثور على بقايا بيوت بسيطة، كما أنه لم يعثر على أية بقايا أثرية تعود لما هو أقدم من هذه المرحلة. وكذلك فإن سكان هذه الفترة دفنوا أمواتهم داخل كهوف على المنحدر الشمالي الشرقي للتل حيث كانوا يعيشون. وبعد دراسة الفخار الذي عثر عليه داخل هذه القبور وجد أنه يشابه الفخار الذي عثرت عليه كنيون في أريحا وأرخته لفترة سمتها Proto- Urban.

وفي الفترة اللاحقة أي في العصر البرونزي القديم (ج) EBIc حوالي (٣٠٠٠ ق.م)، جاءت المدينة محصنة يحيط بها جدار. وقد عرفت هذه المنطقة على أنها المنطقة الصناعية ومكان الاستقرار السكاني في هذا الموقع، كذلم عثر هنا على بوابة. كذلك تم العثور على بناء منتظم الشكل مبني من الحجارة الضخمة والغير مشذبة. وكان هنالك أعمدة حجرية تساعد على رفع السقف، ويبدو أنه قد أعيد بناء واستعمال هذا المبنى في فترة العصر البرونزي المبكر الثالث (أ)، وذكر أنه ربما كان يمثل معبداً. ومن الأشياء العمائرية البارزة التي وجدت وتعود إلى الـ EBIc أربع بوابات ضخمة جاءت ثلاث منها محصنة بأبراج إهليلجية الشكل بينما كان هناك برج في بوابة القلعة.

الأدوات الفخارية المكتشفة، وتعود بتاريخها إلى EBIc، عثر على ما يشابهها في مواقع أخرى مثل أريحا وتل الفارعة الشمالي وباب الذراع وعراد.

وقد استطاع المنقبون أن يتعرفوا على حريق هائل كان سبب دمار مدينة الـ EBIc، وربما كان سبب هذا مهاجمين أعداء. ولكن مع هذا فقد تم إعادة بناء المدينة مرة ثانية وأطلق على هذه الفترة اسم EBIIa العصر القديم الثاني (أ)، وهذه المرحلة كانت معاصرة للمراحل K-II-H في مناطق E-III-IV في أريحا والطبقات III وII في عراد والمراحل ٢ ــ ٣ في تل الفارعة الشمالي، في هذه الفترة الزمنية أجريت بعض الإضافات على الأبنية الأولى، كذلك نجد أن التحصينات قد وسعت وقويت.

أما الأدوات الفخارية التي عثر عليها، وتعود إلى EBIIa فقد تكونت في الغالب من زبادي لها حنية في الجسم وبحافة مطوية للخارج وأباريق برقبة طويلة وأيدي تتصل ما بين الرقبة والبدن Loop-handle. مثل هذه الأدوات عثر عليها في مواقع مختلفة مثل تل الفارعة الشمالي وأريحا.

وكما هو الحال في الفترة السابقة نجد أن الموقع دمر هذه المرة أيضاً بواسطة حريق، ولكن السبب كان يختلف عن المرات السابقة حيث ربما يكون السبب هزة أرضية.

وقد وجد أن التدمير كان شاملاً لموقع التل في فترة العصر البرونزي القديم لذا نجد أن الأدوات الفخارية، والأخرى تسمى EBIIb. حيث ظهرت أشكال جديدة للأدوات الفخارية مثل الأباريق الصغيرة المعروفة باسم أباريق أبيدوس والتي أصولها مصرية حيث تم العثور عليها في بادئ الأمر في سقارة في مصر، وعثر على مثل هذه الأباريق في أريحا في فلسطين، وفي الطبقة "C" في العمق من سوريا. ولقد تم التعرف على آثار حريق كان السبب في تدمير الموقع في هذه الفترة.

العصر البرونزي القديم الثالث (أ):

تمتد فترة العصر البرونزي المبكر على مدى ثلاثمائة عام من الزمن وتحوي مرحلتين رئيسيتين في أبنيتها وتحصيناتها.

العصر البرونزي القديم (أ) في موقع التل يتميز بكونه مرحلة من البناء والتعمير وكذلك التخريب. ويؤرخ للفترة الواقعة ما بين ٢٧٠٠ ـــ ٢٥٥٠ قبل الميلاد. فبعد عملية تهديم بيوت وتحصينات المرحلة الثانية (ب) من العصر القديم كان لا بد من إجراء إعادة بناء لهذه العمائر وقد أعيد بناء الجدار المحيط بالمدينة أولاً. كذلك هناك شواهد على مظاهر مصرية في عملية إعادة بناء المدينة، منها بعض الملامح الظاهرة في بناء معبد العصر البرونزي القديم الثالث (أ) والتي تظهر بأنها بنيت بواسطة صناع مصريون وطريقة بناء أحد جدران هذا المعبد بواسطة جدارة مشذبة. كذلك تم العثور على بعض أدوات المرمر المصرية ومثل هذه الآنية يرتبط بالأسرتين الأولى والثانية في مصر. أيضاً ظهر التورط المصري في عملية البناء المعماري لموقع التل في بناء صهريج المياه والذي يعود إلى العصر ويتسع لحوالي ١،٨٠٠ متر مكعب من الماء.

لقد تم كشف بوابتين تعودان إلى فترة العصر البرونزي القديم الثالث (أ). حيث وجد أن بوابة العصر البرونزي القديم الثاني قد أغلقت بواسطة سد من الانهيارات واستعيض عنها ببناء بوابة جديدة أصغر منها محصنة بواسطة برجين وبنيت فوق قمة هذا السد البوابة الثانية بنيت في جدار المدينة الجنوبي ولم يبق منها ظاهراً إلا الجزء الشرقي بينما لم يعثر على أي آثار قائمة للجزء الغربي.

العصر البرونزي القديم الثالث (ب):

لقد طرأت بعض التغيرات على هذا الموقع خلال المرحلة الانتقالية ما بين الفترة السابقة وهذه الفترة (حوالي ٢٥٥٠ ق.م). وربما تعزى هذه التغيرات إلى تأثيرات خارجية، خاصة من المنطقة الشمالية لبلاد كنعان والمرتبطة بحضارة خربة الكرك عند بحيرة طبرية.

وهناك دلائل على أن المدينة في هذا العصر قد احتلت احتلالاً منها بأن الجدار الواقع غرب البوابة الجنوبية قد دمر تدميراً مع وجود بقايا حريق في التحصينات، من هنا كان لا بد من بناء جدار حديد حول المدينة. وبني هذا الجدار ملاصقاً لجدار المرحلة السابقة لذا نجد أن عرضه بلغ في بعض الأماكن حوالي ٨ متر. كذلك أغلقت البوابة الجنوبية لكن أعيد بناء البوابة التي كانت تطل على الوادي واستعملت كمدخل فرعي. كذلك أعيد

ترميم المعبد الذي كان موجوداً خلال المرحلة السابقة لكن وفي هذه المرحلة فقد تم ملء الغرف المحيطة بهذا المعبد بالطمم. وفي مثل هذه الحالة فقد توجب على الكاهن والحاكم أن ينتقلوا إلى مكان آخر.

على أية حال فلقد حل بالمدينة وفي حوالي ٢٤٠٠ قبل الميلاد أي زمن الأسرة المصرية الخامسة خراب عنيف. لكن هوية هؤلاء المهاجمين الجدد لا تزال غير معروفة علماً أن الدلائل تشير إلى أن المصريين قد هاجموا هذه المدينة عدة مرات وربما يكونوا هم الفاعلون أيضاً هذه المرة. ويبدو أن هذه المدينة لم تعمر مرة أخرى بعد هذه الجهة إلا في العصر الحديدي وربما يكون هذا مرده إلى قدوم الأقوام البدوية في الفترة المسماة بالعصر البرونزي القديم الرابع.

المراجع

W.F. Albright, AASOR 4 (1924), 141-49.

S. Yeivin, PEF QST (1934), 189-91.

J. Marquet- Krause, Syria 16 (1935), 325-45; idem, Les fouilles de Ay (et- tell), 1932-35, Paris, 1949.

M. Noth, PJB 31 (1935), 7-29. L. H. Vaincent, RB 16 (1937), 231-66.

J. M. Grintz, Biblica 42 (1961), 201-16.

J. A. Callaway, Pottery from the Tombs at Ai (et- Tell), London: Colt Archaeological Institute, Monograph Series, No. 2 (1964); idem, BASOR 178 (1965), 13-40; idem, (With M. B. Nicol), BASOR 183 (1966), 12-19; idem, JBL 87 (1968), 312-20; idem, BASOR 196 (1969), 2-16; idem, BASOR 198 (1970), 7-31; idem (With R. E. cooley), BASOR 201 (1971), 9-19; idem (With K. Schoonover), BASOR (in press); idem (With N. E. Eagner), PEQ (in press). The early Bronze Age Sanctuary at Ai (et - Tell), London , 1972. M. Prausnitz, Annual Report, Institute of Archaeology, University of London , 1955.

R. Amiran, IEJ 17 (1967), 185-86; 20 (1970), A. Kuschke, and E. Kutach, eds., (1970), 19-22.

Y. Aharoni, IEJ 21 (1971), 130-35.

خربة الكرك:

تقع خربة الكرك على الشاطئ الجنوبي الغربي لبحيرة طبرية وتغطي مساحة مقدارها خمسين هكتاراً وقد أطلق عليها مؤخراً اسم Tel Beth Yarah. ولقد حاول بعض المؤلفون تعريفها على أنها موقع Philoteria الذي بناه بطليموس فيلادلفيوس الثاني، كما حول آخرون ذكرها على أنها موقع سنابري Sannabri الذي ذكره جوزيفوس على أنه نقطة الحدود الشمالية لوادي الأردن والتي كانت مخيماً لجيش الامبراطور فسبسيان.

من خلال المسوحات والحفريات الأثرية التي عملت في هذا الموقع لوحظ أن الفترات الزمنية التي مر بها تبدأ من العصر البرونزي القديم ومن الفترة الهلنستية حتى الإسلامية. ولقد تم العثور على نوع مميز من الفخار في ذها الموقع أطلق عليه أولبرايت اسم فخار خربة الكرك. والملامح الرئيسية لهذا الفخار أنه ذو لون أحمر أو أسود مصقول ومزخرف بواسطة حزوز غائرة أو نافرة. ولقد عثر على هذا النوع من الفخار في مواقع مختلفة من فلسطين وفي شمالي سوريا. وعلى أغلب الظن أن أصول هذا الفخار مستمدة من الأناضول.

لقد قامت جمعيات يهودية بإشراف منقبين صهاينة بالحفر في هذا الموقع. وكانت أولى الحفريات في عام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ وقامت بها الجمعتية اليهودية لاستكشاف فلسطين بإشراف كل من ب. مازار وموشيه ستكليس وي. دونافسكي. ونقبت هذه البعثة في الجزء الجنوبي من التل. ومن ثم استؤنف العمل مرة أخرى في سنة ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ وبإشراف ستكليس وأفي ــ يوناح ودونافسكي وتم الحفر في شمال التل بالإضافة إلى جنوبه. ومنذ عام ١٩٤٩ بدأت دائرة الآثار الإسرائيلية الحفر في هذا الموقع تحت إشراف P. L. P. Guy ومن ثم P. Bar- Adon. وقام الأخير بأعمال حفر شاملة في جنوبي التل كما عمل مجسات تجريبية في مناطق مختلفة في وسط وغربي التل وكان ذلك في الفترة الواقعة ما بين (١٩٤٩ ــ ١٩٥٥) وفي أثناء عمليات الحفر الأخير تم كشف النقاب عن المناطق السكنية وبعض أجزاء من الجدار المحيط بالمدينة. وفي أعوام ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ و١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ قامت بعثة أمريكية بإشراف معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو وبإشراف P. Delougaz وبمساعدة Heland

Cantor بأعمال تنقيب في هذا الموقع وقد تركز العمل على الجزء الشمالي من التل وقليل جداً من الأحيان في الوسط.

تحصينات المدينة:

الجدران المحيطة في المدينة بنيت خلال الحقب المختلفة والتي مر فيها الموقع في الجهات الجنوبية الغربية والجنوبية من التل، بينما كونت بحيرة طبرية من الجهة الشرقية مانعاً طبيعياً.

أولى التحصينات التي عثر عليها تنسب إلى العصر البرونزي القديم. ولقد استطاع P. Bar- Adon ست مراحل. ففي الجهة الجنوبية من التل تم اكتشاف جزء من جدار يسير باتجاه شرق ــ غرب. ولقد بني هذا الجدار من اللبن الطيني. كذلك تم الكشف عن بوابتين في هذا الجدار وجاءت الأجزاء المحيطة بالأبواب مبنية من الحجارة البازلتية كما هو الحال في بعض الممرات المبنية على شكل درج. على أية حال فلقد تم التعرف على بقايا تحصينات تعود في تاريخها إلى فترات مختلفة من العصر البرونزي القديم، إلى العصر البرونزي المتوسط الأول والفترة الهلنستية.

العصر البرونزي القديم:

في المنطقة الجنوبية من التل تم العثور على بقايا العصر البرونزي القديم تحت طبقات الفترة الهلنستية مع وجود طبقة رقيقة جداً تفصل ما بينهما. ولقد استطاع المنقبون في هذه المنطقة الوصول إلى الطبقة البكر على عمق ٧،٣٠ متر والتعرف على بقايا العصر البرونزي القديم بجميع مراحله من الأولى وحتى الرابعة وأطلق عليها اسم خربة الكرك.

خربة الكرك I:

يبدو أن السكان الأوائل لهذا الموقع لم يسكنوا الكهوف بل عاشوا داخل حفر مشقوقة يتراوح عمقها ما بين ٥ ــ ٣،٥ متر وقطرها ما بين ٣ ــ ٤ متر. وقد وجد بداخل هذه الحفر رماد وكسر فخارية وبقايا عظام حيوانية الكسر الفخارية جاءت ذات لون رمادي ومصقولة.

خربة الكرك II:

تم العثور في هذه المرحلة ولأول مرة في هذا الموقع على بيوت منتظمة الشكل بجدران من اللبن الطيني. كذلك تم الكشف عن ساحات مبلطة بالحجر البازلتي كما هو

الحال في بعض الغرف. ولقد تميز فخار هذه المرحلة بأنه مصقول وله بطانة Band slip وبجرار ذات فوهات واسعة بأيدي على شكل بروز تلتصق على جانبي البدن.

خربة الكرك III:

في هذه المرحلة جاءت أساسات جدران البيوت مبنية من البازلت و لم يتم العثور على فخار خربة الكرك في هذه الطبقة وعلى هذا الأساس يمكن إرجاع مرحلة خربة الكرك III إلى مرحلة العصر البونزي القديم الثاني. معظم مباني المدينة جاءت مبنية من اللبن الطيني. ولقد تم العثور على طبعات لأختام أسطوانية.

خربة الكرك IV:

لقد دامت السكنى في هذه المرحلة أكثر من أي وقت مضى. ولقد تم تمييز أربعة أوجه زمنية مختلفة خلال طبقة بلغ سمكها ٢ متر. وجاءت معظم البيوت مبنية من البازلت علماً أنه وجد بعضها مبني من الطوب الطيني على أساسات من البازلت. كذلك اكتشف بناء تبلغ أبعاده ٧×٨ متر ويتجه من الشمال إلى الجنوب. وبالإضافة إلى الكمية الكبيرة من الأدوات الفخارية التي عثر عليها هنا فقد تم العثور على خمس دمى حيوانية ونموذجين من الفخار لبيوت وجزء من دمية فخارية تمثل أسداً يزأر. كذلك عثر على بعض الأدوات الصوانية تمثل أغلبها سكاكين. أما الفخار الذي عثر عليه في الطبقة الثالثة فيمثل في الغالب فخار خربة الكرك ولهذا نجد أن هذه الطبقة تعود إلى العصر البرونزي القديم الثالث.

أما في الجهة الجنوبية الشرقية من التل فقد وصل بار ــ أدون في مربعاته التجريبية الطبقة العذراء واستطاع تمييز ثلاث وعشرين فترة مختلفة مر بها التل وكانت على النحو التالي: أربع فترات تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم الأول حيث تم العثور على بيت ربما يكون مقبباً. ثم خمس فترات تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم الثاني حيث وجد فيها جدران من اللبن الطيني وشوارع مبلطة ومصارف للمياه. كذلك كان هناك ست فترات تعود للعصر البرونزي القديم الثالث وتضم طبقة حريق. الثلاث فترات الأخيرة كانت تعود لمرحلة العصر البرونزي المتوسط الأول حيث حوت قدحاً يعود للعصر البرونزي المتوسط الثاني. كذلك تم التعرف على طبقة تعود للفترة الفارسية.

في الجزء الشمالي من التل تم الكشف عن بناء منتظم الشكل ضخم وتبلغ أبعاده حوالي ٣٠×٤٠ متر ويؤرخ إلى العصر البرونزي القديم الثالث. ولقد جاء البناء مبني من

الحجارة البازلتية الغير منتظمة الشكل ومدخله الشرقي يطل على بحيرة طبرية. ومن ميزات هذا المبنى أنه تم الكشف عن أربع دوائر مبنية من الحجارة على طول الجدار الجنوبي وثلاث على طول الجدار الغربي واثنتان على طول الجدار الشمالي. كما لوحظت دوائر أخرى وبلغ عدد جميع هذه الدوائر اثنتي عشرة دائرة.

اختصاراً لما ذكرناه أعلاه فإن بداية السكنى في موقع خربة الكرك كانت في العصر البرونزي القديم الأول واستمرت حتى العصر البرونزي المتوسط الثاني لكن التل لم يكن جميعه مأهولاً بالسكان خلال هذه المراحل. وخلال فترات العصر البرونزي رأينا أن هذا المكان قد حصن وبني جدار المدينة وبعد أن هجرت المدينة عمرت مرة أخرى في الفترة الفارسية واستمرت السكنى فيها حتى الآن.

المراجع:

History and identification of the site: L. Mayer, IEJ 2 (1952), 183-87 (includes bibliography). P. Bar- Adon, EI 4(1956), 50-55 (includes bibliography) (Hebrew).

Excavation reports: B. Maisler, M. Stekelis, M Avi- Yonah, IEJ 2 (1952), 165-73, 218-29.; 5 (1955), 273.

P. Delougaz- R. C. Haines, A Byzantine Church of Khirbat Al- Karak, Chicago. 1960.

العفولة:

يقع موقع العفولة الأثري بالقرب من مدينة العفولة الحديثة. ومن الجدير بالذكر أنه لم يبق إلا النذر اليسير من بقايا الموقع القديم وذلك نتيجة لعملية التوسع العمراني الحديثة. وبلغت مساحة هذا الموقع حوالي (١١ هكتاراً) (acres) ويقف التل الحالي بارتفاع (١١) متراً عن سطح المنطقة المحيطة. وقد بدأ سوكنك (E. L. Sukenik) أعمال التنقيب في هذا الموقع في عام ١٩٢٦ واستمرت حفرياته التي تركزت في الجزء الشمالي والأوسط من التل حتى عام ١٩٣١. في أعوام ١٩٥٠ و١٩٥١ قام كل من بن ــ دور (Ben- dor) ودوثان (M. Dothan) بأعمال التنقيب في الجزء الجنوبي للموقع.

كشفت الحفريات عن عدد من القبور تعود في عهودها إلى عصور البرونزي القديم والثالث والمتوسط الثاني والهلنستي والروماني. بالإضافة إلى هذا فقد أشارت الحفريات إلى أن أقدم البقايا السكنية في هذا الموقع تعود إلى العصر الحجري النحاسي حيث تم العثور على عدد من القطع الفخارية والصوانية التي تعود إلى هذه المرحلة. أما المرحلة السكنية التالية في هذا الموقع فجاءت تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم والأول والثاني والثالث والرابع حيث تم العثور أيضاً على أدوات فخارية تعود لهذه الفترات. كذلك وجدت بقايا سكنية تعود لمراحل العصر البرونزي المتوسط والحديث والحديدي الروماني والبيزنطي والأيوبي والمملوكي (Dothan 1973: 36).

نسبت الطبقة التاسعة من التل إلى العصر البرونزي القديم الأول حيث تم العثور على ملتقطات أثرية وجدرات ترتفع إلى حوالي ٣ متر. وجاءت بقايا هذه الفترة فوق بقايا العصر الحجري النحاسي (الطبقة العاشرة) وتحت الطبقة الثامنة والتي جاءت محتوياتها تعود للعصر البرونزي القديم الثالث. ومن بين مكتشفات هذه الطبقة المهمة هي أدوات فخارية من الطراز المعروف باسم فخار خربة الكرك. أما بقايا المرحلة الرابعة للعصر البرونزي القديم فقد وجدت في الطبقة السابعة من التل وتمثلت في بقايا عمائرية وفخارية. جاء يعلو مخلفات هذه المرحلة بقايا تعود لمرحلة العصر البرونزي المتوسط الأول والتي عثر عليها في الطبقة السادسة.

المراجع:

E. L. Sukenik, PEQ (1936) 150- 154; idem, JPOS 21 (1948) 1-79.

I. Ben - Dor, Alon 3(1951) 33-34 (Hebrew).

M. Dothan, Atigot 1(1956) 18-63 (Hebrew).

يازور:

يقع موقع يازور على الطريق ما بين يافا القدس حيث تبعد حوالي ٦ كم عن مدينة يافا. ولقد ورد اسم هذا الموقع في النصوص الآشورية من عهد الملك الآشوري سنحاريب. ويعلو قمة هذا التل قلعة صليبية كما تم العثور على بقايا تعود لمرحلة العصر الحجري النحاسي حتى العصور الوسطى أثناء عمليات التنقيب الأثرية التي قام بها كل من أوري (J. Ory) وكيبلان (J. Kaplan) وشابيرا (Y. Shapera) في المقابر. لكن الحفريات على التل قام بها كل من بيروت (J. Perrot) الذي كشف عن مقابر تعود للعصر الحجري النحاسي والمسماة بالمعاظم ودوثان (M. Dothan) الذي عثر على مقابر العصر البرونزي والحديدي.

تم اكتشاف بقايا تعود إلى مرحلة العصر البرونزي القديم في أماكن مختلفة من التل. ففي أثناء عمليات التنقيب التي أجرتها دوثان في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٨ و١٩٦٠ تم العثور في الطبقات السكنية على مخلفات اعتقد بأنها تعود لنهاية العصر الحجري النحاسي وبداية البرونزي القديم في المنطقة (ب). وجاءت هذه المخلفات فوق أنقاض المعاظم التي ذكرناها آنفاً. أما خلال الحفريات التي أجراها بن — دور (Ben- Dor) في عام ١٩٧١ فقد تم الكشف عن بعض المدافن التي عثر بداخلها على العديد من الأدوات الفخارية والتي تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا وتعود للمرحلة التي أطلقت عليها كنيون اسم (Proto- Urban A).

المراجع:

M. Dothan, BIES 25 (1961), 224- 230 (Hebrew; idem . Atigot 3 (1961), 181-184; idem, Bull. Soc. d'Anth. 2 (all serie, 1961), 79-82.

J. Perrot, Atiqot 3 (1961), 1-83. A. Ben- Dor, Qadomoniot 6 (1973), 48-50 (Hebrew).

تل الشيخ العريني:

يعتبر موقع تل العريني من أهم المواقع الأثرية التي عثر عليها على الساحل الفلسطيني. وهي تبعد عن هذا الساحل حوالي ١٩ كم على الطريق الموصلة إلى بيت جبرين، مقابل قرية عراق المنشية. وتغطي مساحة تبلغ حوال ٢٥ هكتاراً، وقد اقترح العديد من علماء الآثار على أن هذا الموقع يمثل مدينة جات (Gath) الفلسطينية (Yeiven 1975:89).

يتكون هذا الموقع من ثلاثة أقسام هي: أولاً الأكروبوليس وهو الجزء العلوي من التل حيث يرتفع ٣٢ متراً عن المنطقة المنبسطة المحيطة به ويغطي مساحة قدرها ١،٦ هكتار. وثانياً المنحدر العلوي والذي يحيط بالأكروبول من ثلاث جهات، ويغطي مساحة قدرها ٢٤ هكتاراً ثالثاً المنحدر السفلي الذي يحيط بالأكروبول والمنحدر العلوي وينحدر باتجاه الجنوب.

أثناء الحفريات التي أجريت في الفترة الواقعة ما بين أعوام ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ تم التعرف على بقايا تعود إلى نهاية العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي القديم والحديدي والهلنستي والبيزنطي والإسلامي. ففي المنطقة د "Area D" من الموقع تم حفر مربع بقاسات ٢٠×٢٠ متر على الحافة الجنوبية لمنحدر الذي يحيط بالأكروبول حيث اكتشف هناك جدران من اللبن الطيني مع قطع فخارية تعود للعصر البرونزي القديم الثاني والثالث. واستطاع المنقبون تمييز عدة مراحل بنائية تعود إلى هذه الفترات كانت تمثل هذه الجدران أجزاء من بيوت سكنية، وجاءت أرضيات هذا المجمع السكني مرصوفة بالحصى وربما كانت تمثل ساحات مكشوفة. كذلك تم العثور على حفر للتخزين مرصوفة أيضا بالحصى.

ظهرت بقايا المرحلة السكنية الثانية على عمق (١ متر) تحت سطح الأرض، حيث عثر على بقايا أبنية مدمرة بشكل فظيع مما لم يسمح للمنقبين بالتعرف على مخططات هذه الوحدات البنائية. على أية حال فقد أمكن تمييز خمسة أوجه بنائية فرعية خلال هذه المرحلة الثانية. لكن أهم ما يميز المرحلتين السكنيتين الأولى مالثانية عبارة عن مبنى ضخم يقع إلى الجنوب من الطريق الذي اكتشف في المرحلة الأولى ويتكون من بيت واسع يتجه شرق ــ غرب وله ساحة واسعة في الجهة الشرقية. لكن أهم ما يميزه كان عبارة عن بناء دائري الشكل من اللبن الطيني مقام في مركز هذا البناء، ربما كان يخدم كطاولة للتقدمات الجنائزية. ظهر مثل هذه الأبنية في مواقع فلسطينية أخرى مثل تل المتسلم وعين جدي.

جاءت بيوت وطرق المرحلة السكنية الثالثة تختلف اختلافاً كبيراً عن مخططات بيوت المراحل الأولى. حيث كانت تتجه في الغالب باتجاه الشمال الشرقي ـ الجنوبي الغربي. أما المرحلة السكنية الرابعة فقد عثر على مخلفاتها على عمق حوالي (٥٠سم) من مخلفات المرحلة الثانية. حيث تم العثور هنا على بعض الأدوات الفخارية التي كان بداخلها بعض البذور كذلك تم التعرف على بقايا حريق. تم الحصول على تاريخ كربون مشع من هذه المرحلة وجاء يعود إلى العصر البرونزي القديم الأول. ضمت مخلفات هذه المرحلة أيضاً بقايا معمارية تكونت من مبنى له ساحة واسعة يحيطها من الجهتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية مجموعة من الغرف، وأما في الجهة الجنوبية فقد تم العثور على آثار لمعصرة للزيتون.

جاءت بقايا الطبقة الخامسة على عمق (٦٠سم) من الطبقة الرابعة. حيث تكونت من الفخار المشابه لنوع الفخار المصري على الأغلب. وتميز هذا النوع من الأواني بأنه مغطى ببطانة بيضاء ويكون مصقولاً في بعض الأحيان. وحملت ثلاث كسر فخارية اسم "نارمر" والذي يعرف من قبل بعض علماء الآثار على أنه الفرعون المصري "مينا" مؤسس الأسرة الأولى. ومن أهم ما عثر عليه في الطبقة الخامسة هو بناء عام يمتاز بساحة داخلية مرصوفة بالحصى ويحيط بثلاثة جوانب منها غرف تخزين وتفتح على ساحة خارجية من الجهة الرابعة. وإلى الشمال من هذا البناء كان هناك شارع بني بمحاذاة جهته الشمالية مجموعة من الغرف.

أظهرت مخلفات الطبقة السادسة على أنها جمرت بواسطة أعمال تخريبية. وقد تكونت مخلفات هذه الطبقة الفخارية من ثلاثة أنواع من الفخار هي فخار العصر البرونزي القديم الأول وفخار يعود إلى نهاية العصر الحجري النحاسي والنوع الثالث يختلف عنهما كلياً. وتكونت أشكال هذه الأدوات الفخارية من الكؤوس العميقة والأباريق الصغيرة والمزهريات.

وكما هو الحال في الطبقة السادسة حيث استمر ظهور المبنى العام هنا والذي ظهر في الطبقتين الخامسة والرابعة استمر ظهوره في الطبقة السابعة. فلقد لوحظ أآن سقف هذا المبنى والذي ينسب إلى الطبقة السادسة جاء مرفوعاً على أعمدة خشبية. لكن يبدو أن هذا المبنى كان قد بني لأول مرة زمن الطبقة الثامنة.

كشفت لنا الحفريات التي أجريت في المناطق (K-M) من هذا الموقع على بقايا تعود للعصر الحديدي الأول والثاني وجدران تعود إلى العصر البرونزي القديم الثاني. مثل هذه الجدران تم العثور عليها في المنطقة (L) وجاءت مبنية أيضاً من الطوب الطيني. كذلك

الحال بالنسبة للمنطقة () حيث تم العثور على مخلفات معمارية وفخارية تعود إلى مرحلـة العصر البرونزي القديم الثاني.

المراجع:

S. Yeivin, Eneyclopedia Biblica (Language Academy Publications), VII- VIII, Jerusalem, 1960, 224; idem, IEJ 10 (1960), 193- 203, Pls. 23-24; 11 (1961), 191; idem, RB 67 (1960) 391-94; 69 (1962), 395-97, idem, First Preliminary Report on the Excavations at Tell "Gath" (1956- 58), Jerusalem, 1961.

D. Ferembach, ibid, 19-20, P1s. XI- XII. A. Calsca, Oriens Antiqus 1(1962), 25-29; 2(1963), 45-63.

S. Yeivin, Ibid, 205-13; idem, Fourth World Congress of Jewish Studies I, Jerusalem, 1967, 45-48; idem, JNES 23 (1968) 37-49.

تل الفارعة الشمالي:

يقع موقع تل الفارعة الشمالي بالقرب من وادي تل الفارعة الذي يصب في نهر الأردن وعلى الطريق ما بين نابلس وطوباس يبعد حوالي (١١كم) إلى الشمال الشرقي من مدينة نابلس. يتمركز هذا الموقع فوق تلة صخرية تنحدر باتجاه جنوب غرب وشمال شرق. ويتزود بالمياه بواسطة نبع عين الفارعة ونبع عين دليب.

قام بالحفر الأثري في هذا الموقع المدرسة الفرنسة للآثار في القدس في الفترة الواقعة ما بين عامي (١٩٦ — ١٩٦٠) على تسعة مواسم وتحت إشراف العالم الآثري رونالد ديفو. ولقد حاول عدد من الأثريين ربطها بمواقع توراتية عديدة إلا أن معظمهم قد اتفق على أنها موقع ترصة الكنعاني.

استطاع ديفو أن يميز عدداً من الطبقات السكنية تبدأ بالعصر الحجري الحديث المبكر ب (PPNB) وتنتهي بانتهاء العصر الحديدي حيث دمر على يد الآشوريين والآن سوف نلقي الضوء على فترة العصر البرونزي القديم حيث تعطينا الأبنية التي عثر عليها وتعود إلى هذه المرحلة فكرة وافية عن المباني التي سكنها الإنسان في هذا الموقع في ذلك الوقت.

بنية مباني العصر البرونزي القديم فوق أنقاض بيوت العصر الحجري النحاسي وجاءت مربعة الشكل ومبنية من الطوب الطيني على أساسات من الحجارة وساعد في رفع سقوفها أعمدة خشبية كما أن لبعضها حنيات داخل الجدران. على أية حال فقد لوحظ هنا أن هذه المباني جاءت مبنية على ست مراحل. كما تم التعرف على مبنى يخص معبداً له ساحة مكشوفة ويتجه نحو الشرق وله مذبح يعود إلى المرحلة الأولى للبناء ودام استعماله حتى نهاية المرحلة الثالثة. تميز تخطيط الموقع بأن البيوت جاءت مبنية على شوارع منتظمة بلغ عرض أحدها المترين، وتم اكتشاف قنوات تحت هذه الشوارع وربما كانت تستعمل لتصريف المياه القذرة. جاءت المدينة في المرحلة الأولى محاطة بجدار مبني من الطوب على ثلاثة مداميك حجرية استخدمت كأساسات وبلغ طوله في الجهة الغربية (١٢٥ متر) وكان يتصل به أبراجاً. أما في الجهة الجنوبية من التل فلم يبن هذا الجدار وذلك لأن الموقع يطل هنا على وادي عين الدليب الذي كان يخدم كنظام دفاعي، بينما عثر على بقايا لهذا الجدار في الجهة الشمالية أيضاً.

خلال المرحلة الثالثة للبناء أعيد بناء هذه التحصينات وحصل أن قدم الجدار الأصلي في طرفه الجنوبي إلى الأمام بعض الشيء. وقد جاء الجدار المحيط بالمدينة مبني من الحجارة فقط وعلى أنقاض جدار المرحلة الثانية. كذلك أضيف في هذه المرحلة جدار تقوية من الحجارة في الجهة الغربية أمام الجدار المبني من الطوب، لهذا نرى أنه جاء عريضاً جداً. وفي أضيف في وقت

لاحق (glacis) إلى هذه التحصينات. في نهاية المرحلة الخامسة للبناء نجد أن الجهة الغربية من الجدار قد تهدمت، ولكن وبعد ترميمه بشكل غير جيد نرى أن هنالك بيوت سكنية قد بنيت على أنقاضه. ومن أهم أجزاء هذا الجدار هو البوابة المحصنة والتي ترجع إلى المرحلة البنائية الأولى، حيث كان هنالك ممر يبلغ أقصى عرض له (٤م) وأقله (٢،٥ متر) بين برجين من اللبن الطيني مبنيتين على أساسات من الحجارة. وحين العثور على هذه البوابة كانت تقف على ارتفاع (٤م). وبعد خراب هذه البوابة في فترة لاحقة فقد تم بناء بوابة جديدة على أنقاضها وهنا تم إغلاق المدخل حيث تم بناء بوابة جديدة ويوصل إلى هذه البوابة درج خارجي مبني من الطين المرصوص.

من هنا نرى كيف أن موقع تل الفارعة قد انتقل من مجرد مكان عادي للسكنى في مرحلة العصر الحجري النحاسي إلى مدينة محصنة في فترة العصر البرونزي القديم. لكن هذا التطور يبدو أنه لم يكن محلياً وإنما على يد جماعة جدد. بعد هجران الموقع في نهاية العصر البرونزي القديم تم إعادة سكناه في المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط.

باب الذراع:

يقع موقع باب الذراع إلى الشرق من منطقة البحر الميت حيث يرتفع حوالي ١٧٠ متر فوق سطح البحر. اكتشف هذا الموقع في عام ١٩٢٤ وذلك خلال عملية المسح الأثري الذي قامت به المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية تحت إشراف وليم أولبرايت والذي قام بأعمال حفر على نطاق ضيق في هذا الموقع. إلا أن نتائج هذه الحفريات لم تنشر إلا بعد مضي عشرين عاماً وذلك لعدم تمكن المنقب من إعطاء تاريخ دقيق للآثار المكتشفة أو على الأقل إرجاعها إلى مرحلة معينة ضمن حلقة التسلسل التاريخي (Albright 1944). حتى بع الانتهاء من العمل بزمن طويل لم يكن بالإمكان تأريخ المكتشفات من لقى وبنايات إلا أنها نسبت إلى العصر البرونزي القديم بشكل عام دون ملاحظة تطور الأواني الفخارية من حيث صناعتها وأشكالها وأصنافها. و لم تكن مقارنتها مع مكتشفات معاصرة صحيحة تماماً.

بعد ما قام به أولبرايت بقي الموقع بعيداً عن الاهتمام حتى عام ١٩٦٥ حين لاحظ العاملون في الآثار في القدس أوان فخارية في حوزة تجار العاديات وبين أيدي السياح والمواطنين الذين أعادوا مصدرها إلى باب الذراع فأسرعت دائرة الآثار العامة بالتعاون مع المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس للقيام بأعمال تنقيب أثري تحت إسراف الدكتور بول لاب لمدة ثلاثة مواسم (١٩٦٥ ــ ١٩٦٧). وبعد وفاة بول لاب المفاجئة عام ١٩٧٠ تم مواصلة أعمال الحفر تحت إشراف تلميذته والتر راست وتوماس شاوب.

كشفت الحفريات الأخيرة في هذا الموقع النقاب عن مدينة أثرية تعتبر من أهم المواقع الأثرية في الأردن، كما أسهمت الدراسات التي أجريت فيه في حل عدد من المشكلات خاصة في حلقة التسلسل التاريخي بالإضافة إلى إضافة معلومات جديدة عن حياة وتقاليد الناس الذين عاشوا في هذه المنطقة في فترة العصر البرونزي القديم.

تركزت أعمال الحفر والاستقصاء الأثري في منطقتين مختلفتين هما المنطقة السكنية والمقبرة، وسنقدم أدناه وصفاً تفصيلياً لكل منهما:

أ ــ المنطقة السكنية:

بلغت مساحة هذه المنطقة ٤٠ دونماً وجاءت محاطة بنظامين دفاعين وتعتبر دراستها بشكل دقيق مهمة جداً وذلك لأنها تعطينا فكرة كاملة عن كيفية إنشاء المدن الأولى في منطقة الأردن وفلسطين. ويذكر المنقبون أن أولى بوادر الاستيطان في هذا الموقع كان في حوالي ٣١٠٠ ق.م أي في الفترة المعروفة باسم العصر البرونزي القديم الأول "ب" (EBIb). كما لاحظ المكتشفون أنه وفي بداية العصر البرونزي القديم الثاني بني جدار من الطوب على أساسات من الحجارة وبلغ عرضه ٢،٥ متر، وله أربعة أبراج مربعة الشكل أبعاد البرج الواحد تبلغ ٤×٤ متر. وبعد تدمير المدينة في فترة العصر البرونزي القديم الثاني (EBII) تم في الفترة اللاحقة (EBIII) أي حوالي ٢٧٠٠ قبل الميلاد بناء جدار حجري حول المدينة يبلغ سمكه حوالي ١١ ــ ١٢ متراً، ويتصل به أبراجاً حيث ظل قائماً حتى نهاية هذه الفترة.

من الأبنية التي عثر عليها هنا كان بناء من اللبن الطيني في الجهة الشمالية الغربية داخل المدينة. كما تم الكشف عن غرفتين يحيط بهما جدار مبني من الطوب الطيني المربع الشكل (Rest and Schaud 1980). وعلى ما يبدو فإن هذه المنطقة الشمالية الغربية كانت جميعها مغطاة بمثل هذه البيوت.

خلال عمليات التنقيب في عام ١٩٧٥ في الجهة الجنوبية الغربية للموقع تم الكشف عن بناءين مستطيلي الشكل بني أحدهما فوق الآخر وعلى نفس الشاكلة. وذكر المنقبون أن هذا النوع من الأبنية يخص المعابد، خاصة وأن الأماكن المقدسة في الأزمنة القديمة كان يعاد بناؤها واستعمالها. كذلك كشف النقاب في الساحة الغربية للبناء عن قاعدة حجر إهليلجية الشكل يبلغ قطرها حوالي ٣ متر وبجانبها بعض الأدوات الصوانية التي استعملت لذبح الحيوانات مما جعل المنقبون يعتقدون أن هذه القاعدة تخص مذبحاً تقدم عليه القرابين (Rest and Schaud 1980). يعطينا هذا البناء فكرة واضحة عن المعابد الكنعانية الأولى والتي بقيت في الاستعمال لقرون طويلة.

ب ـ المقبرة:

تعتبر مقبرة باب الذراع من أغنى المقابر التي عرفها الشرق القديم حيث بلغت مساحتها ٥٠٠٠ × ١٠٠٠متر ومن خلال الحفريات التي أجريت فيها قدر عدد القبور بحوالي ٢٠ ألف قبر قد تضم حوالي نصف مليون شخصا وحوالي ٣ ملايين إناءا فخاريا. عدد الأدوات المعدنية واللقى الأخرى. استمر استعمال هذه المقبرة فترة زمنية تزيد عن الألف سنة دون انقطاع أي من أواخر الألف الرابع وحتى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حيث يبدأ تاريخ هذا الموقع مع موجات بشرية هاجرت إلى هذه المنطقة في هذا الوقت المبكر.

يلاحظ المتتبع لآثار منطقة الأردن وفلسطين والتطور الحضاري فيها أن القادمين الجدد مع بزوغ العصر البرونزي القديم قد استخدموا طريقة جديدة لدفن موتاهم لم نعرفها من قبل وأصبحت مقابرهم ومحتوياتها مع ما يحيط بها من تقاليد دينية أهم مصدر لنا للتعرف على تاريخ فلسطين وأجزاء أخرى من شمالي سوريا في هذه المرحلة التاريخية. وقد أمكن تمييز أربعة أنواع من القبور هي المدافن ذات حفرة عمودية تتصل بغرف الدفن **(Shaft Tombs)** والمدافن على شكل قبة والمدافن المستطيلة الشكل **(Charnel Houses)** والمدافن التي بشكل حفرة عمودية مقطوعة في الصخر **(Cairn Tombs)**.

بالنسبة للنوع الأول **(Shaft Tombs)** فهو عبارة عن حفرة عمودية مقطوعة في الصخر الطري بعمق يبلغ عدة أمتار ويختلف من قبر لآخر وتتسع في قسمها السفلي ويتفرع عنها تجويف أو أكثر تم فيها دفن الموتى. المدخل بيضوي الشكل تقريبا في قسمع العلوي بينما يأخذ شكل مستطيل بزوايا قوسية عند الأسفل. كذلك يوجد لبعض هذه القبور مداخل أسطوانية الشكل بزوايا منحنية. وقد أحكم سد المدخل بتراب عكسي من نفس الصخر الذي فيه القبر وفي حالات أخرى صنع للمدخل غطاء على شكل لوحة حجرية وضعت بدقة تحت الفوهة بقليل. أغلقت مداخل التجاويف الجانبية بواسطة ثلاثة أو أربعة أحجار غي منتظمة الشكل تتخللها حجارة صغيرة الحجم ووجد خلف كل مدخل درجة تؤدي إلى غرفة الدفن (ابراهيم ١٩٧٢).

عثر في داخل كل قبر على كومة عظام لعدة أشخاص ألقيت على أرضية من الرمل الناعم جاءت الكبيرة منها مرتبة بالتوازي والصغيرة دون انتظام. وأما الجماجم فكانت مرتبة بمحاذاة الجدران، وغالبا ما اكتشف بداخل غرف الدفن عدد من الأواني الفخارية بمعدل ٢٠ قطعة لكل غرفة بالإضافة إلى أواني من البازلت وبعض الدمى والصنادل والحصر والسلال والأعمدة الخشبية.

والنوع الثاني وهو المدافن على شكل قبة فقد تم الكشف عن عدد قليل منه ويعتبر هذا النوع بأنه يمثل حلقة وصل ما بين النوع الأول والنوع الثالث. ويعود تاريخه إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وجاء المدفن مبني من الطوب على شكل قبة يستدير شكله في الأسفل ويضيق في الأعلى وله مدخل ضيق بعض الشيء يحيط به بلاطتان حجريتان يعلوهما بلاطة ثالثة. أمام المدخل عادة توجد ساحة صغيرة لسوره ومرصوفة بالحجارة.

المدافن المستطيلة الشكل (**Charnel Houses**) تمثل النوع الثالث لمدافن باب الذراع حيث تكونت من غرفة مستطيلة الشكل جدرانها مبنية من اللبن الطيني على طبقة من الحجارة غير منتظمة الشكل. تختلف أبعاد غرف المدافن من واحد لآخر لكن الأطوال المتوسطة الحجم منها بلغت حوالي ١١،٥٠ × ٥،٥٠ متراً. جاء المدخل إلى هذه الغرف في الجهة الطويلة للغرفة وهذا يذكرنا في المعابد والبيوت الكنعانية، ويغطي جانبيه لوحتان حجريتان ولوحة أخرى أغلق بها.

دخل إلى الغرفة التي غالباً ما كانت مرصوفة بالحصى ومسقوفة بألواح خشبية بواسطة درجة أو درجتين. ومن الملاحظ أنه قد أعيد استعمال هذه القبور أكثر من مرة في العصر البرونزي القديم الثاني والثالث.

استطاع المنقبون أن يتعرفوا على آثار حريق شمل عدداً من هذه المقابر ويبدو أن عملية الحرق هذه قد تمت من قبل مهاجمين للمنطقة في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وأعطى فحص المواد المحروقة تواريخاً ما بين ٢٤٠٠ ــ ٢٣٠٠ ± ٢٥٠ قبل الميلاد.

تم العثور بداخل هذه القبور على أكوام من العظام جاء بعضها محروقاً وعلى أوان فخارية خاصة تلك التي تعرف باسم "أباريق أبيدوس" وعلى أسلحة تضم فؤوساً وخناجر وعلى خرز كما تم العثور على بقايا قماش وخشب شمله الحريق.

النوع الرابع والأخير هو المعروف باسم (**Cair Tombs**) الذي جاء مشابهاً للنوع الأول في أنه محفور بشكل حفرة عمودية داخل الأرض حيث تنتهي هذه الحفرة بتجويف جانبي أو أكثر، لكنه يختلف عن هذا النوع في آن، كل تجويف ضم هيكلاً عظمياً واحداً فقط. وجاءت الحفرة الواحدة مليئة بالحجارة لتشكل في النهاية كومة فوق سطح الأرض.

يختلف هذا النوع في موجوداته عن الأنواع السابقة، فقد عثر في داخل كل قبر على عدد من الأواني الفخارية المصنوعة بواسطة اليد عدا العنق الذي صنع بواسطة العجلة بالإضافة إلى بعض الأسلحة أحياناً. تنسب هذه الموجودات إلى الجماعات الذين جاؤوا إلى البلاد في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد ودمروا المنطقة فيكون قد قضي مع قدومهم على حضارة العصر البرونزي القديم والتي استمرت مدة تزيد على الألف سنة.

لا يوجد لدينا حتى الآن أي دليل على أن موقع باب الذراع قد أعيدت سكناه في فترة العصر البرونزي المتوسط أو بعد ذلك ويبدو أنه هجر كلياً وربما يعود هذا إلى صعوبة تحصينه.

BIBLIOGRAPHY

Abel, Le. P..M. — **Geographie de la Palestine, Tome I. Geographie et Historique.** Paris: Librarie Lecoffre.

Aharoni, Y. 1967 — **The Land of the Bible.** A.F. Rainey, Translator. Philadelphia: The Wesminster Press.

Albright, W.W. 1931 — Recent Progress in the Late Prehistory of Palestine **BASOR** 42:14ff.

1932 — The Chalcolithic Age in Palestine. **BASOR** 48:10ff.

1960 — **The Archaeology of Palestine.** Harmondsworth: Penguine Books.

1970 — The Phenomenon of Israeli Archaeology, in **Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century,** Essays in Honor of Nelson Glueck, 57-63.

1971 — Some Remarks on the Archaeologycal Chronology of Palestine Before about 1500 B.C. In: R.W Erich, **Chronologies in old World Archaeology,** 2nd Edition. Chicago: The University Chicago Press 45-57.

Albright, W.F. 1974 — **The Archaeology of Palestine and the Bible,** The American Schools of Oriental Research. Cambridge: Massachusetts.

Amiran, R. 1960 — The Pottery of the Middle Bronze Age I in Palestine. IEJ 10: 204-225.

1969 — **Ancient Pottery of the Holly Land, from its Beginnings in the Neolithic Period to the End of the Iron Age.** Jerusalem: Massada Press LTD.

Anati, E.1963 — **Palestine before the Hebrews.** New York: Alfred A. Knopf, Inc.

1972 — Stone Age Sites Excavated in Israel Archaeology 25:2 April:149-150.

Arensburg, B. 1977 — New Upper Palaeolothic remains from Israel. In **Eretz Israel,** 13 Stekelis Mem. Vol., ed. B. Arensburg, O. Bar- Yousef, Pp. 208-15. Jersualem: Isr Explor. Soc. 294.

Bar - Yousef, O. 1978 — 'Uebidiya. PP. 1214 -1216 in **Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land,** Vol. IV. edits. M. Avi-Yonah and E. Stern. Jerusalem: Massada Press.

1980 Prehistory of the Levant. **Ann. Rev. Anthropology,** 9:101-133.

Bar-YOousef, O. and J.L. Phillips 1977 Prehistoric Investigations in Gebel Maghara, Northern Sinai. **Qedem 7.**

Ben-Tor, Amon 1978 **Cylinder Seals of Third-Millennium Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research Supplement Series 22:** American Schools of Oriental Research.

Besancon, J., Copeland L. Hours, F. 1975-1977 Tableaux de prehistoire Libanaise. **Paleorient** 3:5-46.

Bliss, J. 1894 **A mound of Many cities of Tell el-Hesy Excavated.** London.

Braidwood, J. Robert 1973 The Early Village in Southestern **Asia. JNES** 32:34-39.

Callaway, J.A. 1964 Pettery from the Tombs at Ai (et-Tell) London: **Colt Archaeological Institute, Monograph No.2,** 1964.

Cauvin, J. 1968 **Les Outillages Neolithiques de Byblos dt de Litoral Libanais. Fouilles de Byblos IV,** edit de Maurice Dunand. Paris

1972 **Religions neolithiques de Syro- Palestine.** Paris.

Cauvin, J. 1974 Troisieme Campagne de Fouilles a Tell Mureybet (Syrie) en 1973. Rapport Preliminaire. **Annales Archeologiques Arabes Syriennes** 24:47-51.

Clack, G. 1980 **Mesolithic Prelude, the Palaeolithic-Neo-lithic Transition in Old World Prehistory.** Edinburg: University Press.

Clutton- Brock, J. 1969 Carnivore Remains from the Excavations of the Jericho Tell. Pp. 337-345 in the **Domestication and Exploitation of Plants and Animals,** P.J. Ucko and G.W. Dimbelby (eds.). London: Duckworth.

1971 The Primary Food Animals of hte Jericho Tell, from hte Proto-Neolithic to the Byxantine Period. **Levant** 3:41-55.

De Contenson H. 1966 Decouvertes recentes dans le domiain du Neolightique en Syrie. Syria 43:153-154.

1977 Agricultures sedentaires du 8e au 6e millenaire. **Archeologia** 106:38-47.

1977	Agricultures sedentaires du 8e au 6e millenaire. **Archeologia** 106:38-47.
Copeland, P.J and Wescombe, P.J. 1965	Inventory of Stone-age Sites in Lebanon. **Melanges de l'Universite Sanit- Joseph de Beyrouth** XLI:23ff.
1966	Invertory of Stone- age Sites in Lebanon. **Melanges de l'Universite Sanit- Joseph de Beyrouth** XLIT:1-175.
de Vaux, R. 1966	Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods. Pp. 3-43 in Vols. I and II fascile 47 of the **Cambridge Ancient History**. Cambridge, Cambridge University Press.
de Vaux, R. 1970	On Right and Wrong uses of Archaeology, In, A. Sanders, **Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century**, Essays in Honor of Nelosn Glucke.
1978	**The Early History of Israel.** Philadelphia the Westmester Press- Translated by: Daved Smith.
Donner, Herbert 1979	Pilgerfahrt ins Heilige Land, die altesten' Berichte christlicher **Palastinapiguer** 4-7 Jahrhundert.
Dothan, M. 1957	Excavations at Meser, 1956, in **IEJ** 7, 217-228.
1975	'Afula. Pp. 32-36 in **Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy land** Vol. I. London: Oxford University Press.
Echegaray, G. 1964	**Excavations en la Terraza de "El-Khiam" (Jordania),** Bibliotheca Prehistorica Hispana, Part I.
1966	**Escavations en la Terraza de "El-Kaim" (Jordania).** Bibliotheca Prehistorica Hispana, Part II.
Franken, H.J. 1970	The Other Side of Jordan, **ADAJ** 15, 5-10.
Garrard, A.N. and Stainly Price N.P. 1977	A survey of Prehistoric sites in hte Azraq Basin, eastern Jordan. **Paleorient** 3:109-127.
Garrod, D.A.E and Bate, D.M. 1937	**The Stone Age of Mount Carmel.** Oxford.

Garstang, J. 1921 Excavation of Ashkalon, 192) -1, **PEFQ st 53**, 12-16, 73-75.
1922 The Ex-avations at Askalon, **PEFQ st 54**, 112-119.
1948 **The Story of Jericho.**

Guy, P.L.O. 1938 **The Story of Jericho**

Harding, L. 1953 An Early Bronze Age cave st El-Husn. **PEFA VI**: 1-3

Helbaeck, H. 1966 Pre- Pottery Neolithic Farming of Beidha (A Preliminary Report). **Palestine Exploration Quarterly** : 61 - 66

Hennessy, B. 1967 **The Foreign Relations of Palentine during the early Bronze Age**. London : Colt Archaelogical Institute Publication.

1969 Preliminary Report of the First Season of Excavations at Teleilat **Ghassul. Levant 1**:1-25.

Hestrin, R. and Tadmor, M. 1963 A Hord of Tolls and Weapons from Kfar Monash. **IEJ 13**: 265ff.

Hopf, M. 1969 Plant Remains and Early Farming in Jericho. Pp. 355-359 in the **Domestication and Exploitation of Plants and Animals**, eds., P.J. Ucko and G.W. Dimbellby. London: Duckworth.

Horowitz, A. ed 1979 **The Quaternary of Israel**. New- York: Academic. 39ff.

Hours, Francis, S.J. 1969 Saayidet et le Neolithique pre-poterie au liban. **Melanges de l Universite Saint-Joseph de Beyrouth 45**: 31-39.

Ibrahim, M. 1972 Archaeological Excavations at Sahab, 1972 **ADAJ XVII**: 23-37.

1974 Second Season of Excavations at Sahab, 1973. **ADAJ19.**
1975 Third Seasons of Excavations at Sahab, 1974 **ADAJ 20**

Jilined, A.J. et al 1973 New excavations at the Tabun Cave, Mount Carmel, Israel 1967-1972;a preliminary Report. **Paleorient 1**:151-183.

Kafafi, Z. 1982 **The Neolithic of Jordan**, (East Bank). Un- published ph.D. Thesis submitted to the institut fur Vorderasiatische

Altertumskunde et the Freie Universitat Berlin.

Kaplan, J. 1958 a Excavation at Teluliot Batashi in the Vale of Sorek. **Eretz Israel** 5: 9ff. (English Summary Pp. 83-84).

1966 Kefar Gil'adi. **Israel Exploration Journal** 16:27ff.

Kenyon, K. 1952 Excavation at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 84:62ff.

1953 Excavation at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 85:81ff.

Kenyon, K. 1954 Excavation at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 86: 45-64.

1955 Excavation at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 87:1 1/48ff.

1955a A Crescentic Axehead from Jericho and a Group of Weapons from Tell el-Hesi. **Eleventh Annual Report of the Institute of Archaeology**, University of London: Pp. 1ff.

1956 Excavations at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 88:67-83.

1956a Jericho and its setting in Near Eastern History. **Antiquity** XXX: 184-197.

1956b Tombs of hte Intermediat Early Bronze-Middle Bronze Age at Tell 'Ajjul. **ADAJ** 3; 41-55.

1957 Excavations at Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 89:101-107.

1957a **Diggin up Jericho**. London.

1957b Reply to professor Braidwood. **Antiquity XXXI**: 82ff

1959 Earliest Jericho. **Antiquity XXXIII**:5-19.

1959b The Neolithic Pottery of Palestine. **Annual of the American School of Oriental Research**: 15-22.

Kenyon, K. 1959 c Some Observation on the Beginning of the Settlement in the Near East. **Jouranl of the Royal Anthropological Institute** 89: 35ff.

1960a Excavations at Jericho, 1957-1958. **Palestine Exploration Quarterly** 92:88-122.

1960b **Archaeology in the Holy Land**. London.

1960c Jericho and the Origins of Agriculture. **Advancement of Science** (July).

1960d Excavation at Jericho, Vol. I.

1969 The Origin of the Neolithic. **Advancement of Science**: 144-

160.

1981 **Excavations at Jericho, Vol. III. The Architecture and Stratigraphy of the Tell,** Text, Edit. Thomas A. Holland. London: Published by the British School of Archaeology in Jerusalem.

Kirkbride, A.S. and L. harding 1974 Hasma. **Palestine Exploration Quarterly** 79: 7-27.

Kirkbride, D.V.W. 1956 A Neolithic Site at Wadi el-Yabis. **Annual of the Department of Antiquities of Jrodan** 3:56-60.

1958 Notes on a Survey of Pre-Roman Sites near Jerahs. **Bulletin of the Institute of Archaeology London I** : 9ff.

Kirkbride, D. 1959 Short Note on Some Hitherto Unrecorede Prehistoric Sites in Transjordan. **Palestine Explorations Quarterly** 91: 52-54.

1960 a A Short Account of the Excavations at Petra in 1955-56. **Annual of the Department of Antiquities of Jordan**: 117-122.

1960b The Excavation of a Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha near Petra. **Palestine Exploration Quarterly** 92: 136-145.

1960 c Seyl Aglat, Beidha pres de Petra. **Revue/Biblique** 67: 235-238.

1960d A Brief Report on the Pre- Pottery Flint Cultures of Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 92:114-119.

1960e Khirbert Rizqueh, **Revue Biblique** 67:232-235.

1960f 'Ain Abu Nkheileh. **Reuve Biblique** 67:231-232.

1961 Ten Thousand Years of Man's Activity Around Petra. **Illustrated London News: Spetemeber 16**: 448-451.

1962a Excavation of the Pre-Pottery Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha. **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 6-7: 7-12.

1962b Seyl Aqlat, Beidha. **Revue Biblique** 69: 88ff.

1963 Seyl Aqlat, a Pre-Pottery Neolithic Village Near Petra. **Illustrated London News, January 19**: 82-84.

Kirkbride, D. 1964 Seyl Aqlat, Beidha. **Revue Biblique** 71: 246- 250.

1966 Five Seasons at the Pre-Pottery Neolithic Village of Beidha in Jordan. **Palestine Exploration Quarterly** 98:8-72.

1966a Beidha, An Early Neolithic Village Jordan. **Archaeology** 19: 199-207.

1966b	Beidha, 1965 Campaign. **Archaeology 19**: 268-272.
1967a	Beidha 1965: An interim Report. **Palestine Exploration Quarterly 99**: 5-13.
1967b	Beidha: An Early Neolithic Village in Jordan. Pp. 9-18 in **Archaeological Discoveries in the Holy Land,** Compiled by The Archaeological Institute of America. New York: Thomas Y. Crowell Company.
1968a	Beidha 1967: An Interim Report. **Palestine Exploration Quarterly 100**: 90-96.
1968b	Beidha, :Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. **Antiquity XLII**: 263-274.
1969a	Ancient Arabian Ancestor Idols. **Archaeology 22**: 116-121. Figs.; Pp. 188-195.
1969b	Early Byblos and The Beqa'a. **Melanges de L'Universite Saint - Joseph de Bey- routh 45**: 46-59.
Kirkbride, D. 1971	A commentary on the pottery Neolithic of Palestine. **Harvard Theological Revie 64**: 281-289. Cambridge: Harvard University Press.
1978	The Neolithic in Wadi Rumm: 'Ain Abu Nekheileh. In **Archaeology in the Levant, Essay for Kathleen Kenyon,** edit. by Roger Moorey and Peter Parr. Warminster: Aris & Phillips Ltd.
Koeppel, R. 1940	**Teleilat Ghassul II,** Compt rendu des fouilles de l Institut Biblique Pontifical 1932-1936. Rome
Lapp. P. 1960	**The Dahr Mirzbaheh.**
1970	Palestine in the Early Bronze Age. In the **Near Eastern Archaeology in the Twentieth Centruy.**
Lechvallier, M.	
1970a	Abu Gosh. **IEJ 20**: 222-223.
1971	Abu Gosh. **IEJ 21**: 226-227.
1971a	Abu Gosh. **RB 78**: 406-407.
1972	Abu Gosh. **RB 79**: 399-400.
Lechevallier, M. and J. Perrot 1973	Eynan and Beisamoun. **Israel Exploration Journal 23**: 107-108.
Lechevallier, M. and G. Dollfus 1973a	Nouveaux Sites du Vie Millenaire en Haute- Galilee. **Eretz Israel ll**: 9-22.
Lechevallier, M. et	**Abu Gosh et Beisamoun, Deux Gisments du VIIe Millenaire**

al. 1978	**avant L'Era Dhretienne en Israel.** Paris: Moeories et Travaux de centre de Recherches Pre-historique.
Legge, A. J. 1975	The Fauna of Tell abu Hureyra: Preliminary Analysis. Pp. 74-75 in A. M. T. M. Moore. The Excavation of Tell Abu Hureyra in Syria, A Preliminary Report. **Proceeding of the Prehistoric Society 41**: 50-57.
Leroi-Gourhan, A. 1974	Etudes Palynoloquque des derniers 1100 ans en Syrie Wemi-desertique. **Paleproent 2**:443.
Macalister, R.A. S. 1972	**The Excavations of Gezer, I-III**. London.
Mallon, A.: R. Koppel and R. Neuville 1934	**Teleilat el-Ghassul I**. Compte rendu des fouillesde L'institut Biblique Pontifical 1929-1932. Rome.
Mailer, B. and M. Stekelis 1952	The Excavations at Beth Yerah (Khirbet Kerak). **IEJ 2**: 165ff, 218ff.
Marks, A. E. 1976	**Prehistory and Paleoenvironments in the Central Negev, Israel. Vol. I.** The Avdat/Aqev Area. Dalleas: SMU Press.
1977	**Prehistory and Paleoenvironments in the Central Negev, Israel. Vol. II**: The Avdat/Aqev Area Part 2 and Har Harif Area. Dallas: SMU Press. 356ff.
Mellaart, J. 1956	The Neolithic Site of Ghrubba. **Annual of The Department of Antiquities of Jordan 3**: 24-33
1975	**The Neolithic of the Near** East, With 164 illustrations. London: Thomes and Hudson.
Moore, A.M.T.	
1973	The Late Neolithic in Palestine. **Levant V**: 36-69.
1978	**The Neolithic of the Levant, I and II.** Unpublished Ph.D. Thesis Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy. Oxford University, University College.
Moorey, Roger 1981	**Excavation in Palestine.** Guildford Letter worth Press.
1961	**National Geographic Magazine, Vol. 120**; No. 4 (1961), Pp. 546-592.
Neuville, R. 1934	Le Prehistorique de Palestine. **Revue Biblique XLIII**: 250-256.
North, R. 1961	Ghassul 1960 Excavation Report. **Biblica 14.** Rome.
Noth, Mrtin 1971	**Aufsatze zur Biblischen Landes-und Altertumskunde, Band** I (Neukirchener Verlag)
1971	Grundsatzliches zur geschichtlichen Deutung archaologischer Befunde auf dem Boden **Palastineas, in Aufsatze sur**

Biblischen landes-und Altertums- Kunde 1, 3-16.

Noy, T.: A.T. Legge, and E.S. Higgs 1973 — Recent Excavation at Nahal Oren, Israel. **Proceeding of the prehistoric Society**: 75-100

Orthmann, W. 1977 — Burial Customs of the 3rd Millennium B.C in the Euphrates Vall'y-Le Moyen Euphrate Zone de contacts ed d' echanges, Actes du Colloque de **Strasloourg 10-12 mars 1977 edit. J.CI. Margueron.**

Ortner, O.J. 1981 — Apreliminary Report on the Human Remains from the Bab edh-Dhra cemetery. In: The Southeastern Dead Sea Plain Expedition. An Inerin Re'prt of the 1977 Season. **AASOR 46**:1-5.

Ory, J. 1946 — A Chalcolithic Necropolis at benei Beraq. **QDAP 12**, 43-57.

Payne, Joan Crowfoot 1976 — The Terminology at the Aceramic Neolithic Period in the Levant in Congress Ixe, Colleque III? Deuxieme Colleque surla Terminologie de la Prehistoire du Proche-Orient "Terminology of Prehistory of the Near East". Direction Fred Wendrof. Nice: Parc Valrose de l ' Universite de Nice. **Pp. 131 - 137 in Union International des Science Prehistoriques et Protohistoriques**

Perrot, J. 1952a — Le Neolithique d' Abu-Gohs: **Syria 29**: 119ff.

1952b — Tetes de fleches du Natoufien et du tahounien (Palestine). **Bull. Soc. Preh. fr. 49**: 443ff.

Perrot, J. 1955 — The Excavation at Tell Abu- Mater. **Israel Exploration Journal 10**: 14-40.

1960 — Excavations at 'Eynan ('Ein Mattaha).**Israel Exploration Journal 10**; 14-22.

1961 — Une Tombe aossuaires du Ive millenaire a' Azpr Pres de Tel Avev, **Atiqot 3**, 1-83.

1962a — Eynan ('Ain Mallaha). **Revue Biblique 69**: 384ff.

1962b — Palestine-Syria-Cilica. Pp. 147ff. in R.J Braidwood and G.R. Wiley, **Courses Toward Urban Life**. Chicago.

1963a — Munhata. **Revue Biblique 70**:560ff.

1963b — Hazorea, Tell Turmus, ben Shemen. **Revue Biblique 70**: 559ff.

1963c — Review of R. North, Ghassul 1960 Ecavation Report. **Orientalia 32**: 104ff.

1963d Horvat Minha (munhata). **Israel Exploration Journal 13**; 138-140.

1964a Horvat Minha (munhata) et Hahal Tavor (Ouadi Bira). **Israel Exploration Journal 14**:278.

1965 Munhata. **Israel Exploration Journal 15**:

1965b Munhata. **Revue biblique 72:** 539-543.

Perrot, J. 1966 Beisamoun. **Israel Exploration Journal 16**: 271-272.

1966a La Troisieme Campagne de Fouilles a Munhata 1964. **Syria XLIII**: 49-63

1966b Munhata (kh. Mihna). **Israel Exploration Journal 16**: 269-271.

1966c Le Gisement Natoufien de Mallaha (Eynan) Israel. **L'Anthropologie 70:5-6**, 437-484.

1967 La Palestine Prehistorie (on Munhata). **Bible Terre Sainte 93**: 4-16.

1967a **Bible Terra Sainte 93**:4-17.

1967b Abu Gosh. **Israel Exploration Journal 17**: 266-267.

1968 La Prehistorie Palestinienne. Supplement au **Dictionnaire de la Bible**. Paris.

1968a Munhata. **Revue Biblique 75**: 263-264.

1969 Mallaha: les Debuts de la Vie Sedentaire en Palestine Il y a 10,000 ans. **Atomes**

1969a Abu Gosh. **Revue Biblique 76**: 421-423.

1969b Le Neolighique du Liban et les recentes decovertes dans la haute et Moyenne. Vallee du Jordain. **Melanges de l'Universite Saint-Joseph de Neyrouth XLV**: 133-145.

Perrot, J. 1975 Abu Gosh. **Encyclopedia of Archaeological Excavation in the Holy Land I**-3-5.

1979 **Syria-Palestine I, from the Orogins to the Bronze Age.** Geneva: Nagel Publishers.

Perrot, J. and N. Tsori 1964a Horvat Minah (munhatta). **Israel Exploration Journal 14**:108.

1964b Munhata. **Revue Biblique 71**: 391-392.

1977 Minha, Horvat. **Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land III**. Jerusalme: Massada Press.

Petrie, F. 1928 Gerar, London.

1930 Beth- Pelet I. London.

Phythian- Adams, W.J. 1923 — Reports on the Stratification of Askhalon, PEFQ st 55, 60-84.

Prausnitx, M.W. 1955 — Alumoth (Kh. Sheikh Ali) **Israel Exploration Journal 5**: 271.

1957 — Alumoth. **Israel Exploration Journal 7**: 263-264.

1959 — The First Argriculture Settlements in the Galilee. **Israel Exploration Journal 9**: 166ff.

1960a — Tell "Ele (Kh. Sheikh 'Ale). **Israel Exploration Journal 10**: 119ff.

Prausnitz, M.W. 1960b — Tell 'Aly (Kh. Sheikh 'Ale). **Revue Biblique 67**: 389ff.

1969 — The Excavations at Kabri. **Eretz Israel** 9: 137 "English Summary".

1970 — Excavations in the Site Hertzeliyah, 1969 Mitekufat Haeven 10:11 -16 (Hebrew); 16. English Summary).

1970a — A Neolithic Hele-mouth Jar. **Atiqot** 6:9.

1970b — **From Hunter to Farmer and Trader. Studies in the Lithic Industries of Israel and Adjacent Countries (From the Mesolithic to the Chalcolithic Age)**. Jersualem: Sivan Press LTD.

1975 — 'Ali Tel. Pp. 61-65 in **Vol. I of Encyclopedia of Archaeological Excavations in Holy Land**. ed. M. Avi- Yonah London: Oxford University Press.

Pritchard, J. 1962 — **Gibeon Where the Sun Stood Still**. Princeton.

1963 — **The Bronze Age Cemetery at Gibeon.**

1969 — **Ancient near Eastern Texts Relating to the Old Testament**, 3rd Edition with Supplement. Princeton, Priceton University Press.

Reicke, B. and L. Rost 1966 — **Biblisch- Historisches Handworterbuch**, Landeskunde, Geschichte, Religion, Kultur, Literatur. Gottingen: Vandenhoeck & Ruppecht.

Reisner, G.A. 1924 — **Harvard Ecavations at Samaria 1908-9.**

Riis, P.J. and Henrik Thrane 1974 — **Sukas III, the Neolithic Periods.** Kobenhavn: Publications of Carlsberg Expedition to Phonecia 3.

Rothenberg, Beno 1972 — **Timna**, Valley of the Biblical Copper Mines.

Schaeffer, C.F.A. 1931 — Les fouilles de minet el-Beidha et de Ras Shamra, deuxieme campagne (printemps 1930) **Syria 12**: 1-14.

1933 — **Syria 14, 109 ff.**

1934 — **Syria 15, 123.**

Singh, P. 1976 — **Neolithic Cultures of Western Asia.** London: Seminar Press.

Skinner, J. 1965 — **The Flake Industries of Southwest Asia**: A Typological Study. Ph. D. Thesis. Columbia University, Ny. Ann. Arbor: University Microfilms : Pp. 283ff.

Smith, G.A. 1896 — **The Historical Geography of the Holy Land, Especially in Relation to the History of Israel, and of the Early Church , with six Maps,** London: Hodder and Stonghton.

Smith, R. 1962 — **Excavations in the Cemetery at Khirbet Kufin, Palestine.** London.

Stekelis, M. 1950-1951 — A New Neolithic Industry: The Yarmukian of Palestine. **Israel Exploration Journal: 1-20.**

Stekelis, M. and Yisraeli 1963 — Excavations at Nahal Oren, Preliminary Report. **Israel Exploration Journal 13**: 1-12.

Stekelis, M. 1972 — **The Yarmukian Culture**, Jerusalem: Magness Press.

Sukenik, E. 1937 — A Chalcolithic Necropolis at Hederah, in **JPOS 17**.

Tufnell, O. 1958 — **Lachish IV, The Bronze Age**. Oxford.

Van Liere, J. W. and H. De Contenson 1963 — A Note on Five Early Neolithic Sites in Inland Syria. **Annales Archaeologiques de Syria 13**: 174-209.

Van Loon, M. 1966 — First Results of the 1965 Excavations at Mureybet Near Meskene. **Annels Archeologiques Arabes Syriennes 16.2**: 211-217.

1966a — Mureybat: An Early Village in Inland Syria. **Archaeology 19**: 215-216.

1968 — The Oriental Excavations at Mureybet, Syria, Preliminary Report on the 1965 Campaign Part 1. **Journal of Near Eastern**

	Studies 27: 265-282.
Van Zeist W. 1970	The Oriental Institute Excavations at Mureybat. Syria: Preliminary Report on the 1965 Campaign. Part III; The Palesbotary. **JNES 29**: 167-176.
Villiers, L.E. 1980	First Report on Palaeolithic Sampling at Abu el-Khas. **ADAJ**
1980	**XXIV.**
1982	The Lower Palaeolithic Site of Abu el-Khas Pp. 17-27, in Pella in Jordan Eds. A. Monicoll, R. Smith, and B. Hennessy.
Waechter, J. d'A and Seton Williams V.M. 1938	The Excavations at Wadi Dhobai, 1937-1938 and the Dhobian Industry. **The Journal of the palestine Oriental Society 18**:172ff.
Wright, G.E. 1937	**The Pottery of Palestine from the Earliest Times to the End of the Early Bronze Age** New Haven.
1951	An Important Correlation Between The Palestinian and Syrian Chalcolithic **Bulletin of the American Schools of Oriental Research 122**: 52ff.
1961	The Archeology of Palestine Pp. 73-113 in the **Bible and the Ancient Near East.** Essay in Honor of W.F. Albright. Gardin City Conblegay.
1970	The Phenmenon of American Archaeology in The Near East, in **Near Eastern Archaeology** in the Twentieth Century, Essay in Honor of Nelson Glueck, 3.56.
Yeiven, S. 1975	El-'Areini, Tel; Esh-Sheikh Ahmed (Tel 'Erani). Pp. 89-97 in **Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.** London: Oxford University Press.
Zayadine, F. 1978	An EB-MB Biloabte Tomb, Pp. 59-66 on **Archaeology in the Levant.**
Zeuner, F. 1955	The Goats of Early Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 87-70ff.
1958	Dog and Cat in the Neolithic of Jericho. **Palestine Exploration Quarterly** 90:52ff.

المراجع العربية:

١- ابن حوقل: صورة الأرض - ١٩٦٧.

٢- ابن الفقيه: كتاب البلدان.

٣- الإمام البغدادي: معجم البلدان، الجزء الرابع.

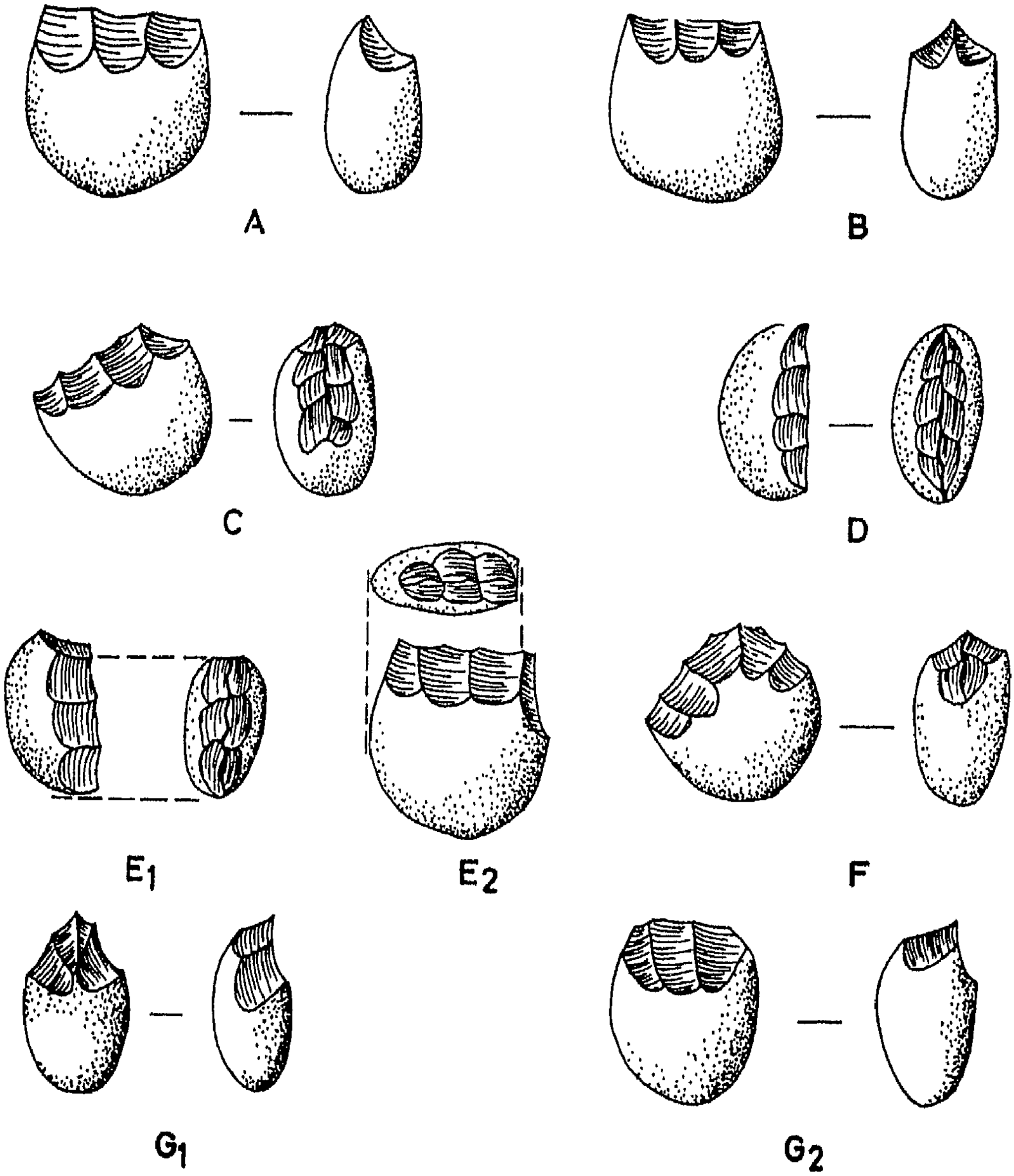
٤- البلاذري: فتوح البلدان، ١٩٧٨

٥- الأصطخري: مسالك الممالك، ١٩٦٧.

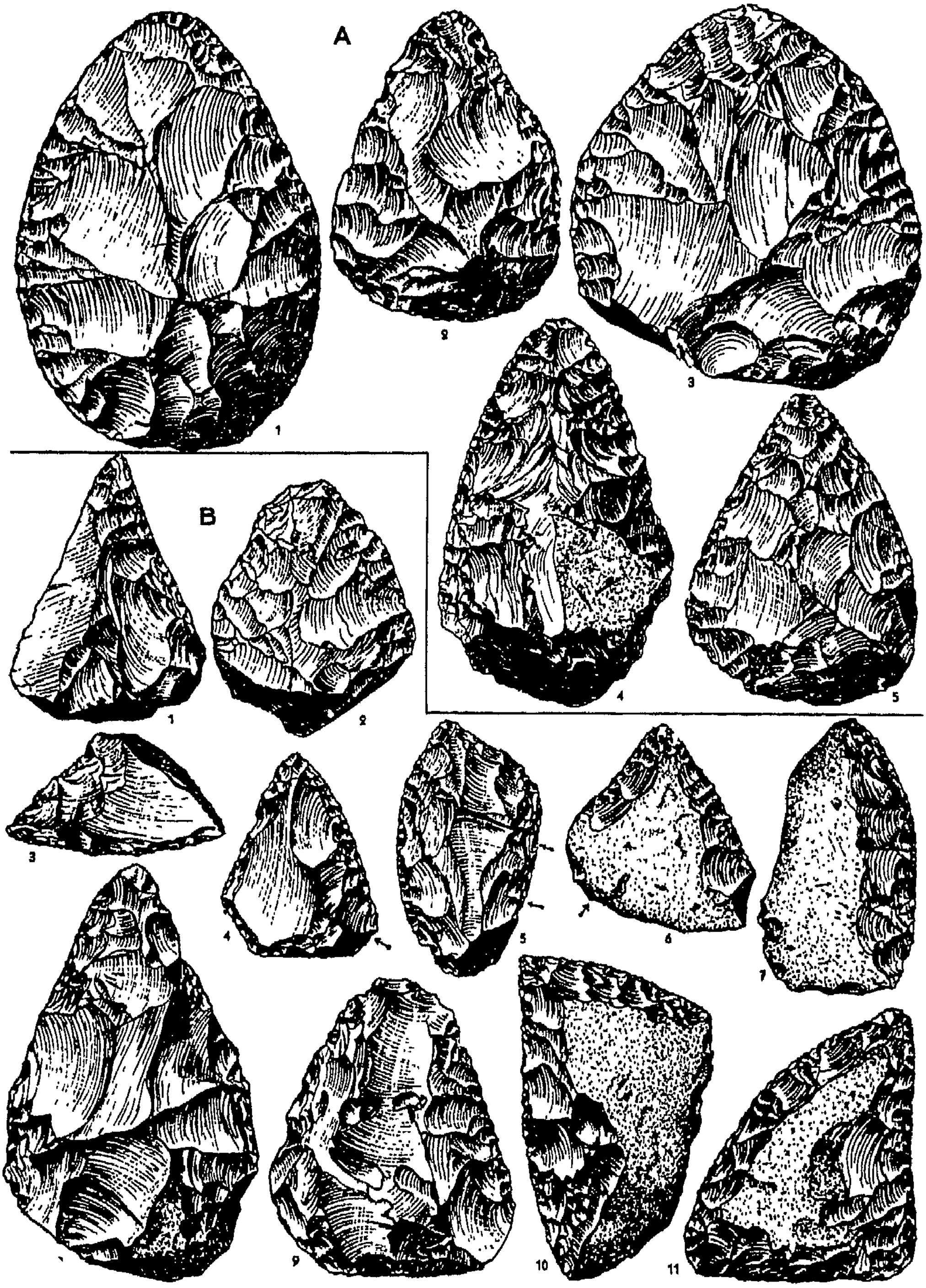
٦- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٦٧.



فلسطين

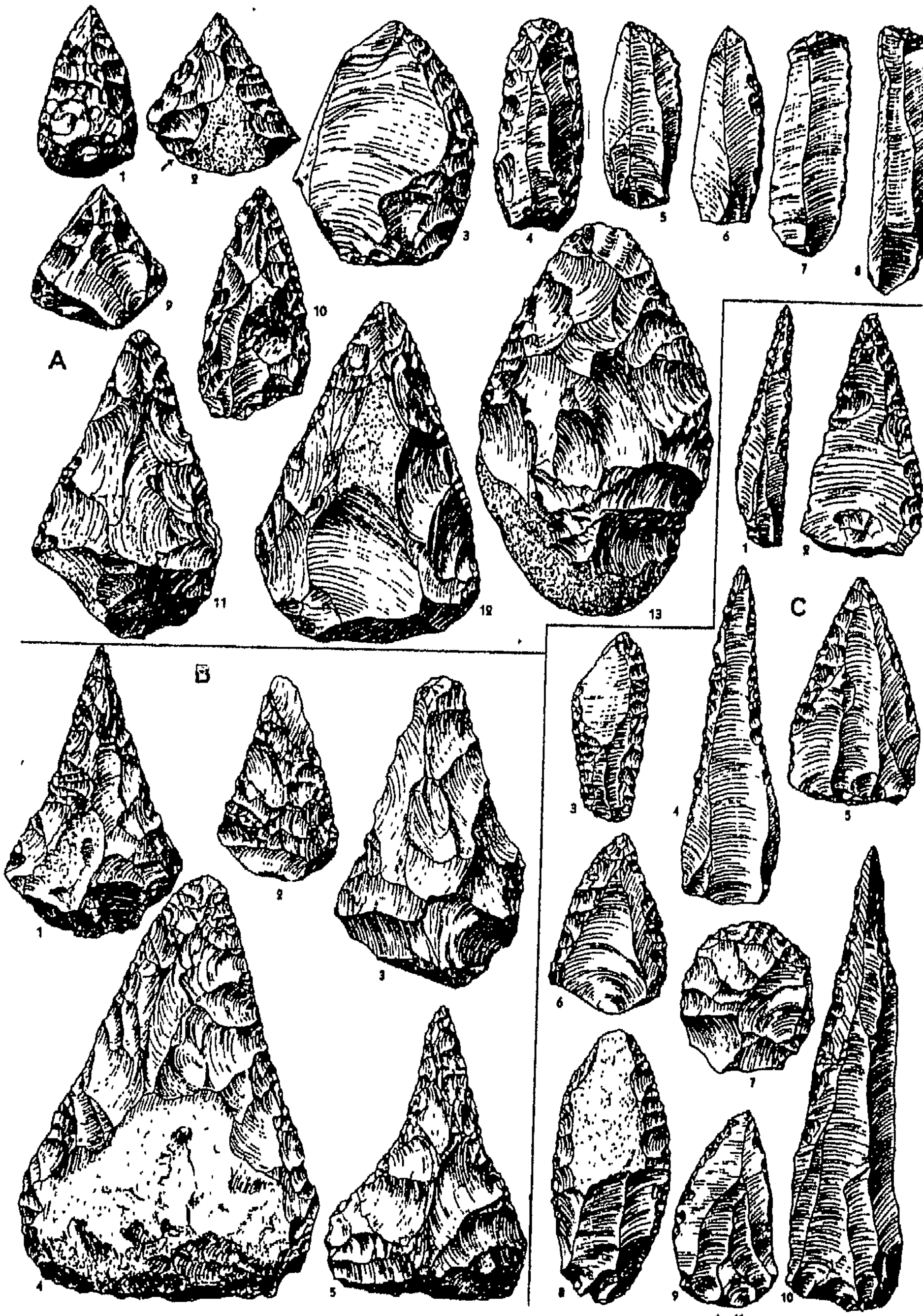


ادوات ابيفيلية من تل العبيدية وتعود
للمرحلة الأولى من العصر الحجري القديـــم



مغارة الطابون الطبقات F و Ea

(من D. Garrod/D. Bate)



الطابون :

Scale 1:2

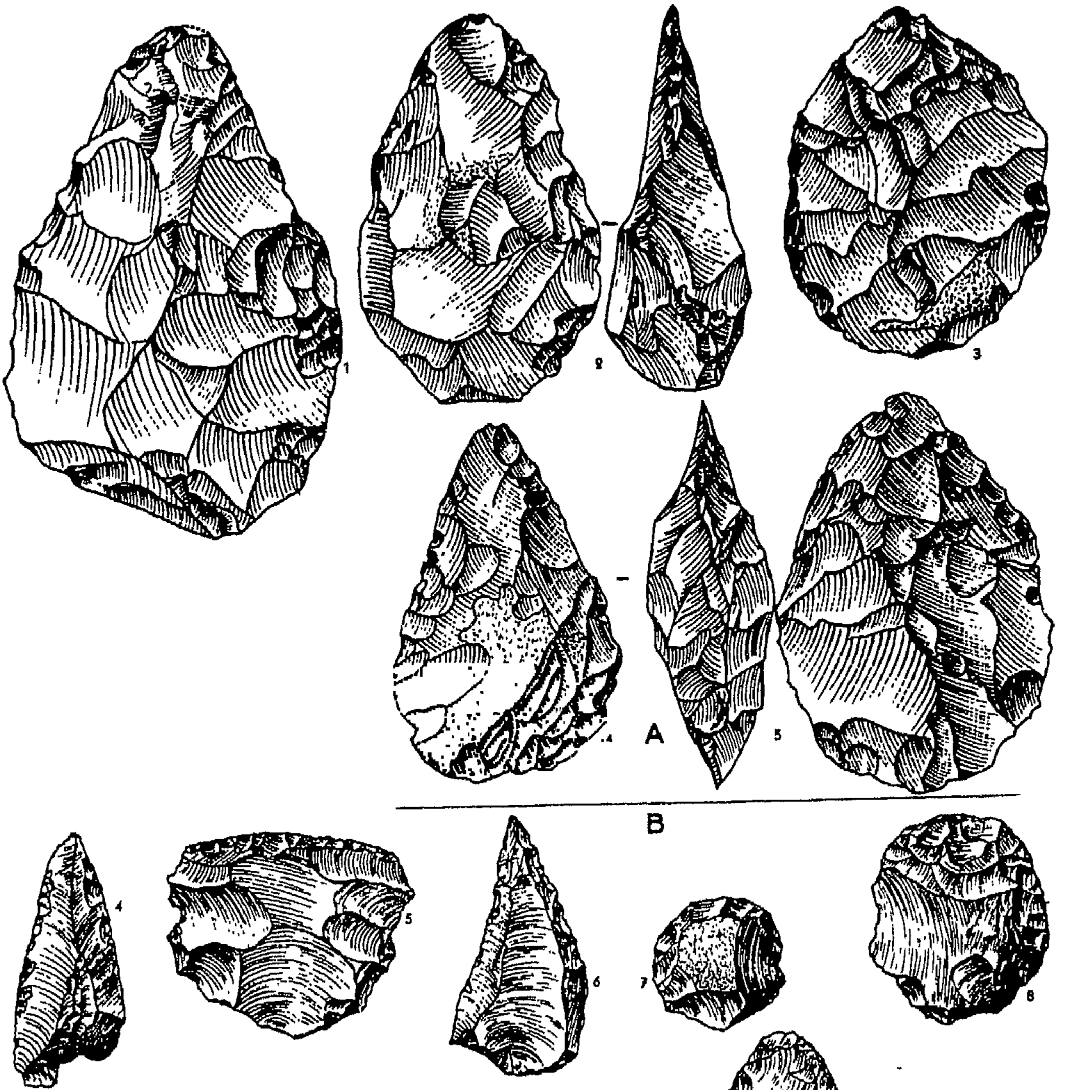
أ. الطبقة Eb

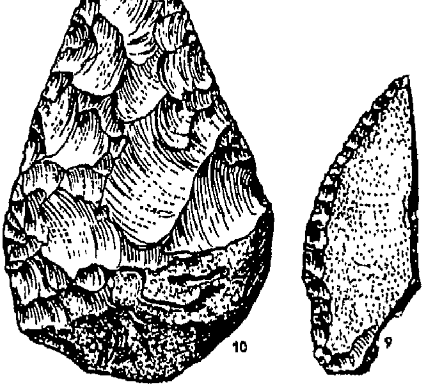
ب. الطبقة Ec

جـ (١،٢،٤،٥،٧،٩) الطبقة C_1

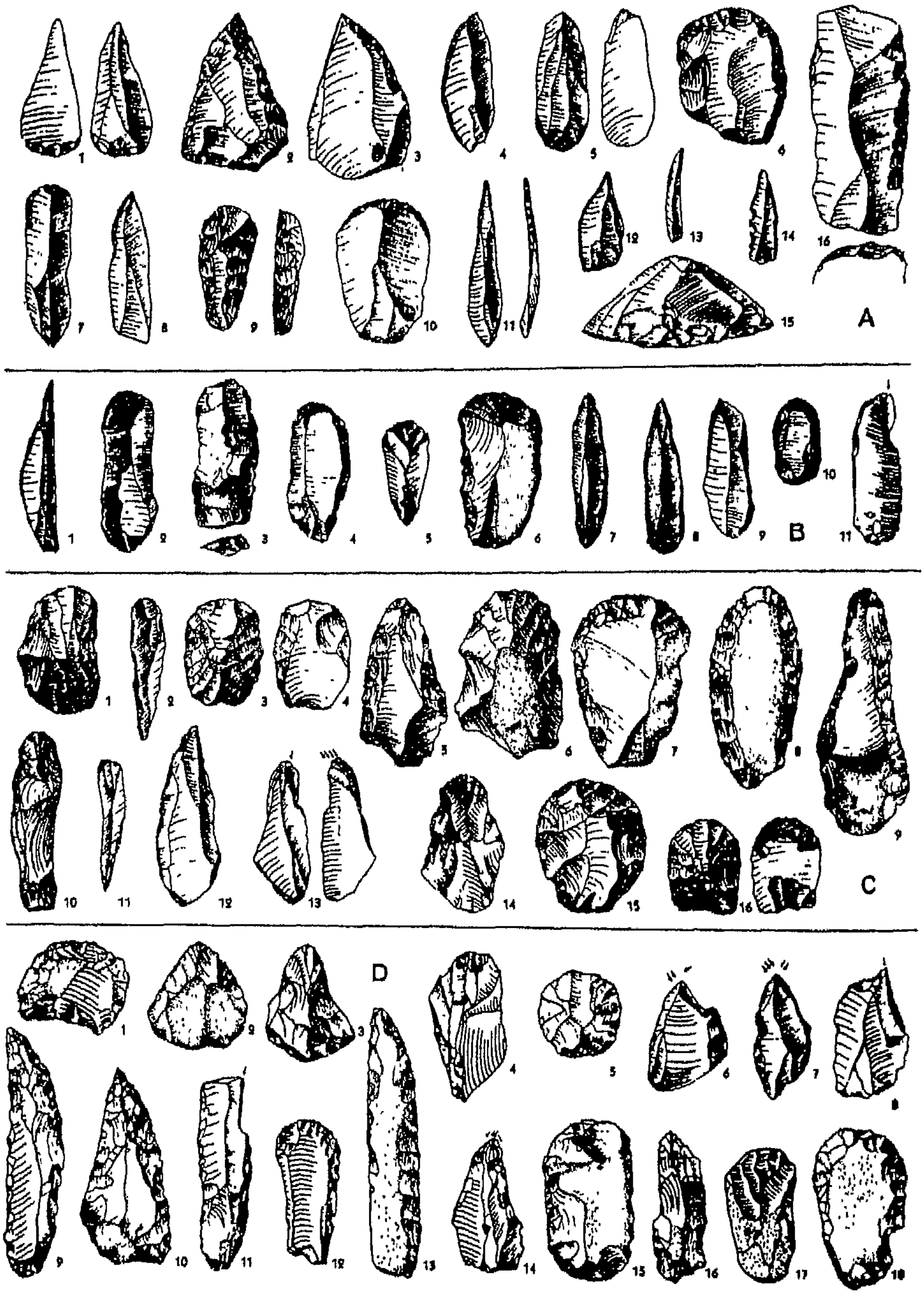
(٣،٦،٨،١٠) الطبقة B

(D. Garrod/ D. Bate)





أ.ادوات صوانية من ام قطفة (١-٢ طبقة ،طبقة D_2)
ب. ادوات صوانية من مغارة الصخول (٤-٩ طبقة، ١٠ طبقة B_2).
عن R. Neuville, T.D. McCown).



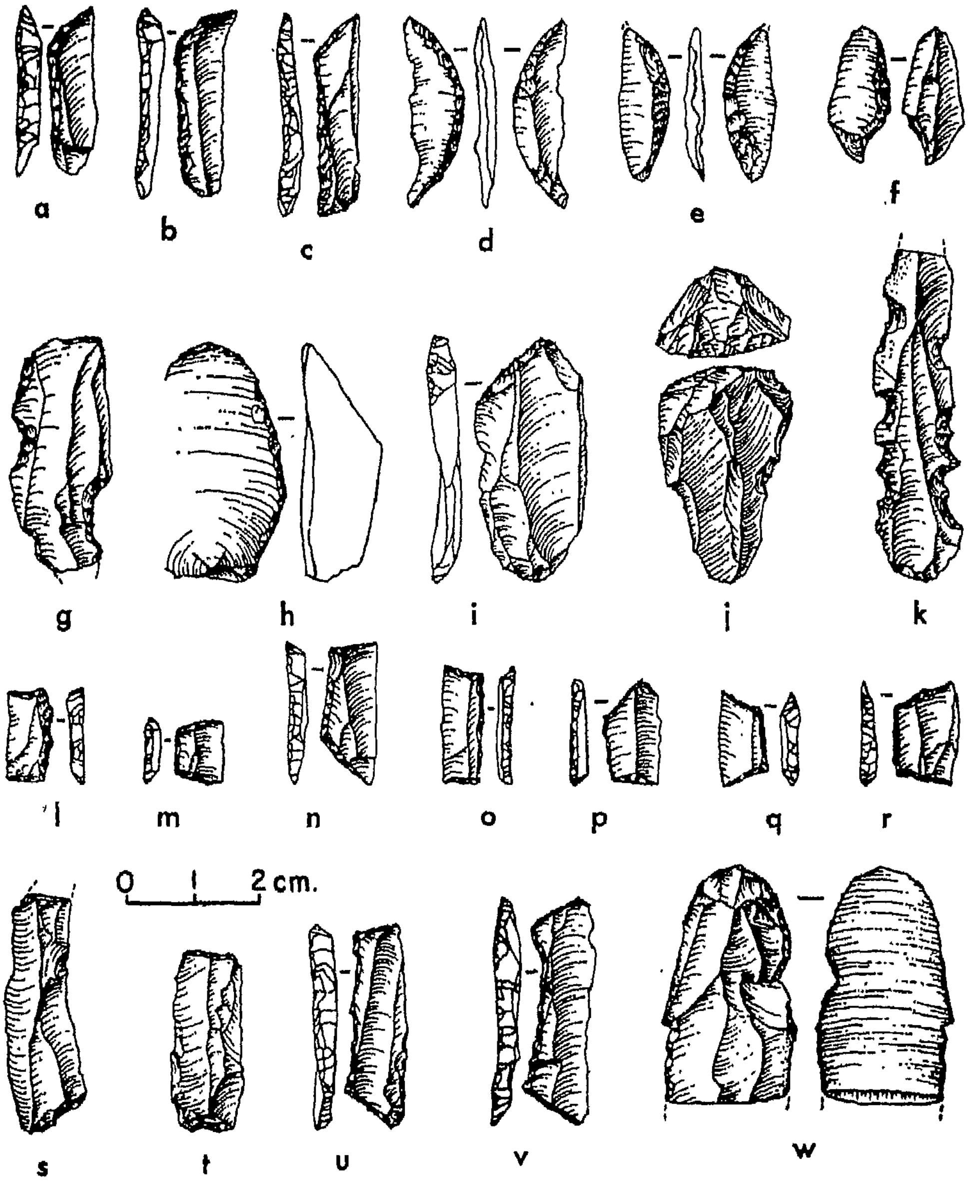
أ. ادوات من كهف الأميرة .

ب. ادوات من عرق الأحمـر .

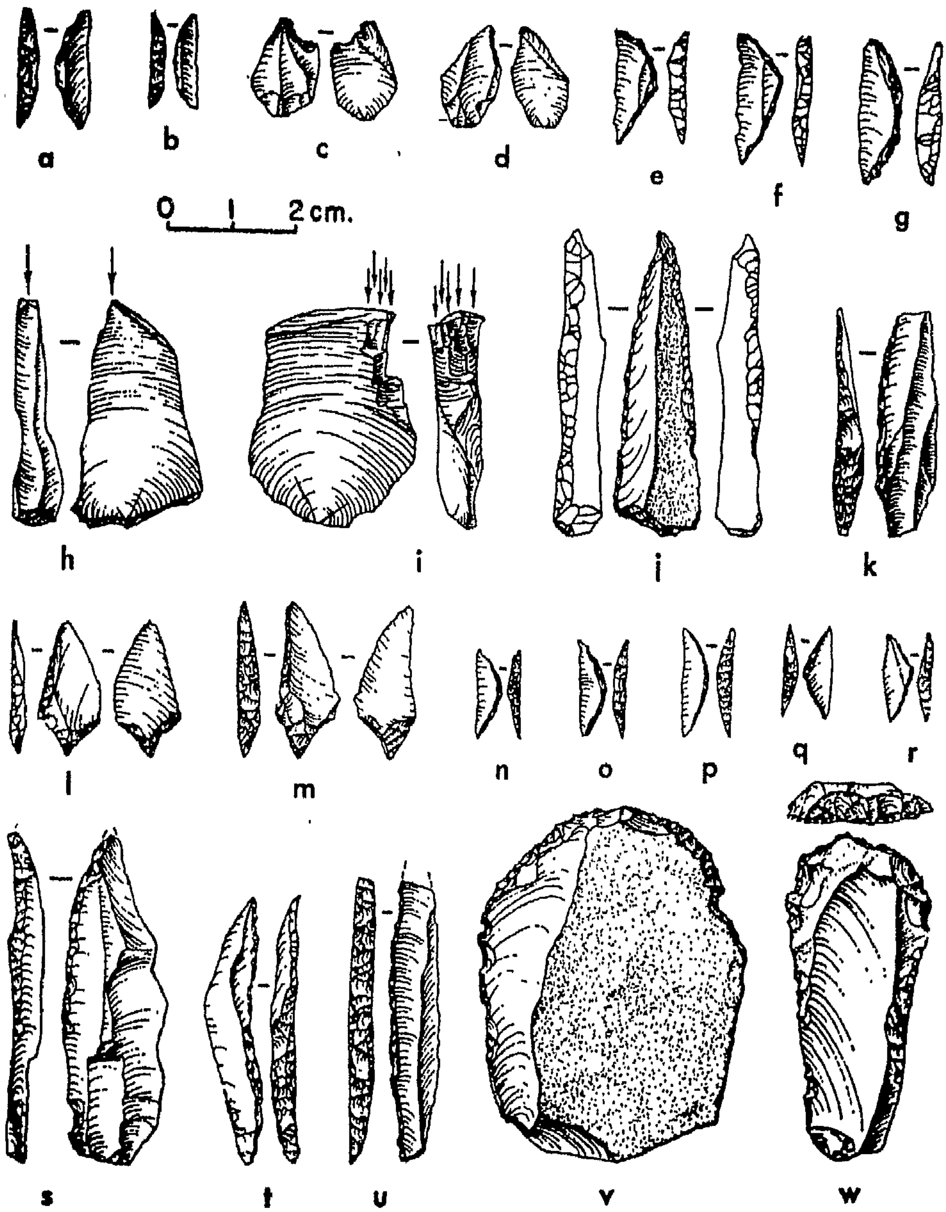
جـ. ادوات من مغارة الواد الطبقة E .

د. ادوات من مغارة الواد الطبقة F .

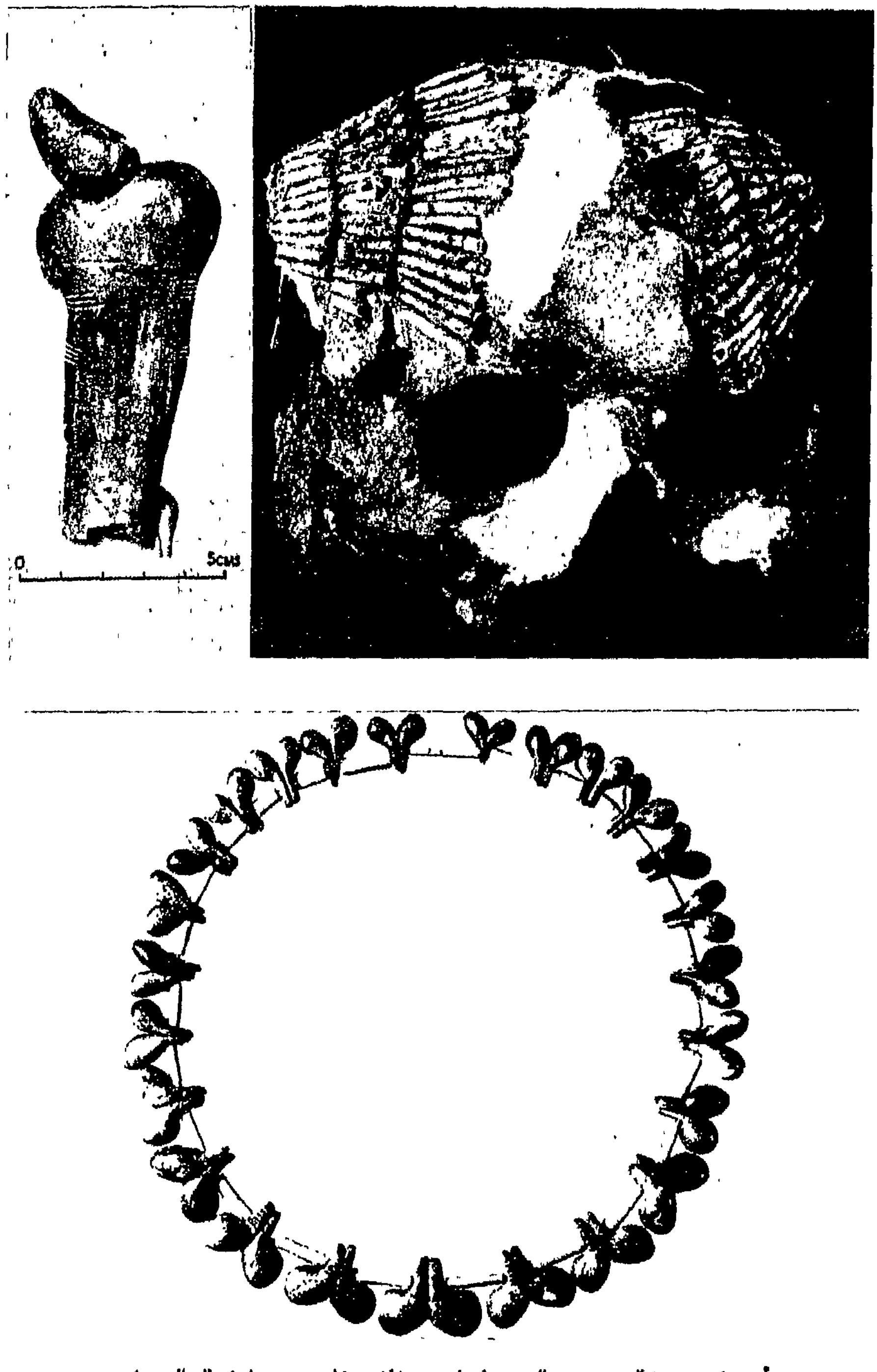
(D. Garrod; F.C. Howell)



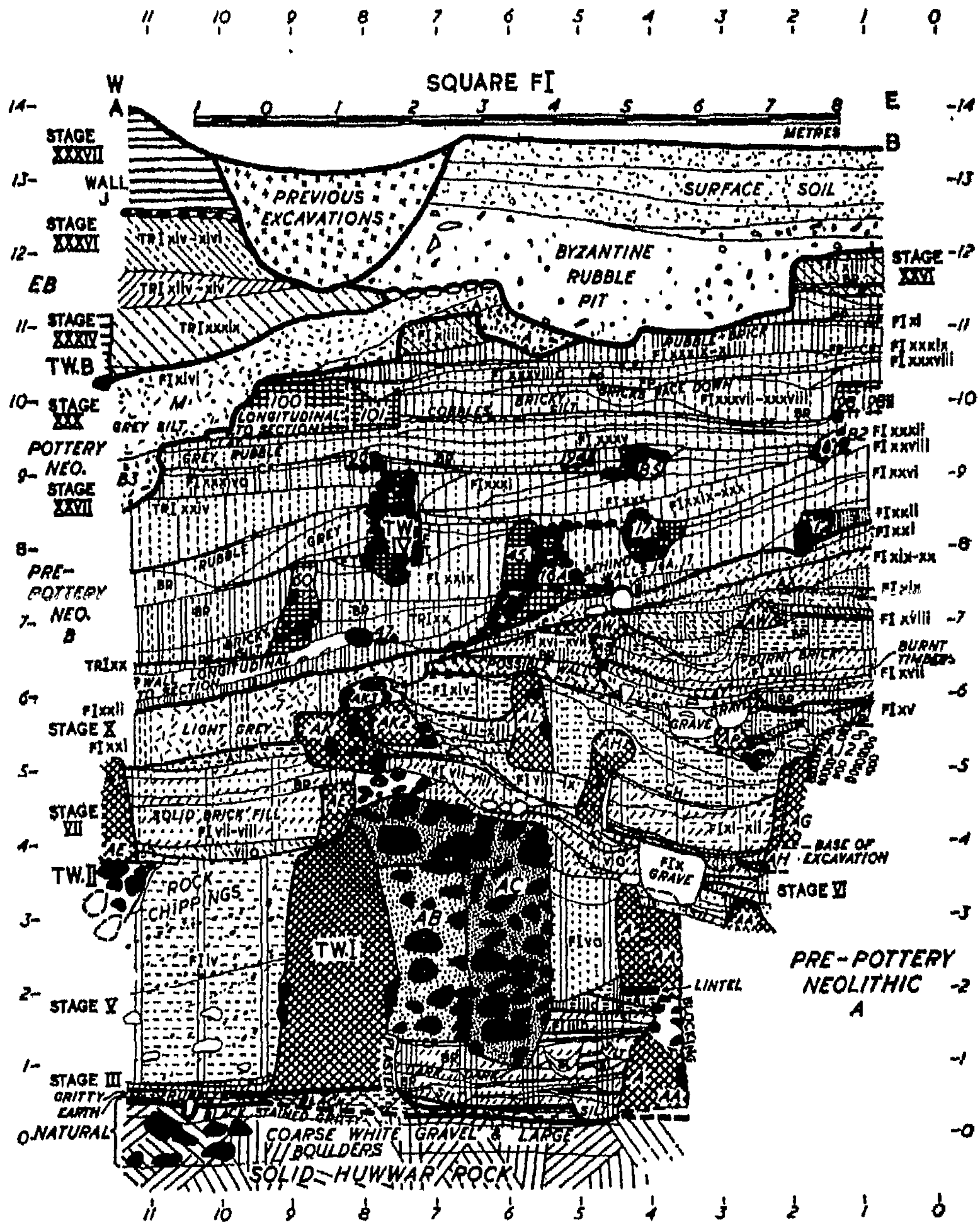
ادوات صوانية تعود لمرحلة الكبارا (المرحلة الرابعة للعصر الحجري القديم) من منطقة النقب في فلسطيـــــن (مأخوذة عن Marks 1977).



أدوات صوانية تعود للفترة الناطوفية من منطقة النقب
(من Marks 1977)

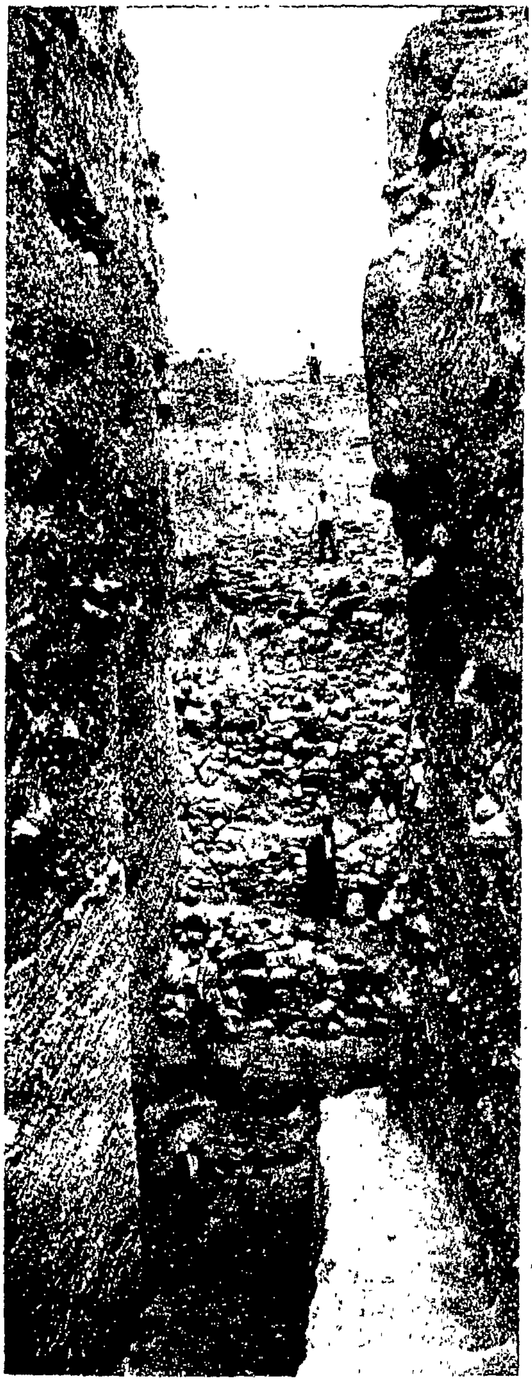


أدوات زينة وجمجمة مزخرفه بالاصداف من مغارة الـواد في فلسطين وتعود للفترة الناطوفية (Kenyon 1960b)



مقطع يظهر تتابع الطبقات السكنية في موقع آريحـــــا

(Kenyon 1981, Pl. 237 b عن)

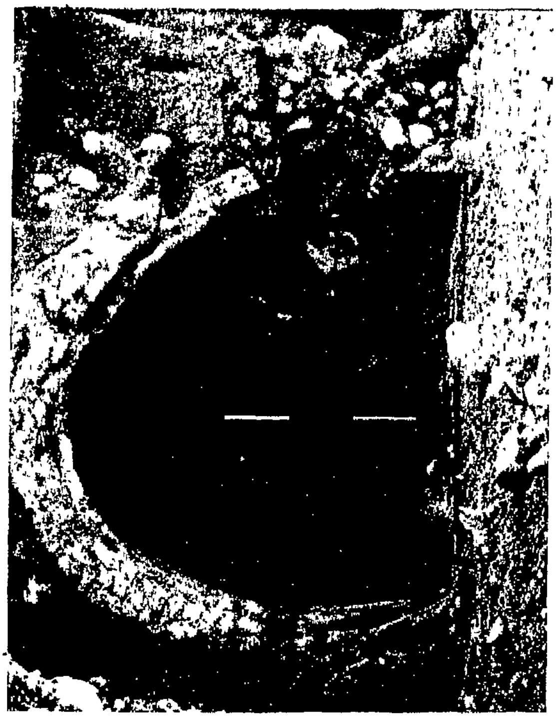


منظر عام للتحصينات الدفاعية التي تعود للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أ في اريحـــــــا



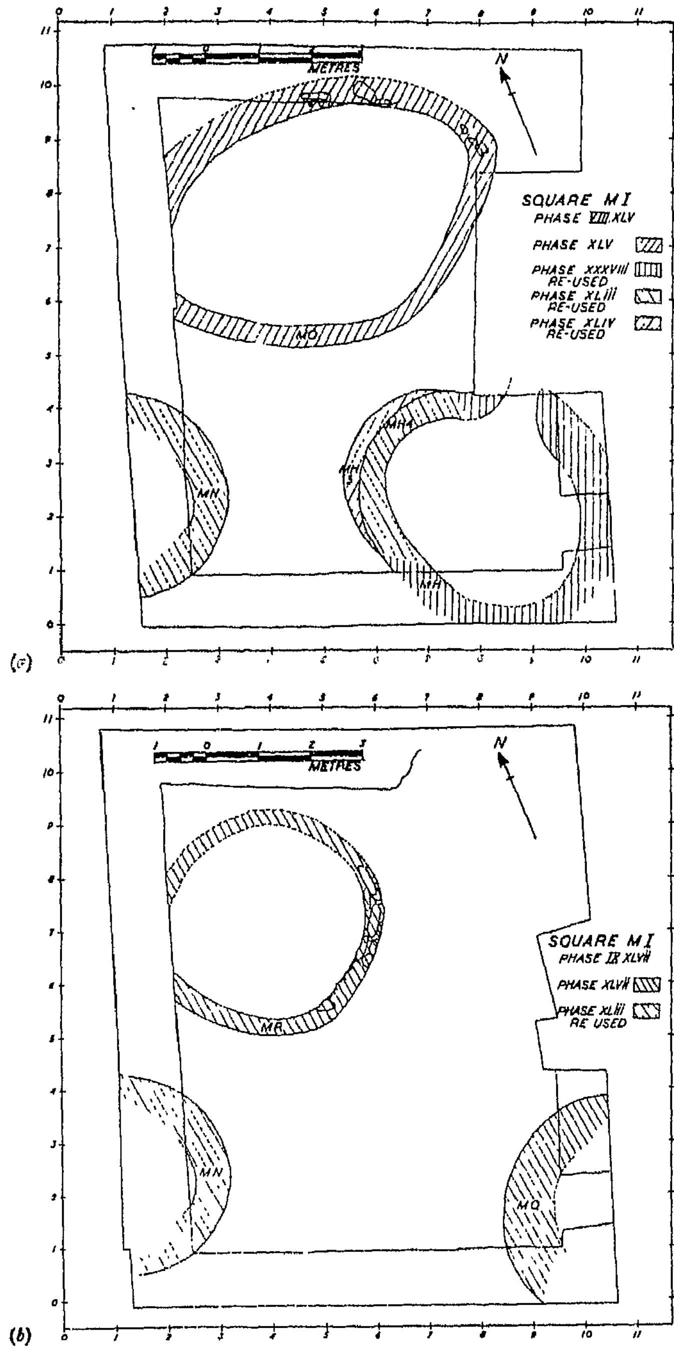
برج أريحا الذي يعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث
ما قبل الفخار آ





بيوت دائرية الشكل تعود للعصر الحجري الحديث ما قبل

الفخار أ عثر عليها في اريحـــــــا



مخططات لبيوت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ في آريحـــــا

.(Kenyon 1981; Pl. 279 عن)





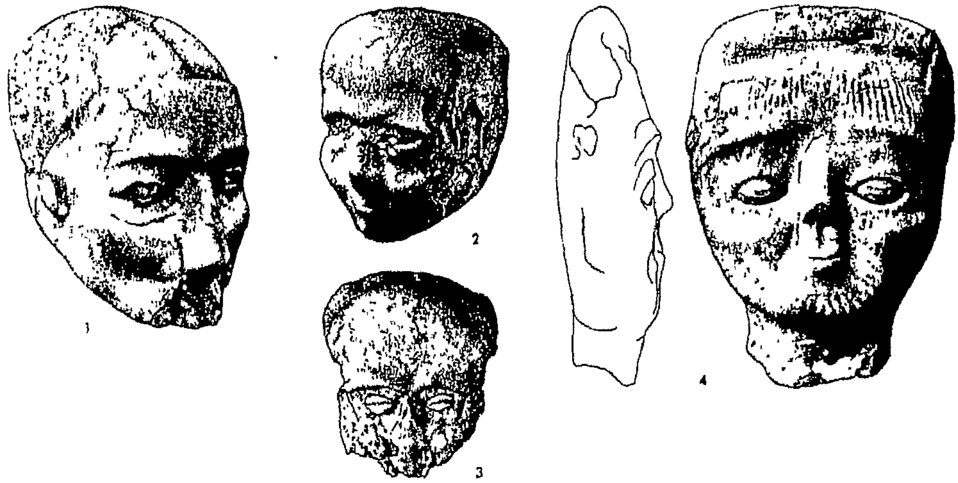
بيوت عثر عليها في اريحا وتعود للعصر الحجري
الحديث ما قبل الفخار (ب)

(عن Kenyon 1981)



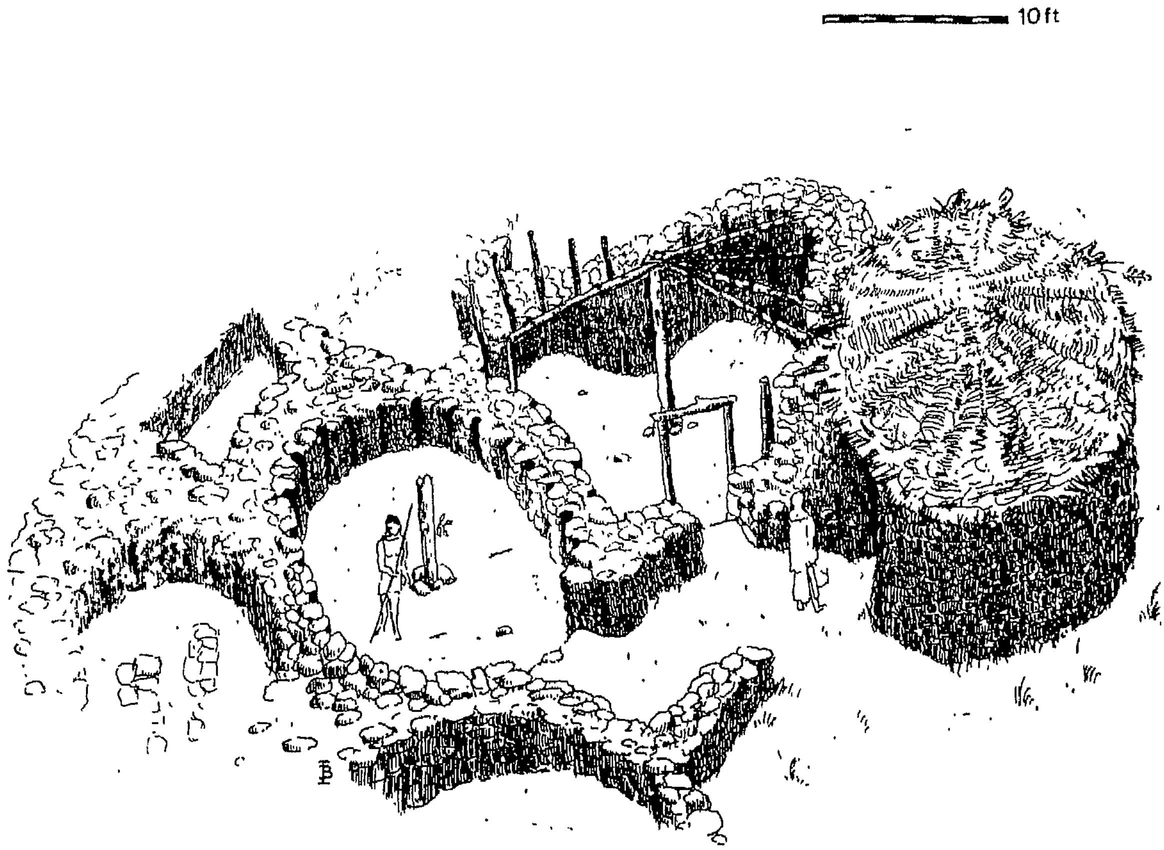
بيوت منتظمة الشكل من اريحا العصر الحجـــري
الحديث ما قبل الفخار (ب)

(عن Kenyon 1981)

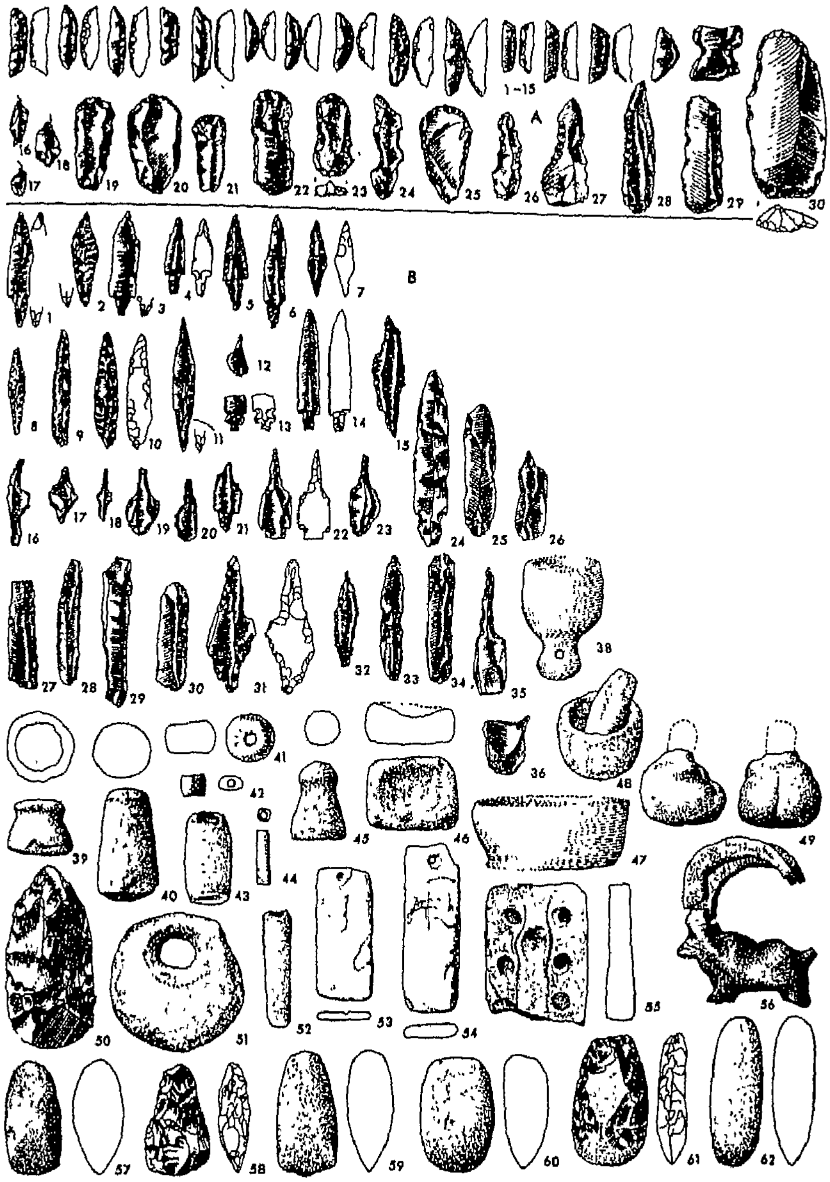




جماجم مزخرفة عثر عليها في اريحا في طبقات
العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)



مخطط يمثل بيوت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخـــــار
(ب) في موقع البيضا في الأردن .

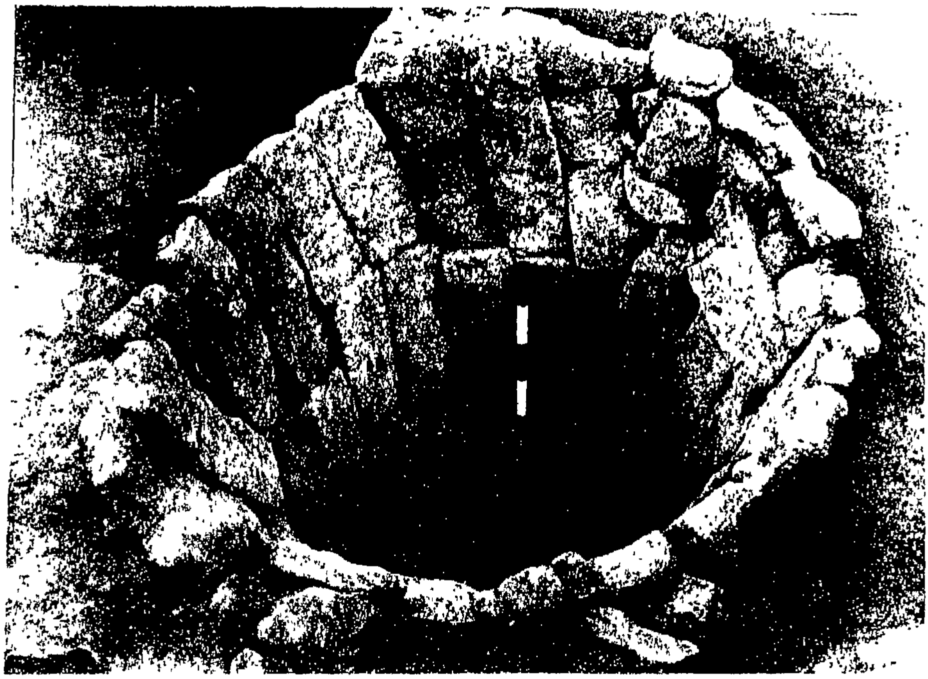


أدوات صوانية وبازلتية وتمثال صغير يمثل حيوانا من موقع البيضا في الأردن ويعود الى فترة العصر الحجـــري الحديث ما قبل الفخار ب .

(عنMuller- Karpe 1968.p1.101).



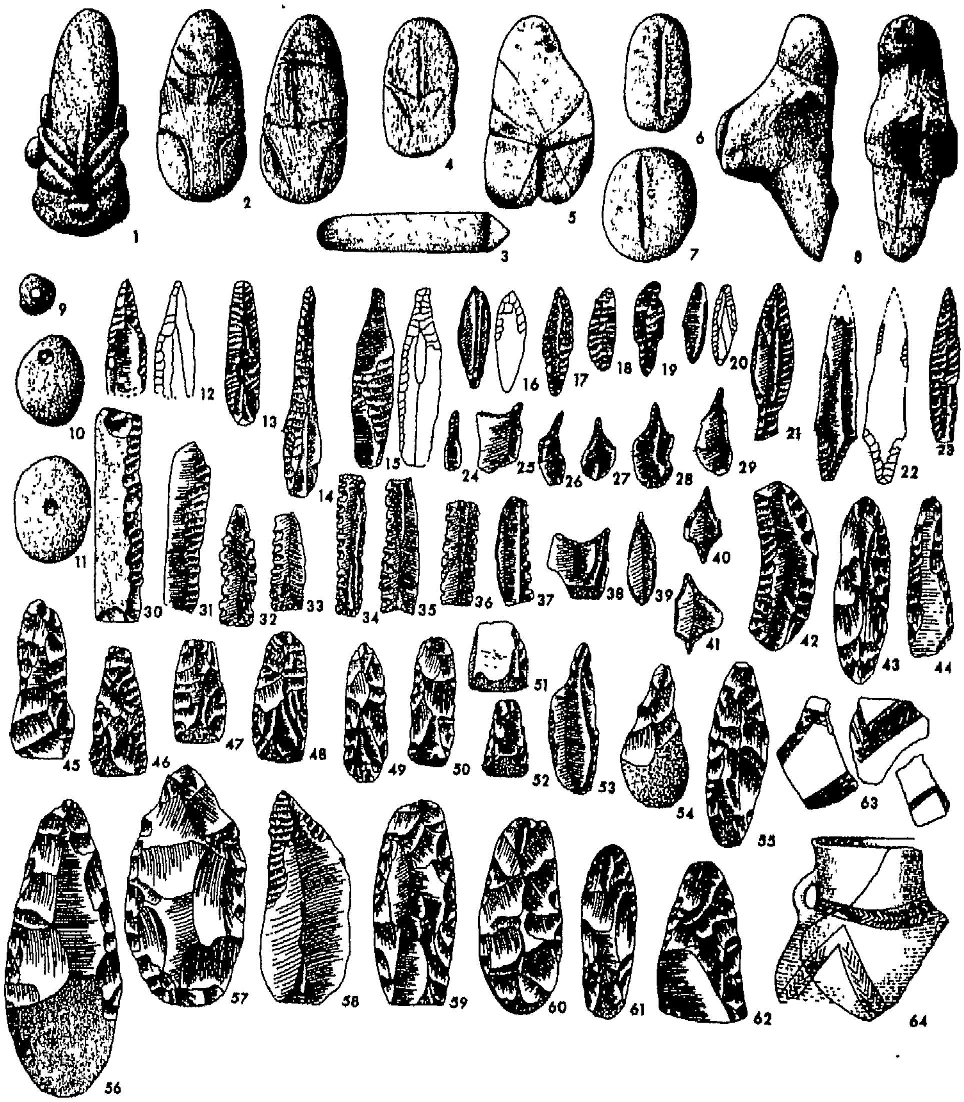
منظر عام لأحد القبور التي عثر عليها في اريحـــــا
وتعود للعصر الحجري الحديـــث



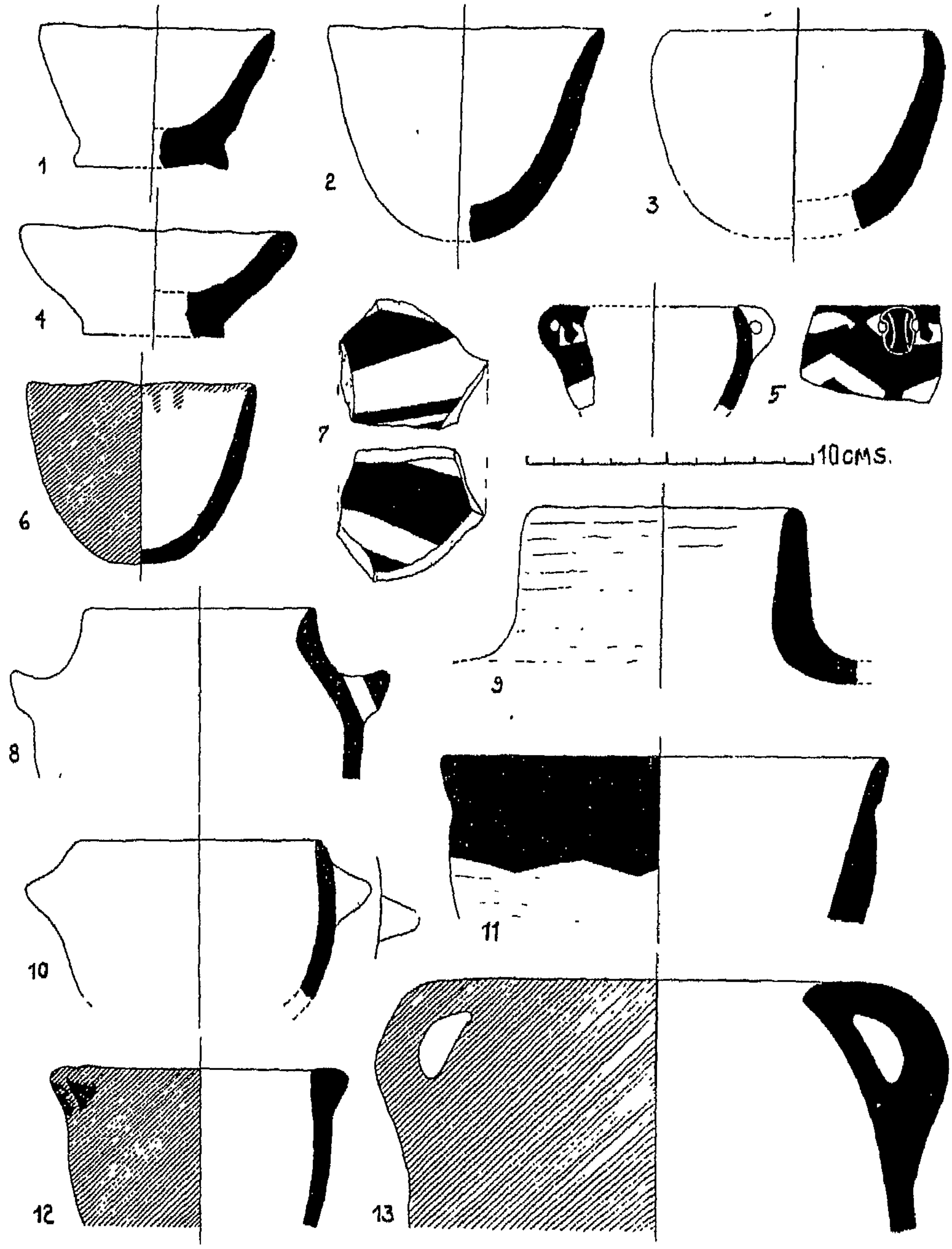


حفر داخل الارض استعملت للسكنى في مدينة
اريحا في فترة العصر الحجري الحديث الفخاري

(عن Kenyon 1981)



دمى وأدوات صوانية وفخارية من موقع القحوانــــــة (شعار هجولان) في فلسطين ، فترة العصر الحجـــــري الحديث الفخاري الأولى .
(عن Müllar-Karpe 1968:p1.104).

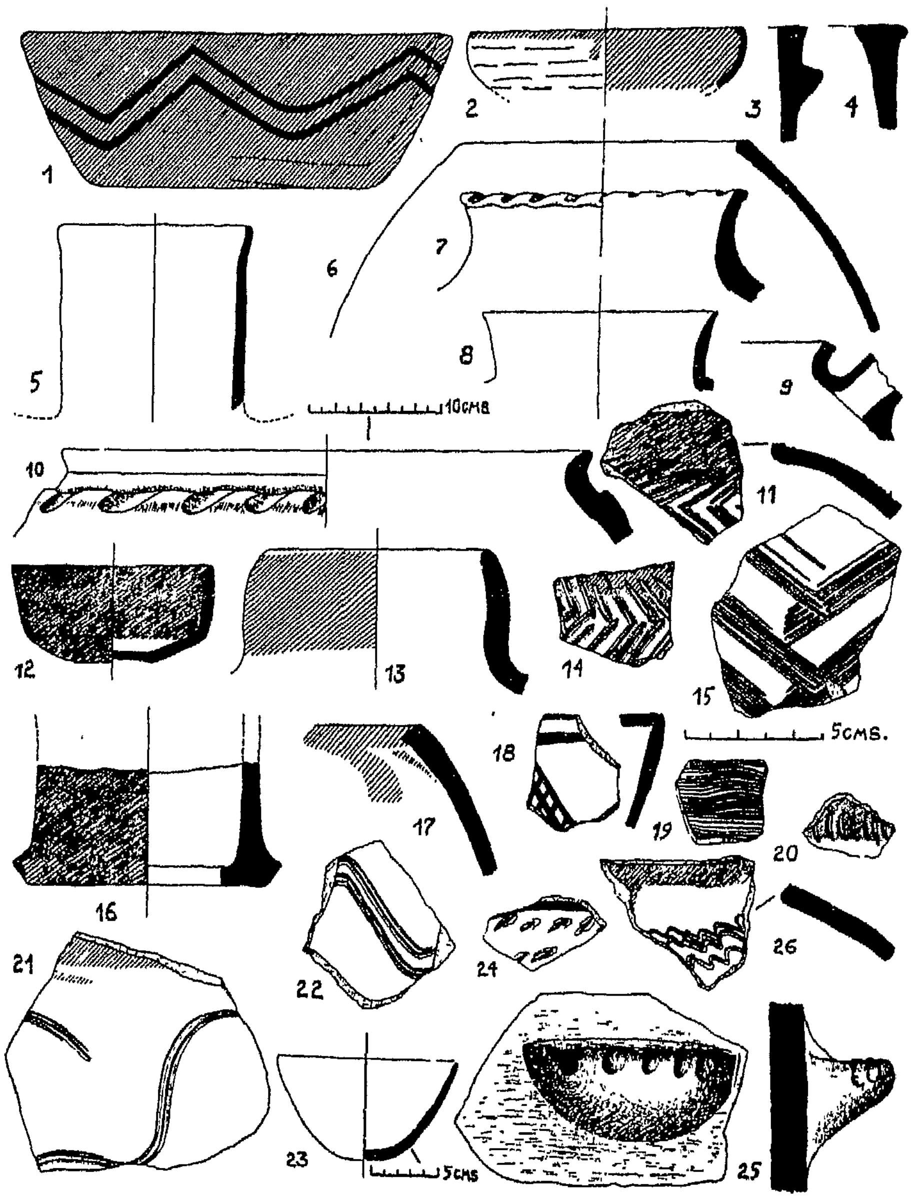


أدوات فخارية تعود الى العصر الحجري الحديث الفخاري أ
من موقع تليلات البطاشي الطبقة VI في فلسطيـــن .
(عن Kaplan 1958: pl. 7).

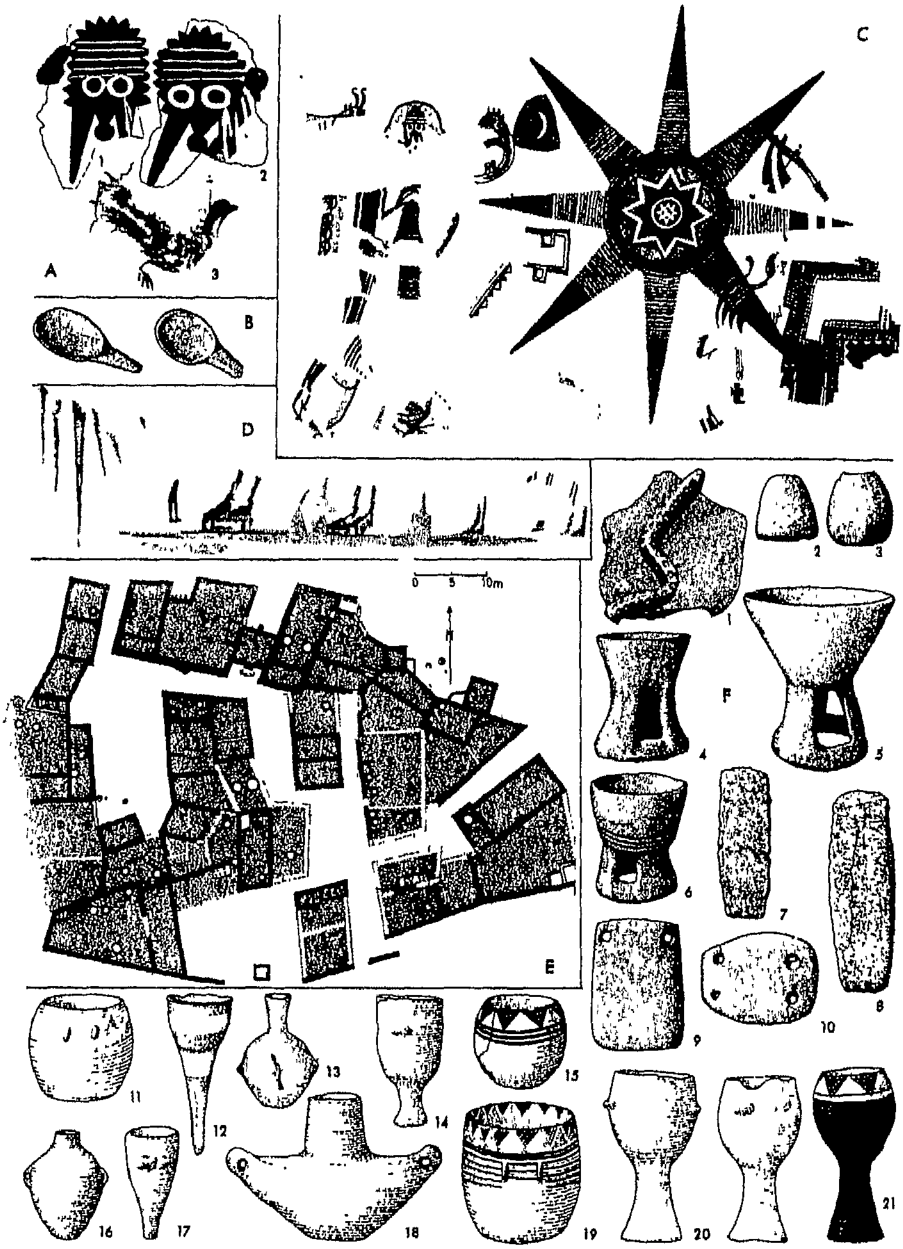


آدوات فخارية وصوانية وعظمية من موقع تليـــــلات
البطاشي وتعود بتاريخها للعصر الحجري الحديث الفخـاري

•(Stekelis 1958: pl. 9 عن)



أدوات فخارية من موقع تليلات البطاشي ،الطبقة III
تعود الى نهاية العصر الحجري الحديث الفخاري وبداية
العصر الحجري النحاسي .
.(Stekelis 1958: pl. 10 عن)

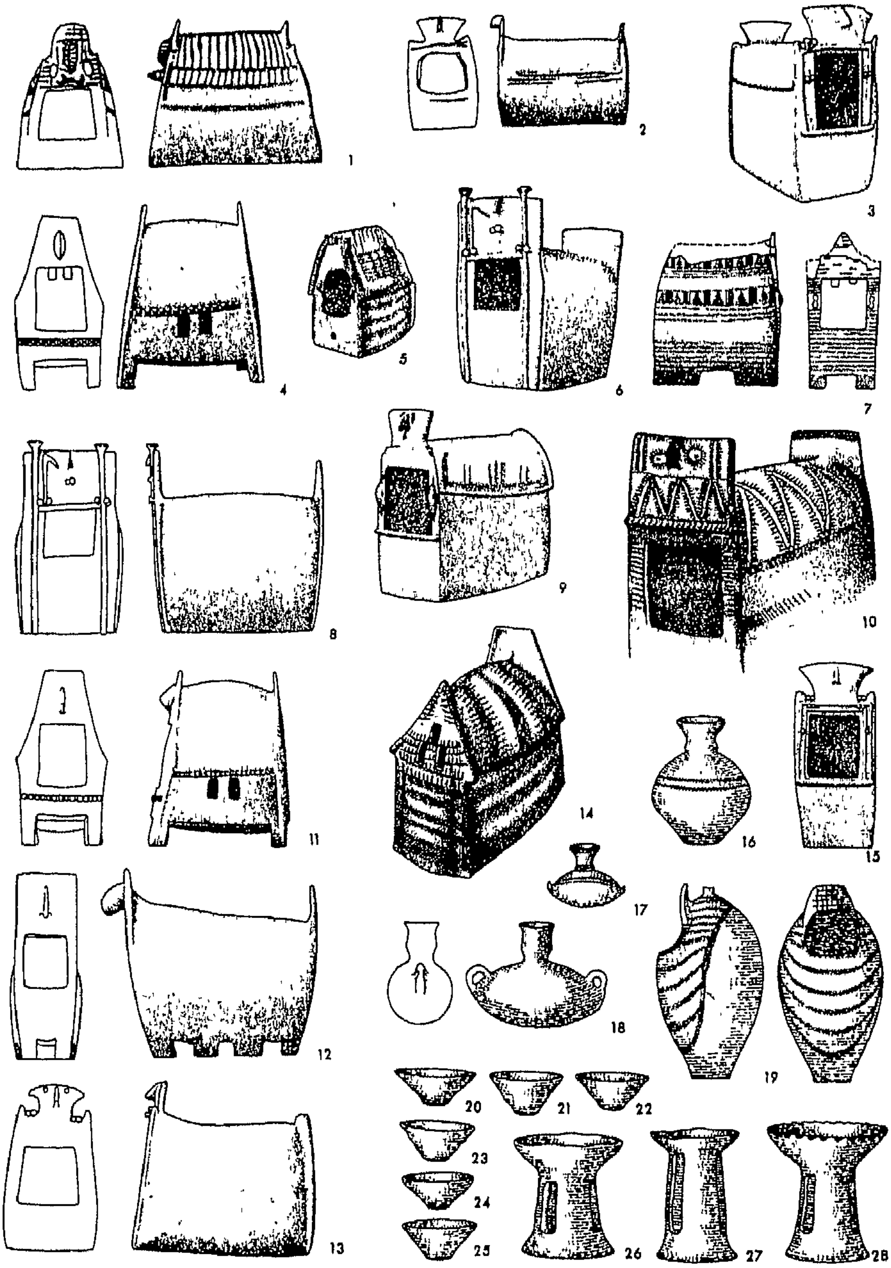


رسومات فريسكو ومخططات بيوت وأدوات من موقع
تليلات الغسول وتعود للعصر الحجري النحاسي .
(من Muller-Karpe.1968:p1. 106).



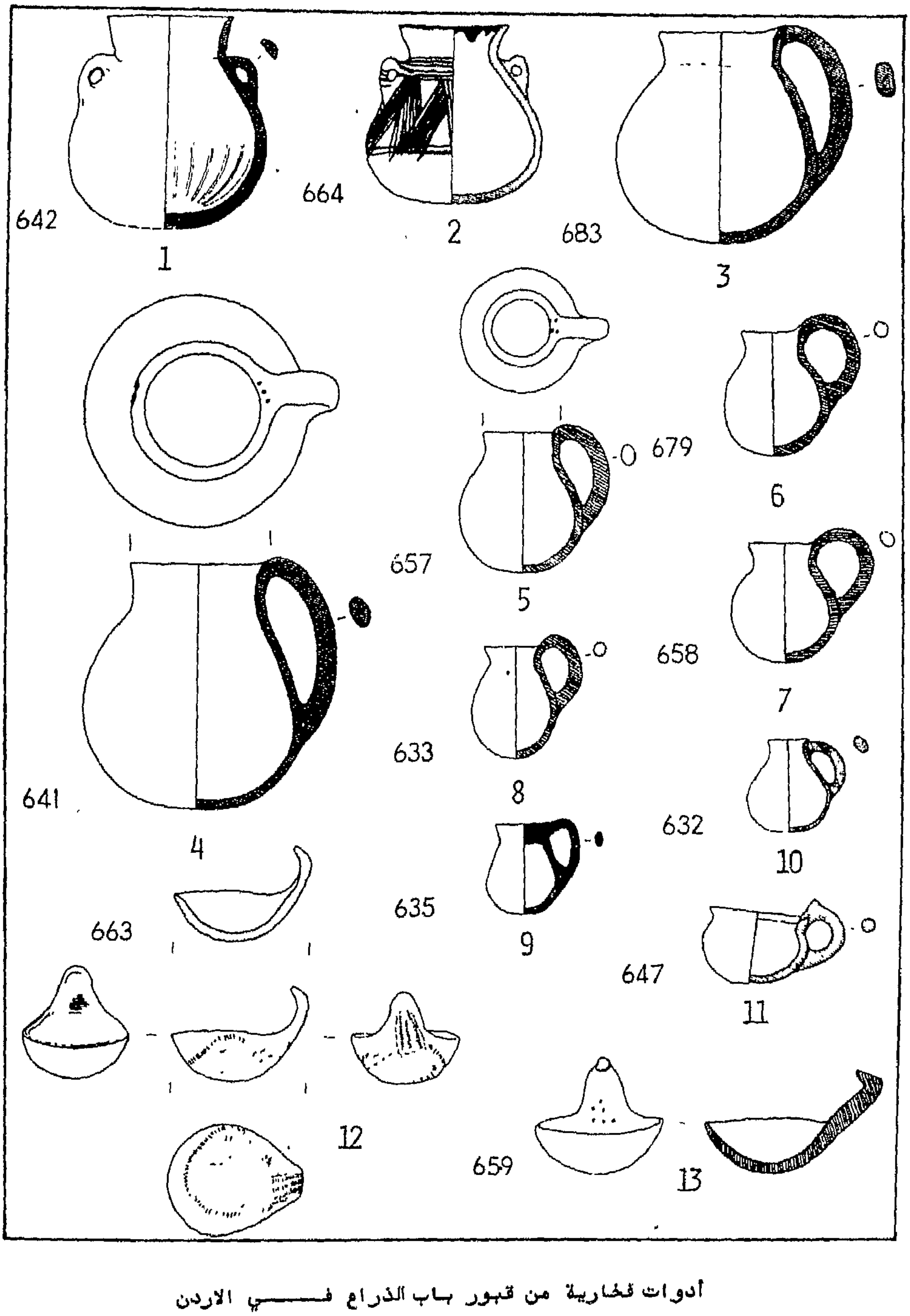
أدوات نحاسية وعظمية وفخارية من مواقع مختلفة في فلسطين وتعود للعصر الحجري النحاسي .

(Muller-Karpe 1968. p1:107)

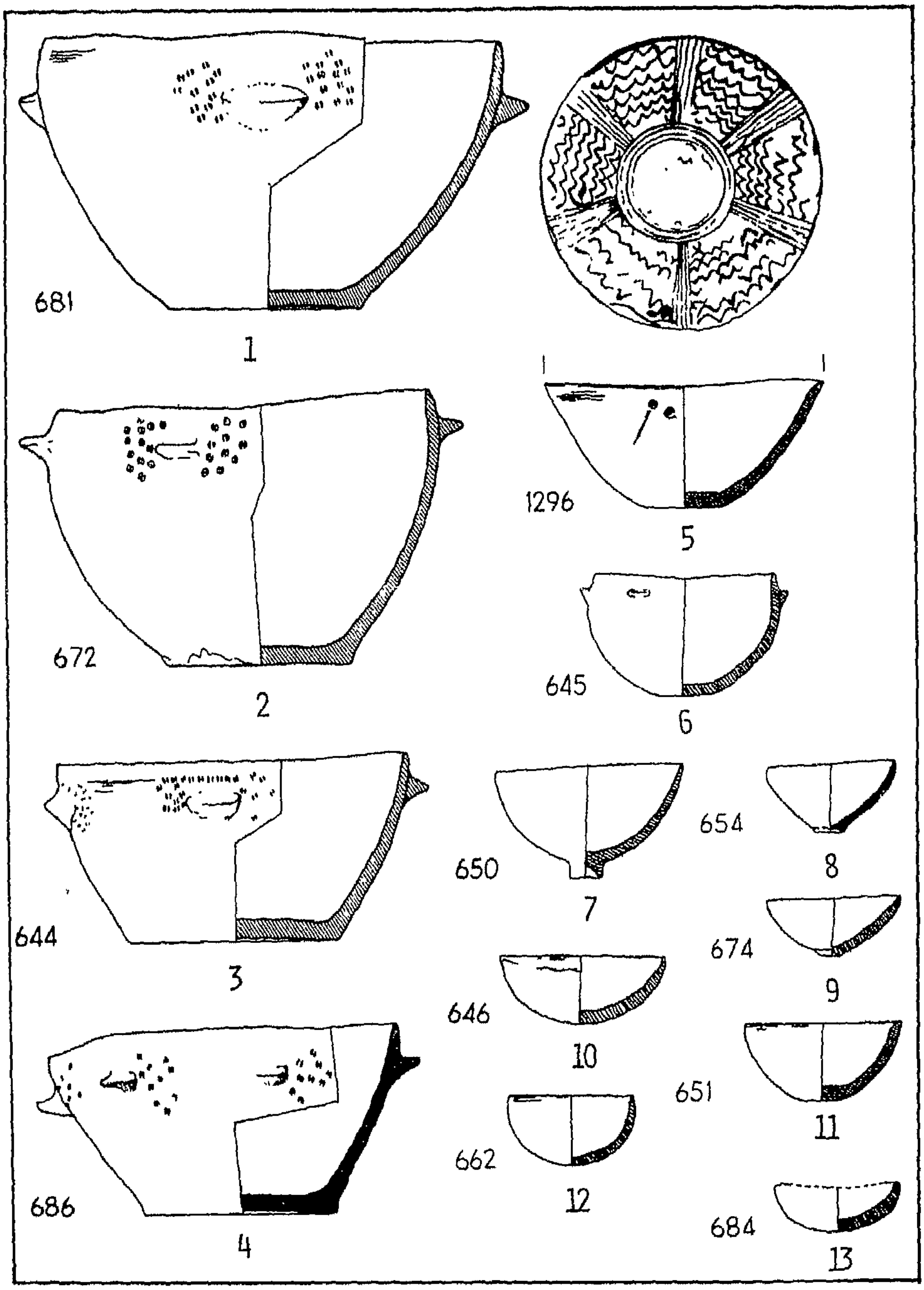


مجموعة من المعاظم والأدوات الفخارية من موقع بازور في فلسطيـــــن

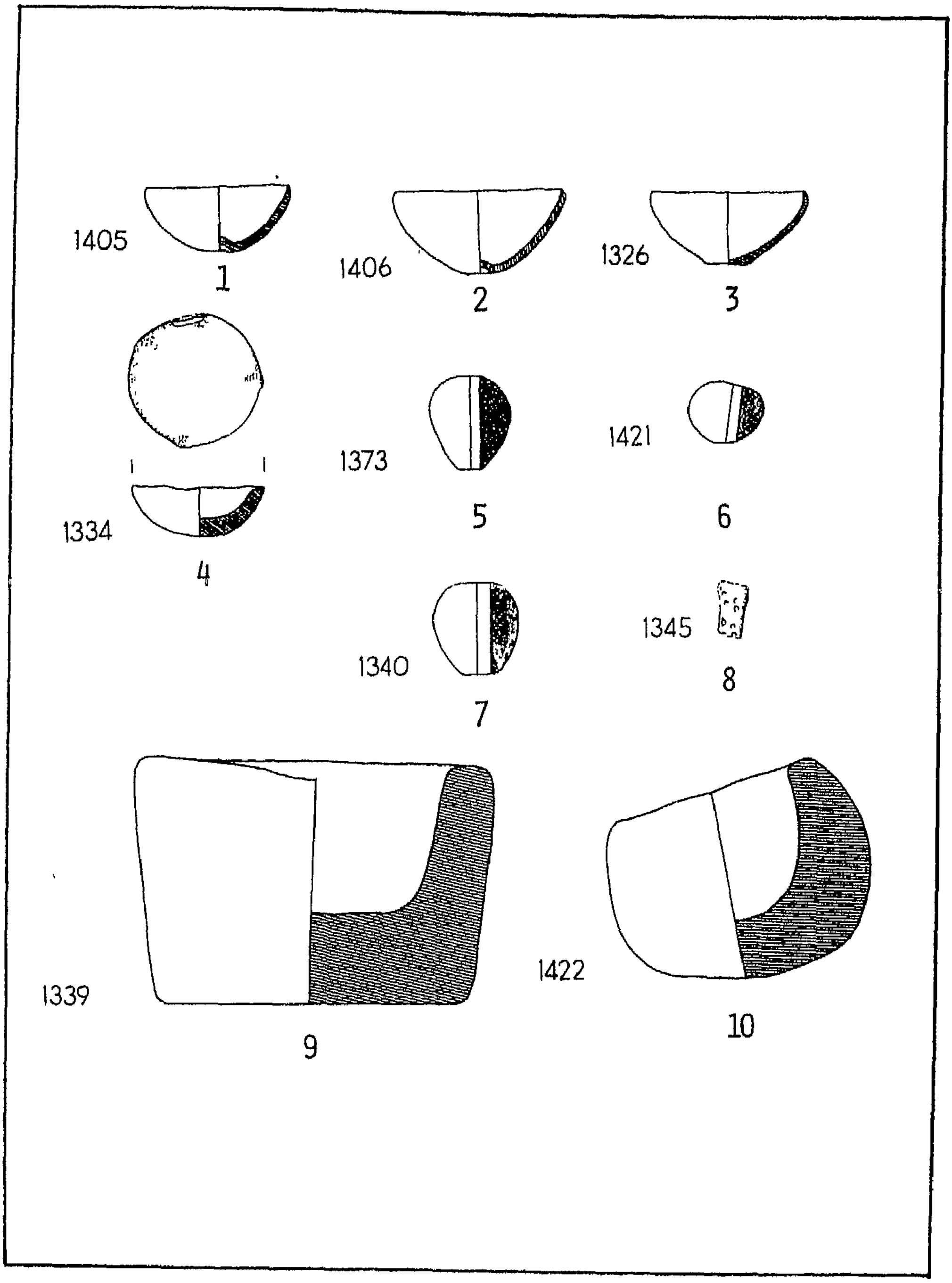
(Muller-Karpe 1968: pl. 109)



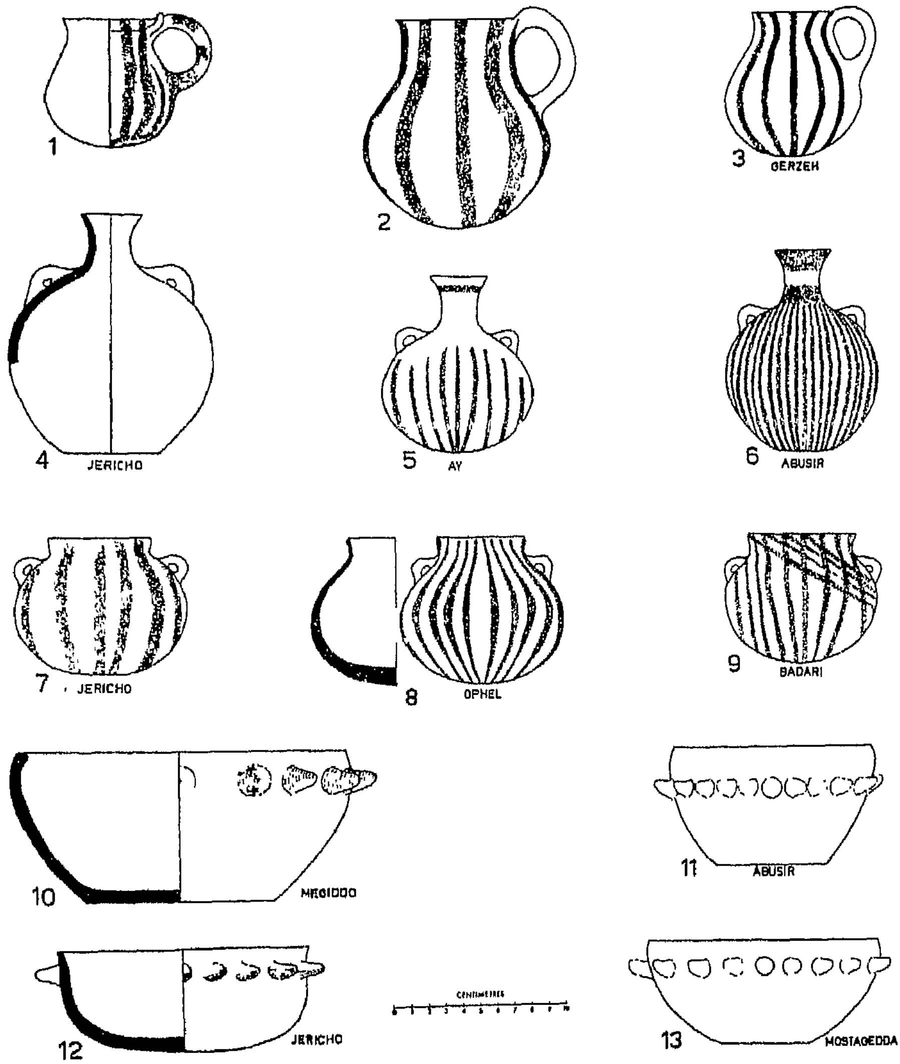
أدوات فخارية من قبور باب الذراع في الاردن



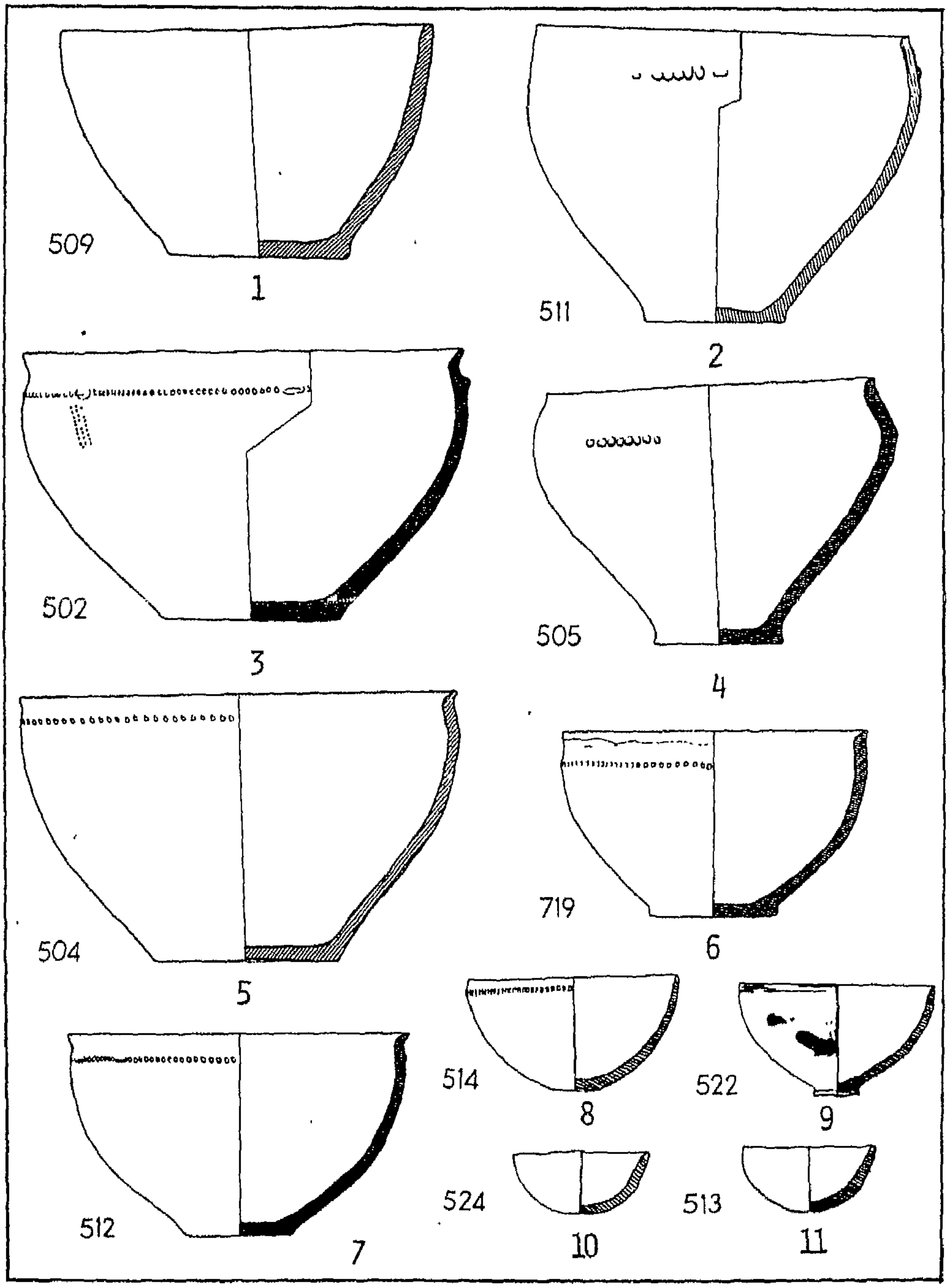
أدوات فخارية من باب الذراع فــــــــي الأردن



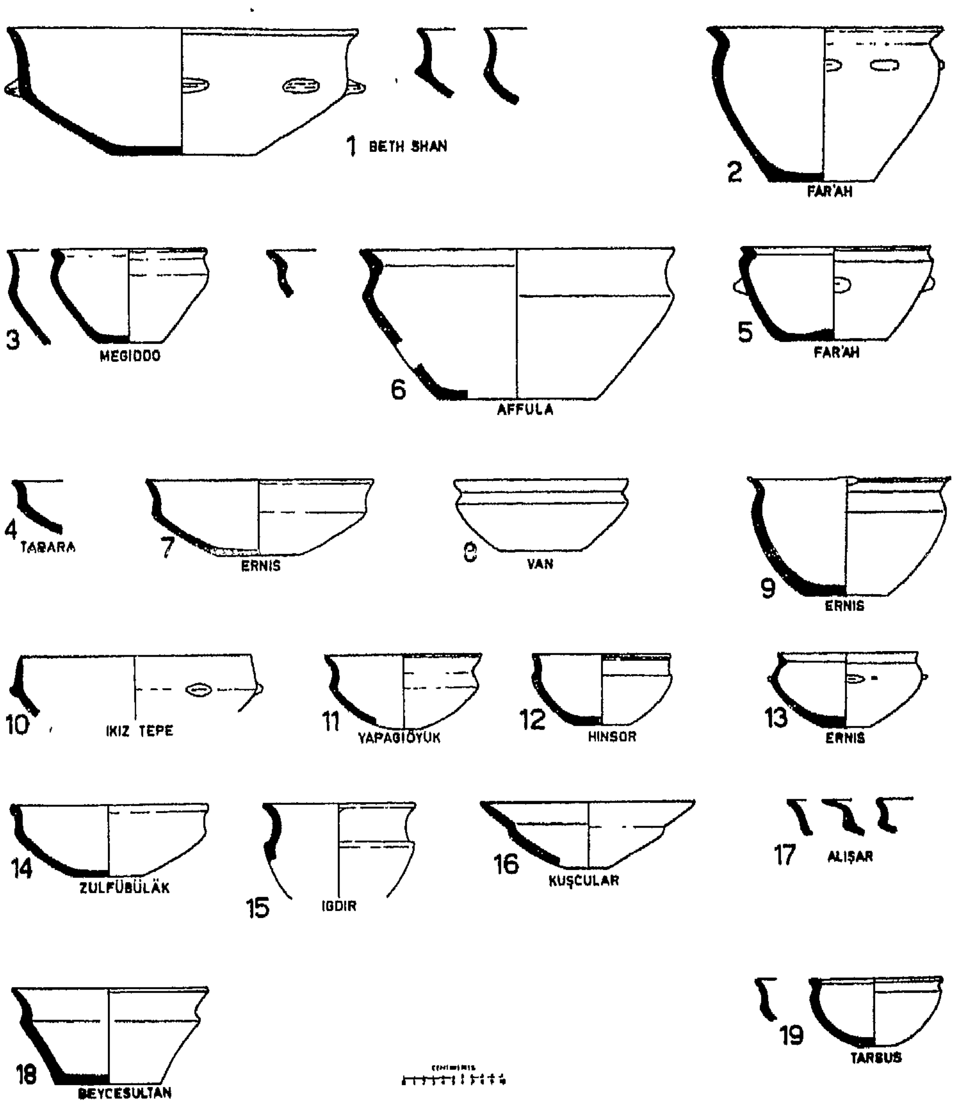
أدوات فخارية من باب الذراع في الأردن



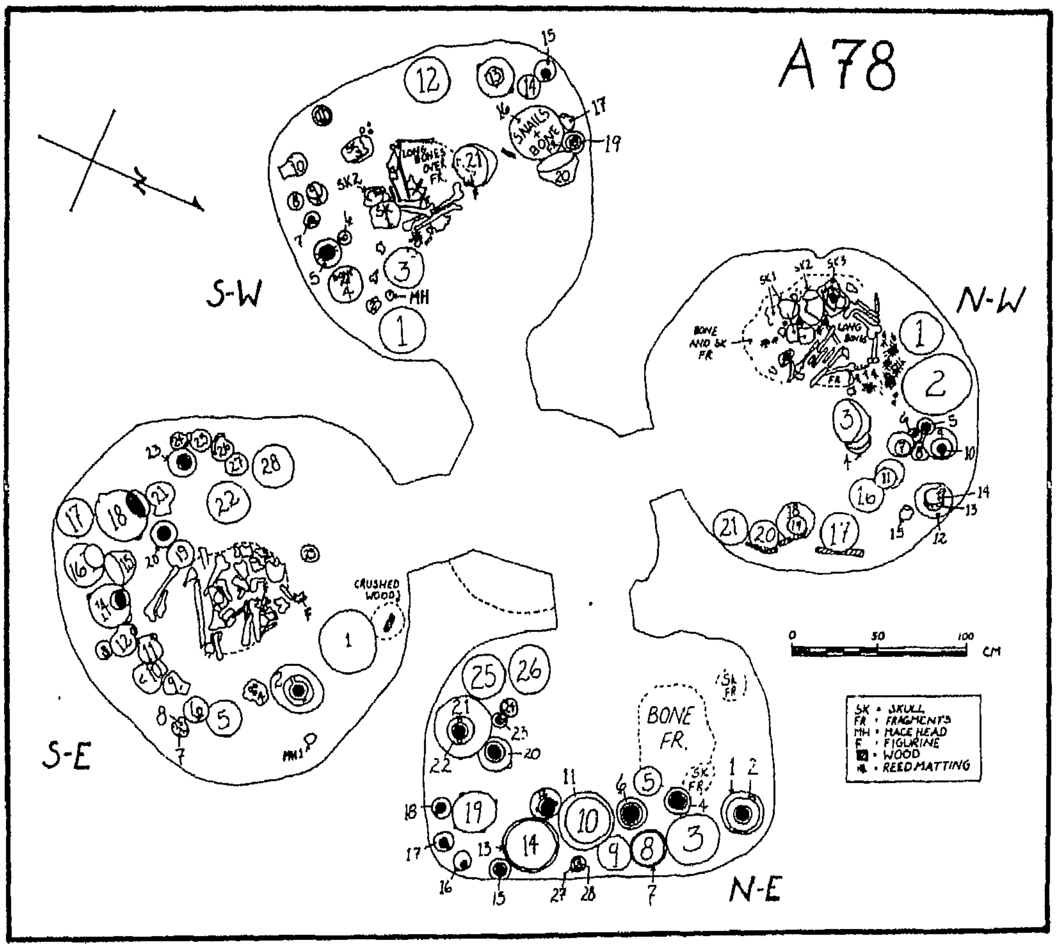
أواني فخارية من فلسطين ومصر تعود للفترة التـــــي
اطلقت عليها كينون اسم مرحلة ما قبل التمـــــدن



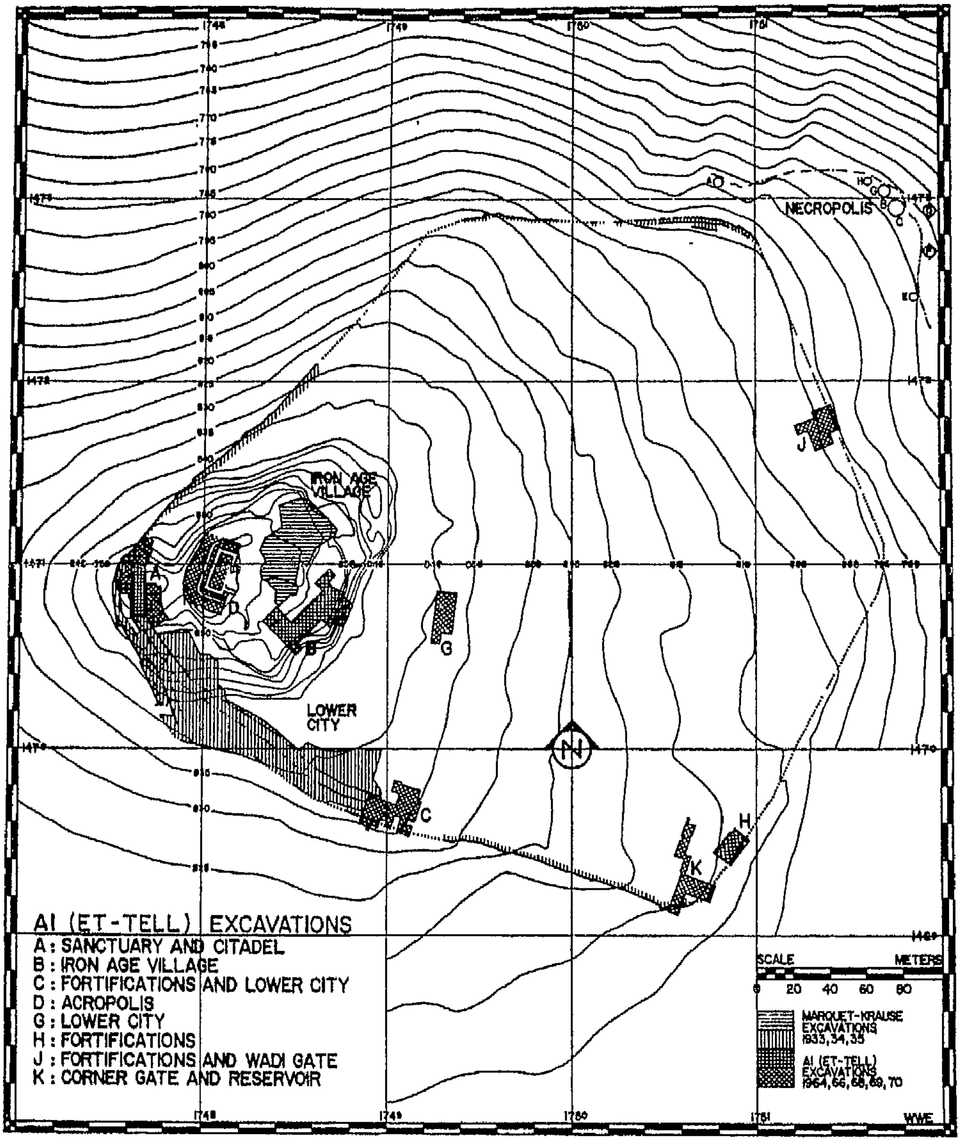
صحون فخارية مختلفة الاحجام من موقع باب الـذراع
وتعود للعصر البرونزي القديم
(عن Rast & Schaub 1977)



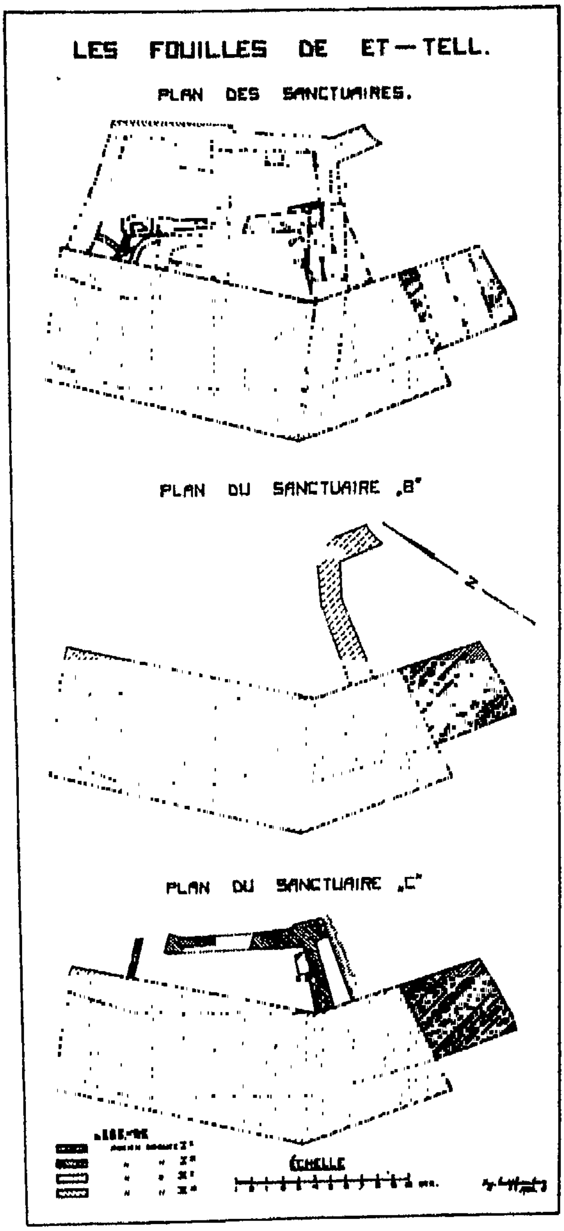
فخار سهل مرج بن عامر مع مقارنات من شمالي سوريا
(فترة ما قبل التمدن)



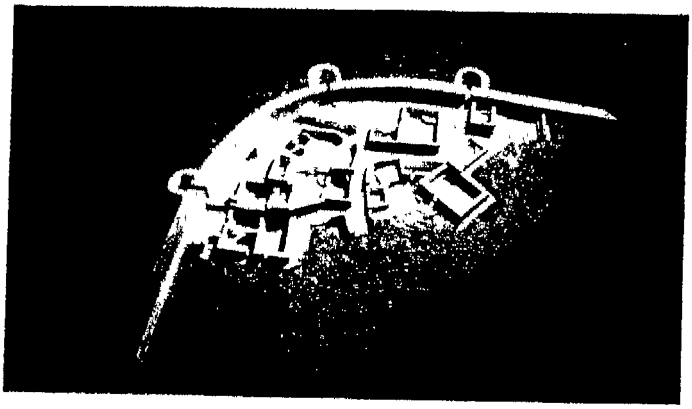
مخطط للنوع الأول من القبور التي تعود للعصر البرونــــزي القديم من بـاب الذراع في الأردن



خارطة كنتورية للحفريات التي أجريت في موقع التـــل

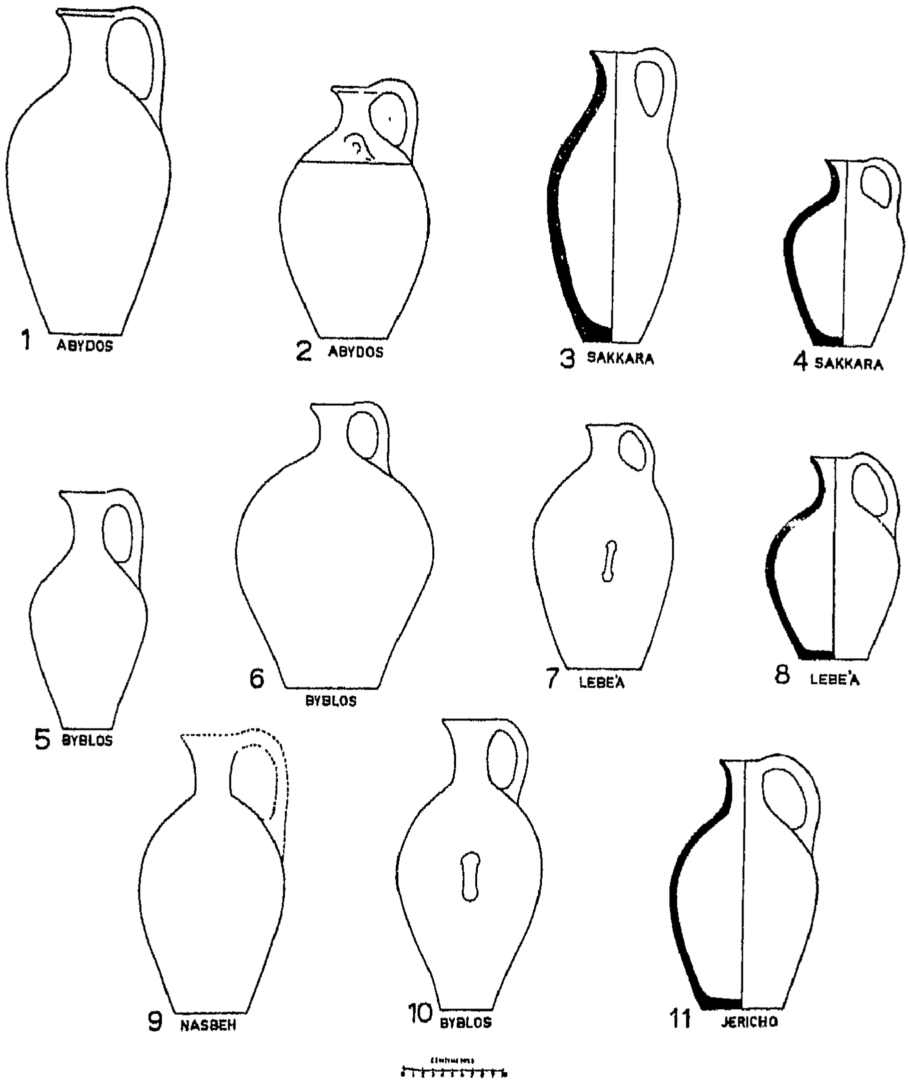


مخططات لمباني ظهرت في التل وتعود للعصر البرونـــزي القديـــــــــم

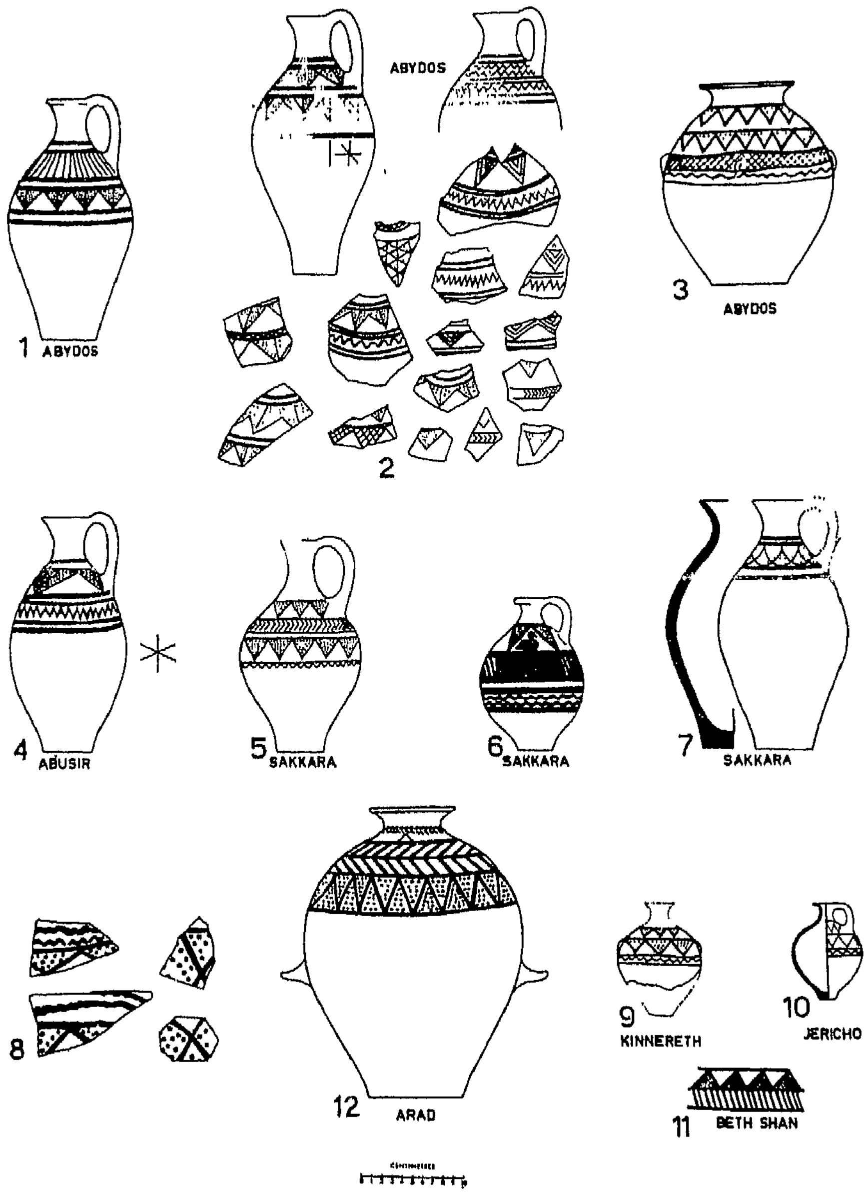




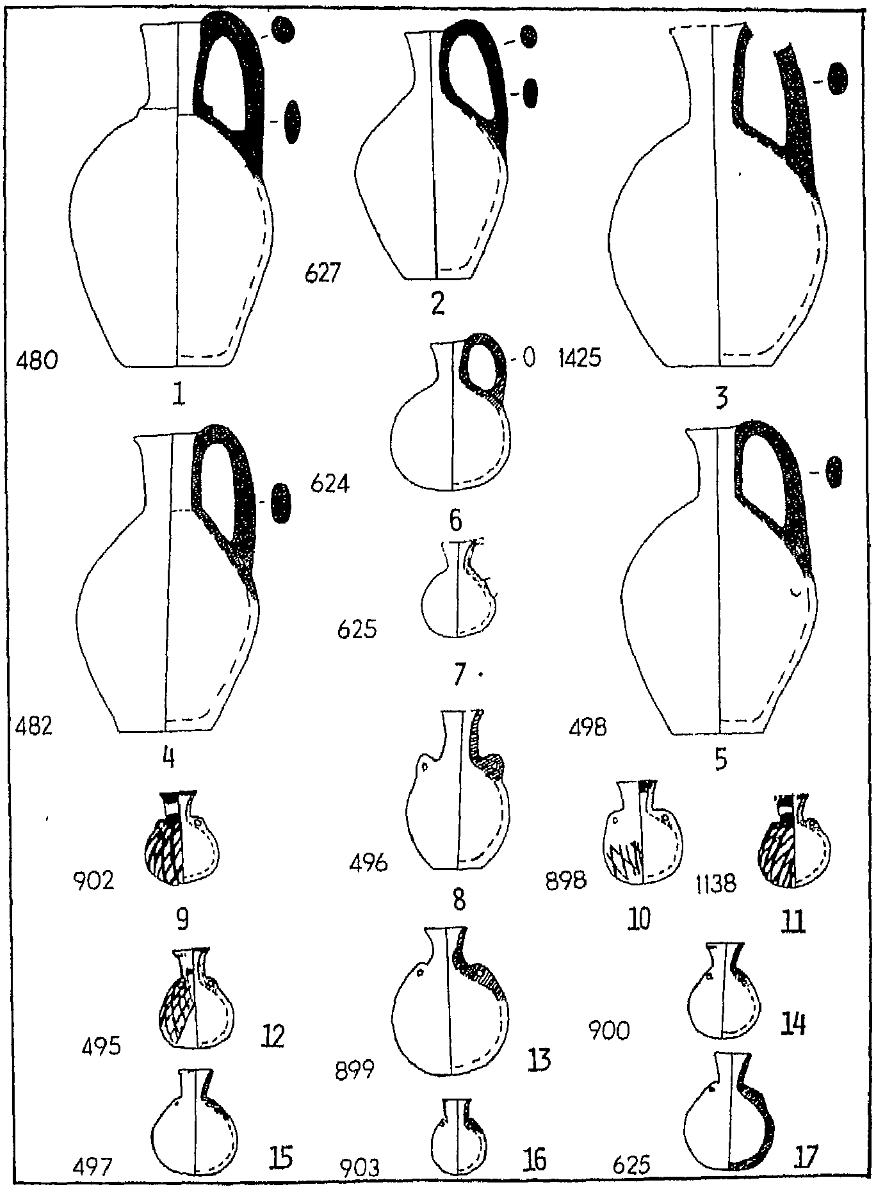
الشكل (١) يمثل نموذجا لأحد المناطق التي جراها فيهـا
الحفر في موقع عراد في فلسطين ٠
الشكل (٢) يمثل صورة لمنطقة (K) في عراد ٠
(عن Amiran 1978)



أباريق فخارية من مواقع فلسطينية ولبنانية ترى
التأثيرات المصرية

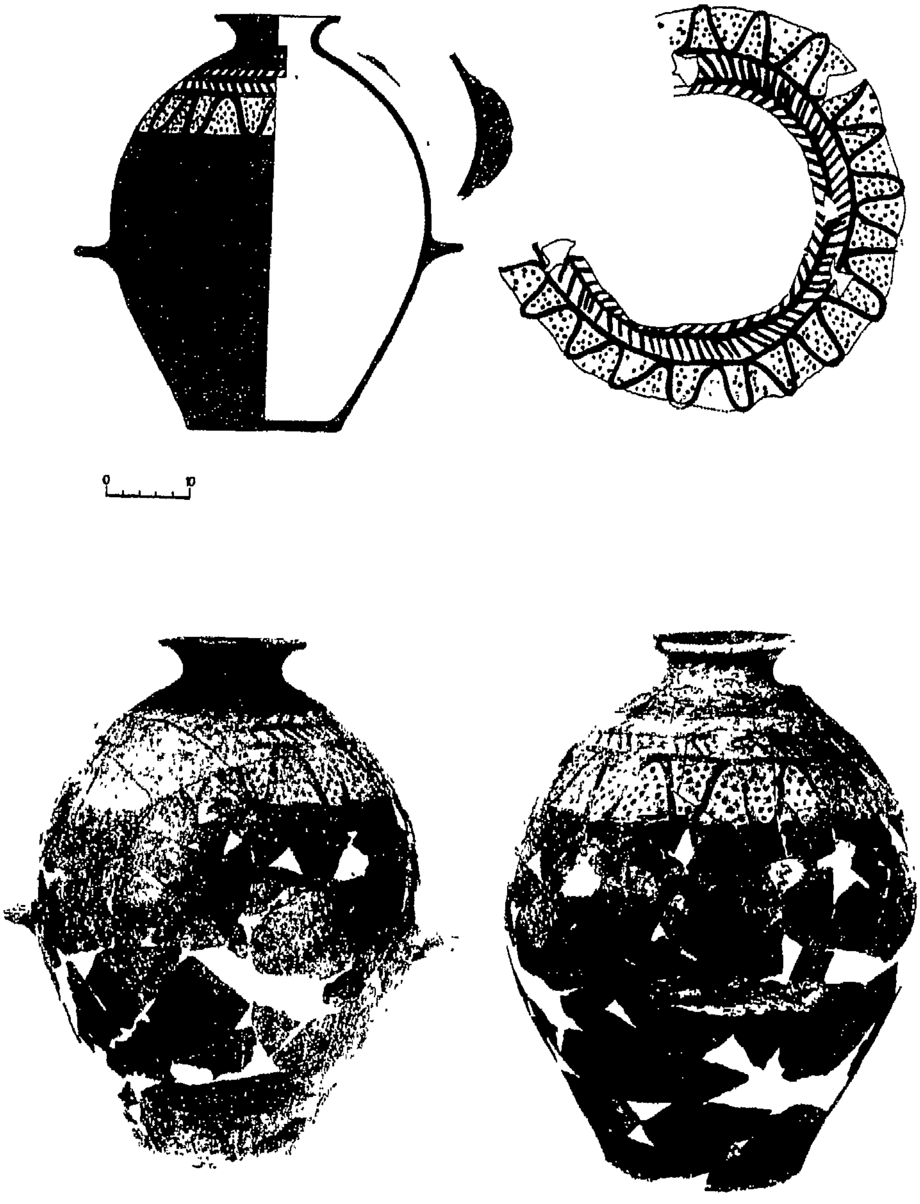


أباريق فخارية من فلسطين ومصـــــــــــــر



أباريق فخارية من العصر البرونزي القديم من موقـــع باب الذراع فـــــي الأردن

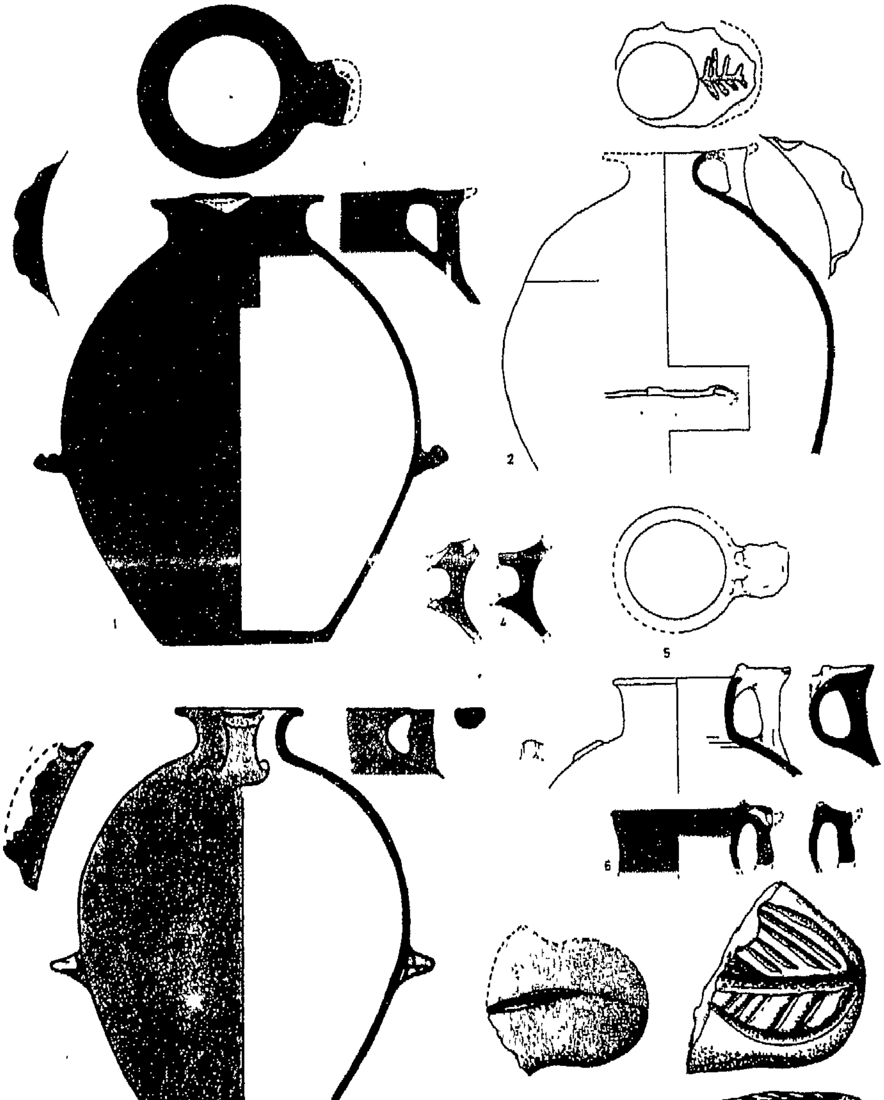
.(Rast and Schaub 1977;Fig. 19)



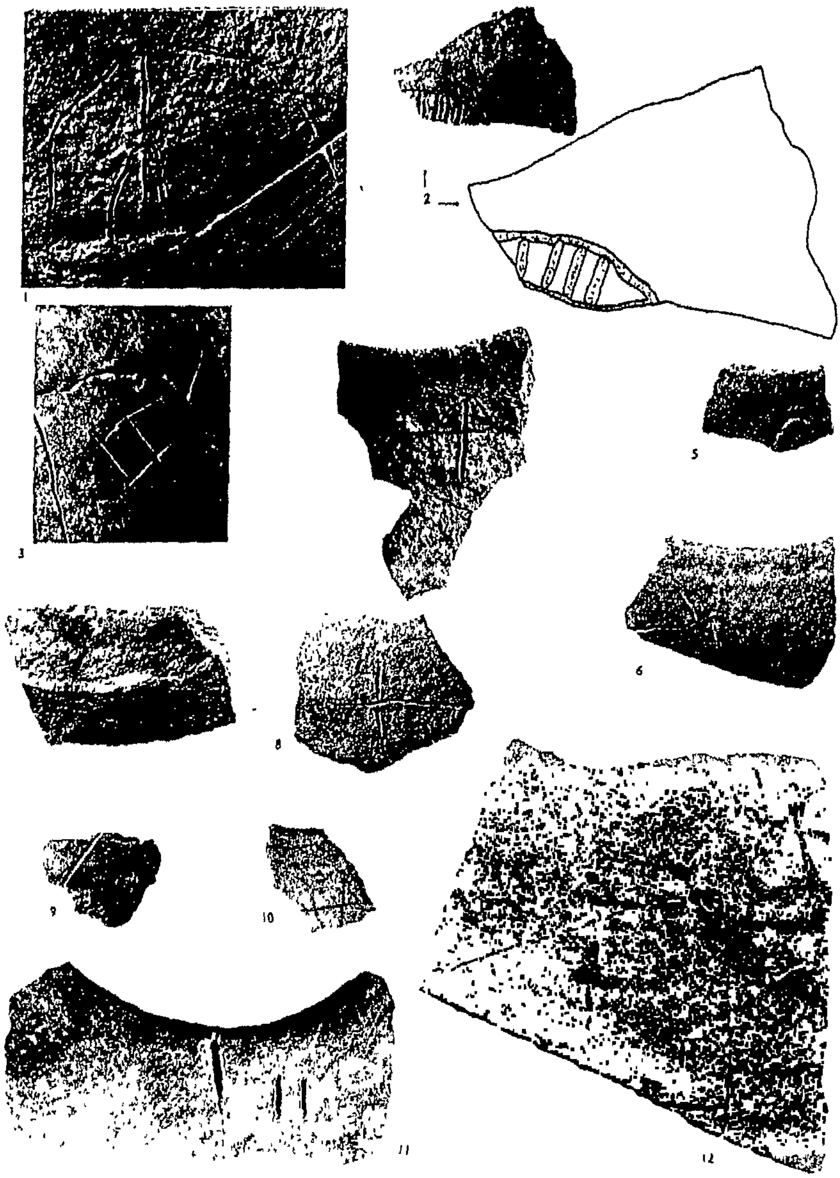
جرار فخارية تعود للعصر البرونزي القديم من موقع

عراد في فلسطين

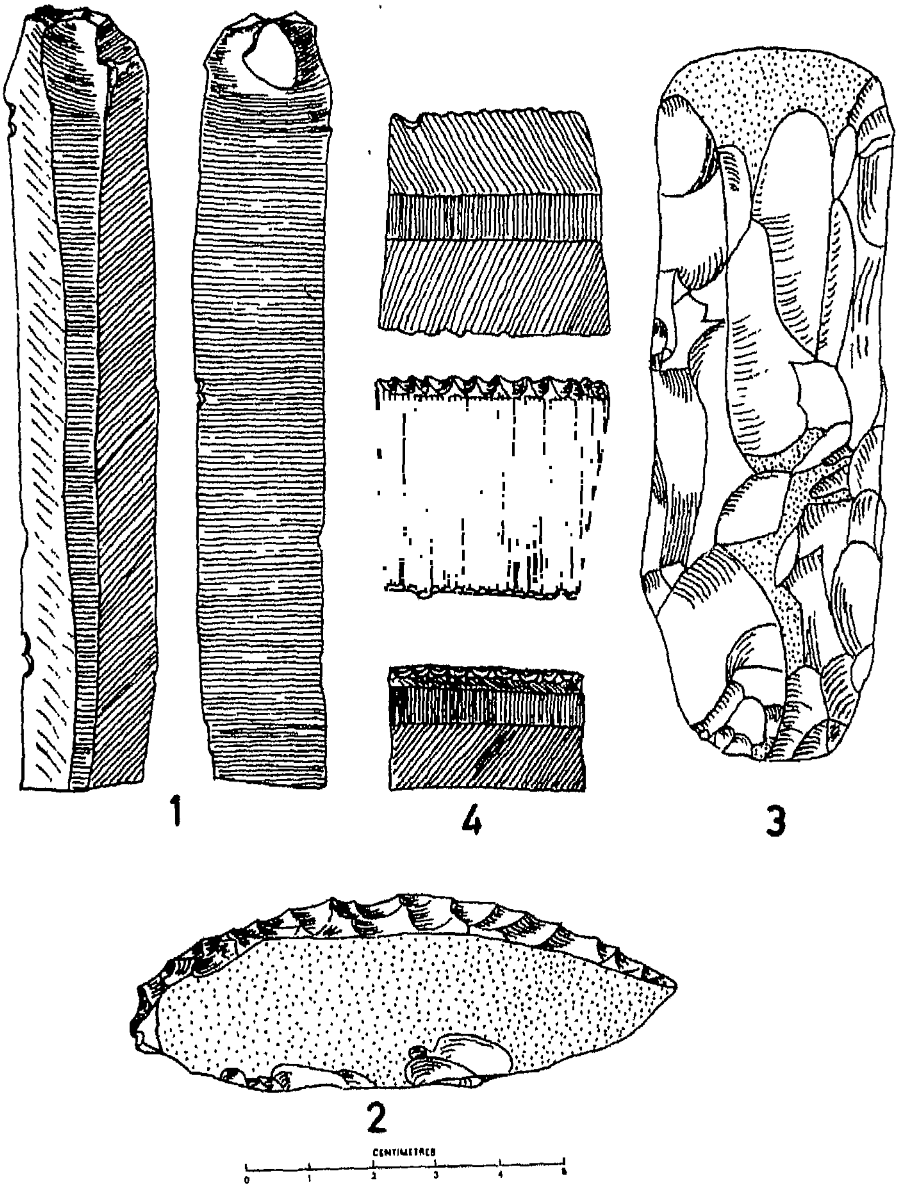
(Amiran 1978 من)



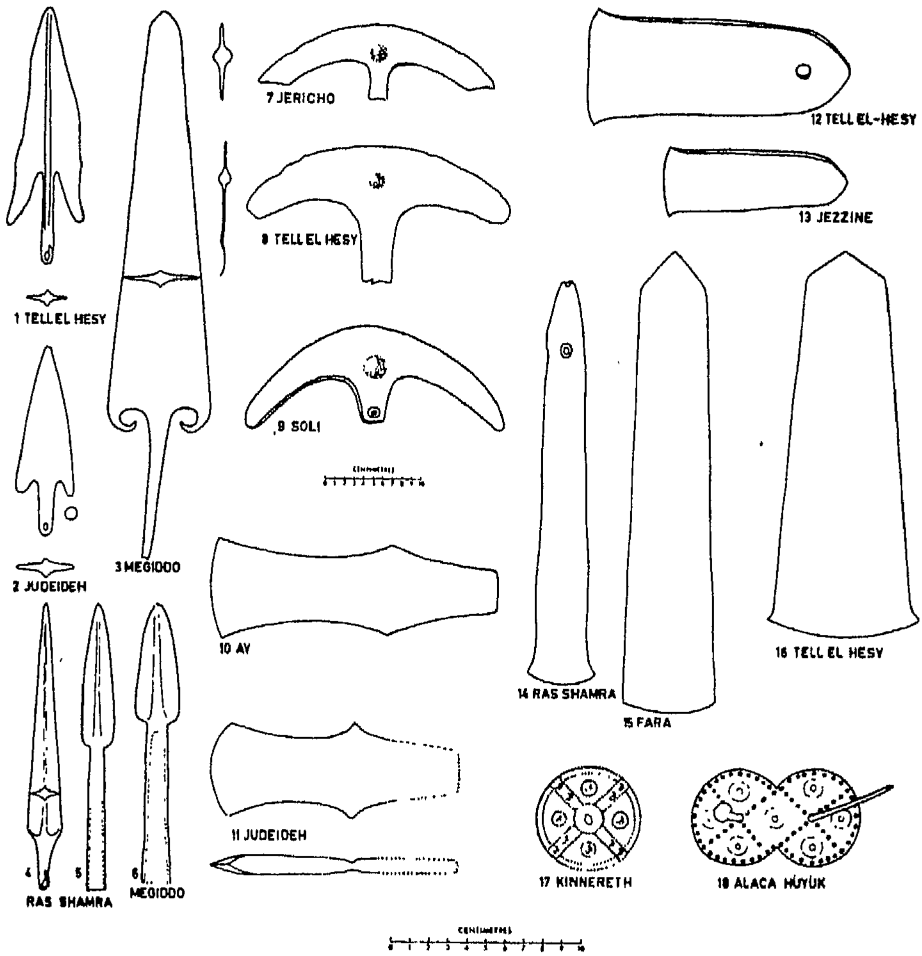
جرار فخارية تعود للعصر البرونزي القديم من عـــراد
(من Amiran 1978)



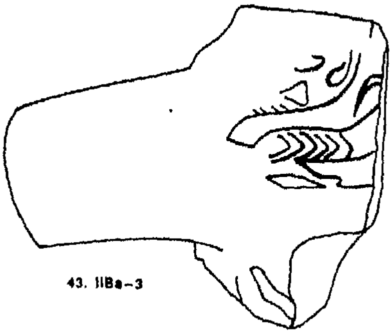
بعض الكسر الفخارية التي عثر عليها في عراد وتعود
للعصر البرونزي القديم وتحمل بعضها اشارة صانعهـــا
(من Amiran 1978)



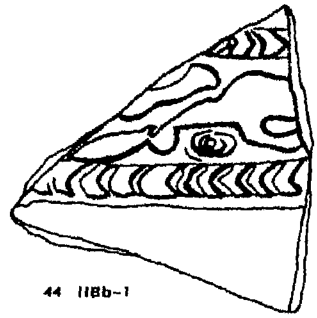
أدوات صوانية كنعانية تعود للعصر البرونزي القديم



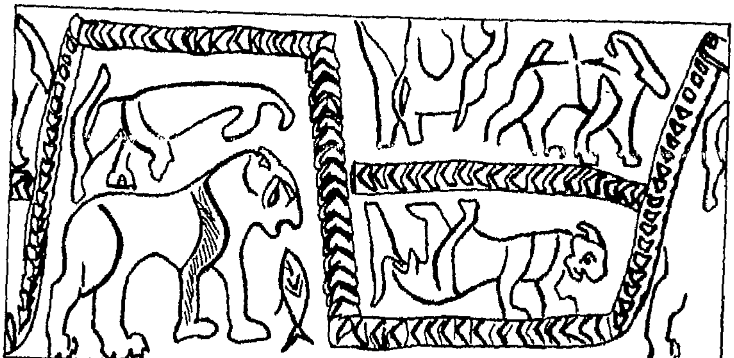
أدوات معدنية تعود للعصر البرونزي القديم الثالث من فلسطين مع مقارنات لها من مواقع مختلفة في الشرق الأوسط (Hennessy 1967; Pl. LXXV).



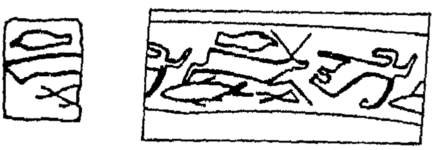
43. IIBa-3



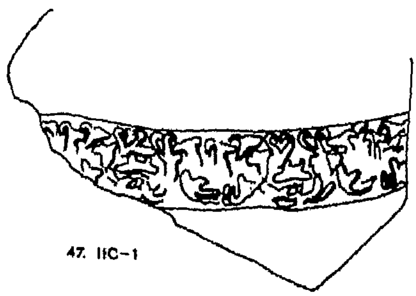
44 IIBb-1



45. IIBb-2



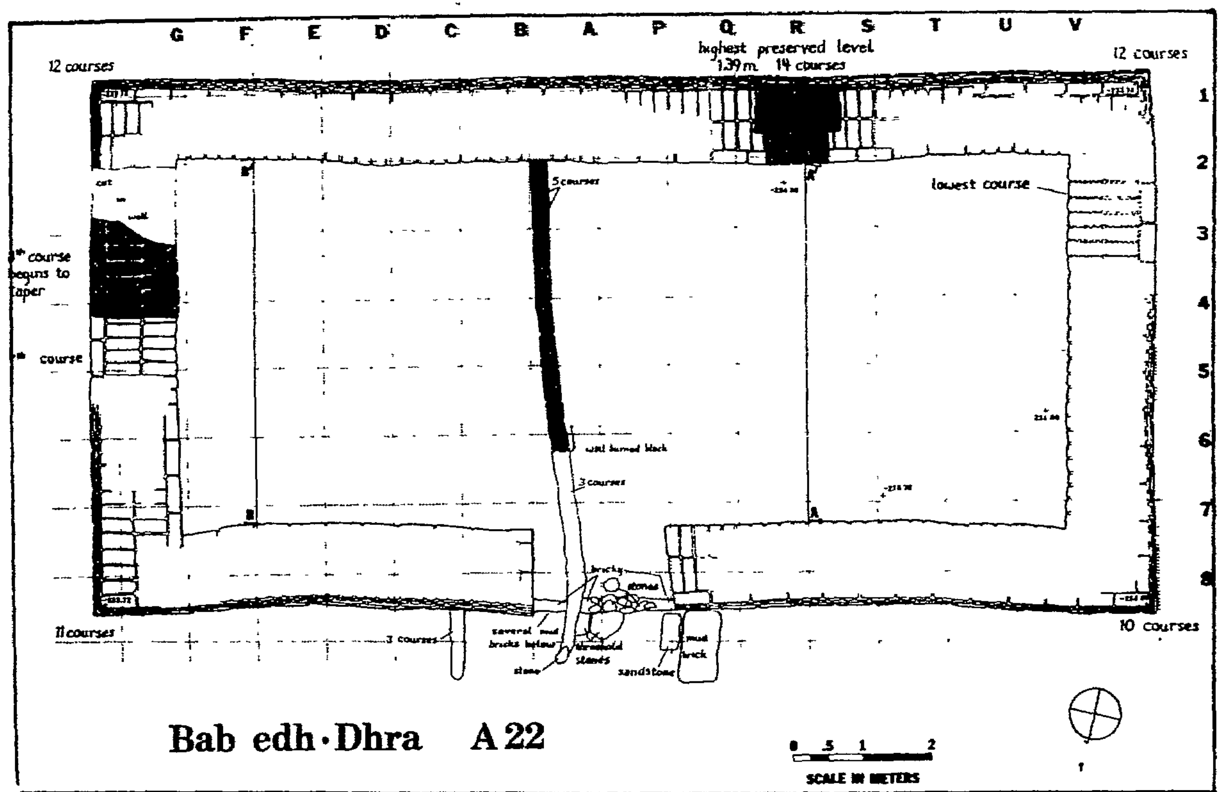
46. IIBb-3



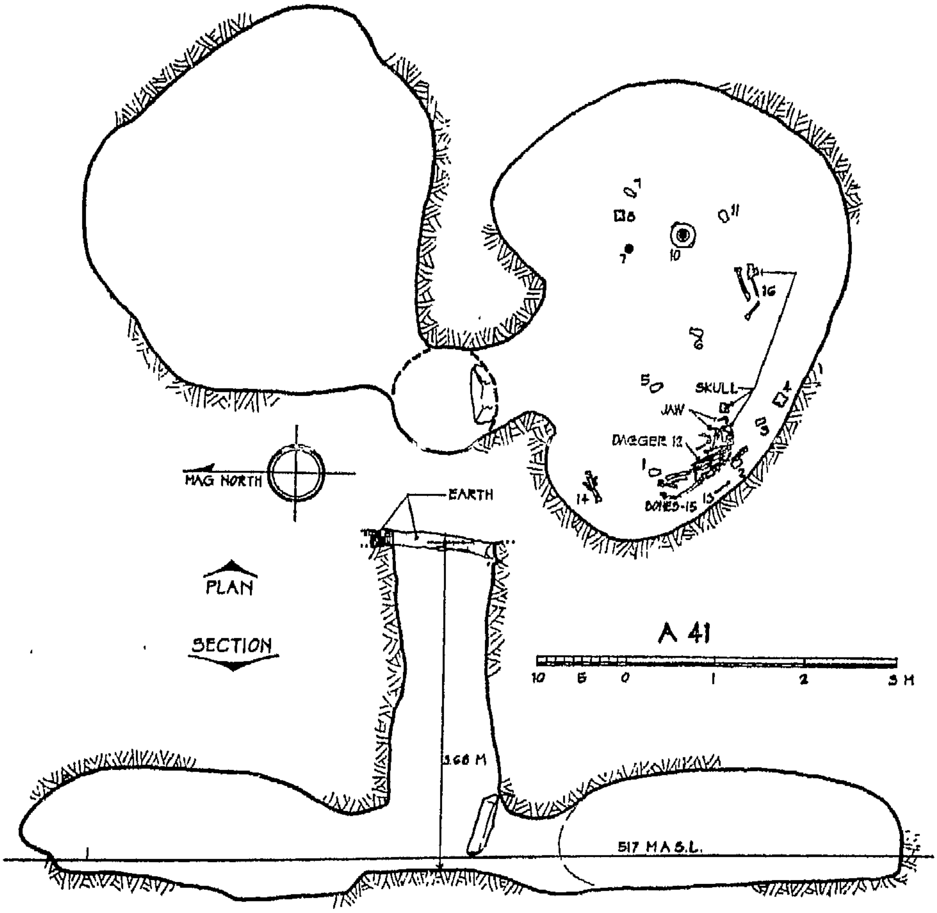
47. IIC-1

اختام تعود للألف الثالث ق.م من مواقع مختلفة في فلسطين

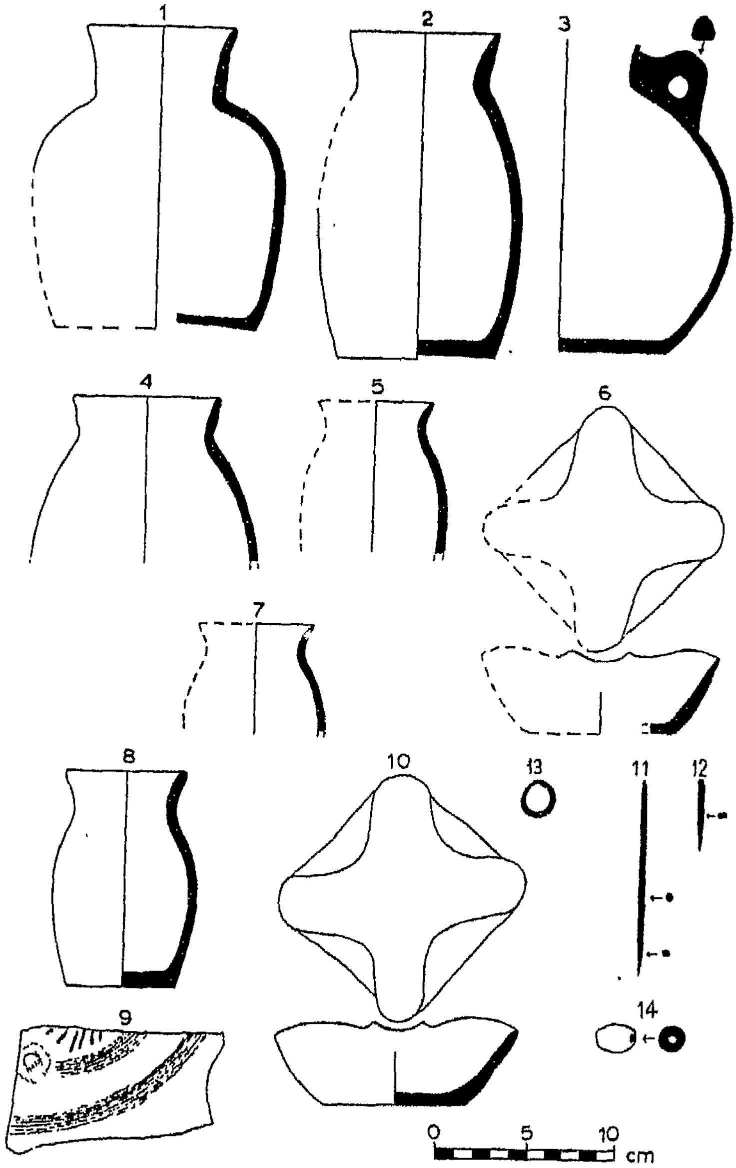
(Ben-Tor 1978: Fig. 7)



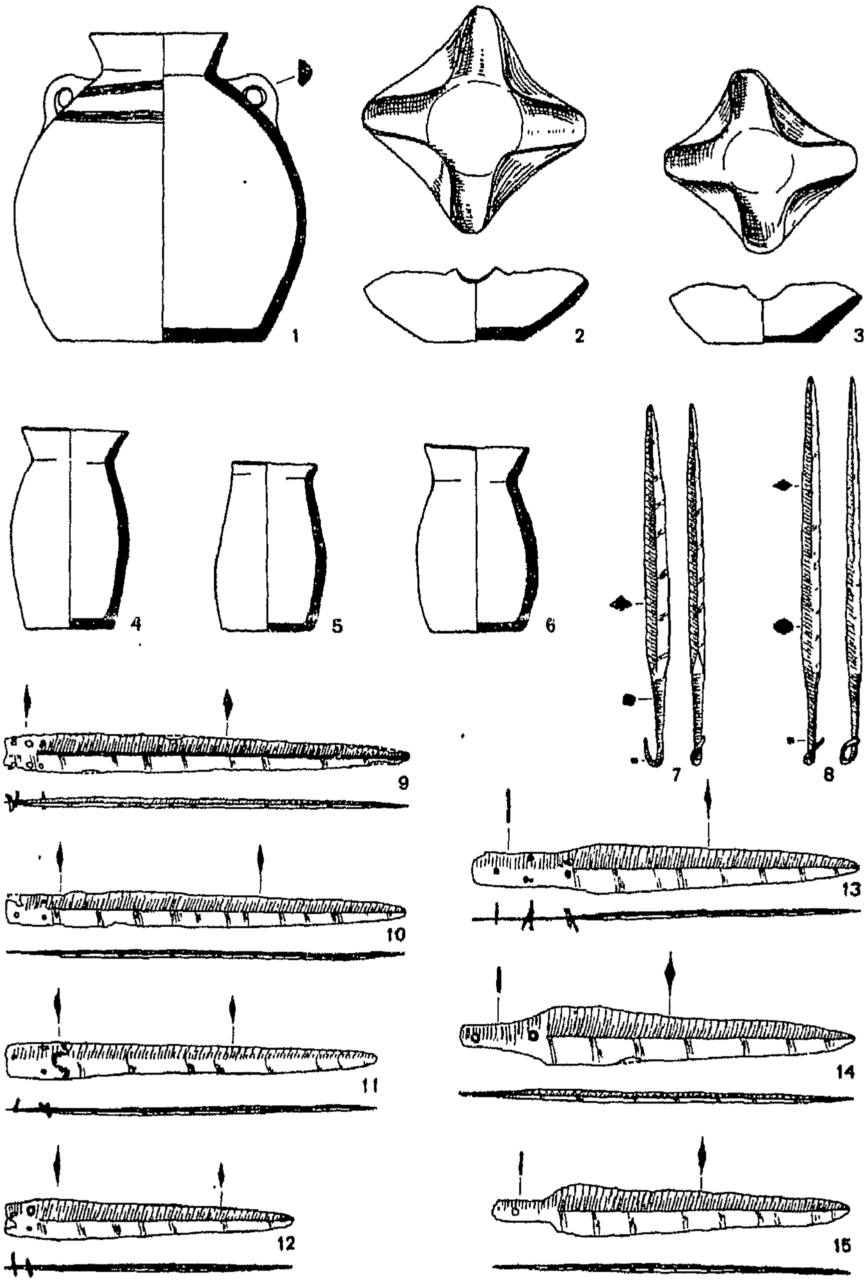
قبر مستطيل من باب الذراع (العصر البرونزي القديم)



قبر صخري من ظهر المرزبانه يعود بتاريخه لأواخـــــر
الألف الثالـــــث ق.م



أدوات فخارية تعود للمرحلة الانتقالية ما بين العصر البرونزي القديم والمتوسط عثر عليها في موقع ظهر المرزبانة في فلسطين



أدوات فخارية ومعدنية تعود للمرحلة الانتقاليـــة
ما بين العصر البرونزي القديم والمتوســــــــــط

آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث

١٥٧٠ــ١٢٠٠ ق.م

الدكتور محمد خير ياسين

ومصطفى سليمان

١ــ مقدمة تاريخية

٢ــ آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث (١٥٧٠ــ ١٢٠٠ق.م)

آــ المواقع الأثرية

بــ العمارة

جــ الفن

دــ النقوش والكتابات

هــ الفخار

وــ عادات الدفن

مقدمة تاريخية:

يقسم العصر البرونزي الحديث (الأخير) حسب تطور الفخار إلى الفترات التاريخية التالية[1]:

١ـ العصر البرونزي الحديث الدور الأول ـ (١٥٧٠ـ ١٤١٠ق.م)، وهي الفترة التي تلت عملية طرد الهكسوس من مصر.

٢ ـ العصر البرونزي الحديث الدور الثاني ـ (١٤١٠ـ ١٢٠٠ق.م)، ويقسم إلى فترتين هما:

آـ العصر البرونزي الحديث، الدور الثاني الفترة آـ(١٤١٠ـ ١٣٤٠ق.م) وهي فترة تل العمارنة

ب ـ العصر البرونزي الحديث، الدور الثاني الفترة ب ـ (١٣٣٠ـ١٢٠٠ق.م) وهي فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة في مصر.

وبذلك يبدأ العصر البرونزي الحديث في أرض كنعان (فلسطين) من طرد الهكسوس من مصر في بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر ق.م، وينتهي بغزو شعوب البحر ومنهم الفلستين حوالي ١٢٠٠ق.م لمنطقة غربي البحر المتوسط، واستقرارهم في القسم الجنوبي من الشاطئ الفلسطيني بقيادة أهم وأقوى شعوب البحر وهم الفلستين والذين أعطوا اسمهم لأرض كنعان لتصبح فلسطين حتى يومنا هذا.

ويسمى العصر البرونزي الحديث في فلسطين بعصر السيطرة المصرية، حيث بدأ الاحتلال المصري لفلسطين وسوريا مباشرة بعد طرد الهكسوس على يد الفرعون أحمس الأول(١٥٥٢ـ١٥٤٦ق.م) حوالي ١٥٦٠ق.م أو بعد ذلك بقليل عندما استولى أحمس الأول على أفاريس عاصمة الهكسوس والتي عرفت فيما بعد باسم تانيس[2] وقد بدأ هذا الاحتلال بمحاصرة مدينة شاروهين (ربما تل الفارعة الجنوبي) حيث قام أمنحوتب الأول (١٥٤٦ـ١٥٢٥ق.م) ابن أحمس الأول بإكمال الاحتلال المصري في آسيا الغربية، ثم قام الفرعون التالي تحتمس الأول (١٥٢٥ـ١٤٩٥ق.م) بمهاجمة سوريا[3].

وكان لعملية طرد الهكسوس من مصر أثر مزدوج على فلسطين، وتمثل الأثر الأول في استقرار معظم الهكسوس المطرودين من مصر في فلسطين، أما الأثر الثاني فقد تمثل في مد النفوذ المصري إلى سوريا وفلسطين[4]، لأن حكام مصر في ذلك الوقت وجدوا خير وسيلة لحماية مصر من الحدود الشرقية هو احتلالهم لفلسطين.

وصارت فلسطين ولاية مصرية منذ حوالي ١٥٥٠ق.م. حتى حوالي ١٢٢٥ق.م، باستثناء قيام بعض الثورات المحدودة[٥] والتي لا يوجد هناك أي دليل على استمرار أي من هذه الثورات أكثر من عدة سنوات. وقد دلت الحفريات الأثرية أن تل الحسا قد دمر ثلاث مرات، وتل المتسلم (مجدو) دمر مرتين، والقلعة المصرية في بيسان دمرت مرتين قبل منتصف القرن الثالث عشر ق.م.[٦] ويذكر تحتمس الثالث (١٤٩٠ـ١٤٣٦ق.م) في حملته على سوريا وفلسطين، أنه احتل تل المتسلم وتعنك وغزة[٧]. كما يذكر سيتي الأول (١٣١٨ـ ١٣٠١ق.م) في مسلته التي وجدت في بيسان، أن هذه المدينة كانت قد تعرضت لهجوم مكون من تحالف عدة مدن مع طبقة فحل (بيلا) في شرقي الأردن، وذلك عندما قام بحملته المشهورة على شمال فلسطين[٨].

وحصلت خلال القرن الرابع عشر ق.م مجموعتين من الحوادث وهما:

التدمير الذي أحدثه الخابيرو والمسجل في وثائق تل العمارنة، ثم استقرار العبرانيين في فلسطين والمسجل في التوراة والذي اتفق عله المؤرخون بأنه حصل ما بين ١٤٠٠و١٢٩٩ق.م.[٩]

وتعتبر وثائق تل العمارنة من أهم الوثائق التاريخية والتي تزودنا بمعلومات مهمة عن الوضع السياسي والاجتماعي في فلسطين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م أي قبل بوقت قصير من خروج العبرانيين من مصر. وهذه الوثائق عبارة عن رسائل موجهة من الأمراء والحكام المحليين الكنعانيين والموظفين المصريين في سورية وفلسطين إلى البلاط المصري في عهد امنحوتب الثالث (١٤١٢ـ١٣٧٥ق.م) وامنحوتب الرابع ـ أخناتون ـ (١٣٧٥ـ١٣٦٦ق.م).[١٠] وتفهم من هذه الوثائق وعددها حوالي ٣٥٠ رسالة مكتوبة باللغة الأكادية وهي اللغة الدولية لسكان الشرق الأدنى القديم خلال العصرين البرونزي المتوسط والحديث والمكتشفة عام ١٨٧٧ في موقع تل العمارنة بمصر، أن السلطة المصرية في سوريا وفلسطين قد بدأت تتهاوى، حيث بدأت بعض الولايات التابعة لمصر بالانجذاب نحو الجانب الحثي، أو أعلنت استقلالها عن مصر، وولايات أخرى كانت تطلب المساعدة العسكرية المصرية ضد هجمات الخابيرو[١١].

وقد وصف كل من (شوازداتا) حاكم مدينة الخليل و(عبدوحيبا) حاكم مدينة القدس، مهاجميهم بالخابيرو[١٢] والذين يربطون عادة بالعبرانيين من الناحية اللغوية[١٣]، مع أن ذلك مشكوك فيه في الوقت الحالي، ولكن ربما ضموا فيما بينهم فيما بعد بعض أحفاد الخابيرو الذين ذكروا في وثائق تل العمارنة[١٤].

ويتضح لنا من رسالة (عبدوحيبا) حاكم القدس أنه إذا لم تصله مساعدة عسكرية مصرية عاجلة فإن مدينته سوف تسقط بالتأكيد في يد الخابيرو.

ولكن يبدو أن امنحوتب الرابع(أخناتون) الذي كان مشغولا بثورته الدينية، لم يستجب لنداءات الحكام الكنعانيين الذين يطلبون عونه العسكري[١٥].

والجدير بالذكر أنه منذ قيام تحتمس الثالث (١٤٩٠ـ ١٤٣٦ق.م) بحملته على سوريا وفلسطين حتى تحتمس الرابع(١٤١٥ـ١٤٠٦ق.م)، وهي الفترة التي سبقت فترة تل العمارنة ، كانت مصر مشغولة بالحروب مع مملكة ميتاني، وفي نهاية هذه الفترة قام الحثيون بالضغط على الميتانيين من الشمال الغربي، وفي حوالي ١٣٧٠ق.م قام الملك الحثي شابليوما بمهاجمة مملكة ميتاني وأجبرها على دفع الأتاوة، واستمرت مملكة ميتاني في الوجود حتى استسلمت أخيرا للملك الآشوري شلمناصر الأول (١٢٦٤ـ ١٢٣٥ق.م).[١٦]

وقد كانت أهم القوى الكبرى المتصارعة في الشرق الأدنى القديم خلال العصر البرونزي الحديث الدور الثاني الفترة ب (١٣٤٠ـ١٢٠٠ق.م)، كل من الإمبراطورية المصرية، إلى أن انتهى هذا الصراع حوالي عام ١٢٦٩ق.م بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين بعد معركة قادش والتي جرت في شمال فلسطين في عهد رمسيس الثاني (١٢٩٩ـ١٢٣٢ق.م) والملك الحثي حاتوشيل الثاني، حيث لم يتقدم المصريون شمال قادش وأوقف تقدم الحثيين جنوبا[١٧].

أما القوى الصغرى فكان يمثلها الآشوريين في وسط بلاد ما بين النهرين ومملكة ميتاني إلى الشمال الغربي من الآشوريين، ثم دويلات المدن الفينيقية على ساحل البحر المتوسط والمهتمة بالتجارة ، والآراميون ومملكتهم المشهورة دمشق[١٨].

وإلى الجنوب من المنطقة التي استقر فيها الآراميون أي فلسطين (أرض كنعان)، كان العبرانيون قد بدؤوا بالاستقرار فيها بعد خروجهم من مصر. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذا الخروج، ولكن من المتفق علهم أنه حدث في وقت ما خلال القرن الثالث عشر ق.م.[١٩] واتخذت مسلة الفرعون المصري مرنبتاح (حوالي ١٢٣٠ق.م) أقدم دليل غير توراتي على وجود العبرانيين في فلسطين أو بالقرب منها ولكن كشعب غيرمستقر[٢٠].

والجدير بالذكر أن كثيراً من السكان المضطهدين في مصر قد شاركوا العبرانيين في عملية الخروج من مصر[٢١]، والتي كانت عبارة عن عملية هروب عدد كبير من العبيد

والمضطهدين من عبرانيين وغيرهم، كما أن أحدا من هؤلاء لم تطأ قدمه أرض فلسطين حتى موسى نفسه الذي قاد عملية الخروج[٢٢]، حيث وجد موسى هؤلاء الهاربين في مجتمع واحد على المعتقدات الدينية، وهو بذلك أنشأ ديناً قومياً وليس أمة. وعندما دخل أحفادهم إلى فلسطين فيما بعد اقتبسوا الحضارة والثقافة الكنعانية[٢٣].

ويبدو أن موسى وقومه لم يستطيعوا دخول فلسطين من الجنوب لوجود مقاومة كنعانية قوية وخاصة ملك مدينة عراد الكنعاني[٢٤]، هذا بالإضافة إلى الوجود المصري بعد معاهدة الصلح مع الحثيين في قادش، ولذلك قرر موسى دخول فلسطين من جهة الشرق عن طريق الأردن[٢٥].

إن كلاً من الدلائل الأثرية والتوراة تشيران إلى أن العبرانيين عندما خرجوا من مصر قادمين إلى فلسطين والأردن، كانت هذه البلاد مأهولة تماما بالسكان وعلى درجة عالية من الحضارة[٢٦]. ففي فلسطين كانت دويلات المدن الكنعانية يحكمها أمراء محليون تابعون للفرعون المصري وتمتعون بالحكم الذاتي طالما أنهم مستمرون على ولائهم للبلاط المصري ويقدمون له الأتاوة وعمال السخرة للمشاريع الحكومية المصرية[٢٧]. وكان الأمير أو الحاكم المحلي الكنعاني يشرف عليه موظف مصري كبير يسمى المفوض[٢٨].

وقد دعم هؤلاء الحكام المحليون بقوات محلية من العربات والمشاة ولا يسمح لهم بالتدخل في جميع الاتاوة والتي كانت من مهمات المفوض المصري. ولكن يسمح لهم بالاتصال المباشر مع البلاط المصري بواسطة الألواح المكتوبة بالخط الأكادي كرسائل تل العمارنة.

أما المفوض المصري فكان يشرف على جمع الاتاوة ويحدد مقدارها ويراقب العمل على الطرق العامة وفي حقول القمح للملكية في جبل جرزيل وغابات شجر الأرز في جبل لبنان وقد دعم هذا المفوض بقوات من الجنود المصريين والنوبيين والبدو والعبيد والمرتزقة، والذين كان سلاحهم الرئيس القوس والنشاب. وقد قام المصريون ببناء عدد من القلاع الحربية كمبانيهم العسكرية كقلعة بيسان حوالي عام ١٥٤٠ق.م.[٢٩]

أما في الأردن فكانت هناك خمس ممالك قائمة وهي: مملكة أدوم ومملكة مؤاب ومملكة عمون ومملكة خسبان وعجلون (باشان) الأموريتان وقد انتهت المملكتان الأخيرتان بعد فترة الغزو العبراني[٣٠]. وعليه تصبح الممالك الثلاثة الأولى على درجة من الأهمية في تاريخ فلسطين والأردن فيما بعد أي في العصر الحديدي (١٢٠٠ـ٣٣٠ ق.م).

أما بالنسبة للعبرانيين الذين وصلوا إلى فلسطين في وقت ما من القرن الثالث عشر ق.م. فقد استمروا في التجوال كقبائل غير مستقرة ولم يسكنوا المدن كما لم يتمكنوا من احتلال أية مدينة كنعانية مهمة حتى عهد داو ود في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن العاشر ق.م.[٣١] ومع نهاية القرن الثالث عشر ق.م استقر العبرانيون في المناطق الجبلية على جانبي نهر الأردن حيث كان من الصعب عليهم اختراق قوة الكنعانيين العسكرية والذين يملكون العربات الحربية ونحن نعرف من حفريات تل التسلم (مجدو) وبيسان، أن هاتان المدينتان الكنعانيتان قد قاومتا العبرانيين لأجيال عديدة[٣٢].

وكان احتلال مدينة أريحا من قبل العبرانيين قد لعب دورا بارزا في عملية دخولهم إلى فلسطين والمسجل في سفر يشوع[٣٣] . وإذا قبلنا تقدير التوراة بأن الدخول الى فلسطين قد حدث قبل ٤٤٠ عاما من بناء الهيكل الذي بنى عام ٩٦٠ق.م. وجب علينا القبول بأن أريحا قد دمرت حوالي ١٤٠٠ ق.م، وإذا قبلنا آراء الباحثين الذين حاولوا التوفيق ومقارنة الأحداث مع التاريخ المصري، وجب علينا أن نقبل تاريخ ١٢٦٠ق.م. كذلك هناك فترة طويلة قبل تأسيس المملكة العبرانية المتحدة حوالي ١٠٠٠ق.م وهذا يؤكد بأن دخول العبرانيين إلى فلسطين لم يكن بقوة كبيرة بل بواسطة مجموعة صغيرة ركزت نفسها في البلاد وضمت تحت لوائها بالتدريج القبائل المتحالفة والخابيرو وآخرين غيرهم بواسطة توحيد المعتقدات الدينية.

لذلك يجب أن لا نندهش إذا لم تزودنا الشواهد الأثرية بأدلة على غزو كبير معلصر لغزو وتدمير مدينة أريحا[٣٤]. وكان قد اعتقد في الحفريات السابقة بأن الأسوار الدفاعية لمدينة العصر البرونزي الحديث في أريحا قد تم اكتشافها، وقد دمرت بسبب الهزات الأرضية والنار في عهد يشوع، ولكن لقد أصبح في ضوء الحفريات الجديدة بأن هذه الاسوار قد أخطأ في تأريخها وأنها تعود للعصر البرونزي المبكر، وبدون أي شك فقد طمرت بين مخلفات العصر البرونزي المتوسط والتي لم تكتشف حتى الآن[٣٥]. ومن الثابت حاليا لدى علماء الآثار بشكل عام بأنه لايمكن الاعتماد على التوراة من الوجهة التاريخية لأنها تمثل وجهة نظر العبرانيين فقط، حيث يقول عالم الآثار الهولندي الشهير هنريكوس فرانكن :" ان مفهوم العبرانيين (الاسرائيلين) الخاطئ للقضايا العربية وحقوق شعب فلسطين في عصرنا الحاضر لا يختلف عنه في العصر القديم"[٣٦].

ويضيف فرانكن قائلا: ان أساس العلة في إقدام علماء الآثار التوراتية على تحريف التاريخ، هو أن الدراسات الأثرية التي تعالج الفترات التاريخية السابقة للعصر المسيحي ترتكز على الإيمان بأسطورة ابتدعها كتبه التوراة عن تحركات القبائل العبرانية عبر البلدان

المعادية وما تخلل ذلك من حكايات عن حروبهم مع سكانها، وبما أن التـــوراة تصـــف الأحداث التي مرت بالعبرانيين على أنها معجزات من صنع يهوه إله إسرائيل، فهي في نظر العبرانيين حقائق رغم استحالة إثبات صحتها علميا وتاريخيا.

ويرجع سبب وقوع علماء الآثار التوراتية ضحية هذا المنهج الخاطئ هو رفضـــهم تحليل الشواهد الأثرية ودراستها خارج الإطار الديني والعقائدي الذي يحاولون من خلاله تفسير الأحداث التاريخية والتطورات الحضارية، ومن أبرز الأمثلة على ذلك سفر يشـوع الذي يتحدث عن حروب وبطولات قام بها العبرانيون أثناء دخولهم إلى فلسطين، لـــذا كان لابد لعلماء التوراة من إيجاد فترة أثرية تتناسب شواهدها مع الروايات الدينية فوقـع اختيارهم على الدور الثاني من العصر البرونزي الحديث (١٤٠٠ــ١٢٠٠ق.م)[٣٧].

وفي أواخر العصر البرونزي الحديث الدور الثاني الفترة ب كـــانت الإمبراطوريـــة المصرية آخذة في التدهور وفاقدة لاحترامها في سوريا وفلسطين أما الإمبراطورية الحثيـــة فقد انتهت ودمرت عاصمتها بوغازكوي على إثر غزو شعوب البحر وأهمها الفلسـتينيين والذين احتلوا قسما كبيرا من الساحل السوري ودمروا معظم مدنه حتى وصلوا للحـدود المصرية، كذلك بدأت قوة الآشوريين بالظهور كقوة دولية مهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم. ومع غزو شعوب البحر لمنطقة الشرق الأدنى القديم يبدأ ما اصطلح على تســـميه بالعصر الحديدي (١٢٠٠ــ ٣٣٢ق:م).

٢ــ آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث (١٥٧٠ــ ١٢٠٠ق.م)

آـ المواقع الأثرية

من أهم المواقع الأثرية التي تمثل فترة العصر البرونزي الحديث في فلسطين ما يلي:

١ــ تل المتسلم(مجدو): في الطبقتين التاسعة والثامنة

٢ــ تل أبو حوام: في الطبقتين الرابعة والخامسة

٣ــ تل الجزر: تتمثل فترة العصر البرونزي الحديث في تـــل الجـــزر في الطبقـــات التالية:[٤٠]

آــ الطبقة السادسة

ب ــ الطبقة السابعة

ج ــ الطبقة الخامسة

د ـــ الطبقتين الثانية عشرة والثالثة عشرة

هـــ ـــ المنطقة الأولى

و ـــ المنطقة الثانية

٤ ـــ أسدود: في الطبقات ١ـــ ٥ وفي المنطقة ب

٥ ـــ تل القاضي: في المنطقة هـــ والمنطقة ج في الطبقة الثانية والطبقـــة الأولى وفي المنطقة و[٤٢]

٦ ـــ بيسان: في الطبقة التاسعة[٤٣].

٧ ـــ تل بيت مرسم : في الطبقة جـــ[٤٤].

٨ ـــ تل الدوير (لاخيش): الطبقة الأولى

بالإضافة إلى مواقع عديدة أخرى وجدت فيها آثار تعود للعصر البرونزي الحديـــث مثل تعنك وبلاطة وتل الفول وأريحا وتل كاسيل (قرب تل أبيب) دعي (ديـــر ديـــوان) وبنية(بيت ايل).

ب ـ العمارة:

تميزت المدن في فلسطين في العصر البرونزي الحديث بنظـــام دولـــة المدينـــة ذات الأسوار المبنية بالحجارة أو الطوب الطيني والبوابات ذات المدخل المزدوج وقد اكتشـــفت في مدينة تل المتسلم الأسوار المبنية بالحجارة والبوابات ذات المدخل المزدوج[٤٦]. كمـــا اكتشفت في تل القاضي الأسوار المزدوجة والبوابة ذات المدخل المزدوج أيضا[٤٧]. أمـــا المنازل فقد كانت مؤلفة من صف من الغرف المنفردة أو المزدوجة حول ساحة واســـعة مثلما اكتشفت في تل المتسلم وتعنك وبتين، وهذه المنازل مرتبطة بنظام للمحاري والـــتي كانت مسقوفة ومحددة الحجارة تحت أرضيات المنازل المغطـــاة بالقصـــارة البيضـــاء أو السمراء، وهذه المجاري تنقل المياه القادمة ومياه الأمطار خارج أسوار المدينة[٤٨]. وكـــان للمدينة معهد مثلما اكتشفت في تل القاضي والذي يتكون من قاعة تـــؤدي للداخـــل تسمى ثم القاعة الرئيسية وتسمى الهيكل ثم قدس الأقداس[٤٩]. وكذلك معبد تل المتســـلم الذي يؤرخ للفترة ما بين ١٤٠٠ـــ١٦٥٠ق.م[٥٠]، ثم معبدي بيسان واللذان يؤرخـــان للقرنين الرابع عشر زالثالث عشر ق.م[٥١]. وكانت جميع هذه المعابد محصنة بـــالأبراج الدفاعية واتجاهها للشرق، وقد وجدت معابد لها نفس المخطـــط في أوغـــاريت (رأس شمرا)[٥٢] . كما وجد معبد في تل الدوير (لاخيش) والذي يؤرخ للقرن الرابع عشر ق.م

(حوالي ١٤٠٠ـــ١٣٢٥ق.م) والقرن الثالث عشر (حوالي ١٢٣٠ق.م) عندما دمرت المدينة على أثر حملة الفرعون المصري مرنبتاح(٥٣).

جـ ـ الفن:

يعتبر العصر البرونزي الحديث في فلسطين من الفترات الغنية بالفن، ويعكس هذا الفن تأثيرات من مصر وبلاد ما بين النهرين. وقد تمثل هذا الفن فيما يلي:

١ ـــ تماثيل فخارية صغيرة Pottery Figurines لآلهة الخصب عشتروت، وهل بشكل عام ذات شكل بيضاوي والأيدي مرفوعة للأعلى تحمل زهرة اللوتس أو صولجان، والرأس مزين بمقصات حلزونية (لولبية). والتي ربما من تأثير مصري. وهذه التماثيل الصغيرة مأخوذة من نماذج كانت منتشرة في بلاد ما بين النهرين منذ العصر البرونزي القديم(٥٤). وقد وجد مثل هذه التماثيل في كل من بيت مرسم(٥٥) وبيسان(٥٦) وفي تل الجزر(٥٧).

٢ ـــ تماثيل كبيرة من الحجر البازلتي الأسود تمثل أسودا أو مذابح مثلما وجد في تل القاضي(٥٨).

٣ ـــ حلي ذهبية أومن الالكتروم (خليط من الذهب والفضة) على شكل أنثى ذات غطاء رأس عالي أو مدالية على شكل نجمة عليها ملامح أنثى وتعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م وقد وجدت في تل العجول (غزة القديمة)(٥٩).

٤ ـــ منحوتات عاجية مختلفة مثل مشط مزدوج من العاج مزخرف بشكل أسد وشجرة وقد وجد مثله في تل المتسلم ويؤرخ للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.(٦٠) وكذلك صندوق من العاج مزخرف بزخارف نافرة على شكل أبو الهول والذي وجد في تل المتسلم أيضا ويؤرخ للفترة ما بين ١٣٥٠ـــ١١٥٠ ق.م.(٦١) كما وجد أيضا في تل المتسلم تمثال عاجي لامرأة عارية ذات عينين من الزجاج بالإضافة إلى لوحة لعب من العاج(٦٢). كما وجدت منحوتة عاجية في تل الدوير تؤرخ للقرن الثالث عشر ق.م.(٦٣)

٥ ـــ أطباق تقدمة خمر مصنوعة من الحجر الكلسي مثلما وجد في تل بيت مرسم(٦٤).

٦ ـــ أعداد كبيرة من الجعران / الجعلان ذات الطابع المحلي والمستورد (المصري) والتي وجدت في معظم المواقع التي تمثل العصر البرونزي الأخير في فلسطين.

د. النقوش والكتابات:

استعمل الكنعانيون سكان فلسطين الأصليين في العصر البرونزي الحديث حوالي أربعة أنواع من الخطوط على الأقل في كتابة لغتهم الكنعانية وهي:

١ ـــ الخط الأكادي المسماري .

٢ ـــ الخط الهيروغليفي المصري.

٣ ـــ الأبجدية الأوغاريتية (مثل لوح طيني مكتوب بالأبجدية الأوغاريتية وجد في بيت شمس).

٤ ـــ أبجدية بيبلوس (بنت جبيل)

وكان الكنعانيون قد استخدموا الخط الأكادي المسماري في العصر البرونزي الحديث بشكل واسع على الألواح الطينية. وقد تم اكتشاف مجموعة من الألواح الطينية المكتوبة بالخط الأكادي المسماري وتعود للقرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، في الحفريات الأثرية في فلسطين، حيث تم اكتشاف ١٢لوحا منها في تعنك والباقي في تل الحسا وتل الجزر وبلاطة وتل التسلم وأريحا، هذا بالإضافة إلى ١٥٠ لوحا طينيا من رسائل تل العمارنة، وحوالي ٢٠٠ لوح طيني من نفس المجموعة وجدت في سوريا ولبنان[٦٥].

هـ ـ الفخار:

تميز فخار العصر البرونزي الحديث في فلسطين بأنه مصنوع بالعجلة الفخارية ومصقول نوعا ما ومزخرف بالألوان المزدوجة الحمراء والسوداء والمتميزة بأشكال مقسمة إلى إطارات وداخل هذه الإطارات رسوم لحيوانات كالغزال وطيور وأسماك وأشجار النخيل هذا بالإضافة للأشكال الهندسية المختلفة[٦٦].

وقد دل هذا الفخار على اتساع العلاقات التجارية بين السواحل السورية والفلسطينية وبلدان حوض البحر المتوسط الأخرى كقبرص ومسينا[٦٧].

أما الأشكال الفخارية فقد اشتملت على الأنواع التالية:

١ ـــ القصعات والزبادي ذات الجوانب الدائرية أو المستقيمة أو المنحنية

٢ ـــ الكؤوس والمزهريات

٣ ـــ جرار الطبخ ذات الحواف المائلة للخارج أو الدائرية أو المنحنية للخارج بزاوية

٤ ـــ الجرار التجارية الكنعانية ذات القواعد المقصوصة.
٥ ـــ جرار التخزين
٦ ـــ الجرار المزخرفة بأشكال هندسية وإطارات بداخلها رسومات حيوانات وطيور وأشجار نخيل
٧ ـــ الأباريق الكبيرة
٨ ـــ الأباريق الصغيرة والمكاييل
٩ ـــ الأباريق المخروطية الشكل
١٠ ـــ الأواني الواسعة المخروطية الشكل
١١ ـــ مطرات الحجاج
١٢ ـــ الأسرجة الواسعة العميقة
١٣ ـــ الحق الفخاري
١٤ ـــ الفخار القبرصي والمايسني المستورد

و- عادات الدفن:

كان سكان فلسطين الكنعانيين في العصر البرونزي الحديث يدفنون موتاهم في الكهوف الطبيعية التي تحتويها مناطقهم الجبلية أو في قبور محفورة في الصخر وهي دائرية غير منتظمة الشكل حيث تدفن مع الميت ممتلكاته الشخصية من سلاح وكساء وغيره[٦٨]. وكانت هذه القبور رحبة واسعة تمتلئ بالحاجات الشخصية للموت لاعتقاد الكنعانيين بأنها سوف تستخدم في الحياة الآخرة بعد الموت.

كما اعتقد الكنعانيون العادة المصرية في دفن الموتى وهي الدفن في توابيت فخارية والتي يوجد على غطائها في القسم العلوي من التابوت ملامح بشرية، ومن أهم أمثلة على ذلك تلك التوابيت الفخارية التي وجدت في تل الدوير (لاخيش) والتي تعود للقرن الثالث عشر ق.م وهي من صنع محلي وعلى إحداها كتابات هيروغليفية[٧٠].

الهوامش

1- R. Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land, (Jerusalem: 1969) , p. 124.

2 - W.F. Albright, From The Stone Age to the Christianty, (New York), p. 202.

3 - Albright, 1957, p.206.

4 - K.M. Kenyon, Archaelogy of Palestine, (London: 1956), pp. 206-207

5 - Albright, 1957, pp. 206- 207.

6 - W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, (London: 1956), pp. 99- 100.

7 - J.b. Pritchard (ed.)

8 - Pritchard 1969, pp. 253- 254.

9 -Kenyon, 1970: p. 206.

10 - M.J.Miller, The Old Testment and the Historians.

11 - Miller 1976 : pp 5-6.

12 - Pritchard 1969 : pp. 482 - 483.

13 - G. W. Anderson, The History and Religion of Ancient Israel, (Oxford : 1966), p. 26.

14 - Miller 1976 : p.6.

15 - M. Burrows, What Mean These Stones? (London 1957), pp. 94- 95.

16 - Albright 1957, pp. 208-209

١٧ ـــ احمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ، (دمشق: ١٩٧٥)، ص ٤٩٨.

١٨ ـــ جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، (القـــاهرة: ١٩٥٠)، ص ٢٠٢ ـــ ٢٠٤.

19 - W. G. Burgh, The Legacy of The Ancient World, (London:1957), p. 51

Miller 1976: p. 84; Kenyon 1970:p.206; Anderson 1966: p.25; D. Harden, *The Phoenicians*, (New York: 1962, p.50

20 - Pritchard 1959 (ed.): pp. 376-378.

21 - L.W.B. Ress, "The Route of the Exodus" PEQS (1948- 49), p. 48.

22 - K. M. Kenyon, Digging Tp Jericho, (London :1957), p. 242.

سفر العدد ٣٢ : ١٣

23 - Burgh 1957: p. 51.

26 - K. M. Kenyon, Amorites and Cannanites, (London: 1968), pp 1-3

سفر العدد ١٣ : ٢٩، سفر يشوع ١:٥، ١٠:٦

27 - G.E. Wright, Biblical Archaeology, (London: 1957), p.83.

٢٨ - لم يكن جميع هؤلاء الحكام المحليين يشرف عليهم مفوض مصـــــري، وانمـــا بعضهم.

29 - Albright 1957: p. 207.

30 - Wright 1957 : pp. 83 - 86.

31 - D.C. Baramki, The Art and Architecture of Ancient Palestine, (Beirut : 1969), p. 103.

32 - Albright 1956, p.112.

33 - Kenyon 1957: p.277.

34 - Kenyon 1957: pp. 258-159.

35 - Kenyon 1957: p. 262.

36 - H.J. Franken, "The Other Side of Jordan" ADAJ" (1970), pp. 5-10.

٣٧ - د. عدنان الحديدي، الآثار في خدمة السياسية"، حولية دائرة الآثار العامـــة الأردنية، مجلد ٢٢ (١٩٧٧ -١٩٧٨) ، ص ٩.

38 - R.S.Lamon and G.M. Shipton, Megidden I. Seasons of 1925 - 1934,

39 - R. W. Hamilton, " Excavations at Tell Abu Hawam" , QDAP, IV Nos 1-2 (1934), pp. 1-69.

40 - W.G. Dever; H.D. Lance and G.E. Wright, Gezer I , (Jerusalem): 1970).

41 - M. Dothan, " Ashdod II-III, The Second and Third Seasons of Excavations 1965, Sounding 1967", Atiqut, IX -X (1971) , pp. 1- 222.

42 - Y.Yadin, et-al , Hazor I-II, (Jerusalem: 1958, 1960).

43 - Albright 1956: p. 96.

44 - Albright 1956: p. 96, 94.

45 - Albright 1956: p. 96.

46 - Shalum Paul M. and W.G. Dever, Biblical Archaeology, (Jerusalem: 1973), Fig. 27.

47 - Paul M. 1973 : Fi49.

48 - Albright 1956: p. 101

49 - Paul M. 1973: p. 77, Fig. 44.

50 - Albright 1956: p. 103

51 - Albright 1956: pp. 103 - 104; Paul M. 1973: p.76, Fig. 43.

52 - Albright 1956: p.104.

53 - Kenyon 1970: pp. 214- 215, p 1-44.

54 - Albright 1956: pp.104- 106.

55 - Albright 1956: Fig. 27; 1-5.

56 - J. B. Pritchanrd (ed.), The Ancient Near East, Anathology of Texts and Pictures, (Princeton: 1958), Fig. 135.

57 - Dever et. al. 1970: Pl- 25: A., B.

58 - Yadin et. al. 1958: Pl. XXX, 1,2 and 3.

59 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 11.

60 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 10.

61 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 29.

62 - Pritchard (1958 (ed.) : Figs. 30 -31 and 48.

63 - Albright 1956 : p. 108. Pl. 28

64 - Kenyon 1970 : p. 214, P1. 43.

65 - Albright 1956 : pp. 101 - 103 , Figs. 24 - 25.

66 - Amiran 1969 : pp.124 - 140; Kenyon 1970: pp. 200- 202.

67 - Kenyon 1970: pp. 200 - 202.

68 - Baramki 1969 : p. 101.

69 - John Gray, Archaeology and the Old Testament World, (London : 1962), p. 178.

70 - O. Tufnell et. al . Lachish IV, The Bronze Age, (London : 1958), pp. 36, 31 - 132, 248 - 249, Pls. 45 -46.

المراجع

١ ـــ التوراة

٢ ـــ أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق: ١٩٧٥.

٣ ـــ جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري. القاهرة: ١٩٥٠.

٤ ـــ عدنان الحديدي ، الآثار في خدمة السياسة، حولية دائرة الآثار العامة الأردنية، مجلد ٢٢ (١٩٧٧ــ١٩٧٨)،ص٦ــ١٦

5 - Albright, W.F. The Archaeology of Palestine, London: 1956.

6 — From The Stone Age to the Christianty, New York ١٩٥٧ ,

7 — Amiran, R. Ancient Pottery of the Holy Land, Jerusalem,1969

8 — Anderson, G.C. The History and Religion of Ancient Israel, Oxford :1966

9 — Baramki, D.C., The Art and Architecture of Ancient Palestine, Beirut : 1969

10 — Burgh, W.G. ,The Legacy of The Ancient World, London:1957

11 — Burrows, M., What Mean These Stones? London 1957

12 — Dever; W.G. et. al, Gezer I , Jerusalem, 1970

13 — Dothan, M." Ashdod II-III, The Second and Third Seasons of Excavations 1965, Sounding in 1967, Atiqut, IX -X, 1971

14 — Franken, H.J.The Other Side of Jordan" ADAJ" 1970

15 — Gray, John, Archaeology and the Old Testament World, London : 1962

16 — Hamilton, R.W., Excavations at Tell Abu Hawam" , QDAP, IV Nos 1-2 (1934

17 — Harden, D. The Phoenicians, New York, 1962

18 — Kenyon, K.M. Digging Up Hericho, London, 1957

19 — 1968, Amorites and Canaanites, London,

20 - 1970, Archaeology in The Holy Land, London

21 — Lamon and G.M. Shipton, Megidden I. Seasons of 1925 - 1934, Chigaco, 1939.

22 — Maxwell, J. , The Old Testment and the Historians, Philadelphia, 1976.

23 — Paul M., Shamlum and W.G. Dever, Biblical Archaeology, Jerusalem: 1973

24 — Pritchanrd, J.B. (ed.), The Ancient Near East, Anathology of Texts and Pictures, Princeton: 1958

25 — 1969 , The Ancient Near Eastren Texts Relating to the Old Testament, Princeton

26 — Ress, L.W.B. "The Route of the Exodus" PEQS , 1948- 49

27 — Tufnell O. et. al . Lachish IV, The Bronze Age, London , 1958

28 — Wright, G.E., Biblical Archaeology, London, 1957

29 — Yadin, Y., et-al , Hazor I-II, (Jerusalem: 1958, 1960

فلسطين في العصور الإسلامية

بقلم الدكتورشاكر مصطفى

مقدمة (عروبة فلسطين قبل الإسلام)

١ ــ فلسطين والفتح

أ ــ فلسطين قبل الفتح

ب ــ الفتح العربي.

ج ــ بدايات العصر الإسلامي.

٢ ــ فلسطين في العصر الأموي.

أ ــ الحرية الدينية الكاملة.

ب ــ التوطن العربي السلمي.

ج ــ العمران.

د ــ الإسهام العلمي.

هـ ــ الاستقرار والتطور الاقتصادي.

٣ ــ فلسطين أيام العباسيين.

أولاً: فلسطين الولاية العباسية.

أ – السياسة العباسية (تعظيم القدس. المصالح العباسية. الأمن. التعاون).

ب– أوضاع فلسطين العامة (النكبات الطبيعية. سوء الخراج. انقطاع التجارة. ضعف الزراعة. الثورات).

ثانياً : فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية.

أ ــ التطور السكاني.

ب ــ الدين والمذهب.

ج ــ الحياة السياسية.

د ــ التطور الاقتصادي.

هـ ــ مراكز العلم.

٤ ــ فلسطين في العصر الفاطمي والسلجوقي.

أ ــ النكبات الطبيعية.

ب ــ الوضع السكاني.

ج ــ الازدواج المذهبي والحركة العلمية.

د ــ التدهور الاقتصادي.

هـ ــ سياسة الحكام.

و ــ الثورات المحلية.

ز ــ هجمات القوى الطامعة.

٥ ــ فلسطين بين الغزو الفرنجي (الصليبي) والعصر الأيوبي:

أ ــ الغزو الفرنجي الصليبي لفلسطين.

ب ــ المقاومة الإسلامية.

ج ــ تحرير فلسطين من الفرنجة.

د ــ الأيوبيون وفلسطين.

أولاً: النشاط الاقتصادي.

ثانياً: النشاط العلمي.

ثالثاً: النشاط العمراني.

٦ ــ فلسطين في ظل المماليك والعثمانيين.

أ ــ تغير البنى الاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية.

ب ــ التطور السكاني.

ج ــ الطوائف الدينية.

د ــ الحكم والإدارة:

هـ ــ العلماء والعلم.

و ــ الأوضاع الاقتصادية:

ز ــ الآثار العمرانية.

خاتمة.

عروبة فلسطين قبل الإسلام

هذا البلد الذي يتفق نصف سكان الأرض على تقديس ترابه كما يسكنونه في قلوبهم، عرف العرب سكاناً وأهلاً قبل قرون طويلة من معرفته لهم مسلمين فاتحين في القرن السابع الميلادي. قبائلهم المتلاحقة إلى أرض فلسطين قبل ذلك، لغتهم بلهجاتها العديدة مدنهم وقراهم، مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية، رؤاهم وعقائدهم الدينية، هي التي صاغت تراث فلسطين الحضاري قروناً عديدة عديدة قبل الإسلام. آخر من وفد منهم واستقر فيما بين عصر السيد المسيح وعصر الرسول الأعظم كان الضحاغمة والثموديون، وبعدهم الأنباط، ثم جاء بنو حذام ولخم وعاملة وبنو القين وكلب وقضاعة وبنو ذبيان وعذرة حتى جاء الغساسنة... هذه الجماعات العربية المتوالية كانت الدماء المتصلة التي وطدت عروبة تلك الأرض المقدسة قبل إسلامها وكانت تزحف باستمرار من اليمن والحجاز ومن بادية الشام لتنتشر في جنوب فلسطين أو على طول وادي الأردن ثم توغل في الريف الفلسطيني الخصب.

وبالرغم من أن الدوافع الأساسية لهذا التحرك العربي من الجنوب والشرق باتجاه الشمال والغرب كانت دوافع اقتصادية لعبت الدور الأساسي سنوات المحل والأحداث الطبيعية والتكاثر الديمغرافي ومغريات الأرض الخصبة وطرق التجارة وجاذبية المراكز الحضرية إلا أن القرابة الاثنولوجية كانت بدورها بين العوامل الأساسية لأنها كانت تجعل التوغل العربي المتزايد في فلسطين أكثر فأكثر سهولة وإغراء. وكلما زادت كثافة الجموع العربية كانت عملية التوغل تصبح أكثر سلمية وأسهل انسجاماً واندماجاً مع المجموع السكاني. وإذا كانت المحاور التي تحركت عليها هذه الهجرات العربية هي محاور الطرق التجارية نفسها وكانت مراكز تجمعها هي عقد طرق المواصلات ذاتها (مثل غزة والبتراء وبصرى ومؤتة وأيلة وأذرعات) وكانت الأعمال التي مارستها فيما بين الوصول والاستقرار النهائي هي الأعمال والخدمات التجارية من حراسة قوافل وتأجير ركائب ونقل وإيواء وتمويل... إذا كان ذلك كله فإن الجموع العربية الجديدة كانت تتحول بالتدريج إلى الاستقرار الزراعي وتندمج في خلايا المجتمع الريفي القروي القديم لتشكل جزءً لا يتجزأ منه.

الملاحظة الهامة هنا أن هذا التحرك العربي المستمر لسكنى فلسطين كان يزيد باستمرار في انفصام المجموعة السكانية الأصلية في فلسطين (من آراميين وكنعانيين وعرب) عن المجموعة الحاكمة من الروم وبقايا الرومان. فبالرغم من بعض التمازج الثقافي

والاثنولوجي بين المجموعتين، فقد كان الانفصال واضحاً بينهما في اللغة والكتابة والتراث الثقافي، فللسكان اللغة الآرامية وتراثها، وللحكام الإغريقية وما تحمل من الماضي العلمي والفلسفي. كما هو واضح في السكنى، فلكل منهما مدنه الخاصة، أو أحيائه في المدن المشتركة. وفي الوظيفة والبنى الاجتماعية ـــ الاقتصادية فللسكان الزراعة والحرف والتجارة وللروم الإدارة والجندية. وإذا كانت الحضارة الإغريقية الرومانية قد انتصرت على الشرق بالعلوم والفلسفة فقد انتصر الشرق عليها بالروح حين تبنت دول الروم البيزنطية الديانة المسيحية.

وقد انتهى الحكم الرومي (اليوناني الروماني) كله في فلسطين والشرق العربي بحادث تاريخي انقلابي تم في سنة ٦٣٣ م هو الفتح الإسلامي الذي أنهى فترة الازدواج الحضاري في الشرق العربي وأنهى في الوقت نفسه عصر القلق والحكم الأجنبي الذي كانت تعيشه المجتمعات العربية المستقرة في ظل الحضارة اليونانية ـــ الرومانية والسيطرة الرومية الدخيلة.

وإذا كانت الفترة التي امتدت منذ فتوح الإسكندر (أواخر القرن الرابع ق.م) حتى الفتوح الإسلامية (في القرن السابع) قد حاولت توجيه الشرق ـــ العربي نحو الغرب وما وراء البحر فإن تتابع الزحف العربي المستمر من البوادي العربية إلى الأطراف الخصبة والذي بلغ لحظته الحاسمة في الفتح العزبي الإسلامي قد حفظ وثبت في فلسطين (كما فعل في الشام كله وفي العراق ومصر) هويتها الحضارية العريقة وردها نهائياً نحو الشرق وإلى العرب. وبالرغم من أن الشرق العربي (والشام خاصة) كان مهد المسيحية التي تبناها الغرب كله من خلال روما وبيزنطة من جهة، وبالرغم من أن بلاد الشرق (ومنه فلسطين) قد ارتبطت بهاتين العاصمتين حضارياً وسياسياً قروناً طويلة، فإن السرعة التي قطع بها هذا الشرق صلاته معهما ليرتبط بمكة والمدينة، بعد الفتح العربي الإسلامي، قد برهنت على أن الفترة اليونانية الرومانية كانت ظاهرة دخيلة على هذه البقاع العربية وفترة عارضة في مسيرة حضارة عريقة واحدة ومتطورة لم تنقطع رغم الحكم السياسي الدخيل. وقد جاء الفتح العربي الإسلامي ليضع نقطة الختام لتلك الفترة الدخيلة العارضة.

١ ــ فلسطين والفتح

أ) قبيل الفتح:

قبيل أن يبدأ الفتح بقليل من السنين كانت عدة أحداث سياسية وسكانية ودينية وإدارية في فلسطين (والشام) قد جاءت تعمل لمصلحة هذا الفتح:

فأما من الناحية السياسية فقد كان السلاف يرهقون إمبراطورية الروم البيزنطية بالحروب منذ سنة ٥٩٢ ثم ازدواج الخطر عليها بتحرك الفرس الساسانيين ضدها منذ سنة ٦٠٥، وقد استطاع هؤلاء، رغم الجهود التي بذلها الإمبراطور هرقل أن يدخلوا الأناضول وسورية معاً سنة ٦١٣، ثم أن يحتلوا دمشق ثم القدس ويشعلوا فيها الحرائق ويدمروا المدن ويستولوا بين هذا وذاك على خشبة الصليب. ثم تحركوا سنة ٦١٩ فاحتلوا مصر.. وإذا استطاع هرقل بعد سنوات من القتال أن ينتصر سنة ٦٢٧ ويسترد الشام ومصر ويحتفل الاحتفال الباذخ في القدس نفسها بإعادة خشبة الصليب إلى المدينة المقدسة (أيلول سنة ٦٢٨) فإن قوى بيزنطة كانت قد استنفذت على نحو ما بهذه الأخطار والحروب الطويلة، كما أن فلسطين نفسها كانت قد دمرت عمرانياً واقتصادياً نتيجة هذه الحروب...

وأما من الناحية السكانية : فإن الغزو الفارسي قد ذهب في القدس وحدها بحوالي ٩٠ ألف ضحية كما هدم الأديرة والكنائس بما فيها من ثروات وأموال ونكل بالسكان أشد تنكيل حتى عدمت الأقوات وانتشر الجوع للدرجة التي أكل فيها الناس الجيف وجلود البهائم... وقد اشترك اليهود مع الفرس في ذلك كله، وكان لهم «اليد الطولى في عمليات الدمار والنهب السلب والقتل. وقد سبى الفرس كثيراً من نصارى البلاد فبادر اليهود إلى شراء عدد كبير من المسبيين يتراوح عددهم بين ٨٠ و٩٠ ألفاً وذبحوهم....»[1].

وبالرغم من أن الإدارة الفارسية عادت فعطفت على السكان وسمحت ببناء الكنائس وعودة الأسرى... وأنهت عملية استرضائهم بطرد اليهود من القدس، إلا أن القاعدة السكانية في فلسطين كانت على أي حال قد أصيبت بالكثير من الدمار.

وأما من الناحية الدينية : فإن الكنيسة في سورية التي كانت قد اتخذت لنفسها اللغة الآرامية لغة صلاة معبرة بذلك عن شخصيتها الذاتية مقابل الكنائس الأخرى التي اتخذت

---

[1] يوسف الدبس ــ تاريخ سورية، المجلد ٤، ج٢. ص٥٤٧.

اللغة اليونانية، عبرت عن هذه الشخصية مرة أخرى بتبنيها مذهباً خاصاً بها هو المذهب المونوفيستي أو اليعقوبي[٢] الذي رفضته السلطات البيزنطية وكان من نتيجة الصراع بين الطرفين أن غدا المجتمع السوري المسيحي معادياً من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة يرى في أي انهيار سياسي أو عسكري لها عقوبة إلهية مبررة.

كانت المونوفستية تعبيراً عن انفصال الحضارة السورية عن الفكر المسيحي الهلليني الذي تمثله إنطاكية وبيزنطة وروما معاً كما لم تكن الكنيسة في نظر السوريين — فيما يبدو — "مؤسسة دينية" ولكن تعبيراً عن عاطفة قومية وفنية "ضد الحكام الغرباء"[٣].

وأما من الناحية الإدارية: أخيراً فإن الحدود بين سورية الجنوبية والبادية كانت عملياً عاجزة الحراسة، فالنظام الروماني القديم الذي كان يصطنع بعض القوى البدوية على الحدود وينصبها للحماية كان قد انتهى منذ مطالع القرن السابع وانتهى معه الحكم الغساني حين قطعت بيزنطة إعاناتها المالية. والعمال العرب الذين نصبهم هرقل في فلسطين والحدود من أمثال امرئ القيس "دوق غزة والبحر الميت" وفروة بن عمرو النافري الجذامي في معان، لم يكونوا يستندون إلى قوى قبلية واسعة بل إلى قوى نظامية محدودة وقد سحبت هذه القوى لمواجهة الحروب مع الفرس، كما أن الإرهاق المالي والعسكري قد أديا إلى إهمال الحصون والمواقع الدفاعية المقابلة للبادية وإلى إكراه الرعايا على إعادة دفع الضرائب التي كانوا دفعوها للفرس أيام الاحتلال مما ملأهم بالمقت والنفور.

وقد كان هرقل منتهياً من احتفالاته بخشبة الصليب المقدس حين جرت غزوة بالقرب منه على موقع صغير في شرقي الأردن هو: مؤتة. ثلاث آلاف رجل كانوا قوام الغزوة و لم يعودوا من هجومهم هذا بشيء بل تركوا قائدهم زيد بن حارثة قتيلاً. وإذا لم يعر هرقل هذه الهجمة البدوية سنة ٦٢٩ أي التفات فقد كانت في الواقع مطلع المد العربي الإسلامي المقبل..

ب) وقائع الفتح العربي الإسلامي:

وقائع الفتح تتالت بالسرعة الخاطفة خلال سنوات ليست تعد شيئاً في عمر الأمم. فقد توفي الرسول (ص) بعد أن فرض نفوذ الإسلام عبر غزوة تبوك سنة ٦٣٠ في بعض المواقع شمالي الحجاز: أيلة ومقنا على البحر الأحمر واذرح والجرباء في البادية الأردنية..

---

[٢] مذهب الطبيعة الواحدة وينسب إلى يعقوب السروجي (البرادعي).

[٣] حتي — تاريخ سورية ولبنان. ج٢. ص١٤.

وبعد ثلاث سنوات كانت ثلاثة جيوش تدخل المنطقة نفسها ولا تزيد في عدد رجالها ــ مع الإمدادات التي رفدتها فيما بعد ــ عن ٢٤ ألف مجاهد عبر بعضهم وادي العربة ليهزم سرجيوس بطريق فلسطين ويقتله ويصبح سيد الجنوب الفلسطيني (عدا قيسارية) بينما ظهر خالد بن الوليد بغتة أمام أبواب بصرى وجعل المنطقة ما بين جنوب دمشق والحجاز في يد العرب. ولما انتصر الفاتحون على ما اجتمع من الجيوش البيزنطية في أجنادين بعد ذلك (تموز سنة ٦٣٤) كانت فلسطين كلها هي ثمن النصر. لأن القوى العربية طاردت الروم إلى بيسان ثم فحل ثم أخذت منهم دمشق (أيلول سنة ٦٣٥) ولاحقتهم إلى ما بعد حمص... ولما ارتد جيش الروم ردة واحدة يريد، عن طريق البقاع ثم الجولان، أن يقطع طريق العودة على هذه الجموع المندفعة مع ركض خيولها في سورية عادت القوى العربية فأذاقت الروم هزيمتهم التي أخرجتهم نهائياً من سورية: اليرموك (آب سنة ٦٣٦).

وفيما بين أجنادين واليرموك كانت القوى العربية تتوغل في أنحاء فلسطين وتستصفي المواقع من الجنوب إلى الشمال. القائد الأول الذي نصب ألوية العروبة والإسلام فوق مدنها هو عمرو بن العاص. وبينما كانت بقايا قوى الروم تنكمش إلى قيسارية والقدس وكان شرحبيل بن حسنة الكندي يفتح بيسان وطبرية، انطلق عمرو بن العاص إلى غزة يفتحها ثم ترك معاوية بن أبي سفيان على قيسارية ليستغل فراغ البلاد من الحاميات الرومية في الشمال فيفتح سبسطية ثم يمضي إلى نابلس فيفتحها بالأمان ويخترق أعلى وادي الأردن إلى مرجعيون ثم يعود فيستغل حالة الحصار المضروبة على القدس ليفتح مدن فلسطين الوسطى: اللد، بيت جبرين، ويبنى وعمواس ثم يافا على الساحل في ضربات متلاحقة انتهت بحصار ايلياء / القدس على يد عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح. وتركت فلسطين في أيدي العرب... في الوقت نفسه وعلى الطريقة نفسها كان الزحف العربي يجري فيما وراء فلسطين، واستصفى الفاتحون بلاد الشام الأخرى في سرعة خاطفة. ولم تشذ في المصير عن فلسطين التي أعطيت مدنها الأمان على الأنفس والأموال، سوى المدينتين اللتين تركزت فيهما قوى المقاومة: القدس لمكانها الديني من المسيحية وقيسارية لطابعها الإغريقي (وإن كان بها خلق من العرب)... صمدت القدس فترة ثم اشترطت كي تستسلم أن يأتيها أمير المؤمنين بنفسه وجاءها الخليفة عمر بن الخطاب بالفعل، بعد أن حضر مؤتمر الجابية قرب دمشق وكتب لبطريكها صفرونيوس ولأهلها عهداً مشهوراً في التاريخ باسم العهد العمري: «أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صلبها.. ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا

يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم.. فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم..». ودخل عمر المدينة فصلى (سنة ٦٣٨)، أما قيسارية فإن اتصالها بالبحر والروم أصحاب البحر أبقاها على المقاومة سنتين أخريين ثم سقطت سنة ٦٤٠... وثبتت منذ ذلك الوقت مسيرة فلسطين العربية في التاريخ إلى اليوم.

إن سرعة الفتح واستسلام البلاد السهل بعد المعارك الكبرى مع الروم. وهذا العهد العمري مع كتب الأمان الأخرى للمدن إنما تكشف كلها مدى الشعور بالقربى والتفاهم بين الجموع الفاتحة وأهل البلاد المفتوحة. الروم وحدهم قاوموا والروم وحدهم هزموا وطردوا بأقسى القتال وأما أهل البلاد وفيهم الأعداد الواسعة من العرب فالتقوا مع جماعة هي منهم في الأعراق وفي اللغة وأنماط الحياة، وليست بالبعيدة عنهم حتى في الدين... التكوينات العرقية والحضارية التي ينتمي إليها الطرفان كانت واحدة. ولهذا كانت عمليات اللقاء والاندماج على أبسط وأسرع أحوالها...

ج) بدايات العصر الإسلامي:

الواقع أن الشيء الأساسي الذي تغير في فلسطين وأهلها بعد الفتح هو هوية الحكام والنظام السياسي. حل الخليفة المقيم في دمشق محل الإمبراطور المقيم في القسطنطينية وصار الحكام عرباً والجند من العرب وهؤلاء وأولئك أقرب على أية حال إليهم من أولئك اليونان والرومان، ونتيجة لهذا وذاك تغيرت ثلاثة أمور أساسية:

ـــ المناخ السياسي والإداري الذي اتجه إلى الاطمئنان والانفتاح مع السياسة الإسلامية الجديدة.

ـــ العلاقة الاقتصادية مع الجزيرة العربية وما وراءها بعد أن أصبحت مع الشام وحدة سياسية واحدة.

ـــ التماثل الاجتماعي بعد أن اختفت البنى الاجتماعية الثنائية السابقة واتجه المجتمع إلى تماثله التقليدي العريق.

وأما الضرائب فلم يزد عليها سوى تعميم ضريبة الرأس على جميع غير المسلمين باسم الجزية. وأما جهاز الإدارة فبقي على حاله بكتابه وسجلاته ونظمه ورجاله من أهل البلاد. فالعرب الجدد تركوا هذا العمل "الفني" لمن سبقهم من القدماء من الموجات النبطية والغسانية والجذامية وغيرها، ولمن سبق هؤلاء من بقايا الآراميين والكنعانيين واليونان المتوطنين. ولقد بقيت سجلاتهم فترة تزيد عن نصف قرن باليونانية ثم عربت مع عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين...

الأمران الجديدان اللذان جاء بهما الفاتحون العرب واللذان كانا نواة الحضارة الإسلامية المقبلة: القرآن واللغة العربية. ولئن حددا مصير فلسطين العربي الإسلامي فإنه لم يجبر عليهما أحد أبداً. لقد أبقاهما الفاتحون لأنفسهم ديناً وأداة تفاهم، كما بذلوهما لمن شاء أن يقبلهما من الناس، عن قناعة ومصلحة أو طمع أو رضى. ولم تتم عمليتا الإسلام والتعريب إلا في بطء وعلى هون في فلسطين وقد امتدتا على مدى لا يقل عن قرنين حتى تمت الغلبة لهما. ولئن سبق الدين اللغة في الانتشار فإن اللغة انتصرت في النهاية نصراً كاملاً، وأما الدين فلم يلغ وجود المسيحية الذي ظل واضحاً، ولا سيما في المواقع المقدسة والمرتبطة بتاريخها الديني كالناصرة والقدس وبيت لحم.

وكان السبيل الأساسي إلى هذا الانقلاب الثقافي والروحي في فلسطين (وفي الشام كله)نقاط اللقاء الكثيرة بين الإسلام وبين دين الناس المسيحي (والمونوفيستي خاصة) ولغة الناس اليومية الآرامية... فأما في الدين فإن الإسلام جاء «مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل»، ولا يرفض المسلمون نبوة الأنبياء ورسالتي موسى وعيسى. كما أنهم قدموا فلسطين والقدس في قلوبهم قبل أن يفتحوها، فإذا كانت مقدسة لدى اليهود والنصارى فإنها لدى هؤلاء الفاتحين أيضاً "أولى القبلتين" وثالث الحرمين، كما أنها موضع الإسراء والمعراج. وأما اللغة العربية فهي من الأسرة اللغوية ذاتها، بل هي أقرب الألسن إلى الآرامية، كما أن كتابتها التي كانت ناشئة وليدة في تلك الأوقات فإنما كانت تشتق في نوع خطوطها، من الخط النبطي الآرامي... وهكذا فإذا كانت لفلسطين مكانتها الخاصة في نفوس الفاتحين دون كل البلاد الأخرى التي فتحوها، فإن سكانها العرب كانوا معروفي الصلة بهم وكان الفاتحون يسمونهم "العرب الضاحية" "المستعربة"[1]. كما أن اللهجات

---

* كانت هذه الضريبة موجودة في العهد البيزنطي، ولكن كان قد تهرب منها سكان المدن والملاكون الكبار في الشام وبقيت على الفلاحين.

[1] انظر ابن منظور، لسان العرب. مادة عرب.

التي يتكلموها لم تكن غريبة على أسماعهم ولا تختلف في شيء كثير منذ الآرامية حتى لهجات الجنوب اليمني عن ألسنتهم...

ومع كل هذا الوفاق، ونتيجة له، فقد عرفت فلسطين في الواقع عصراً جديداً في مسيرها التاريخية بعد الفتح العربي استمر على الأقل قرناً كاملاً حكمها خلاله الخلفاء الراشدون من المدينة والخلفاء الأمويون في دمشق... عمر بن الخطاب وحده، من الراشدين، هو الذي عرف فلسطين بعد الفتح، زارها مرتين على الأرجح، كانت أولاهما حين تسلم القدس سنة ١٥ هـ، ثم زارها في الأخرى مواسياً منظماً للإدارة بعد ثلاث سنوات وبعد أن ضرب القحط الحجاز وغيره فيما يسمى عام الرمادة، وانتشر الطاعون في الشام فأصاب جمرة المقاتلة العرب في فلسطين نفسها، وهو المعروف بطاعون عمواس، وقد هلك فيه أكبر القواد وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان..

على أن عمر بن الخطاب في الزيارتين قام بعدد من الأعمال التي تكشف عن النظرة المميزة التي كان ينظر بها العرب من خلالها إلى هذه المنطقة، فبعد العهد الذي منح للقدس وغيرها أمر ببناء مسجد عند الصخرة المقدسة أو بالقرب منها، وقد رأى ذاك المسجد الأول وتحدث عنه بعض السواح الغربيين الذين زاروا القدس زمن معاوية[1] أو بعده بقليل. ونظم عمر الإدارة العسكرية ونظم نزول العرب الفاتحين في فلسطين حين فرقها "على رجلين فجعل علقمة بن حكيم (الكناني) على نصفها (الشمالي) وأنزله الرملة (وهي معسكر) وعلقمة بن مجزر على نصفها (الجنوبي) وأنزله إيلياء، فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه...". ويمكن أن نرى في هذه الأعمال العمرية الخطوط الأولى والأساسية للسياسة التي اتبعها الأمويون، بعد ذلك تجاه فلسطين.

---

[1] كالسائح أركولف الفرنسي، وبعده بقليل زارها السائح المؤرخ جيروم (نقلاً عن عارف العارف ـــ المفصل في تاريخ القدس، ص٩٨).

٢ ــ فلسطين في العصر الأموي

الخلفاء الأمويون الأربعة عشر، الذين توالوا على العرش واحداً وتسعين سنة (١٤ ــ ١٣٢/ ٦٦٠) كان أطولهم عهداً وأبرزهم في الوقت نفسه ثلاثة: معاوية وعبد الملك وهشام. حكم كل منهم عشرين سنة أو تزيد. ويعد لهم في الشأن، وإن لم يكن بطول العهد، الوليد بن عبد الملك، الذي حكم عشر سنوات. وأولهم معاوية سبق خلافته بعشرين سنة من الولاية في الشام كله. وقد جعل من ولايته القاعدة التي استند إليها في الصراع مع الإمام علي للوصول إلى الخلافة، وحين اتفق الطرفان على التحكيم اختارا موضعاً من شرقي الأردن للقاء الحكمين هو "اذرح". أما حين قرر معاوية إعلان خلافته فلم يجد مكاناً يعدل في نظره مكانة المدينة أو مكة وقدسيتهما الدينية في قلوب المؤمنين إلا القدس، فذهب إليها وأعلن فيها خلافته وبايعه الناس من بعد.

وعرفت فلسطين بعد ذلك أحد عصورها الذهبية، فقد أضحت جندين من أجناد الشام الأربعة، التي هي أركان العرش الأموي. فللشمال جند حمص وجند دمشق وللجنوب جند الأردن وقصبته طبرية ومن مدنه صور، عكا، اللجون، بيسان، أذرعات، وجند فلسطين وقصبته الرملة. ومن مدنه بيت المقدس وبيت جبرين، غزة، عسقلان، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان. وأما المنطقة الباقية فهي أرض الشراة الممتدة من مؤاب إلى معان واذرح وأيلة وتبوك.

وكما أضحت فلسطين إحدى المناطق المركزية الهامة في إمبراطورية تمتد من الأطلسي حتى نهر السند. كذلك فقد غدت السند الديني والموقع الأقدس في أعين الخلفاء، بعد أن تقطعت جذورهم وركائزهم في المدينة ومكة وكسبوا في أكثر من مناسبة عداءهما وحاربوهما وحاربتاهما مرات. وهكذا عاشت فلسطين قرناً ساد فيه:

١) **الحرية الدينية الكاملة** : فالجمهرة العظمى من السكان كانت على المسيحية، وهي لم تكن مطمئنة فقط إلى عدم إجبارها على الإسلام، ولكنها اطمأنت إلى أمر آخر طالما قاست منه في العهد البيزنطي، هو التدخل الرسمي الحكومي في أمر العقيدة، والصراع مع التوجيهات الدينية الإمبراطورية ومع من تختاره الدولة لرئاسة الكنيسة. ذلك الاضطراب، أو الصراع المقيت القديم مع السلطات الرسمية انتهى، وترك الأمويون لهم اختيار أساقفة منهم. ونجت فلسطين خاصة من الأزمة الحادة التي أثارها الإمبراطور ليو الأيسوري بإعلانه اللاأيقونية، والتي استمرت ترهق بيزنطة أكثر من قرن، ومع أن المباديء الاسلامية تحبذ اللاأيقونية وتتفق معها فإن أكبر لاهوتي مسيحي دافع عن

الأيقونات، عاش في ظل الخلفاء الأمويين وتمتع بصداقتهم وناقش المسلمين في القضاء والقدر، وهو يوحنا الدمشقي، الذي قضى أيامه في دمشق، وقضى الشطر الأخير من حياته في دير القديس سابا قرب القدس (سنة ٦٧٠ ــ ٧٤٩). وإذا كان هذا يدل على مدى الحرية والنشاط الفكري الذي تمتع به المسيحيون في الشام (وغيره) في ظل الأمويين، فلقد يدل على هذا وذاك أيضاً أن الفترة الأموية نفسها أرسلت إلى روما من سورية خمسة بابوات توالوا على العرش البابوي[1]. وقد زار فلسطين في العهد الأموي حجاج من أوروبا كتبوا عن رحلتهم، ومنهم أركولف الغالي، الذي حج زمن معاوية وويليبالد السكسوني، الذي حج زمن هشام. وقد تحدث الاثنان عن القدس الملأى بالبيع والكنائس ذات التزيينات الرائعة بقناديلها التي لا تحصى من الذهب والفضة، وعن السوق التي تقام سنوياً في عيد الصليب[2].

إن هذه الحرية الدينية لم تؤخر عملية التحول للإسلام فقط، ولكنها حافظت على الجماعات الذمية القديمة ومكنتها من البقاء عبر القرون. المرة الوحيدة التي عومل فيها المسيحيون بالشدة إنما كانت لسبب سياسي: فقد أجبروا على اللغة العربية وحدد تنقلهم إلا بجواز مسبق، ودفع الرهبان الجزية، وإنما كان ذلك لرفضهم معونة الوليد بن عبد الملك على فتح القسطنطينية[3].

٢) **التوطن العربي السلمي في البلاد** : فقد ألغى الفتح تلك الحدود والحصون والحاميات الصحراوية بين البادية وفلسطين وجعلها أرضاً مفتوحة لأفواج بعد أفواج من "الجالية" العربية. وإذا كانت أوائل الجماعات في التوطن هي من الجنود الذين أنزلهم عمر منازلهم في الرملة وطبريا، أو أنزلهم معاوية في عسقلان وقيسارية، وقد ذهب بمعظم الأوائل طاعون عمواس، وطرد الروم ذات مرة الآخرين من قيسارية، إلا أن المدد البدوي العربي كان متصلاً بشكل يعوض كل خسارة في الطاعون أو القتال، وإذا انتعشت العناصر السكانية القديمة (الآرامية ــ الكنعانية) بهذا المدد وتقوت على بقايا العناصر الأجنبية اليونانية، فإنها في الوقت نفسه بدأت مسيرة الاستعراب البطيء. أما العناصر العربية فيبدو أن القبائل اليمنية السابقة للإسلام من مثل لخم وجذام وعاملة والأزد قد

---

[1] هم يوحنا الخامس (٦٨٥ ــ ٦٨٦). سرجيوس (٦٨٧ ــ ٧٠١). سيسينيوس (٧٠٨). قسطنطين (٧٠٨ ــ ٧١٥). غريغوار الثالث (٧٣١ ــ ٧٤١).

[2] انظر .H. LAMMENS, LA SYRIE (Beyrouth 1921) I. P. 114

[3] تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية لخليل ابراهيم قزاقيا. ص ٥٨. (نقلاً عن عارف العارف ــ المفصل في تاريخ القدس، ص١١٦).

تكاملت بطونها وتقوت بعد الفتح بأخرى من مثل حمير وهمدان وطي ومدحج، فكان شيخ تلك القبائل أمثال ثابت بن نعيم والحكم بن ضبعان زعماء فلسطين أواخر العهد الأموي، في الوقت الذي كانت فيه قبائل كلب تتوسع ويزحف زاحفها من بوادي تدمر ودومة الجندل باتجاه بادية فلسطين وأراضيها، كما تكثر أعدادها وتتكاثف في حوران والبقاع وشمال فلسطين.

وقد أضيفت إلى هذه الجموع اليمانية السابقة واللاحقة جموع قيسية من عرب الشمال بعضها قرشي وبعض من كنانة وثقيف وعدي وربيعة وحنيفة، وقد نزل هؤلاء وأولئك في البلاد جنوداً في معسكرات، ثم كانت المعسكرات تفرغ تدريجياً بانتقال من فيها إلى المدن والقرى. وهكذا مثلاً فرغت الجابية وعمواس والرملة وكان الجند ينتقلون دوماً مع أهلهم وذراريهم ويستوطنون في المنازل التي يقطعهم إياها الخلفاء والولاة، وتقدر أعدادهم في فلسطين مع الذراري بحوالي ٤٠٠ ألف[1]، وقد يكونون أكثر بكثير بما كان يرفدهم دوماً من "الجالية" ويعوض عن الراحلين لجهات القتال. وقد تداخلت المنازل القيسية باليمانية في كل محلة، وإن ظلت الكثرة العددية للجماعات اليمانية، وبخاصة لقبائل كلب، التي نجدها في نهاية القرن الثاني قد غلبت في فلسطين، حتى لقد كانت جيوش الشام، مرة عند الجزيرة فصاح صائحها: «يا معشر كلب.. شامكم شامكم. داركم الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري (أي من الجزيرة).. ثم سار وسار معه عامة أهل الشام»[2]. على أن العصبية القبلية ما بين قيس ويمن قد مزقت هذه الجماعة العربية وأثارت بينها النزاع الدموي، وبعض أسباب العصبية سياسي، إلا أن جانبها الآخر والأهم اقتصادي يتصل بالزحام على النزول في الأماكن الأكثر خصباً، وتملك الأمراء الأمويين وأشراف القبائل للقرى الغنية وإدارتها بالوكلاء وضيق الأراضي بالآخرين وبالقادمين الجدد... وقد أخرت هذه العصبية عملية الاستعراب والإسلام وحصرتها مدة طويلة في مناطق المدن خاصة والقرى المجاورة لها وفي الثغور. وإذا كان التكاثر السكاني المتصل في فلسطين قد دفعها إلى الفتن أواخر العصر الأموي، كما أورثتها الإصابة ببعض الأوبئة أكثر من مرة في تلك الفترة، فإنه قد دفع هذه المجموعات

---

(1) الطبري. ج٢. ص ٤٢٧. (٣/٨٤٤ — ٨٤٥).

(2) حتي — تاريخ سورية ولبنان. ج٢. ص٩٦. يجعل عدد المسلمين في سورية كلها في القرن الأول حوالي ٢٠٠ ألف، معتمداً على أن جند حمص أيام مروان بن الحكم بلغ ٢٠ ألفاً، وأن جند دمشق أيام الوليد الأول كان ٤٥ ألفاً. وهذه الأرقام لا تمثل في الواقع أفراداً وإنما تمثل أسراً، فالجندي كان يتحرك مع عائلته. وأجناد الشام الأربعة (ثم الخمسة) كانت على الأرجح لا تقل عن ٢٠٠ ألف أسرة.

العربية إلى التوغل والانتشار المتزايد في الريف والعمل في الزراعة وإلى النقلة بأنفسهم من ملاكين مستثمرين، ومقاتلة متمركزين في بقاع محددة، إلى مزارعين يزاولون الزراعة ويستثمرون الأرض وينظمون فيها الري ويزيدون اتساع القرى ويحيون الموات.

٣) **العمران**: فقد صرف الأمويون جهدهم لجعل المنطقة ما بين دمشق وجنوب الشام جنتهم المصطفاة، ولعله ما من عهد في الإسلام ــ عدا المملوكي ــ منح فلسطين من العناية ما منحها العهد الأموي، الذي أعطاها أجمل آثارها، وخاصة في القدس لمكانتها الدينية، ولأن للأمويين أسباهم في إبراز تلك المكانة. وعبد الملك بن مروان بادئ تلك الحركة العمرانية الواسعة، حين أعطى القدس واحداً من أروع أبنية الإسلام: قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ[1]. وشرع ببناء المسجد الأقصى، الذي أتمه ابنه الوليد. ويبدو أن الأمويين أقاموا عدداً من القصور في المدينة، فقد كشفت الحفريات الحديثة سنة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ وراء الزاوية الجنوبية الغربية للأقصى عن أربعة قصور أموية مسورة غنية بالزخارف بعضها من بناء الوليد. وأرض الشوارع الفاصلة بينها وبين المسجد مبلطة بالحجارة. كما بنى الأمويون أسوار القدس وعكا، وشيدوا في الخليل الحرم الإبراهيمي، فكان المسجد الرابع في الإسلام، وربما كان ذلك في عهد عبد الملك، الذي بنى أسوار عسقلان أيضاً وحصنها ورمم قيسارية حين هاجمها الروم من البحر، وهدموا مسجدها، فأعاد بناءه وشحنها بالرجال وأقطعها الروابط. وأهم ما تم بعد عبد الملك في فلسطين بناء مدينة الرملة رابع مدن الإسلام العظيمة الباقية، وكانت معسكراً منذ العهد العمري، وحين ولى الولي بن عبد الملك أخاه سليمان جند فلسطين أحدث مدينة الرملة ومصرها وكان أول ما بني منها قصره والدار التي (كانت) تعرف بدار الصباغين، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً. ثم اختط للمسجد (الجامع) خطة وبناه، فولى الخلافة قبل استتمامه، ثم بنى فيه بعد في خلافته ثم أتمه عمر بن عبد العزيز. ولما بنى سليمان لنفسه أذن للناس في البناء، فبنوا واحتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آباراً وولى النفقة على بنائها بالرملة وبناء مسجد الجماعة كاتباً له نصرانياً من أهل اللد يقال له البطريق بن ألنكا.. «وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان..». «وكانت اللد هي المدينة التي يترلها الناس قبل ذلك فأخذهم (سليمان) بهدم منازلهم والبنيان في الرملة وعاقب من امتنع عن ذلك وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا إلى الرملة». وقد أراد سليمان من ذلك أن يجعل الرملة عاصمته للخلافة أي عاصمة الدنيا. وقد فعل. ولكن ذلك لم

---

[1] انظر في وصفها المقدسي البشاري ــ أحسن التقاسيم. ص١٦٤ ــ ١٦٥. وانظر في بنائها البلاذري. فتوح ج١. ص١٧٠. واليعقوبي ج٢، ص٢٩٣.

يطل سوى أربع سنوات فقد مات سليمان وشيكاً ولكن الرملة من بعده ظلت عدة قرون قصبة فلسطين، بمركزها التجاري الزراعي وقراها ومعائشها ورباطاتها وحماماتها ومساجدها وشوارعها الواسعة الأنيقة وبخاصة جامعها الذي كان يسمى بالأبيض، وقد بناه هشام بن عبد الملك وبقي حتى القرن الرابع الهجري «أبهى جوامع الإسلام، ليس في جوامع الإسلام أكبر من محرابه، وليس بعد منبر منبر بيت المقدس أحسن من منبره»[1].. حتى هدمته الزلازل سنة ٤٢٥ ــ سنة ١٠٣٣. وعنى الأمويون وخاصة منهم عبد الملك بمد الطرق في فلسطين وربطها بدمشق ولدينا عدة أحجار أثرية من الصوى التي كانت مقامة على جوانب الطرق لتحديد الأميال عليها. وقد زرعت البلاد منذ وادي الغور حتى أقصى البادية بالقصور، يقضي بها الأمويون الربيع خاصة. وثمة أطلالها الكثير. فهناك قصر **الصنبرة** في الجنوب الغربي من بحيرة طبرية مشتى معاوية وعبد الملك، وقصر **خان المنية**، في الشمال الغربي من بحيرة طبرية للوليد بن عبد الملك، وقصر رائع في **خربة المفجر** شمال أريحا لهشام بن عبد الملك، وفيه التماثيل له ولجواريه والزخارف الدقيقة بالجص ولوحات الفسيفساء الرائعة. وهناك على سيف البادية قصران للوليد الثاني: قصر **المشتى** وقصر **الطوبة** جنوب عمان، وثلاثة قصور للوليد الأول: قصر **عمرة** المدهش في رسومه وزخارفه وقصر **الحرانة** في وادي السرحان وقصر **البرقع** وغيرها... ومن المؤسف أن الزلازل القاسية التي ضربت البلاد سنة ١٣٠/ ٧٤٧ م قد دمرت الكثير من هذا العمران. ثم ذهبت الدولة الأموية وعناية الأمويين بها فقط، ولكن تكشف أيضاً الخطوات الأولى والوطيدة للمدرسة المعمارية العربية كما تكشف في الوقت نفسه ما هو أهم وهو حرية تقبل العصر الأموي للتصوير والنحت واستخدامهما الواسع في تزيين القصور وتصوير الخليفة وحياته الخاصة، ومدى الحس المدني والحضاري الذي كانت تتمتع به مجموعات الأمراء الأمويين والشخصيات العربية الكبيرة التي سكنت فلسطين وأعادت عمرانها. وكلها أمور لم تظهر في أي مكان من العالم الإسلامي يومذاك ظهورها في فلسطين.

٤) **الإسهام العلمي**: ساهمت فلسطين، بوصفها من الأقاليم المركزية في الدولة الإسلامية، مع مصر والشام والحجاز والعراق، في نشوء الفكر الإسلامي. وشهدت هذه البلاد خطواته الأولى فيها كما في غيرها. وبينما كانت بقايا علوم الأوائل تبعث بآخر أضوائها في أمثال القديس يوحنا الدمشقي، رجل الفكر اللاهوتي المسيحي وماريانوس المقدسي، الذي ترجم عنه خالد بن يزيد ما ترجم من الكيمياء والطب والفيزياء، كانت العلوم الإسلامية بالمقابل تبدأ انطلاقتها على الخطوط نفسها التي سلكتها في الأمصار

---

(١)

الإسلامية الأخرى: فذلك العدد الواسع من الصحابة ومن التابعين وتابعي التابعين الذين نزلوا فلسطين، حملوا إليها بدورهم، القرآن والحديث وأوجدوا فيها علوم القراءة والتفسير، حسب المدرسة الشامية، ونما على أيديهم بعد ذلك علم الفقه وكان منهم القراء والمفسرون ورواة الحديث وأهل الفقه والقضاء والزهد.

وإذا لم يؤثر عن الصحابي الأقدم تميم الداري سوى الإقطاع الخيري الذي استمر عبر القرون الإسلامية موقوفاً على السابلة في الخليل، فإن فلسطين قد أطلعت في العصر الأموي عدداً من مؤسسي العلوم الإسلامية ومن هؤلاء الوليد بن عبد الرحمن الجرشي أول من أحدث الدراسة (قراءة القرآن) بفلسطين وعبادة بن الصامت والي عمر على القدس، وأول قاض بقلسطين، ورجاء بن حيوة الكندي الفقيه العالم جليس عمر بن عبد العزيز ثم رجاء بن أبي سلمة الفلسطيني وأبو زرعة بن زنباع الجذامي ويحيى بن عمرو السيباني ومالك بن دينار وكلهم من كبار المحدثين.

هذا إلى بعض الشعراء مثل أوس بن أوس الشاعر الصحابي الذي سكن بيت المقدس والرملة.

٥) **الاستقرار والتطور الاقتصادي** : لم تتمتع فلسطين في ظل الأمويين بالعمران فقط، ولكن تمتعت أيضاً بما نستطيع أن نسميه: السلم العربي. وإذا تجاوزنا بعض الحركات الثورية المحدودة، أواخر العهد الأموي فقد أعطى هذا السلم لفلسطين استقراراً لم تعرفه منذ القرن الثاني الميلادي، وارتاحت البلاد من الحروب ومرت العشرات من السنين دون أن ترى فلسطين أرضها متداولة بين الفاتحين، أو مهددة بالغزو على الحدود أو مسرحاً للقتال الداخلي السياسي أو الديني. وهكذا فتح المجال لازدهار الزراعة وحفرت الآبار وفتحت الأقنية وخاصة في منطقة الرملة والغور. وكان بنو أمية يخرجون لها النفقة كل سنة. ومنحت الاقطاعات للمرابطين فأحيوا الموات منها منذ أيام عمر وعثمان ثم في أيام معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام. وبعض هذه الاقطاعات كان مفرزاً من خراج العامة، أي مخففاً عليه الضريبة بسجلات من الخلفاء بقيت حتى العهد العباسي(١). وهكذا صارت حتى المناطق الجنوبية من فلسطين (كما شهدها الرحالة الغربي أركولف أيام معاوية) أرضاً خصبة مزهرة. ونشير هنا إلى أن القصور الأموية في غور الأردن وباديته لم تكن قصوراً للراحة ولكنها أيضاً مشاريع زراعية استثمارية أيضاً

---

(١) انظر البلاذري ــ فتوح البلدان (طبعة المنجد). ج١. ص١٧٠ ــ ١٧١.

بدليل ما بقي منها إلى اليوم من آثار الأقنية والصهاريج والمجاري ومنشآت الري الواسعة والسدود التي تهدف إلى إحياء الموات وليس إلى مجرد إقامة الحدائق.

وقد أصبحت فلسطين، في الوقت نفسه، ممراً للتجارة العالمية التي أعانت الطرق الأموية، مع الأمن، على ازدهارها. وبنيت أول دار عربية لصناعة السفن في عكا زمن معاوية سنة ٤٦ هـ وهناك بني أول أسطول عربي وجرى في الوقت ذاته ترميم ميناء صور، ثم جدد عبد الملك بن مروان الميناءين، ونقل ابنه هشام دار الصناعة كلها إلى صور[٢] فلما كان عهد مروان بن محمد أمر بإصلاح[٣] الميناءين فقام بذلك كاتبه على النفقات زياد بن أبي الورد الأشجعي وظل النقش الذي يذكر ذلك عدة قرون بعده. ويكمل صورة الازدهار ما كان يصب في فلسطين من الأموال نتيجة الأعمال العمرانية وعطاء الجند ومرور التجارة بوصف فلسطين قطعة من القاعدة الواسعة التي يستند إليها العرش الأموي.

على أن هذا الازدهار أصيب بأزمة قاسية في أواخر العهد الأموي نتيجة لطول الحرب الاقتصادية التي قامت بها الدولة الأموية وامبراطورية الروم، التي كان من آثارها توقف التجارة البحرية بين سواحل الشام ومصر من جهة والسواحل المقابلة لها في أرض الروم والبلقان بعد أن حصر الروم تبادلهم التجاري مع العرب في القسطنطينية وطرابزون (على البحر الأسود) خاصة. وهكذا ضعف الأسطول التجاري العربي ثم حطم في معركة بحرية سنة ١٢٩ ـــ ٧٤٧م. وكانت هذه الأزمة الاقتصادية أحد الأسباب في قيام الفتن والمنازعات في جنوب الشام أواخر العصر الأموي، بينما تسببت النكبات الطبيعية كالزلازل (سنة ١٣٠ مثلاً) والأوبئة، مع التكاثر في إضعاف القاعدة العربية التي يقوم عليها الحكم الأموي، وفي عدم قدرته، في النهاية، على التماسك.

---

(٢) البلاذري نفسه. ج١، ص١٤٠.

(٣) الجهشياري ـــ الوزراء والكتاب. ص٨٠.

٣ ــ فلسطين أيام العباسيين:

الانقلاب السريع الذي ذهب سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م بالعرش الأموي وأتى بدلاً منه بالعباسيين لم ينه فقط الرعاية الخاصة التي كانت تحظى بها فلسطين، ولكنه جعلها تدفع أحياناً ثمن أمويتها. وإذا كانت مذبحة كبار الأمويين قد جرت فيها على نهر أبي فطرس (قرب يافا) فإن هذه المذبحة لم تمتد إلى السكان في شيء ولكن امتد إليهم الإهمال العباسي، الذي شمل الشام كله، منذ انتقلت الخلافة إلى بني العباس، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد.

ودولة بني العباس الحقيقية لم تستمر أكثر من قرن، إلا قليلاً، وقد انتهت كسلطة سياسية بمصرع المتوكل سنة ٢٤٧/ ٨٦١، وإن استمرت كخلافة ومقام ديني أربعة قرون بعد ذلك. وقد ارتبطت فلسطين بالحكم العباسي في بغداد وسامراء حتى سنة ٣٥٨، ولكنها انقطعت عن التبعية المباشرة له قبل ذلك بأكثر من قرن وقد رافق هذا الانقطاع تطورات بشرية واقتصادية في فلسطين الفترة العباسية فيها تنقسم إلى مرحلتين:

أولاهما: فلسطين الولاية العباسية، وقد دام ذلك أكثر من قرن وربع القرن (١٣٢ ــ ٢٦٤).

ثانيهما: فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية، وقد ارتبطت فلسطين خلالها بمصر (٢٦٤ ــ ٣٥٨) وإن انقطع هذا الارتباط حوالي ثلث قرن بين سنتي (٢٩٢ ــ ٣٢٣).

أولاً: فلسطين الولاية العباسية:

الخلفاء العباسيون الأوائل من أمثال المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل، كلهم نظروا إلى فلسطين وأمورها ولكن ليس كنظرة بني أمية لها. لم يأخذوا بعين الاعتبار أن مقر أجدادهم أيام حركتهم السياسية السرية كان على تخومها الجنوبية في الحميمة ، ولا أن جمهرة أهلها هم من اليمانية الذين حملت جموعهم في خراسان الثورة العباسية على أكتافها ولا أن أهل فلسطين تنكروا لمروان بن محمد في هزيمته فلم يسندوه ولكنهم نظروا إلى فلسطين فقط من زاويتين: الزاوية السياسية بوصفها قطعة من الشام قاعدة بني أمية، فهي متهمة الولاء وغير مأمونة الجانب، ومن الزاوية الدينية بوصفها تضم ثالث الحرمين.

وهكذا في الوقت الذي عادت فيه فلسطين، مع الشام كله، إلى المركز الثاني كأي ولاية من الولايات الأخرى في الدولة فإن أوضاعها العامة قد تميزت ببعض الملامح الخاصة سواء في سياسة الخلفاء العباسيين فيها أو موقفها منهم.

أ) السياسة العباسية:

كانت فلسطين لدى خلفاء بني العباس:

١ ـ بلد المسجد الأقصى والصخرة المشرفة. وكان مما يتصل بسياستهم العامة رعاية المظاهر الدينية الإسلامية، لهذا زار القدس عدد من الخلفاء العباسيين ولأكثر من مرة ومنهم المنصور والمهدي والمأمون، ولهذا أيضا حاول المنصور ترميم المسجد الأقصى، الذي هدمت الزلازل سنة ١٣٠/ ٧٤٧ أركانه الشرقية والغربية فقلع صفائح الفضة عن أبوابه لينفق عليه، وزلزلت الأرض ثانية سنة ١٥٨ فهدمت ما كان بني. وزار المهدي المسجد سنة ١٦٢، وهو خراب فأمر بتعديل مساحته وإعادة بنائه وجعل له قبة صغيرة مزينة بفصوص الذهب. وكان قد بنى[1] من قبل مسجد في عسقلان سنة ١٥٥ نقل إليه رأس الحسين بن علي قتيل كربلاء من الجامع الأموي بدمشق. وجاءت هزة أرضية ثالثة زمن المأمون خربت بعض المسجد وبعضا من قبة الصخرة فأمر المأمون بإصلاحها حين زار القدس سنة ٢١٦/ ٨٣١، وكتب المرمون اسمه من الفسيفساء بدل اسم عبد الملك بن مروان، فلا يزال إلى اليوم.

وفي الوقت نفسه يبدو أن عهد الاستقرار الطويل، والأمن الذي عرفته القدس في العهد الأموي قد جلب إليها الحجاج من بلاد الغرب وأبقى الفرنجة على الاتصال الدائم بأرض السيد المسيح المقدسة للدرجة التي دفعت مؤرخي شارلمان، الملك الفرنجي، إلى تمجيده بإيجاد صلة بينه وبين الرشيد وبيت المقدس. ويبدو أن شارلمان أرسل بعض الهدايا إلى بطريق القدس فأجابه عليها البطريق ببعض الهدايا الرمزية مع أحد الرهبان ومنها مفاتيح كنيسة القيامة وراية كنيسته للتبرك بها. كما أنشأ شارلمان في القدس نزلا ينزل به الحجاج الفرنجة المتكلمون باللغة اللاتينية وفيه بعض الرهبان وله بعض البساتين. وجدد البطريق فوما بطريق القدس قبة كنيسة القيامة وضخمها.

٢ ـ كانت للخلفاء ولآل البيت العباسي مصالح واسعة في فلسطين. فقد صادروا الأملاك والقرى والقصور الأموية بعد تحطيم البيت الأموي، وهي ما كان يسمى "بالمستغلات" من أراضي الرملة والغور ونابلس وغيرها. وكانوا يمضون على مرافقها ما

---

[1] في سنة ١٨٨٣ وجد نقش حجري في خرابت عسقلان يذكر بناء المهدي لهذا المسجد سنة ١٥٥.

كان يصرف من النفقة عليها زمن الأمويين أو كانوا يخففون الخراج على بعضها فهي أرض "التخافيف".

٣ ـــ وعمل العباسيون على حفظ الأمن في الطرق العامة والسواحل. كان ذلك من هموم كبار الخلفاء. فالمنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج البناء، والرشيد بذل الجهد لتأمين الطرق من المتلصصة. والمتوكل رتب المراكب في عكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة، وفي أيامه على الأرجح ظهرت الرباطات على السواحل الفلسطينية لمراقبة الهجمات البيزنطية البحرية ولفداء الأسرى.

٤ ـــ فقد اصطنع العباسيون بعض الرجال من فلسطين ومنهم زياد بن أبي الورد الأشجعي كاتب مروان بن محمد الذي عمل للمنصور في أذربيجان وأبو عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي وأبو أحمد يزيد بن أبي خالد الأحول وابنه من بعده اللذان كتبا للرشيد وللمأمون. وسعيد بن السرح والي الأمين على اليمن.

كما تجند في الجيش العباسي أعداد من أهل فلسطين والأردن، زمن المهدي والرشيد والمأمون وكان منهم فرقة "فرسان طبرية" أيام المتوكل.

ب) أوضاع فلسطين العامة:

غير أن فلسطين بالمقابل كانت تشكو في الفترة العباسية مجموعة من عوامل الضيق والشدة:

١ ـــ وبعض هذا الضيق كان من فعل العوامل الطبيعية. فقد تعاونت عليها الزلازل المخربة التي نعرف منها خمسا على الأقل ما بين عهد أبي العباس والمأمون، هدمت الكثير من قصورها وأسوار مدنها ومساجدها. وجاءتها الطواعين أيضا ومنها طاعون سنة ١٧٢ الذي ذهب بسكان قرى بأكملها.

٢ ـــ ومن عوامل الضيق سوء الإدارة والمبالغة في جباية الخراج نتيجة الرغبة العباسية في منع أي تحرك سياسي أموي في فلسطين. وقد ذهبت وفود فلسطينية أكثر من مرة إلى المنصور والرشيد والمأمون تشكو سوء الحال وأجيبت طلباتها. وإن كان العباسيون قد أهملوا ـــ ولعلهم أهملوا عامدين ـــ معالجة العصبيات القبلية بين قيس ويمن مما جعل هذه العصبيات تفترس الكثير من قوى البلاد وطاقتها المنتجة.

٣ ـــ ولعل أهم عوامل الضيق إنما جاءت من الجانب الاقتصادي، فقد كانت فلسطين قد افتقرت منذ أواخر العهد الأموي نتيجة تحول طرق التجارة العالمية عنها، بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم، شأنها في ذلك شأن الشام كله ومصر وانتقلت

شرايين التجارة العالمية عن مدن المتوسط الشرقية وموانئه إلى الطرق الأخرى الممتدة من خليج البصرة إلى بغداد والجزيرة ومنها إلى البحر الأسود وإلى القسطنطينية. وقد امتد هذا الانقطاع التجاري حتى مطالع القرن الثالث الهجري، ولم يبدأ في الرجوع إلى الشام ومصر إلا بعد الأحداث التي ضربت منطقة العراق ما بين سنة ١٩٥ ـــ ٢٢٠ نتيجة حرب المأمون مع أخيه وقيام ثورة الزط في السواد وثورة نصر بن شبث في الجزيرة وبابك الخرمي في الجبال، ولم تظهر آثار هذا التحول إلا في الفترة التالية للعصر العباسي بعد سنة ٢٥٠.

٤ ـــ خلال ذلك كانت الزراعة في فلسطين تضعف نتيجة الظلم في الجبايات. فقد حمل الوفد الذي شكا هذا الظلم إلى المنصور ديكاً منتوفاً ليمثل به حال الناس ورفضت في عهد الرشيد ضياع كثيرة وهجرها أهلها بسبب الخراج. وبالرغم من التدابير المؤقتة التي كان يعالج بها الخلفاء الموقف من مثل عزل الوالي وتخفيف الخراج (زمن الرشيد والمتوكل مثلا) أو بناء بعض المرافق العامة كالصهريج الكبير الذي بناه الرشيد لخزن الماء غربي الرملة والذي ما تزال بقاياه تحمل كتابة كوفية مؤرخة سنة ١٧٢ تذكر ذلك[1] أو تعديل الأرض من جديد وإعادة مساحتها وتوزيع الخراج عليها (كما جرى في عهدي المأمون سنة ٢١٤ والمتوكل سنة ٢٣٠) بالرغم من ذلك فإن الزراعة بدورها كانت تنكمش ولم تستطع بالتالي أن تسد مسد النقص التجاري إن لم تزد في الضيق الاقتصادي العام. إن مجموع هذه العوامل قد اشترك في تفجير عدد من الثورات المحلية في فلسطين، تكاد تشكل سلسلة متصلة الحلقات.

٥ ـــ فقد قامت في مطلع العصر العباسي ثورات كانت ردود فعل منطقية على قيام الخلافة العباسية وعلى أسلوبها القمعي للأمويين، ثم هدأت الثورات فترة أربعين سنة كانت فترة قمع ويأس وانتظار. لكننا نرى التمرد مرة بعد أخرى منذ سنة ١٧٤ في أيام الرشيد، ثم يتكرر بثورة أبي الندى البلوي سنة ١٩١، ثم أبي العميطر السفياني سنة ١٩٥، فيخرج في فلسطين حكام محليون (ومنهم ابن السرح) يظلون على حكمها الانفصالي حتى سنة ٢١٠، حين يستطيع قائد المأمون عبد الله ابن طاهر قهرهم. وتعود الثورة من جديد سنة ٢٢٧ بقيادة أبي تميم، الذي ادعى أنه السفياني وقاد ثورة الفلاحين ما بين الرملة والجولان. والأعداد التي لحقت به من هؤلاء والتي تقدر بمائة ألف تدل على اتساع الشقة بين الحكام والمحكومين. وإذا فشلت هذه الثورة فإنها مهدت في الواقع لظهور

---

(1) انظر فان برشم ـــ الكتابات العربية في سورية، ص٤، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ج١٠، ص١٩٥. ويسمى اليوم صهريج عنيزية أو القديسة هيلانة.

الوضع السياسي القادم في فلسطين، وهو الوضع الانفصالي، الذي ظهرت طلائعه حين اضمحل مركز الخلافة في سامراء بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧، وقام عيسى بن السليل بنوع من الاستقلال في حكم فلسطين استمر حتى استسلم سنة ٢٥٧، ولكن كان قد زرع بذور الفترة التالية.

ثانياً: فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية (٢٦٤ ــ ٣٥٨):

إذا وصلنا أواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وجدنا بوضوح أن تطورات عديدة قد أخذت تلم بفلسطين وتغير من مسيرتها التاريخية: بعضها ديموغرافي ــ اجتماعي، وبعض ديني ثقافي، وبعض سياسي وبعض اقتصادي.

أ) فأما من الناحية السكانية فقد بقي أهل فلسطين في جذورهم وتكويناتهم العامة هم أنفسهم. فقبائل كلب اليمانية تملأ هضبة الأردن وتمتد إلى شرقي فلسطين «وأما أهل جند فلسطين فهم ــ حسب قول اليعقوبي الجغرافي المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ــ أخلاط من العرب من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة..»[1]. ويدخل اليعقوبي في تفصيل سكان بعض البلدان فيقول: «حوران ومدينتها بصرى وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويداء فإن بها قوماً من كلب والبثنية ومدينتها اذرعات وأهلها قوم من قيس وقوم من يمن.. وعمان وريحا وأهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش وعرندل من غسان. والجولان ومدينتها بانياس وأهلها قوم من قيس وبها نفر من أهل اليمن. وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة. وعكا وقدس وبيسان وفحل وجرش والسواد وأهل هذه الكور أخلاط من العرب والعجم (النبط)...»[2].

«وأهل الرملة أخلاط من الناس، من العرب والعجم وذمتها سامرة ونابلس وفيها أخلاط من العرب والعجم.. وكورة بيت جبرين وأهلها قوم من جذام..»[3].

وهكذا فإن العنصر العربي كان قد وضح في فلسطين وقد امتص العناصر الأخرى التي تقلصت أو ذابت فلم يبق إلا بعضها. على أنه في هذه الفترة نفسها في أواسط القرن الثالث ظهرت على أطراف البادية جماعات عربية جديدة تتجه إلى فلسطين بعضها قبائل يمانية هي قبائل طيء التي أوغلت تدريجياً حتى أواسط فلسطين ومنها القبائل القيسية:

---

(1) اليعقوبي ــ البلدان. ص٣٢٩ و٣٢٧ (طبعة دي غويه).

(2) لا يقصد بالعجم الفرس، لأنه يسمي الفرس باسمهم، ولكن يقصد سكان البلاد الأولين الآراميين. وقد يسمون النبط.

(3) المصدر نفسه، ص٣٢٦ ــ ٢٣٠.

كقبائل مالك التي كانت تعد ١٥ ألف فارس والتي تحركت إلى حوران ثم إلى شمال فلسطين وجنوب لبنان[٤] وقبائل عقيل التي استقدمها الإخشيد إلى شمال الأردن وطبرية.

ومع أن هذه الجماعات العربية كانت تتمزق بالعصبيات وكثيراً ما كانت تقتتل فيما بينها كالذي حدث سنة ٢٥٧/ ٨٧٠ بين لخم وجذام في فلسطين الذين تحاربوا حرباً أخذت من الطرفين. ومع أن هذه العصبيات سوف تلعب دورها المدمر في سياسة الشام حتى أواخر العهد الفاطمي إلا أنها على المستوى السكاني الاثنولوجي واللغوي والاجتماعي أنهت تعريب فلسطين الكامل وأعطتها خليطتها السكانية الأخيرة التي لن يدخل عليها حتى العصر الحديث إلا أبسط التعديل.

ب) وأما في الدين والمذاهب فيتحدث جغرافي بارز من أبناء فلسطين في القرن الرابع عنها هو المقدسي البشاري فيقول عن سكان البلد أنهم «أهل جماعة وسنة. مذاهبهم مستقيمة. وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية. وببيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس. ولا ترى به مالكياً ولا داودياً والفقهاء شفعوية وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي، وربما كان القضاة منهم...»، ومع أن المقدسي يكشف عن تأثير المذهب الفاطمي ظاهرياً في فلسطين أيام الفاطميين بقوله عن رسوم العبادة «واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي..» وأن الناس "ينكرونها"، إلا أنه لم يعش إلى الربع الأول من القرن الخامس ليشهد تفرع الفرقة الفاطمية الدرزية التي نمت قبل سنة ٤٠٨ في مصر ثم انتقلت بعد انتهاء خلافة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ إلى شمال فلسطين وجنوب لبنان حيث بقيت إلى اليوم. ومع هذا الذي يذكره المقدسي عن انتشار الإسلام بمذاهبه المتعددة ووضوحه في الناس إلى أنه يذكر في الوقت نفسه أن البلد "كثير الذمة" «والسامرة فيه من طبرية إلى فلسطين ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً...» ويضيف: «وأقل ما ترى فيه فقيهاً له بدعة أو مسلماً له كتابة إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرج الكتاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى لأنهم اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب كالأعاجم (يقصد السكان الأصليين الآراميين) وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود وأكثر الأطباء والكتبة نصارى..»[١].

وحوالي سنة ٨٧٠م زار فلسطين حاج غربي معروف باسم برنارد الحكيم وكان الحكيم و كان يحمل رسائل توصية من الأمير خفاجة صاحب باري في إيطاليا ، وقد سكن في النزل الذي بناه شارلمان فذكر عن حياة الناس فيها بقوله: «المسلمون والمسيحيون فيها

---

[٤] من هذه القبائل تحدر الشهابيون في لبنان (أنظر طنوس الشدياق ــ أخبار الأعيان. ج١، ص٣٩ ــ ٤١).

[١] نظر المقدسي البشاري ــ أحسن التقاسيم، ص١٧٩ ــ ١٨٣.

على تفاهم تام والأمن مستتب حتى أن المسافر ليلاً يجب أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته وإلا زج به في السجن حتى يحقق في أمره.. وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جملي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد..»[٢].

ج) غير أن الحياة السياسية لفلسطين هي التي سوف تتطور وتضطرب في هذه الفترة ولمدة عدة قرون قادمة. كانت منذ انتهى العصر العباسي الأول قد بدأت في الاتجاه نحو الإقليمية شأنها في ذلك شأن الأقطار العباسية الأخرى ونحو القلق السياسي. كان الخلفاء العباسيون قد ضعفوا منذ أواسط القرن الثالث فليس لهم من الحكمة إلا اسم الخلافة وشعائرهم، أما السلطة ففي يد القواد الأتراك وأسر الوزراء والكتاب، وكما انقطعت بعض المناطق بفعل المتغلبين عليها من القادة كذلك كان يحدث في فلسطين: تغلب عليها لفترة قصيرة حوالي سنة ٢٥٥ ــ ٢٥٧ قائد اسمه عيسى بن شيخ بن السليل ثم خلفه القائد آماجور ولكن قوة أخرى ناشئة في مصر لقائد تركي آخر، غلبت على البلاد هي قوة ابن طولون سنة ٢٦٥/ ٨٧٨ وأصبحت فلسطين تابعة للدولة الطولونية في مصر..

بهذه الحركة الطولونية التي حولت وجهة هذا البلد السياسية من أرض النهرين إلى وادي النيل عادت فلسطين فوصلت ما انقطع من تاريخ ارتباطها القديم بمصر قبل ألف سنة أيام البطالمة وقبل أكثر من ألفي سنة أيام الفراعنة. كما أنها منذ هذه السنة سوف تظل ــ فيما عدا الفترة الصليبية ــ مرتبطة بالتاريخ والمصير مع مصر حتى العصر الحديث. ومنذ هذا التاريخ سوف تعود من جديد آلام الأرض المقدسة لأن الحروب لن تهدأ تقريباً على أرضها.. يكتسحها أولاً جيش الغزو الطولوني من مائة ألف فيما يقولون، ثم يأتيها من الشمال جيش الخليفة المعتمد وأخيه الموفق لمحاربة الطولونيين وهم من سبعين ألفاً يكون اللقاء عند الرملة في واقعة الطواحين سنة ٢٧١ وتبقى فلسطين بيد الطولونيين بعد ذلك ليخرج إليها خمارويه الطولوني مرات عدة تارة ليخمد ثورة قواده الانفصاليين فيها. وتارة ليعبر محارباً جيوش الخليفة. حتى إذا عقد الصلح وهدأت البلاد بعض الهدوء ظهر على حدودها الشرقية خطر جديد قادم في هذه المرة عبر البادية من شواطئ خليج البصرة: هو القرامطة، يحملون مبادئهم الشيعية المتطرفة والباطنية إلى الشام. وقد عبر قائدهم ابن زكرويه فلسطين بهم هازماً الحاميات الطولونية في معاقلها مثل طبرية ومتجهاً نحو سورية الشمالية حتى اعترفت به وخطبت له سنة ٢٩٨/ ٩٠١. وفي السنة التالية

---

[٢] نقلاً عن عارف العارف ــ المفصل في تاريخ القدس، ص١٢٤.

أرسل الخليفة بعض قواده لحرب القرامطة وإخراجهم من الشام ونجح في ذلك بعد حروب ومواقع ولكنه في الوقت نفسه أنهى الدولة الطولونية.

وهكذا كانت السنابك تحرث جيئة وذهاباً أرض فلسطين طول العهد الطولوني الذي لم يكمل ثلاثين سنة، وزاد فيها عبور الجيوش الطولونية الدائم إلى الشمال لحرب البيزنطيين في الثغور، لأن الثغور والدفاع عنها قد آلت إلى آل طولون في هذه الفترة ولكم تكسب فلسطين من هذا العهد سوى أمر واحد هو بناء سور عكا الحصين المزدوج الذي عمل عليه أحمد ابن طولون وأضاف إليه مرفأ بحرياً له باب وسلاسل. وقد دافع هذا التحصين عن عكا أيام الصليبيين وبقي قائماً حتى أمام مدافع نابليون.

ويمر بعد العهد الطولوني فترة ثلث قرن تعود فيه فلسطين ولاية عباسية حكامها في مجموعهم من القواد والأتراك الذين لم يستطيعوا إعادة الجسور بين الإدارة العباسية وبين فلسطين، لأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تجددت في المنطقة كانت تسير بها في اتجاه آخر كما بدأت هذه الفترة بقائد تركي حول مهمة حكمه إلى ملك وراثي كذلك انتهت الفترة بتجربة أخرى مماثلة. وبعد أن وصل محمد بن طغج إلى الولاية في جنوب الشام ومصر (سنة ٣٢٣/ ٩٣٥) وأخذ لقب الإخشيد وأخذ الاذن بالحكم الوراثي توفي وشيكاً ليأخذ الحكم ابنه الصغير تحت وصاية مربيه كافور الاخشيدي الذي قاد الدولة أكثر قليلاً من عشرين سنة وما كاد يتوفى حتى دخلت مصر والشام في الحكم الفاطمي القادم من المغرب سنة ٣٥٨.

د) رافق هذه التطورات كلها وأثر فيها وتأثر بها: تطور اقتصادي خطير الأبعاد شمل الشرق العربي كله ومنه بالطبع فلسطين منذ ما قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي واستمر حتى أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر.

أهمية موقع فلسطين، ضمن هذا التطور الاقتصادي، أنها كانت قطعة من جبهة التجارة العالمية المطلة على البحر الأحمر وطرق خليج البصرة من جهة وعلى البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى وأنها تشرف مع مصر على البرزخ البحري والبري ما بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وقد عملت الاضطرابات التي هزت العراق في القرن الثالث (ثورة الزط عشرين سنة في مطلع القرن ثم ثورة الزنج بين سنة ٢٥٥ ـــ ٢٧٠. ثم الاضطرابات القرمطية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن) على إعادة طرق التجارة إلى شواطئ المتوسط الشرقية سواء عن طريق خليج البصرة مباشرة بحراسة البدو أو طريق وادي الفرات أو عن طريق البحر الأحمر. وكان هذا التحول أحد أسباب الغنى الواضح الذي عرفت به الدولة

الطولونية (في النصف الثاني من القرن الثالث) ثم الإخشيدية كما كان هو الذي يفسر ضرب هاتين الدولتين للدنانير الذهبية الخاصة بهما والتي تميزت بعيارها الجيد. كما يفسر كثرة دور الضرب (في طبرية والرملة وقيسارية) ويفسر قدرة الدولتين على بناء المدن والقصور المترفة وتمويل الحروب والبذخ الواضح (في مثل جهاز قطر الندى ابنة خمارويه..).

وقد انتعشت فلسطين بهذا النشاط التجاري الذي رافقه ونجم عنه توسع الدورة النقدية بدخول كميات من الذهب في الحركة الاقتصادية للمنطقة نتيجة لاجتماع التجارة بين الشرق والغرب فيها وتسارع الايقاع المديني ونمو المدن في المشرق حتى لنعد في فلسطين وحدها أواسط القرن الرابع أكثر من ثلاثين مدينة، بالإضافة إلى نمو الاستهلاك مع التكاثر السكاني وتسهيلات المبادلة التجارية بظهور نظام الائتمان والصكوك والعمليات المصرفية والبيوتات التجارية الواسعة الفروع والصلات.

وكل هذه الأمور خلقت تسارعاً مطرداً لا في النشاط التجاري فقط في فلسطين، ولكن في الانتاج الزراعي والحرفي، ونستطيع أن نرى صورة ذلك الازدهار الزراعي والحرفي في الصورة التي رسمها المقدسي لفلسطين في أواسط القرن الرابع وتحدث فيها عن "التجارات المفيدة" بها، وعن زراعات الزيتون والحبوب والكروم بكل مكان من جبل عامل إلى الخليل، وعن الضياع الجليلة فيها وعن الأقطان وقصب السكر في الحولة وطبرية والنخيل والرز في بيسان، وعن الأراضي التي تفور نعماً وخيرات في قيسارية والقدس والرملة وعسقلان والداروم وعن أنواع الفواكه الكثيرة المنتشرة من عسقلان والخليل حتى لتختص وتتميز بستة وثلاثين نوعاً منها. وعن إنتاج الزيت والسكر والصابون والزجاج والرخام والنسيج والكاغد. وبديهي أن هذا النشاط الاقتصادي الواسع قد رافقه بروز طبقة التجار في الشرق العربي كله، وفي فلسطين، ووضوح الفقر في الشرائح الدنيا من المدن والريف مما أغرى المجموعات البدوية المجاورة بالغزو المتمادي وأفرز فئات هامشية من المتلصصة في أواخر العهد الإخشيدي حين انكسر ذلك النشاط الاقتصادي السابق وحلت الأزمات بالشام ومصر بتوالي الأوبئة والقحط وظهور النشاط التحلوي الأوروبي والبيزنطي في المتوسط وتعاقب الضربات البدوية والرومية على أطراف فلسطين واختلال النقد الإخشيدي في أواخر عهد كافور بالغش ونقص العيار، وكان ذلك كله تمهيداً لتطور تاريخي جديد حمل اسم العهد الفاطمي.

هـ) في هذه الفترة برز في فلسطين عدد من المراكز العلمية اطلعت عدداً من العلماء والكتاب: أهمها:

الرملة: التي كانت قصبة فلسطين وينسب إليها عدد من العلماء منهم المؤمل بن إهاب الحافظ المعروف بابن قفل (توفي سنة ٢٥٤/ ٨٦٨) ومحمد بن أحمد بن سهل النابلسي الرملي الزاهد الفقيه المتوفى سنة ٣٦٦ وكشاجم محمود بن الحسين (المتوفى سنة ٣٦٠) وموسى بن سهل الحافظ (المتوفى سنة ٣٦٢).

عسقلان: وكانت تجتذب الناس بمركزها التجاري والزراعي على الطريق إلى مصر وقد أطلعت عدداً من المحدثين منهم أبو الحسين الملطي العسقلاني (المتوفى سنة ٣٧٧/ ٩٨٧) وأبو بكر بن جعفر الخرائطي صاحب الحديث والأخبار (توفي سنة ٣٢٧).

القدس: وقد أطلعت المطهر بن طاهر المقدسي المؤرخ ومحمد بن أبي بكر المقدسي البشاري الجغرافي البارز وكلاهما من رجال أواسط القرن الرابع أو بعده بقليل.

طبرية: التي كانت تخرج الكتاب، فكان فيها تعليم صنعة الكتابة كما كانت من مراكز العلم والجدل، حسب ما يتجلى في أقوال المسعودي الذي زارها حوالي سنة ٣٣٠.

ولعل ما هو أكثر شأناً من هذا النشاط العلمي من الناحية الاجتماعية والروحية ما بدأت تكسبه فلسطين في تلك الفترة من القدسية الدينية المتزايدة وقد اتخذ تقديسها الشكل التقليدي برواية أو وضع الأحاديث على لسان الرسول والصحابة بتفضيلها وذكر فضلها، ولا شك أن معظم هذه الأحاديث قد ضوع في هذه الفترة ومن بعدها لأغراض اجتماعية واقتصادية وسياسية ومن ذلك أن "بيت المقدس من جنة الفردوس" وأن الصلاة في مسجدها بخمس مائة أو بخمسين ألف صلاة وأنها "أرض المحشر والمنشر" وأن "من مات في بيت المقدس فكأنه مات في السماء". وبعض هذه الأحاديث تعويض عن الآلام وبعضها تأكيد لمعاني الازدهار.

وهكذا نلاحظ أن عدداً من الحكام وخاصة من البيت الإخشيدي يطلبون نقل رفاتهم من مصر إلى القدس ومن هؤلاء الحكام عيسى النوشري المتوفى سنة ٢٩٧ وتكين المتوفى ٣٢١ ومحمد بن طغج الإخشيد وابناه أنوجور وعلي، وشقيقه الحسن..

٤ ــ فلسطين في العصر الفاطمي والسلجوقي (٣٥٨ ــ ٤٩٣):

هذا العصر بدوره يمكن أن يقسم من الناحية السياسية قسمين:

أولاً: الفترة الفاطمية التي امتدت منذ سنة ٣٥٨ واستمرت بالنسبة لجنوب فلسطين حتى العهد الصليبي.

ثانياً: الفترة السلجوقية التي ابتدأت في فلسطين الداخلية حوالي سنة ٤٦٣ وانتهت بالاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢.

على أن هذا التقسيم قد يخدع في الواقع التاريخي الحضاري المتشابه والمتصل في المنطقة من وراء هذا الظاهر السياسي المتباين: فقد صار جنوب الشام حتى دمشق وحمص إلى الخلافة الفاطمية منذ سنة ٣٥٨ وجوهر الصقلي الذي قدم بالجيوش الفاطمية من المغرب وفتح مصر تلك السنة أتم الطريق في السنة نفسها إلى الشام ليضم القطعة الشامية من الدولة الإخشيدية على الفور إليه. ولكن هذا الحكم الفاطمي لم يهنأ أبداً بحكم الشام حكماً مستقراً إلا لفترات قصيرة ومحدودة حتى الخلفاء الفاطميون الأوائل: المعز، والعزيز والحاكم بأمر الله والظاهر لم يتطيعوا فرض نفوذهم المستقر هناك. وحين جاء بعدهم المستنصر (ما بين سنة ٤٢٧ ــ ٤٧٨) لمدة ستين سنة وكان أطول خلفاء الإسلام عهداً، كان عهده الفترة الانقلابية في تاريخ الفاطميين عامة وتاريخ فلسطين أيضاً.

ففي حوالي ٤٦٢ بدأت تظهر في فلسطين طلائع الموجة التركية السلجوقية. ثم ما لبثت أن احتلت داخل فلسطين والشام كله تاركة السواحل فقط من طرابلس حتى عسقلان للحكم الفاطمي. وسقطت القدس في أيديهم سنة ٤٦٥/ ١٠٧٢ وبعثوا إلى بغداد يبشرون بعودتها إلى الخلافة العباسية، وبتحول فلسطين من جديد من الارتباط بمصر إلى الارتباط ببغداد. وقد دام هذا العهد السلجوقي قرابة ثلاثين سنة قبل أن يصل فلسطين الصليبيون.

غير أن هذه المسيرة السياسية التي امتدت قرناً ونصف القرن لا تتوافق مع الواقع الاجتماعي ــ الاقتصادي للناس في فلسطين، فهذا الواقع كانت له مسيرته الخاصة التي لم تتغير كثيراً بتغير الحكام ما بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة العباسيين السنيين المتصلين ببغداد.

لقد كانت النظم السياسية المسيطرة واحدة في المفهوم والطرائق. فالفاطميون جندوا القبائل المغربية من كتامة وزويلة وغيرها لإقرار النفوذ الفاطمي في جنوب الشام وأواسطه ولاستغلال البلاد. والسلاجقة كانوا قبائل عسكرية قادمة من أقصى المشرق تفرض

سيطرتها وتتوطن وتستغل ثروات البلاد التي تحتل. الطرفان كانا طبقتين عسكريتين مرفوضتين من السكان. وإذا كان الجند الفاطمي يحمل صفة التشيع السبعي الذي يزيد في رفض الشام له بسبب عواطفها الأمومية، فإن الجند السلجوقي كان من الجشع والتدمير بحيث أبغضه الناس بدوره وظل يشكل طبقة مستغلة غريبة حتى أطل العدوان الصليبي.

وفي المرحلتين كان جنوب الشام يعاني، لأسباب متعددة، سياسية وطبيعية وخارجية الكثير من الآلام السياسية والاقتصادية التي بدأت تضيق الخناق على المجتمع الشامي كله بما فيه فلسطين منذ أواخر القرن الرابع الهجري حتى بلغت أقسى مراحلها في أواخر القرن الخامس. وانتهى هذا العصر الصعب بسقوط سواحل الشام ومعها فلسطين في يد الصليبيين ويمكن أن نرى أهم الملامح في فلسطين القرن الخامس في النقاط التالية:

أ) النكبات الطبيعية (من الزلازل والأوبئة والمجاعات):

فقد تتالت على الشام (وفلسطين في جملته) نكبات جارفة من هذه وتلك كانت تدمر دون انقطاع جهود أهلها كما تذهب بعشرات الألوف منهم. كانت الزلازل أهون الشرور مع أنها دمرت تراث البلاد العمراني وأوابدها الموروثة منذ العصور القديمة أو المستحدثة في الإسلام. ثم لم تكن البلاد تهتم بحكم وضعها الأمني وبحكم الورع الديني بأكثر من ترميم الأسوار والمساجد فيما بين سنتي ٤٢٠ ـــ ٤٦٠/ ١٠٢٨ ـــ ١٠٦٧ مثلاً نحصي خمس زلازل على الأقل هدمت آخر واحدة منها أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم[١]. وثالوث القحط والأوبئة والمجاعة كان دائم التردد على البلاد. ونحصي مثلاً في الفترة السابقة نفسها خمس جوائح من هذا النوع سجلها المؤرخون بلغ بعضها من العنف والقسوة أن استمر سنوات واتخذ شكل الكوارث أو أدى إلى هلاك عشرات الألوف من الجوع وإلى أكل اللحم البشري وافتراس الجثث.

ب) مقابل هذه النكبات تطور **الوضع السكاني** في فلسطين. أضيفت إليه عناصر بشرية جديدة مصدرها من منبعين:

أولاً: المد البدوي العربي:

وقد تمثل في نوعين من الزحف قدم أحدهما من الشمال والثاني من الشرق. فأما الشمالي فقد كان زحفاً منظماً واضح الأهداف ويتحرك عن عقيدة سياسية دينية ذات

---

[١] ابن القلانسي ـــ ذيل تاريخ دمشق ص٩٤.

فلسفة وإمام ونظام و لم يكن الشمال منبعه ولكن اتبع ــ مع الفارق ــ طرق الهجرات السامية القديم من ضفاف الخليج العربي بالأحساء إلى وادي الفرات ثم انحدر من هناك حتى جنوب الشام، وهذا هو الزحف القرمطي. وقصة غزوات القرامطة في مختلف بلاد فلسطين والشام مملوءة بالمآسي والمعارك الدامية. و لم تخف حدة الموجة القرمطية حتى الربع الأخير من القرن الرابع بعد وصول الفاطميين ومكافحتهم للقرامطة رغم اللقاء في المذهب الفكري ــ الديني بين الطرفين.... طبرية، الرملة، غزة عسقلان، كانت المدن التي ألمت بها الفتكات القرمطية نهباً وحريقاً وأسراً وقطع شجر.

وأما حركة البدو من الشرق فقد كان قوامها بصورة خاصة قبائل طي، وكان معها بعض القيسيين. وقد شق الطائيون طريقهم إلى الجنوب الشامي من البادية تاركين لبني كلب أواسط سورية ــ ما بين تدمر وحمص وبصرى ــ وقد تزعم الطائيين بنو الجراح فظلت أسماء زعمائهم تتردد في المنطقة حوالي القرن (بين أواسط القرن الرابع والخامس) واتخذوا مركزاً لهم في بلدة الرملة بعد أن أعادوا بناءها وفتح أسواقها ومسجدها. وقد كانت هذه القبائل تعمل تارة لحسابها الخاص وأطماع زعمائها وتارة أخرى مرتزقة لحساب من يستخدمها أو يسترضيها من الحكام. وقد تنتصر أحياناً وتحتل فلا يكون لنصرها من أثر سياسي طويل بسبب فقدها التنظيم الحكومي أو تنهزم فلا ينجم عن ذلك انحسارها النهائي لأن أحيالها من البادية كانت ترفدها دون انقطاع. وفي مرة واحدة فقط تأسست دولة بدوية أو دولتان استمرتا ثلاثة أرباع القرن أو أكثر قليلاً، ولكن ذلك إنما كان في شمال سورية (الدولة المرداسية في حلب والدولة العقيلية في الموصل والجزيرة بعد الدولة الحمدانية) ولكن بدو فلسطين لم ينجحوا في الاحتفاظ بما يغزون من المدن لقرب ما بينهم وبين مركز الحكم الفاطمي في القاهرة. وقد حاول بنو الجراح مرة خلق خلافة إسلامية عاصمتها الرملة واستدعوا لها مرشحاً من الهاشميين خطبوا له سنة ٤٠١/ ١٠١٠ ثم فشل المشروع.

وقد بدا في مطالع القرن الخامس كأنما الشام كله قد وقع تحت رحمة الموج البدوي لأن قبائل جديدة من قيس كانت قد وصلت الشمال الشامي وحاول حسان بن الجراح زعيم طيء إقامة حلف بدوي ثلاثي لاقتسام الشام سنة ٤١٥/ ١٠٢٤ وإخراج الفاطميين منه فيكون له من شمال الرملة حتى حدود مصر ويكون لسنان بن عليان زعيم كلب دمشق وأواسط الشام ويكون لأمير بني كلاب صالح بن مرداس حلب والشمال. واقتسموا البلاد سنوات قبل أن يهزمهم الفاطميون عند طبرية هزيمة ساحقة سنة ٤٢٠/ ١٠٢٨. فلما ثاروا سنة ٤٣٣/ ١٠٤١، وسيطروا على فلسطين سحقوهم وسحنوا

زعماءهم في مصر عشرين سنة. وعلى أية حال ظلت القوى البدوية الكلبيـة والطائيـة مصدر تغذية بشرية وتهديد للأمن في فلسطين حتى أنهى قواها وأمرها الغزو السلجوقي.

ثانياً: العناصر البدوية التركية:

وهي جموع من "الغز" البدو حملتها الموجة السلجوقية بعد سنة ٤٦٠ وكانت بـلاد الشام أحد الأطراف الأخيرة لامتدادها الحربي والبشري. وقد أتت إلى هذه البلاد بعناصر سكانية غريبة عن تكوينها العام ظلت تتسرب ألوفاً بعد ألوف كثر من قرن وإذا كـان إسلامها ومذهبها السني ودفاعها عن الإسلام (ضد الروم والصليبيين) قد قربتـها مـن المجموع العربي في البلاد فإن تسربها التدريجي والاجتماعي على مدى عشرات السـنين واصطناعها اللغة العربية واستعرابها الثقافي والاجتماعي بسبب انخفاض مستواها الحضاري عن مستوى الحضارة العربية الإسلامية في البلاد. كل ذلك قد جعل هذه العناصر تتعـرب وتذوب فيها بدل أن تصبغ بصبغتها التركية. وقد رافق هذه الموجات التركية، مجموعات بشرية أخرى حملتها الموجات نفسها من الأكراد والفرس والخوارزميين ذابـوا جميعـاً بدورهم مع الأيام في المجموع العربي.

ج) الازدواج المذهبي والحركة العلمية:

كان نشر الفكر الشيعي الفاطمي من سياسة الفاطميين الأساسية في كل البلاد الـتي حكموها ومنها فلسطين، وقد أنشأوا لذلك دار المعلم في القدس، وجعلوا شريعة الحكـم على مذهبهم في البلاد. وكان لهم في كل مدينة داعيتهم للمذهب. كما أن الفكر الشيعي الإمامي معروفاً في بعض المناطق مثل طبرية وعكا. ولكن الدعوة الفاطمية لقيت على مـا يظهر المقاومة الشديدة وإن نجحت بعض النجاح في المدن الساحلية. وفي الفترة التي تلـت وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ وصلت إلى شمال فلسطين وإلى وادي التيم مجموعة مـن دعاة الفرقة الحاكمية الدرزية التي استمر يقودها ويوطدها مؤسسـها الفكـري حمـزة الدرزي أكثر من عشرين سنة واستمرت موجودة بعد ذلك إلى اليوم.

ولكن المذهب الفاطمي ظل سطحي الانتشار بين الناس. فما كادت القدس تسـقط في يد السلاجقة سنة ٤٦٥ حتى توافدت إلى فلسطين موجة من العلماء السنة من المشرق والمغرب وانتعشت فيها دراسة الحديث والفقه وحلقات المناظرة والدرس بـين مختلـف المذاهب السنية. وكان من كبار الوافدين أبو الفرج عبد الواحد الشيرازي (المتوفى سـنة ٤٨٦) الذي أدخل إلى فلسطين المذهب الحنبلي والإمام الصاغاني وأبو بكر الطرطوشـي

الأندلسي وأبو بكر العربي الإشبيلي. وبرز من رؤساء الأشاعرة في البلاد مكي بن عبد السلام الرميلي الذي أسره الصليبيون في القدس سنة ٤٩٢ ثم قتلوه وأبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي (المتوفى سنة ٤٩٠). وتأسست في القدس عدة مدارس للحنفية والشافعية، وكان في مسجدها الأقصى ثمان وعشرين حلقة درس قبيل الضربة الصليبية تبحث في الكلام وأصول الفقه ومسائل الخلاف على طرائق أهل العراق والقيروان. وهذه الحركة العلمية المضادة للدعوة الفاطمية والتي كان يغذيها السلاجقة لسبب سياسي واضح شملت العديد من مدن فلسطين مثل عسقلان ونابلس وطبرية. وجعلت البلاد «ذات دين ظاهر وعلم وافر» ويكفي أن نعلم أن المذبحة الصليبية في القدس سنة ٤٩٢ حصدت بين ما حصدت ثلاثة آلاف عالم وعابد ومعتكف وفيهم الكثير من العالمات والعابدات.

د) التدهور الاقتصادي:

فإن الأزمة الاقتصادية التي أصابت فلسطين ومصر في أواخر العهد الإخشيدي كان ممكناً أن تستمر لولا المذهب الفاطمي الذي جاء به العهد الجديد معه من أفريقية والمغرب. كان الفاطميون هناك قد فتحت دروب الذهب القادم من السودان نتيجة تغلغل القوافل الإسلامية عبر الصحراء. وقد سيطروا به على تجارة الرقيق والخشب والفراء مع أوروبا وبقي منه فائض كبير استطاعوا به غزو مصر. ألف حمل من الذهب حملوا معهم لنفقات إقامتهم الأولى "الدينار المعزي" الذي ضربه المعز لدين الله كان الفاتح الحقيقي. وقد استخدموا هذا الذهب في السيطرة على مصبات التجارة في شرقي المتوسط (شواطئ مصر والشام والبحر الأحمر) وفي إنعاش الجو الاقتصادي الذي اضطرب في فلسطين ومصر. وقد حاربهم القرامطة في فلسطين ومصر وفي البحر المتوسط أيضاً ليحتفظوا بالسيطرة على المصبات التجارية فلم يفلحوا. واضطروا إلى التراجع والانكماش من جديد إلى مواقعهم التجارية الأساسية في الخليج العربي. وبالرغم من كل ذلك التألق "الذهبي" الذي رافق توضع الفاطميين في مصر والذي وطد ووسع تجارة مصر عبر البحر الأحمر إلا أن الإنعاش الاقتصادي لمناطق الشام الجنوبية لم يدم طويلاً. استطاع أن يستمر قرابة النصف قرن آخر، فلما كان القرن الخامس الهجري عاد من جديد إلى الاضطراب لا في فلسطين فقط ولكن في مصر أيضاً بنتيجة عدد من العوامل كان من بينها انقطاع ورود الذهب من أفريقية والمغرب إلى مصر بسبب استقلال بني زيري عن الفاطميين وقطع بني هلال البدو طرق المغرب، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الجمهوريات

الإيطالية وسيطرتها على التجارة المتوسطية وتوالت النكبات الطبيعية الداخلية على شرقي المتوسط واضطربت الإدارة الفاطمية ثم تعرض المشرق كله لهجمة بدوية تركية واسعة اكتسحته مما وراء النهر حتى الأناضول والشام هي الموجة السلجوقية الغزية، ما بين سنة ٤٣٠ ــ وسنة ٤٧٥ محتوية ضمنها الخلافة العباسية كلها والأجزاء الأرمينية والأناضولية من الامبراطورية البيزنطية.

ضمن هذا الإطار العام كانت فلسطين قطعة من الأراضي الإسلامية المنكوبة بهذه التطورات. والصورة الاقتصادية الزاهية التي رسمها الجغرافي المقدسي في حوالي سنة ٣٧٠ لفلسطين لم يستطع الرحالة ناصري خسرو أن يعطينا مثلها حين زار البلاد في أواسط القرن الخامس حوالي سنة ٤٥٠، بل عبر عن خوفه من قطاع الطرق تارة، واقتصر على الإسهاب في وصف الأماكن المقدسة تارة أخرى. وتحدث بين هذا وذاك عن أسوار المدن وعن ميناء عكا الحصين وعن صناعات الرخام في الرملة والحصر في طبرية والسفن في حيفا، وعن أشجار الزيتون والتين في الرملة والقدس والخليل، وعن أرباب عائلات يملك أحدهم /٥٠/ ألف مَنٍّ[1] من الزيت يحفظونها في الآبار ويصدرونها إلى أطراف العالم. وعن القدس التي كان سكانها ٢٠ ألفاً فقط وعن سورها وبواباتها الحديدية وصهاريج الماء فيها وعن زراعات الشعير والقمح في منطقة الخليل. وقد عمل الفاطميون على تأمين المرافئ التجارية. كان الأسطول التجاري ــ الحربي أحد المشاغل الأساسية لهم ولهذا أفردوا الثغور الساحلية في الشام وفلسطين معها وولوا في كل ثغر منها والياً من مصر ورتبوا معه جنداً لحفظه من الغارات الرومية. ولعلهم في الوقت نفسه شجعوا الأربطة الشعبية الخيرية التي ذكرها المقدسي على سواحل فلسطين ما بين يافا وعسقلان.

ولكن الأسطول الفاطمي نفسه قد ضعف في أواسط القرن الخامس وضعفت معه الثغور الشامية الفلسطينية مع ازدياد نشاط وقوة أساطيل المدن الإيطالية خاصة وأساطيل الروم. وازداد ضعف هذه الثغور مع سقوط الداخل الفلسطيني (والشامي كله) بيد السلاجقة بعد سنة ٤٦٥، ولكنها تباين الحكم بين الساحل والداخل لم يقطع عليها طرق التجارة التي عادت قائمة مع المشرق والتي ازداد نشاطها مع السلم السلجوقي حتى جاءت الضربة الصليبية فقطعتها القطع المأساوي فترة حسنة.

---

[1] كان وزن المن الواحد في الشام يعادل /٨١٩/ غراماً ولكن صاحب هذا الكلام ناصري خسرو هو رحالة خراساني، والمن في بلاده يعادل /١٩٢٠/ غراماً. (انظر فالترهنتش ــ المكاييل والأوزان الإسلامية "الترجمة العربية"، ص٤٦ــ٤٧).

هـ) سياسة الحكم :

اهتم الفاطميون ثم السلاجقة بالمكانة الدينية لفلسطين. وحين تصدعت قبة الصخرة في هزة أرضية سنة ٤٠٧ أيام الخليفة الحاكم عمد ابنه الظاهر إلى بنائها سنة ٤١٣ وترك بذلك ثلاثة نقوش. وبنى الفاطميون بعض الجوامع كجامع نابلس آخر أيام الحاكم سنة ٤١١ ومسجد عسقلان الذي بناه الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي سنة ٤٩١ ليضم رأس الحسين. وقد أهدى الخلفاء الفاطميون الكثير من قناديل الفضة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى وكانت عليها النقوش بأسمائهم وبأوزانها التي كانت تزيد في مجموعها عن ألف منّ. وكانوا يرسلون إليها الشمع الكثير للإنارة كل سنة ومن بينها شمعة كبيرة جداً طولها سبعة أذرع وقطرها ثلاثة أشبار ولونها كالكافور وشمعها مخلوط بالعنبر وعليها اسم الخليفة بالذهب.

وقد تصاعد في الوقت نفسه شأن الأرض المقدسة لدى المسلمين وخاصة في بلاد الشام وازدادت حرمتها لدرجة الاستعاضة بزيارتها عن الحج إن لم يستطيعوه، فيتوجه أحدهم إلى الموقف، في موعد عرفات ويضحي أضحية العيد كما هي العادة، ويحضر هناك لتأدية ذلك في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة ومعهم أبناؤهم. كما يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى واليهود.

وحين سقطت القدس بيد السلاجقة كان لذلك "الفتح" أصداء واسعة من الفرح في المشرق العباسي السني قابلها رنة أسى في مصر الفاطمية التي لم تسلم بالأمر وظلت تعمل على استرداد البلد مع فلسطين كلها حتى استطاعت استردادها قبل خمسة أشهر فقط من وصول الصليبيين إليها. وكان من تقدير المكان الديني لفلسطين في العهد السلجوقي ما وفد إليها من جموع العلماء الكبار وما قام فليها من حركة علمية نشطة.

غير أن هذه العناية الفاطمية السلجوقية لم تشمل السكان فقد كان الحكم الاستبدادي هو الطريقة السائدة وكان فرض المغارم والضرائب والمصادرة وتخريب الزروع والبيوت من طرق الإدارة المألوفة. كما كان مصير الرعايا رهناً بأهواء الحاكم، وهو في أغلب الأحيان من القاعدة العسكريين "المغاربة" أو "الأتراك" ورهناً بقدرته الإدارية وجشعه المالي. وعدد من هؤلاء الحكام سجلوا أسماءهم بالسواد في ضمائر الناس من أمثال جعفر بن فلاح الكتامي وابنه علي والمفرج بن الجراح وابنه حسان وأبي محمود الكتامي وأتسز الخوارزمي. ومقابل ذلك ذكروا عن أحد الولاة الموصوفين بالعدل في

الشام وهو أنوشتكين الدزبري أنه ترك بعد ١٧ سنة من الولاية مليونا ومائتي ألف دينارا.

وإذا كان الظلم الإداري والمالي في تلك الفترة شاملاً الجميع من مسلمين وذميين فقد كان لبعض الحكام دواعيه السياسية لإصابة الذميين خاصة بقليل أو كثير من التضييق. والحادث البارز في هذا الصدد إنما جرى في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تأثر من موقف البيزنطيين من دولته فضيق على أهل الذمة وأصاب فلسطين خاصة رشاش من هوسه إذ أمر بهدم عدد من الكنائس ومنها كنيسة القيامة في القدس سنة ٤٠٠. غير أنه عاد في آخر أيامه فأطلق للنصارى حرياتهم الدينية وسمح لهم بتجديد ما هدم من كنائسهم وأعيد بناء كنيسة القيامة في عهد ابنه الظاهر سنة ٤٢٧ ثم في عهد المستنصر.

كانت النتيجة الأهم لهذا الحكم الاستبدادي المستمر هي قيام القطيعة الكاملة بين الحكام والمحكومين. وتأصل طبقات من العداء بعضها فوق بعض في النفوس كانت تنفجر كلما وجدت متنفساً لها. أما حين يصطدم الحكام بعضهم ببعض أو يتعرضون لغزو خارجي فقد كانت جماهير الشعب والناس تتلقى كل أولئك ــ رغم أنها لا تتحول ــ إن تحولت ــ إلا إلى الشماتة أو العطف السلبي أو الرعب المكبوت حسب نظرة الناس للمنتصر والمهزوم. وقد كان لهذه السلبية نتائجها الخطرة، إذ تحولت القضايا المصيرية لأهل الشام (ومنها فلسطين) إلى قضايا منفصلة عنهم لا تخص إلا الحكام. وقد ظهر ذلك بوضوح في ما تعرضت له فلسطين (والشام معها) من ألوان الاجتياحات البشرية والعسكرية في تلك الفترة، وهي أحداث أضافت مآسيها إلى المآسي الأخرى. على أن ذلك كله لم يمنع من قيام العديد من الانفجارات الثورية أيضاً.

و) الثورات المحلية:

وقد كان محورها الخط الممتد ما بين الرملة، طبرية إلى دمشق، حيث كانت تقوم الثورات على العباسيين في بغداد من قبل، وعلى الإخشيديين في مصر. ولم تعرف فلسطين الفاطمية الاستقرار إلا لماماً لأن دواعي الثورة على الفاطميين كانت تتكاثر لا سيما في القرن الخامس حين ضعفت قبضتهم على البلاد. وقد كانت أسباب الثورة في معظم الأحيان ناجمة عن عجز الحكام الفاطميين، وعن الظلم المالي، وعن سوء معاملة "المغاربة" جند الفاطميين للناس، وعن تمرد هؤلاء الجنود أنفسهم واصطدام فرقهم بعضها مع بعض في بعض الأحيان، كما كان يرفدها على الدوام سبب مذهبي هو رفض أهل

الشام الجنوبي وخاصة دمشق للمذهب الفاطمي الشيعي وتمسكهم بالسنة. وقد بلغ من اضطراب الأمن وكثرة الثورات أن شكلت كثير من المدن مثل القدس وعسقلان وطبرية وصور وعكا ودمشق فرقاً عسكرية من أبنائها للدفاع عنها عند الطوارئ، وفي أيام الانتفاضات، عرفت باسم "الأحداث" واستمرت موجودة حتى أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبالرغم من أن سلطة الفاطميين كانت في الساحل الفلسطيني أقوى منها في الداخل بسبب قوة الأسطول الفاطمي وعجز الجيش البري أمام البدو فإن بعض مدن الساحل عرفت الثورة والتمرد أيضاً مثل صور التي تزعمها ملاح اسمه علاقة سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م. ، مثل عكا. وكانت سنابك الجيوش الفاطمية في اندفاعها لإقرار الأمن وإخماد التمردات وإقرار النفوذ الخلافي لا تنقطع عن حراثة أرض فلسطين في كل اتجاه خلال هذه الثورات التي كانت كثيراً ما تتحالف فيما بينها ثم تنتهي مع ذلك بتدمير الزرع والضرع ودفع الغرامة الباهظة. إحدى حرائق الجامع الأموي في دمشق إنما كانت نتيجة إحدى الثورات في تلك الفترة، ولقد دمرت صور وطبرية والرملة وغيرها مرات في مثل هذه الأحداث، كما دمرت القدس وعسقلان ويافا في العهد السلجوقي في أحداث مماثلة.

ز) هجمات القوى الطامعة:

وإذا كان بعضها عربياً ويكاد يشبه القوى البدوية الأخرى فإن باقيها أجنبي تارة في العرق والدين وتارة أخرى في العرق فقط.

أولى هذه القوى: الحمدانيون، وبالرغم من أن حروبهم مع الروم قد استنفدت قواهم كلها فإنهم كانوا يطمعون في الانسياح نحو الجنوب وأخذه من الإخشيديين ثم من الفاطميين وقد وصلوا دمشق إلا أنهم لم يجاوزوا مشارف فلسطين الشمالية ثم لم يستقروا ولكنهم خلال ذلك أثاروا القلق والاضطراب في المنطقة الجنوبية.

ثانية هذه القوى: الروم، فإن اليقظة الحربية التي أصابتهم وخاصة في الربع الأخير من القرن الرابع/ العاشر الميلادي عقب حروبهم مع الحمدانيين وانتصارهم على شمال الشام واحتلالهم إنطاكية قد فتحت أمامهم آمالاً صليبية نامت منذ أربعة قرون باسترداد بيت المقدس من المسلمين. الإمبراطور حنا تزمسكيس (٩٦٩ ـــ ٩٧٦) لم يخف أطماعه هذه التي يمكن أن تعتبر المقدمة الأولى للغزو الصليبي المقبل، وقد ذكرها بوضوح في الكتاب

الذي أرسله إلى حليفه آشوط الثالث ملك أرمينيا حول حملته على الشام إذ قال: «رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين..»[1].

وهكذا قام تزمسكيس بأول حملة صليبية مبكرة في هذا السبيل فعبر بجيشه من إنطاكية إلى دمشق عن طريق البقاع ثم إذا صدقنا قوله الذي لا يؤيده المؤرخون فتح طبرية والناصرة وقيسارية وحرر كل فينيقية وفلسطين وسورية «ولو لم يختبئ الوثنيون الذين كانوا يعيشون هناك في القلاع على الساحل خوفاً منا لكنا استطعنا أن ندخل بمعونة الله مدينة القدس المقدسة وأن نصلي لله في الأماكن المقدسة..». ويبدو حقاً أن هذا الاحتلال الذي يدعيه تزمسكيس "يعود إلى الخيال" لأن الغزوة البيزنطية التي قادها سنة ٩٧٥ انتهت بدخوله دمشق ولعله لامس المناطق الشمالية من فلسطين لكن آماله كانت أبعد من أقدامه بكثير وقد منعه منها قوة الفاطميين.

أما ثالثة القوى فكانت قوة إسلامية قادمة من البعيد البعيد فيما وراء تركستان هي الأتراك الغز بزعامة السلاجقة. وكانوا قد اكتسحوا في موجة بشرية واسعة ما بين أقصى خراسان حتى الأناضول والعراق وظهرت بعض عصاباتهم في شمال الشام حين استدعى والي فلسطين الفاطمي بعضاً من هذه العصابات الغزية سنة ٤٦٣/ ١٠٧٠ على شكل مرتزقة لمعونته على حماية البلاد من غزوات البدو. لكن هذه العصابات ما لبثت أن أدركت ضعف الفاطميين وإفلاسهم المالي بعد سنوات المجاعة و"الشدة المستنصرية" التي امتدت سبع سنوات قبل ذلك فاستولوا على فلسطين لحسابهم الخاص: أخذوا الرملة وكانت خربة وبيت المقدس وملكوا طبرية ثم دمشق ثم عكا (لفترة محدودة) وسرعان ما قامت مملكة تركية في المنطقة وضعها زعيمها المغامر أتسز تحت ظل السلاطين السلاجقة وقد حاول غزو مصر فلما عاد منهزماً ثارت عليه فلسطين كلها، ونهبت القدس أهله، فجاء إليها وقتل فيها ثلاثة آلاف إنسان وفرض عليها الأموال المرهقة وسار إلى الرملة فلم يجد بها أحداً لأن أهلها هربوا، ثم جاء غزة فقتل كل من فيها حتى لم يدع عيناً تطرف..[1].

ولم تكن عمليات الإبادة القاسية هذه غريبة عن طرائق السلاجقة في الغزو ولكن هذه القسوة مع فقد القوة البحرية لدى الغزاة أبقتا الساحل الفلسطيني والشامي حتى طرابلس في أيدي الخلافة الفاطمية.

---

[1] Chronique de Matthieu d'Edesse, (Documents Armeniens) Vol. I. P. 20 (La lettre entre) P. 13 - 20.

[1] سبط ابن الجوزي ــ مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١٦٧ ظهر.

على أن أتسز اضطر تحت ضغط الفاطميين أن يسلم المملكة إلى (تتش) شقيق السلطان السلجوقي ملكشاه الذي قتله واستبد بالبلاد مالكا لها حوالي ١٥ سنة. وقد آلت دمشق وفلسطين إلى ابنه دقاق من بعده. وكان جيش دقاق عند إنطاكية يدافع دخول الصليبيين إلى الشام سنة ٤٩٨ حين استرد الفاطميون القدس. لم يستطيعوا أن يدركوا أنها ستخرج من أيديهم بعد أشهر للفرنجة الصليبيين.

٥ ــ فلسطين بين الغزو الفرنجي (الصليبي) والعصر الأيوبي:

كان الغزو الفرنجي (الصليبي) حلقة في سلسلة الاجتياحات البشرية والعسكرية التي أخذت تتعرض لها فلسطين منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). على أنه كان أخطرها وأقساها على الإطلاق لأنه على الأقل كان صراعا دام قرنين وامتلأ بمئات من المعارك المتصلة التي امتدت ميادينها ما بين دلتا النيل وأقصى الجزيرة وانتقلت فلسطين والأرض المقدسة خلالها إلى مركز اهتمام العالمين معا: الغربي المسيحي في أوروبا من جهة والشرقي الإسلامي فيما بين إيران ومصر حتى المغرب من جهة أخرى.

وإذا كان السلاجقة قد قدموا من أقصى تركستان ففرضوا أنفسهم طبقة حاكمة في الشام وإقطاعية عسكرية وزاحموا الفاطميين على حكم فلسطين، فإن الفرنجة قدموا من أقصى الغرب ليفرضوا أنفسهم طبقة حاكمة أخرى. وقد كان مقدرا لهاتين الطبقتين الغريبتين ــ والسابقة منهما لم تكن قد استقرت بعد في الشام تماما ــ أن تصطرعا أقسى الصراع لأن الرهان إنما كان على أرض مقدسة في أعين الطرفين وعلى عقد التجارة العالمية ومرافئها في الشرق. ولما كان السلاجقة مسلمين وعلى مستوى حضاري بدوي فقد ذابت جموعهم شيئا فشيئا في السكان مدخلة على المجموع العربي شيئا كثيرا أو قليلا من التعديل الاتنوغرافي سوف يزداد أثره مع القرون لا سيما في المدن. وفي الوقت نفسه ألف السكان مع السلاجقة بالتدريج جبهة واحدة، إذ استيقظت على ضربات الفرنجة صلات الحكام بالمحكومين، فإذا بهم يلتقون جميعا على العداء والحرب للفرنجة الغزاة. أما الفرنجة بالمقابل فظلوا غرباء عن البلاد ليس لأنهم فقط مسيحيون ولكن لأنهم ظلوا جسما غريبا ضمن المجموع السكاني المتجانس. وبالرغم من أنهم ملكوا الأرض والمدن بالقوة وظلوا بالقوة والمدد الأجنبي يدافعون عن وجودهم فيها إلا أنهم لم يستطيعوا إقامة أي جسر واضح من الصلة بينهم وبين أهل البلاد. فما أن انقطع عنهم المدد الغربي من المال والرجال حتى تقرر مصيرهم بالجلاء الإجباري.

أ) الغزو الفرنجي الصليبي لفلسطين:

وصلت جموع الصليبيين الأولى إلى فلسطين من شمال سورية عن طريق الساحل ربيع سنة ١٠٩٩، أي بعد أربع سنوات فقط من إعلان البابا الدعوة لتخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، ومع أن الحماسة الدينية هي السمة الظاهرة التي تلهب جموعهم وتحركهم إلا أن ألوانا من المطامع الدنيوية السياسية كانت تملأ رؤوس قادتهم، وأشتاتا من الأطماع الاقتصادية كانت تعتمل في نفوس أصحاب الأساطيل الإيطالية التجارية الذين كانوا يمدونهم بالمال والرجال والمعونة عبر البحر.

و لم يجد الفرنجة صعوبة كبيرة في احتياز مدن الساحل: عكا، حيفا، قيسارية، أرسوف، لأنهم لم يتعرضوا لها ولا هي عرضت لهم وقد تحولوا إلى الداخل عند يافا فمروا بالرملة ثم ضربوا الحصار قرابة أربعين يوما على القدس. و لم يصل المدد الذي كانت تنتظره حاميتها الفاطمية التي لا تزيد عن ألف رجل بينما كان عددهم يزيد عن ٥٠ ألفا فسقطت المدينة (١٥ تموز سنة ١٠٩٩)... المذبحة استمرت أسبوعا بعد ذلك كانت من أبشع المجازر في التاريخ فقد ملأت القدس بالجثث المكدسة التي ذاقت الذبح والحرق وتقطيع الأوصال، وبلغ مجموع الضحايا سبعين ألفا. وكتب الصليبيون أن خيولهم تخوض في الدماء إلى الركب في أروقة المسجد الأقصى.

وأقفرت القدس إلا من الغزاة والجثث فأخرجوها خوف الأوبئة والتمسوا بعض المسيحيين المحليين ليأهلوا معهم المدينة وحولوا المساجد كنائس. وإذا رفض الأمير الذي نصبوه للحكم أن يحمل من الورع لقبا سوى: حامي القبر المقدس فإن الأمير الذي خلفه بعد سنة فقط حمل لقب الملك سنة ١١٠٠. وانكشف أن الفرنجة لم يكونوا ينظرون إلى الأرض المقدسة كمكان ديني بقدر ما يريدونها إمارة سياسية ومركزا تجاريا وموطن هجرة بشرية مستقرة.

وهكذا بعد أن ظهرت إمارتا الرها وإنطاكية ظهرت مملكة بيت المقدس اللاتينية التي استطاعت في أقل من سنة أن تمد حدودها من منطقة الجولان حتى وادي العربة، ومن غزة حتى شمال عكا بما في ذلك الجليل وسرعان ما وضعت لها القوانين والنظم على النمط الغربي الإقطاعي، ونقلت لها أنماط الحياة الفرنجية وتأسست من الجموع الصليبية التي بقيت في البلاد مجتمعات خاصة، عسكرية ودينية سكنت المدن تاركة الريف في الغالب لسكانه وأصحابه الأصليين. شكل الغزاة طبقة حاكمة جديدة ولكنها أجنبية قوامها أعداد من المغامرين والحجاج والتجار والمرتزقة ورجال الدين.

وشكل المتطوعون للعمل المدني منظمتين عسكريتين دينيتين الأولى الداوية (أو رجال الهيكل) لتأمين وصول الحجاج الغربيين إلى القدس والثانية الاسبتارية لتأمين المأوى لهم. ولكنهما تحولتا بسرعة وبسبب طبيعة المجتمع العسكري الصليبي وحاجاته الدائمة للقتال، إلى إمارتين داخل الإمارات وإلى فرقتين عسكريتين من الرهبان.

وقد عاش المجتمع الفرنجي الدخيل على ما يأخذه من الضرائب المحلية الزراعية وما يأتيه من المدد الغربي وما ينهبه من الأرض الإسلامية وعلى ما يتقاضاه خاصة من الرسوم والمكوس على القوافل ومرافئ التجارة. ونزلت في المدن الساحلية (مثل عكا، أرسوف، قيسارية، يافا) جاليات تجارية إيطالية بصورة خاصة (من جنوة ونابولي والبندقية وغيرها) منحت الأسواق الحرة والامتيازات في إقامة حي تجاري على ثلث المدينة يتبع بلادهم في التشريع وله البيوت والفنادق واحتكار التجارة ببعض البضائع دون رسوم ولا نفوذ عليه وذلك جزاء مشاركتها في غزو هذه البلاد والاستيلاء عليها كما احتكر الفرنجة كافة المعاملات التجارية بين الشرق والغرب عبر مرافئ الشام وبنت مملكة القدس خاصة مرفأ أيلة (العقبة) وقلاع الشوبك والكرك في شرقي الأردن لإحكام سيطرتها على قوافل التجارة الإسلامية بين مصر ودمشق والحجاز.

وظل المجتمع الفرنجي في فلسطين في تجدد بشري مستمر بما يصله من الجموع الأوروبية، وفي اتصال مستمر بأوروبا ـــ وأحيانا بمشاكلها ـــ فلم يستطع أن ينسى لا أصله ولا تقاليده ونظمه، كما أنه عاش بالمقابل في عزلة دائمة عن المجتمع الشرقي بسبب الحروب التي كان يشنها دون انقطاع عليه لتأمين استقراره. وزاد الحاجز اللغوي (أي اللهجات اللاتينية التي يتكلمها) في انعزاله فلم يتعلم الفرنجة اللغة العربية إلا فيما ندر ولا تعلم أحد من المجتمع الإسلامي لغة اللاتين للتفاهم معهم. وإذا كان ممكنا أن تشكل المسيحية جسر اتصال بين الفرنجة ومسيحيي الشرق فإن مذاهب الشرق محدودة لا سيما مع جو العداء الحربي الدائم بين المسلمين والفرنجة. وبالرغم من أن الصليبيين قد أخذوا مع الأيام بعض مظاهر الحضارة الشرقية في الطعام والملابس والأدوات والمعلومات الطبية ورقة الطباع، كما تعاملوا دون انقطاع في التجارة مع المسلمين، إلا أن مظاهر الاتصال هذه ظلت سطحية ومحدودة قاصرة، وظل المجتمع الصليبي مجتمعا اصطناعيا مزروعا في وسط عدائي، وقد عبر عن ذلك أن الأثر الوحيد الذي تركه الصليبيون بعد مائتي عام من الإقامة في الشرق هو القلاع الحربية التي كانوا يعتصمون بها وبعض الكنائس التي تشبه القلاع.

ويبدو بالمقابل أن المجتمع الإسلامي الذي بقي في الريف الفلسطيني ظل يعيش حياته العادية تحت الحكم الفرنجي وضمن نظمه وقوانينه. وقد شكلت جماعات منه بعض العصابات لقطع الطرق وتدمير الأمن منذ الأيام الأولى وقد أشار إليها كتاب الفرنجة[1] مما دعا إلى تشكيل فرقة الداوية. كما أشار الى هؤلاء أسامة بن منقذ بعد أن زار فلسطين الصليبية سنة ١١٢٣ وإلى علاقات العداء بين بقايا المسلمين هناك والصليبيين وإلى الكيد الذي يكيده بعضهم لبعض[1].

وأما من الناحية السياسية فأضحت مملكة القدس في فلسطين رأس مجموعة من الإمارات اللاتينية تمتد على طول الساحل السوري وحتى عمق واضح في الجزيرة مشكلة إمارات طرابلس وإنطاكية والرها وتاركة الداخل السوري كله بيد المسلمين. وتوالى على القدس ملوك لعل أهمهم الثلاثة الأوائل الذين قامت على جهودهم كل سمعة المملكة في القوة والتوسع.

ب) المقاومة الإسلامية:

وإذا كان المجتمع الشامي (والعالم الإسلامي من ورائه) قد فوجئ بالغزو الصليبي وظنه أول الأمر من "الروم" فإن ردة فعله كانت على المستوى الفكري ـ الروحي سريعة جدا وإن كانت على المستوى العملي العسكري محدودة ومتفرقة. في دمشق، وحين كان الصليبيون لا يزالون عند إنطاكية جلس فقيه شافعي في الجامع الأموي يعلن فريضة الجهاد على الشام أولا وعلى العالم الإسلامي بعد ذلك. وبعد سنتين كان شيخ دمشقي آخر هو علي بن طاهر السلمي النحوي (المتوفى سنة ٤٩٩/ ١١٠٥) يقرر أن هذا الهجوم هو واحد من غزو ذي ثلاث شعب بعضه من اسبانيا وبعض من صقلية وهذا الثالث على الأرض المقدسة وكتب "كتاب الجهاد" وجلس يدرسه للناس في الجامع الأموي بدمشق[2].

ورغم القطيعة والتباعد بين الحكام والمحكومين فإن فكرة الجهاد قد جمعتهم ضد العدو المشترك وبدأت المقاومة باسماء غير مشهورة من مثل مودود صاحب الموصل

---

[1] ذكر الراهب الروسي دانيال الذي زار الأرض المقدسة سنة ١١٠٦ أن الأمن مفقود وأن على الطرق العدد الكبير من قطاع الطرق، وذكر ذلك سيوولف وغيره. (انظر عارف العارف ـ المفصل في تاريخ القدس. ص١٥٨ و١٦٥).

[1] انظر كتاب أسامة بن منقذ ـ الاعتبار، ص١٣٨ و١٣٩.

[2] الأجزاء الباقية من هذا المخطوط موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

وطغتكين صاحب دمشق اللذين هزما الصليبيين هزيمة منكرة عند طبرية سنة ١١١٢، كان ممكنا أن تكون مثل حطين لولا أنهما لم يستثمرا نتائجها، ولولا أن الثاني تآمر على الأول فقتله. ولكن المقاومة استمرت في تصاعد.

كانت عسقلان قد بقيت في أيدي الفاطميين رأس جسر حربي وتجاري مدة نصف قرن بعد الغزو الصليبي ولكن القوى الفاطمية توقفت بعد خمس أو ست سنوات من النضال عن منازلة الفرنج الذين طمعوا بالعكس في أرض مصر وهاجموها ويئس الفاطميون من جدوى النضال البحري بعد أن ذهب الساحل السوري من أيديهم وقطعت عليهم الأساطيل الإيطالية وغيرها طرق البحر والتجارة مع الشام. ومع أن دمشق اعتبرت أن عليها عبء تحرير فلسطين إلا أنها بعد المحاولات الفاشلة بزعامة طغتكين مالت إلى المهادنة. ولم تفلح المحالفات الثنائية التي عقدها أتابكة دمشق مع غيرهم من أمراء الشام والموصل في زحزحة الصليبيين عن الأرض التي احتلوها في فلسطين أو في غيرها حتى ظهر "زنكي".

كان زنكي من الطبقة الحاكمة التركية، وكانت هذه الطبقة المحاربة وكان التجنيد يجري في صفوف التركمان خاصة، أما التمويل ودفع التكاليف واحتمال الآلام والتخريب والضحايا والدمار فمن نصيب العرب السكان الأصليين. ومع أن دخول الترك كمحاربين إلى الشام قد أخرج من الميدان قوى البدو وجمدها فإنه على ما يبدو جندها أيضا للجهاد وخاصة قبائل طي وكلب، كما أنه لم يستغن عن قوى "الأحداث" المحلية وقوى المتطوعة من الشعوب المسلمة الأخرى كالديلم والأكراد الذين جمعهم الجهاد والارتزاق. في زمن زنكي ونتيجة لأعماله الحربية وتوحيده الموصل مع حلب في أتابكية واحدة، ومحاولته ضم دمشق إليها، تبلورت أفكار المقاومة للصليبيين وتوضحت. فلما استطاع أخذ الرها سنة ١١٤٤ وإلغاء إمارتها اعتبر الناس ذلك بدء الانهيار الصليبي، والواقع أن فترة التوازن بين قوى الغزو وقوى المقاومة كانت قد بدأت تتساوى قبل ذلك، وقد اتضح التوازن يوم فشلت الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق سنة ١١٤٨ وكان فيها ٥٠ ألف صليبي وثلاثة ملوك. ثم جاء نور الدين الزنكي بعد أبيه وتبنى سياسته في توحيد القوى الإسلامية حتى وضحت أهداف المقاومة الإسلامية من خلال الأفكار الأساسية التي راجت في نفوس الناس قوامها: الجهاد والشهادة في سبيل الله من جهة وضرورة توحيد القوى لتخليص القدس وفلسطين من الاحتلال من جهة أخرى. وقلما ذكر الناس إنطاكية وطرابلس في تلك الفترة، ولكن القدس بالذات ومكانتها وقدسيتها في النفوس أخذت تحتل المقام الهام في تبلور المقاومة. كان الفقهاء يؤكدونها

بالأحاديث النبوية الكثيرة ويشيدون بمكانتها. وكما ألفت كتب في الجهاد شارك فيها حتى نور الدين نفسه وعدد من العلماء. كذلك ظهرت سلسلة من الكتب في فضائل القدس وتعظيمها كتبها الكثيرون من المحدثين والفقهاء. وظهرت رسائل في فضائل عسقلان والخليل وألفت كتب الزيارات للمشاهد المباركة.

ولما كانت الخلافة الفاطمية الشيعية في حالة ضعف وتدهور فقد تمثلت المقاومة الإسلامية فقط في محور دمشق ـــ حلب الذي يقوده نور الدين، كما دعا هذا الضعف نفسه كلا من نور الدين والصليبيين إلى التسابق لوراثة الحكم الفاطمي في مصر. كان الصليبيون يريدون توطيد مركزهم في الأرض المقدسة وتوسيع قاعدتهم التجارية بامتلاك دلتا النيل كما كان نور الدين يرمي إلى تطويقهم في فلسطين من الجهتين الشامية والمصرية بأخذ مصر. وانتهت سلسلة الحملات والمناورات التي تمت بين سنتي ١١٦١ ـــ ١١٦٩ باستيلاء صلاح الدين، قائد نور الدين على الحكم في مصر وإلغاء الخلافة الفاطمية بعد قليل والتغلب على المؤامرات الداخلية والدولية التي دبرها الصليبيون وغيرهم ضده.

ج) تحرير فلسطين من الفرنجة:

لم يكن ظهور صلاح الدين مفاجأة ولكنه كان نهاية خط المقاومة الطويل الذي امتد حوالي سبعين سنة حتى الآن، وقد استطاع صلاح الدين عقب وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ أن ينطلق من مصر فيضم أملاك نور الدين إليه ويقضي ١٣ سنة في الاستعداد العسكري والدبلوماسي والسياسي إلى ان تفرغ للوقوف بجيش إسلامي موحد في حطين تجاه القوى الصليبية كلها في الشام مجتمعة. النصر الرائع الذي حازه صلاح الدين في معركة حطين (تموز سنة ١١٨٧) جعلت المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ. انسحقت القوى الصليبية فانطلقت القوى الإسلامية تسترد مدن فلسطين مدينة مدينة: طبرية، عكا، قيسارية، حيفا، نابلس، يافا، صفد، الرملة، بيت لحم، صفورية، عسقلان، غزة، الخليل، عدا مدن سورية الأخرى في الشمال. وأخيرا استسلمت القدس بعد حصار قصير (تشرين الأول سنة ١١٨٧)، وكان موقف صلاح الدين من الحامية الصليبية ومن الفرنجة الموجودين فيها نموذجا رائعا للنبل والتسامح، وإذا كانت مملكة القدس اللاتينية قبل ثمان وثمانين سنة قد بدأت ببحر من دماء المسلمين فقد انتهت هذه المملكة بفصل من العفو ندر مثيله في التاريخ: كان فيها ستون ألفا من الفرنجة فخرجوا بالفداء والأمان والمال والآنية. حتى فقراؤهم افتداهم صلاح الدين بنفسه.

الأحداث الباقية من الحروب الصليبية بعد فتح القدس وهي ست حملات كبرى معروفة كانت صراعا في الفراغ. ومع أن القدس وفلسطين كانت محورها إلا أنها في معظمها لم تجر في فلسطين، وبالرغم من أنها دامت أكثر من مائة سنة أخرى إلا أنها لم تسمح للفرنجة بأكثر من ١٧ سنة من الاحتلال السلمي للقدس (٦٢٦ — ٦٤٣/ ١٢٢٨ — ١٢٤٥). أضحت القدس المقدسة مجرد ستار سياسي يخفي مع الأطماع الاقتصادية مشاكل الغرب نفسه، وقد فرغ من المحتوى الديني للدرجة التي آمن معها العرب بأن خلاص هذه الأرض لا يكون إلا بحملة من الأطفال لأنهم أطهار.

الحملة الثالثة التي كانت رد فعل أوروبا المحموم ضد سقوط القدس والتي حملت إلى الشرق ثلاثة ملوك كانت تمرينا غربيا على الفروسية والحرب والدس السياسي برز فيه خاصة ريشارد قلب الأسد. وكان من نتيجته في صلح الرملة تثبيت أقدام الصليبيين في الساحل الفلسطيني ما بين صور وعكا إلى أطلال عسقلان، وذلك بعد ملحمة من الدفاع الإسلامي الرائع عن عكا برز فيه التحام قوى الشعب العادي مع الحاكم والجند.

وقد توفي صلاح الدين بعد ذلك بقليل سنة ١١٩٣ بعد أن منح القدس عدا التحرير لمسة عمرانية واسعة قوامها البيمارستان للمرضى والخانقاه والمدرسة الصلاحية، كما رمم الجوامع وقبة الصخرة وبنى السور والخندق وجامع جبل الطور وبعض المقابر. ولمس العمران الخليل وعكا وطبرية وغيرها في الوقت نفسه.

لكن الغرب الأوروبي عاد مع ذلك يحمل شعار "استعادة أرض القبر المقدس" وقامت الحملة الرابعة التي انتهت في لحظة من لحظات افتضاح النوايا، إلى احتلال القسطنطينية. وقامت حملة الأطفال فانتهى أمرهم في اسواق النخاسة وقامت الحملة الخامسة سنة ١٢١٧ فتوجهت إلى مصر لا إلى فلسطين وانتهت عند دمياط لا القبر المقدس.

وقامت الحملة السادسة فاتفق صاحبها فريدريك الثاني ملك صقلية مع الملك الأيوبي الكامل صاحب جنوب الشام على صلح سنة ١١٢٩ يعطيه القدس ولكن دون أسوار. وضج العالم الإسلامي لهذا التخاذل وذهب المؤذنون يؤذنون أمام مخيم الملك الأيوبي احتجاجا في غير وقت الأذان فاضطر الملك الذي جاء بعده إلى معاودة احتلالها مؤقتا سنة ١١٣٩ ثم نهائيا سنة ١٢٤٤. ثم جاءت الحملة الصليبية السابعة فانتهت كالخامسة في مصر وعند دمياط.

ومع أن الصليبيين حصروا خلال هذه الفترة كلها في شقة ساحلية ضيقة قوامها مدن الساحل إلا أن الأمراء الأيوبيين الذين تقاسموا مملكة صلاح الدين ثم أبناءهم وأحفادهم كانوا من الأنانية والزحام التافه على الإمارات وضيق النظر السياسي بحيث لم يكن أي

واحد منهم بمستوى الهم الكبير الذي ألهب صلاح الدين، حتى أبرزهم وهما العادل وابنه الكامل كانا أصغر من ذلك. وقد زال الأيوبيون من مصر وسورية بين سنتي ١٢٥٠ — ١٢٦٠ دون أن يزحزحوا الصليبيين عن مواقعهم بل مكنوهم أيضا من غيرها.

وهكذا بقيت المهمة الصعبة والمقدسة في تصفية الصليبيين لمماليك الأيوبيين يقومون بها وبغيرها ويكسبون عن هذا الطريق المجد في عيون الإسلام وشرعية الحكم أيضا.

د) الأيوبيون وفلسطين:

انتصار صلاح الدين في حطين واسترداده الأراضي المقدسة أعطيا أسرته من بعده حق الحكم في مملكته الممتدة ما بين أعالي الجزيرة وأعالي مصر واليمن أيضا. ولكن الأيوبيين من أمراء البيت أو قواد الجيش تقاسموا هذه المملكة بينهم واعتبر كل واحد منهم ما يقع تحت يده منها نوعا من الاقطاع العسكري[1]، وهو المفهوم الإداري الذي دخل الشام مع السلاجقة (وكان الصليبيون يطبقون ما يشبهه) والذي أضعف الإدارة ضعفا مهد لزوالها في العصر المملوكي.

كانت فلسطين أولا موضوع نزاع بين ولدي صلاح الدين (الأفضل والعزيز) حتى أخذها الملك شقيقه الملك العادل (٥٩٦ — ٦١٥/ ١١٩٩ — ١٢١٨) ثم تسلمها المعظم ابن العادل حتى سنة ٦٢٤/ ١٢٢٦ وفي السنة التالية صارت للملك الكامل ٦٢٥/ ١٢٢٧ (الذي تنازل عن القدس سلميا للملك فريدريك صاحب صقلية النورماندي سنة ٦٢٦) وورث أعمال فلسطين بعد ذلك ابنه الملك الناصر (الذي تحررت القدس في عهده سنة ٦٤٢) ثم توفي لينتهي الحكم الأيوبي بابنه طورانشاه سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠ ويبدأ العهد المملوكي الذي تبعته منذ ظهوره غزة والقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله.

وبالرغم من قلق العهد الأيوبي في فلسطين في بعض الأحيان فقد أفادت منه البلاد في ثلاث نواح هامة:

أولا: النشاط الاقتصادي: فقد عنى الأيوبيون بأمور الزراعة والري في فلسطين (وفي غيرها من ممالكهم) ليستفيدوا من العائد الزراعي. وإذا تذكرنا أنهم كانوا يسيطرون على ما بين مصر واليمن والشام عرفنا لماذا أولوا التجارة عنايتهم الكبيرة ولماذا انتهجوا طريق المسالمة والاتفاق مع القوى التجارية الغربية وعقدوا المعاهدات التجارية مع المدن الإيطالية

---

(1) المقريزي — الخطط (ط بولاق)، ج١، ص٩٧.

ومع الفرنجة (الفرنسيين الجنوبيين) والقطلانيين (الاسبان) وفتحوا لهم مرافئ الشام ومنها في فلسطين عكا ويافا خاصة ومنحوهم التسهيلات لإقامة البيوت التجارية وللمجيء بالحجاج الغربيين إلى القدس والذهاب بالمطرزات والنسيج والزجاجيات وبالقطن وبمختلف بضائع الشرق وبخاصة التوابل بأنواعها والأحجار الكريمة والبخور والعقاقير والأصباغ التي كان يقوم على تجارتها في ما بين المثلث الأيوبي (اليمن ــ مصر ــ الشام) وما بين الهند التجار المعروفون بالكارم أو الكارمية الذين وجدوا منذ العهد الفاطمي ولكنهم برزوا كتنظيم تجاري دولي في العهد الأيوبي. وكانت لهم في الشام وفلسطين ومصر تنظيماتهم القوية تجاريا وماليا وفي الأساطيل والوكلاء.

ثانيا: النشاط العلمي: إن عودة القدس وفلسطين إلى المسلمين، بعد عودة مصر الفاطمية إلى الفلك السني، وما أثارته الحركة الصليبية من ردود فعل دينية وفكرية كل ذلك جعل الشام بصورة خاصة مركز جذب لموجات متصلة من العلماء الوافدين من المشرق والمغرب إليها في العهد الأيوبي (من المشارقة مثلا كان الشهرزوري وسبط ابن الجوزي وسيف الدين الآمدي وعبد اللطيف البغدادي، ومن المغرب جاء ابن سعيد وابن عربي وابن مالك وابن البيطار وابن ميمون اليهودي الطبيب) وقد زاد في اجتذابهم تنافس البلاطات الأيوبية على إكرامهم وتشجيعهم والحركية الاجتماعية والغنى التجاري الواعد. وهكذا صارت بلاد الشام في العهد الأيوبي، رغم مآسيه السياسية، المركز العلمي الأول في البلاد الإسلامية، وتجمع كما برز فيها الفقهاء والمحدثون والأطباء والكتاب والشعراء والعلماء بالعشرات وبنيت لهم المدارس والزوايا والخانقاوات والبيمارستات. وقد نالت فلسطين، والقدس منها بالذات، نصيب كبير من هذا التحرك الثقافي الواسع الذي أخذ بصورة عامة ثلاثة اتجاهات:

١ ــ الطب الذي نما وظهرت الحاجة إليه مع الحروب لدرجة أنه كتب في تاريخ رجاله في وقت واحد تقريبا موسوعتان (كتاب ابن أبي أصيبعة في دمشق وكتاب القفطي في حلب) وبنيت له المدارس فيهما كما أقيمت البيمارستانات ومنها البيمارستان الصلاحي في القدس.

وكان من أطباء فلسطين البارزين في القدس: يعقوب بن صقلان القدسي وابنه سديد الدين، وابن الصوري النباتي وحفيده علي، وفتح الله المقدسي ورشيد الدين ونجم الدين اللبودي هذا إذا لم تذكر العلوم العملية الأخرى المرافقة للطب كالصيدلة وعلم النبات.

٢ ــ علوم الدين من قرآن وحديث وفقه وما يتصل بذلك، وتراجم رجال هــــذه العلوم من أهل فلسطين أو ممن جاؤوها تملأ كتب التراجم. وإنما كان عددهم كبيرا لأن نظام "المدارس" الذي ظهر أواخر القرن الخامس في المشرق الإسلامي انتشر بسرعة كبيرة وعلى نطاق واسع وبنيت له أيام الأيوبيين الأبنية الخاصة في الشام وفلســـطين ومصـر وأضحى المصدر الأساسي لموظفي النظم السلجوقية والأيوبية. كما منح المذهب السني ما يلزمه من الأجهزة الدعائية المنظمة.

٣ ــ الزهد والتصوف: وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة التصعيد في الموقــــف الإيمـاني وازدواج ذلك مع التهديد الصليبي ــ المغولي من جهة وقدسية الأرض الفلسطينية مــن جهة أخرى. وإذ كثر الزهاد والمتصوفة في فلسطين والقدس فقد أعطاهم الجو العام مـبرر الانطلاق في هذا السبيل كما أن الأعياد الدينية التي أنشأها صلاح الدين في "مواســـم" سنوية محددة لإبراز قوى المناطق وربطها بعضها ببعض في فلسطين أعطت الفرق الصوفية مجال الظهور بتظاهرات جماعية.

ثالثا: النشاط العمراني: كان العهد الأيوبي مطلع مرحلة من العمــــران الواســع في فلسطين امتدت على عدة قرون بعده. والعناية التي بذلها الأيوبيون في منــــح فلســطين المنشآت العمرانية وحبس الأوقاف عليها لم يسبقهم بها سوى المماليك من بعدهـم. وإذا كان صلاح الدين، قد بدأ تلك الأعمال رمزا لعودة فلسطين إلى أيدي المسلمين وتثبيتــا للمؤسسات الإسلامية فيها، فإن الذين تولوها من الأيوبيين بعده قد تـــابعوا الأعمــال نفسها، وحين انتهى عهدهم في منتصف القرن السابع، كانوا قد أعطوا فلسطين مجموعـة من الجوامع والمدارس للتدريس والخانقاهات والزوايا والأسوار الدفاعية عن المدن. ولعـل أكثرهم نشاطا في هذا المضمار هو الملك المعظم عيسى ومعظم الأبنية الحاليـــة في قلعـة القدس وفي المسجد الأقصى من أعماله، وهو الذي بنى قلعة جبل طابور وجامعه، وجامع النبي يونس في حلحول وحبس الأوقاف الكثيرة على الحرم الإبراهيمي في الخليل وأنشـأ سبيل شعلان شمالي الحرم والمدرسة النحوية والمدرسة المعظمية والناصرية، كما بنى الملـك الأفضل المدرسة الأفضلية والجامع العمري في القدس. بالإضافـة إلى سـقايات وسـبل أوقاف ومنشآت أخرى. والكتابات الأثرية التي تخلد هذه الأعمال ما تـزال إلى اليـوم منقوشة على بقاياها.

وإذا انقضى العهد الأيوبي وفي القدس وحدها تسع مدارس دينيـــة بناهــا الملــوك والأمراء تعبيرا عن مقامها الديني فإن هذا البلد قد حظي أيضــا لأول مـرة وفي العــهد الأيوبي نفسه بثلاثة مؤلفات تحكي فضائله وتؤكد قدسيته في الضمير الإســلامي. وقــد

كتب أحد هذه المؤلفات في بغداد أبو الفرج ابن الجوزي وكما كتب الكتابين الآخرين عالمان من أسرة ابن عساكر العلمية في دمشق عملا في التدريس بمدارس القدس.

٦ ــ فلسطين في ظل المماليك والعثمانيين:

بدأ العهد المملوكي بداية مثيرة أعطت المبرر لوجوده. فهؤلاء المماليك الذين استخدمهم الأيوبيون جندا لهم استطاعوا الاستفادة من التناحر الأيوبي لقيموا نظاما لم يعرف له مثيل من قبل ولا من بعد هو أن يتولى رئاسة الدولة المماليك فقط وأن يتوارثها أيضا المماليك بعضهم من بعض. ومع أن هذا النظام قام في مصر سنة ١٢٥٠ فإن الشام كلها دخلت فيه بحكم استيلاء المماليك على تركة سيدهم الأيوبي. وكان من المصادفة أن فلسطين بالذات هي التي قدمت للمماليك فرصة الظهور البطولي على المسرح الإسلامي وتوحيد مصيري الشام ومصر، وذلك في عملين تاريخيين:

١) دفع الخطر المغولي:

فإن هذا السيل البشري المدمر كان قد بدأ يكتسح البلاد الإسلامية من الشرق منذ مطلع القرن السابق (الثالث عشر الميلادي). فما أن سقطت بغداد في يده سنة ٦٥٦/١٢٥٨ حتى كانت الخطوة التالية بلاد الشام فسقطت حلب وحارم وحماه ودمشق ووصلت طلائع المغول حتى غزة. وكلمة "سقطت" لا تمثل الواقع الذي كان سلسلة من النكبات والمذابح والدمار. كان المغول لا يغادرون مكانا إلا خلفوه جثثا وأطلالا تحترق. ووجد المماليك أنفسهم في مصر ــ ودولتهم ما تزال في مستهلها ــ أمام أحد حلين: إما أن ينتظروا الموت حتى يأتيهم أو أن يذهبوا بأنفسهم إليه في محاولة يائسة للدفاع. وخرج الجيش المملوكي فالتقى بجيش المغول عند عين جالوت بين طبرية والناصرة سنة ١٢٦٠ ووقعت المعركة الفاصلة التي كانت نقطة تحول في التاريخ وذاق المغول لأول مرة مرارة الهزيمة المنكرة وقتل قائدهم كتبغا وتراجعوا ثم تراجعوا إلى ما وراء حدود الشام. وانتهى بذلك الغزو المغولي الأول والكبير للشام. ولقد تأيد الموقف المملوكي جدا بعد ذلك بسحق الغزوة المغولية الثانية سنة ١٢٨٠ عند حمص ثم بسحق محاولتهم الثالثة والأخيرة سنة ١٣٠٣ عند مرج الصفر جنوبي دمشق بعد أن كان المغول قد اكتسحوا الشام واخترقوا فلسطين حتى غزة[1].

---

[1] أما الموجة التترية التي جاءت بعد ذلك بمائة سنة بقيادة تيمورلنك فقد انتهت بتدمير دمشق سنة ١٤٠١ التدمير الكامل ثم انسحبت دون أن تدخل فلسطين.

٢) تصفية الصليبيين في الشام:

كانت الإمارات الصليبية قد تعايشت بشكل أو بآخر مع الأمراء الأيوبيين، إلا ن الملك الظاهر بيبرس رابع السلاطين المماليك أخذ بفكرة الحرب المقدسة فقاد بين سنتي ١٢٦٣ ــ ١٢٧١ سلسلة من الحملات السنوية تركت حصون الإفرنج تسقط الواحد تلو الآخر بين يديه. وهكذا امتلك الكرك سنة ١٢٦٣ ثم الناصرة وهدم كنيستها ثم أخذ قيسارية بضربة صاعقة سنة ١٢٦٥ ثم أرسوف واحتل سنة ١٢٦٦ صفد وأباد حاميتها البالغة ألفي مقاتل ثم استسلمت له يافا سنة ١٢٦٨ ثم شقيف أرنون في لبنان، ثم سقطت انطاكية فقتل منها ١٦ ألفا وأخذ ١٠٠ ألف أسير. وسقط حصن الأكراد. وجاء السلطان قلاوون بعد ذلك فاستطاع فتح قلعة المرقب ثم طرابلس ١٢٨٩ وتوفى فأتم الفتح ابنه خليل الذي سقط في يده آخر معاقل الصليبيين على الساحل السوري كله: فتح عكا أولا فاستسلمت المدن الأخرى الباقية: صور، صيدا، بيروت، انطرطوس سنة ١٢٩١، ثم استسلمت أرواد، وختمت بذلك الملحمة الصليبية في الشرق الشامي بعد أن استمرت قرنين.

إن النصر المزدوج على الخطرين المغولي والصليبي أعطى الجهاز العسكري المملوكي المبرر لتسلم الحكم بوصفه درع البلاد القوي.

وعبرت بعد ذلك خمسة قرون لم تعرف فلسطين خلالها الغزو الأجنبي حتى وصل إليها نابليون آخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٩٩. ولكنها في الواقع عرفت ما هو أسوأ منه وهو حكم الزمر العسكرية الأجنبية ومشايخ البدو خلال تلك القرون التي يعطوها في التاريخ عنوان: عهد المماليك (ما بين سنة ١٢٥٠ وسنة ١٥١٦) والعهد العثماني (منذ سنة ١٥١٦ حتى ١٩١٨). كان مركز الحكم خلال الفترة الأولى في القاهرة بيد سلطان من القفجاق أو من الشراكسة هو دوما من العبيد السابقين الذين احترفوا الجندية لدى السلطان السابق، وكان المركز في الفترة العثمانية في استامبول بيد السلطان العثماني. وكما مر المماليك بفترة في عهود السلاطين الأوائل أمثال بيبرس وقلاوون وبعض من السلاطين الشركسة (برقوق، قايتباي) ثم انهاروا، كذلك مر العثمانيون بفترة من القوة أيام السلطان سليم وسليمان القانوني، ثم جاءت فترة النزع الطويل "للرجل المريض" التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون. وكانت فلسطين سواء بقيت بلدا مقدس الأرض تحوم من حوله الهالة الدينية ولكنها لم تعد بذات مركز سياسي. ثوارها الذين ثاروا فيها في القرن الثامن عشر هم الذين أعادوا إليها هذا المركز فترة قصيرة. ثم جاء دخول نابليون ثم جيش محمد علي إليها فأعادها إلى دوائر الاهتمام السياسي، ولكن هذا وذاك على السواء لم

يخلصها من الفئات التي أطلقتها الإدارة السلطانية للتحكم فيها وهم من جهة مجموعات أجنبية من العسكر السلطاني الباحثين عن جمع المال ومن الجهة الأخرى جماعات حشعة من البدو الباحثين عن مستقر. وبين هؤلاء وأولئك كانت معائش الناس وحياتهم الاقتصادية تهتز بين ارتفاع وانخفاض وإن كان خطها البياني يتجه دوما إلى الافتقار، وكانت البلاد تكسب أحيانا بعض العمران في المباني الدينية ولكنها تسير في الفكر على الانغلاق والجمود، حتى مطالع القرن العشرين.

أ) تغير البنى الاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية:

والانقلاب الأساسي الذي تم في فلسطين (والشرق العربي معها) القرون المملوكية ــ العثمانية هو تغير البنى الاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية في البلاد، رغم بقاء كل شيء تحت مظلة الحضارة الإسلامية. لم يكن المجتمع الإسلامي الذي ظهر في الشام (والعراق ومصر) بعد الحروب الصليبية في بناه وطموحاته واهتماماته الحياتية هو المجتمع الإسلامي السابق لتلك الحروب ولو أن الجذور في العصرين واحدة والإطار الديني الشامل هو في الظاهر واحد. الدولة المملوكية وتاليتها الدولة العثمانية لم تكونا امتدادا حضاريا للنظم العربية الإسلامية السابقة ولكنهما كانتا تكوينا سياسيا آخر: قامت أولاهما تحت ضغط الحروب الصليبية ــ المغولية وقامت الأخرى في ظل الحروب التوسعية المتصلة ضد الروم وضد الشعوب البلقانية والأوروبية. وقد أفرزت هذه الظروف القتالية في الحالين، وكرد فعل على الأخطار، وباسم الجهاد والدين، طبقتين متحالفتين:

١ ــ طبقة عسكرية من المماليك ثم من زملائهم الانكشارية العثمانية، تسلمت الإدارة والسياسة تحت رئاسة السلطان (المملوكي أو العثماني).

٢ ــ طبقة دينية أفسحت لنفسها مكانا في النظام السياسي وتعاونت معه وكان هذا النظام نفسه، بسبب غربته عن المجتمع الذي يحكمه، بحاجة إلى التعاون معها وتأييدها.

وما دام الإسلام، في حالتي الدفاع (ضد الفرنجة الصليبيين والمغول) أو الجهاد ضد امبراطورية الروم هو الذي انتصر وما دام هؤلاء الجند من مماليك أو سباهية وانكشارية هم الذين حملوا سيف الإسلام ونصروه، فقد كان رد الفعل العام لدى الناس هو التسليم لقوتي الجند ورجال العلم الديني، أرباب السيف وأرباب القلم، بقيادة المجتمع. فالنظام المملوكي (والعثماني من بعده) هو كما قال ابن تيمية تحالف الجندي مع العالم.

كانت ملامح هذا الانقلاب البنائي قد بدأت تظهر منذ العهد الأيوبي الذي لم يكن سوى فترة انتقال من تكوين بنائي إلى آخر. ولم يكن بروز الطبقتين العسكرية والدينية

إلى واجهة الحكم السياسي هو النتيجة الوحيدة فقد رافق ذلك ما هو أهم منه وهو الإيمان بأن الفكر الإسلامي على الشكل الذي وصل إليه في القرنين الرابع والخامس هو ختام الفكر وقمته الكبرى وإن التمسك بإطاره وحدوده وحرفيته هو الطريق لصيانة العالم الإسلامي وبقائه. فكان كل هم القوتين الدينية والعسكرية المحافظة على استمرارية ما كان والبقاء ضمن الفلك المرسوم. وبالرغم من أن تطور الأيام والأحداث قد جاء بالكثير من المتحولات فانقطعت الصلة بين الحكام والمحكومين، وتفكك المجتمع إلى وحدات دفاعية مهنية وسكنية ومذهبية، وانهارت المركانتلية الإسلامية أمام التطور الاقتصادي العالمي واكتشاف أمريكا وطريق الهند وظهور الراسمالية، وانهار النظام المملوكي بعد تألقه الأول ولم يستطع النظام العثماني تجديد شبابه بسبب ضحالة بعده الاقتصادي وفكره الثقافي فما لبث أن انهار بدوره. بالرغم من ذلك فإن تلك القناعات ظلت تقود الاستمرارية الاجتماعية في طريق المحافظة والانغلاق الكامل عدة قرون.

ضمن هذا الإطار نستطيع أن نفهم النقاط التالية من تاريخ فلسطين:

ب) التطور السكاني:

خلال هذه القرون المملوكية ـــ العثمانية كان شيء قليل أو كثير من التطور الديموغرافي ـــ وليس الاثنوغرافي ـــ يدخل فلسطين باستمرار. لم تترك الموجة الصليبية فيها أي أثر ملموس في الناحية البشرية. جاءت الجالية الفرنجية أجنبية وخرجت أجنبية.

على أن إخراج الصليبيين من فلسطين والذي جاء على دفعتين بينهما حوالي المائة سنة: الأولى زمن صلاح الدين والثانية زمن بيبرس وقلاوون، قد ترك في البلاد في الدفعتين فراغا سكانيا واسعا في المدن خاصة. وكان لا بد أن يمتلئ. ولا شك أن صلاح الدين وأخلافه قد شجعوا التوطن حتى على المستوى الديني وانتشرت أفكار أخذت شكل الأحاديث النبوية تدعي بأن القدس أرض المحشر وأن الصلاة في الأقصى بخمسين ألف صلاة وأن نازله مجاهد وأنه قطعة من الجنة لتدفع الناس إلى السكنى فيه رغم الخطر الصليبي القائم. وهكذا كان أن توطن في فلسطين بعض الجند التركمان (وما يزال منهم إلى اليوم بقايا فيها) وجاءها بأمر صلاح الدين مجموعات من البدو نزلوا أرضها ومنهم بنو حارث وبنو زيد وبنو سالم قرب القدس وبنو عمر عند الرملة وبنو صعب عند نابلس وبنو حارثة عند جنين واللجون.

ويبدو أن الزحف البدوي ظل مستمرا بعد ذلك دون انقطاع حتى أواخر القرن الثامن عشر. وكان هذا الزحف ينشط أو يهمد حسب الظروف السياسية ويستفيد من

فترات الفوضى والاضطراب للتغلغل الدائم كما يستفيد خاصة من النقص المستمر في السكان وفراغها بين فترة وأخرى نتيجة الأوبئة والطواعين والمجاعات التي تخللت العهد المملوكي كله، وأخذت أحيانا كثيرة شكل الكوارث، وأهمها القحط والطاعون في الشام (وفلسطين) ومصر سنة ١٢٩٥، والطاعون الأسود سنة ١٣٤٩ الذي اكتسح حتى أوروبا واستمر سبع سنوات وجاءت وقت كان يموت منه في غزة وحدها ٢٢ ألفا كل شهر، والأوبئة بين سنتي ١٣٥٩ ــ ١٣٦٣، والطواعين الثلاثة التي أصابت البلاد زمن السلطان قايتباي وقد استمر أحدها تسعة أشهر في فلسطين سنة ١٤٧٦ ورافق الثاني القحط والغلاء سنة ١٤٨٦ واستمر الثالث سنة ١٤٩١ قرابة خمسة أشهر وارتفعت ضحاياه اليومية أحيانا في القدس إلى ما فوق المائة ضحية.

وإذا أقفرت هذه الأوبئة البلاد وهبطت بعدد سكانها إلى نحو الثلث فإنها تسببت في الوقت نفسه في الفتن والفوضى كما فتحت الباب لهجوم البادية على الحضر لملء الفراغ. وهكذا نجد العرب البدو قوة وعنصر اضطراب في الأمن خلال العهد المملوكي ولا سيما في أواخره كما نجدهم يملؤون فلسطين ساحلها والداخل خلال العهد العثماني ويشكلون الأكثرية السكانية خارج المدن، وهي ظاهرة واضحة في فلسطين لقربها من الجزيرة العربية وإن كانت أقل وضوحا كلما اتجهنا إلى الشمال في الشام.

ولقد يكون من الضروري أن نعرف بعض الملامح عن هذا الزحف العربي البدوي لأنه في الواقع قد أنهى ــ رغم وجود بعض الأقليات العنصرية الأخرى ــ تعريب فلسطين النهائي. إنا نجد بعضا من قبائل طيء مثل بني جرم وبني حارثة قد بقيت خلال الحكم الصليبي في فلسطين فيما بين غزة والخليل. وقد تكاثرت هذه القبائل ــ فيما يبدو ــ خلال العهد المملوكي فصارت جرم والجرامنة يسيطرون على جنوب فلسطين كله ولشيوخهم لقب عسكري مملوكي (مقدم) ثم أعطوا لقب (أمير) وكان مركز هؤلاء الأمراء وادي الملح شرقي بئر السبع. أما بنو حارثة فقد هاجر قسم منهم منذ العهد الفاطمي إلى مصر (بنو سنبس) وملأ الباقون أيضا قضاء جنين، فما تزال المنطقة بين أقضية الناصرة، حيفا، بيسان تعرف إلى اليوم باسم بلاد بنو حارثة. وقد ساند الجرامنة الذين عرفوا بالبأس والقوة حكم المماليك حتى آخر أيامه فلما جاء العهد العثماني برز بدلا منهم الحوارث في مساندة العثمانيين وانتقلت بذلك مراكز القوى والثقل البدوية إلى الشمال، وصار مقر بني حارثة في سنجق اللجون يتوارثون الإمارة في المنطقة ويستولون فيها على المكوس.

ويبدو أنه في مطالع العهد العثماني وصلت فلسطين، ولكن من مصر هـذه المـرة، قبائل السوالمة وعايد وقبائل بني عطية التي نزلت حول بئر السبع. ولعله في الوقت نفسه أو بعده بقليل حدثت تحركات بدوية في حوران كان منها تحرك قبيلة صقر إلى الجليـل. وفي أواخر القرن السابع عشر جاءت بعض القبائل من شرقي الأردن فالتقت مـع بـني عطية الذين ألفوا معهم حلفا بدويا عرف باسم حلف الوحيدات في الجنوب. كما تـألف جنوب غزة ورفح وبئر السبع اتحاد قبائل ثلاث باسم الترابين. وفي نهاية القـرن الثـامن عشر كان قد انتهى توزع الأراضي بين القبائل في فلسطين ساحلها وداخلها وأضحـى لكل قبيلة أرضها التي تنزلها وتتجول فيها. وبعضها كان قد تحول إلى الزراعة. ولو عددنـا أمهات العشائر لزادت الأسماء وحدها على ٥٠٠، وكثير منها من سلالة تلك القبـائل القديمة السابقة للإسلام مثل النفيعات على طول الساحل جنوب حيفا وهي من جـذام، والعزازمة حول بئر السبع وهي من قضاعة، ويقيم في جنوب بيت لحم التعـامرة أكـبر قبائل فلسطين وهم من بني الحارث من طيء وقد تحولوا إلى الزراعة. ونجد حول أريحـا وفي الغور حتى بيسان قبائل يمنية عديدة من أهمها العرينات والنصـيرات حـول أريحـا والشاتوه في الشمال. كما نجد بين صفد وطبرية عشائر الصويلات والقديرية والمواسـي والتلاوية والدوالي، وحول عكا العرامشة والقليطات وعند مصب الأردن الشمالنة ونجـد بقايا الحوارث وصقر والجرامنة في مواضعهم الأولى تقريبا والسـوطرية حـول الرملـة والسواحرة حول طولكرم، ونجد بعض العشائر القيسية في الخليل مثل الجهالين والكعابنة.

إن اضطراب الحكم في ظل المماليك والعثمانيين إذا فتح حـدود فلسـطين كاملـة للتوغل البدوي، فإن هذا الاضطراب نفسه هو الذي منع وإلى فترة طويلة استقرار القبائل السريع وأبقى فيها العصبيات القبلية القديمة من نوع قيس ويمن. على أن الصورة الأخـيرة للتوزع القبلي في البلاد والتي استقرت منذ القرن الماضي تكشف ــ على أي حال ــ أن ذلك التوغل الطويل العميق قد أنهى تماما تعريب البلاد الاثنوغرافي بعد أن كان تعريبـها اللغوي قد تم قبل العهد الصليبي.

ج) الطوائف الدينية:

بالرغم من أن الإسلام عاد إلى فلسطين بعد الفتح الأيوبي منتصرا كثـير الحيويـة والنشاط إلا أنه تقبل مع ذلك وجود أهل الأديان الأخرى بجانبه فيها. ففي المدن وخاصة منها ذات التاريخ الديني كانت تعيش بجانب المجموعات المسلمة الطوائف المسيحية ومـا يتجمع مرة بعد أخرى من اليهود. صلاح الدين بعد فتح القدس أبقى فيها وفي غيرها من

مدن فلسطين التي وقعت في يده الجماعات المسيحية المحلية (من الروم والسريان). الفرنج (اللاتين) وحدهم هو الذين طردوا كما بقي فيها بعض اليهود. غير أن النكبة التي أصابت الشام كله على يد المغول رغم هزيمتهم سنة ١٢٦٠ أصابت أيضا فلسطين ومدنه ومن فيها. وحين زار السائح اليهودي موسى بن نحمان القدس سنة ١٢٦٧ وجدها خربة خالية ليس فيها إلى جانب ألفي مسلم سوى ٣٠٠ مسيحي عادوا إليها بعد هزيمة المغول وأسرة يهودية واحدة.

ويبدو أن عدم استقرار البلاد وهزات الأمن فيها بفعل الفئات العسكرية والبدوية وما أورثته الحروب الصليبية في النفوس من سلبية ضد المسيحيين، كل ذلك منع من تزايد أعدادهم فبقي وجودهم واضحا فقط في المدن المقدسة: الناصرة، بيت لحم مع القدس. كما أورثهم بعض المضايقات من الحكم الذي كان يخشى أن يحمل أي تحرك من تحركاهم المعنى السياسي الصليبي، وقامت الخصومات الكثيرة بين الطوائف وزاد الارتباط بالإرساليات التبشيرية، فلما جاءت بعض البعثات القنصلية والتجارية الأجنبية كالفرنسية والروسية والانكليزية في العهد العثماني تساندت أيضا معها. وكان من ذلك معاهدة حماية الحجاج المسيحيين بين الدولة العثمانية وفرنسا سنة ١٧٤٠.

وأما اليهود فإن بنيامين التطيلي الذي زار فلسطين في أواخر عهد نور الدين (حوالي سنة ١١٦٥) لم يجد فيها سوى ١٤٠٠ أسرة يهودية أحصاها بنفسه مع كهانها. ومنها مائتان فقط في القدس. ويبدو أن أعداد اليهود ومنهم السمرة ظلت محدودة جدا بعد ذلك حتى أواخر القرن السادس عشر. ذكر السائح فابري في مطالع هذا القرن (حوالي ١٥٠٧) أنه كان في القدس نحو ٥٠٠ يهودي ونحو ألف مسيحي من مختلف الطوائف، وقد وجد في الوثائق المحفوظة في المحكمة الشرعية بالقدس إحصاء لليهود سنة ١٥٧٢ يحدد عددهم بـ ١١٥ شخصا فقط يعيش ٥٥ منهم حول الحرم والباقون في الأحياء، ثم كان من أثر اضطهاد اليهود والمسلمين معا من قبل محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال أن توافد عدد متزايد منهم إلى فلسطين التي كانت قد أصبحت ولاية عثمانية. وكان بين هؤلاء بعض الأثرياء والعلماء مثل عباديا برتينورو. ثم جاءت الاضطهادات الأخرى لليهود في أوروبا وفي بولونيا خاصة في القرن السابع عشر (وهي الحروب المعروفة باسم قائدها شميلتزكسي Schmilinzki ١٦٤٨ ــ ١٦٥٦)، فهربوا مرة أخرى من المذابح إلى فلسطين فصاروا آلافا عديدة. ولكنهم استغلوا تكاثرهم وتسامح السلاطين ليثيروا القلاقل ويزيدوا في اضطراب أمن البلاد. وظهر فيهم أمثال شبتاي ظبي (١٦٢٦ ــ ١٦٧٦) في نشاطه الهدام في القدس سنة ١٦٦٣ فعادت السلطنة العثمانية إلى التضييق

على إقامتهم ونشاطهم ثم منع هجرهم. على أنه، مع كل ذلك، لم يكن منهم في أواخر القرن التاسع عشر في فلسطين أكثر من عشرين ألفا.

د) الحكام والإدارة:

إذا انتقلنا بعد هذا إلى تطور الحكم السياسي وجدنا أن صلاح الدين أعاد القسم الأعظم من فلسطين إلى ما كانت عليه من قبل كجزء من مملكة تضم مصر والشام، وجاءت تصفية المماليك للصليبيين فأتمت هذه الظاهرة السياسية بوحدة القطرين في التاريخ والمصير. على أن طرائق النظامين المملوكي والعثماني في الحكم كانت من السوء بحيث انتهت رغم انعدام الغزو الخارجي إلى التدمير الداخلي.

أولا: الولاة: بلغ عدد من نعرف من ولاة القدس المماليك (التابعين لنيابة دمشق[1]) ٦٨ واليا كانوا جميعا من ضباط الفرق العسكرية المملوكية، أي أنهم جميعا — رغم إسلامهم — غرباء دون جذور في المنطقة كلها لأن أصولهم المباشرة هي من مناطق القفقاس. ورغم المكانة الدينية التي كان يهم المماليك تنميتها ودعمها من حول الأراضي المقدسة فإن الأرض كانت، في اعتبارهم، شيئا آخر منفصلا عن السكان، الذين ذاقوا الويلات من الظلم وقسوة الضرائب والحكم التعسفي. وجاء العهد العثماني بعد ذلك بأكثر من ٧٤ واليا على القدس. كان معظمهم في القرن السادس عشر حتى السبع عشر من الروم (أتراك الأناضول) وهم بدورهم غرباء طارئون ودون جذور في الأرض، على أن فلسطين كانت من الناحية الإدارية تشبه الوحدة السياسية التي حملت هذا الاسم في القرن العشرين، ولا كانت تشبه الأجناد الإسلامية القديمة. كانت نيابة دمشق المملوكية تمتد إلى بيسان وعجلون والقدس والرملة حتى غزة في فلسطين بالإضافة إلى ما بين حمص — عبر البقاع — إلى صيدا. بينما تقوم نيابة في صفد فتحكم المثلث ما بين عكا وطبرية حتى جنين. وتقوم نيابة الكرك تحكم البر في جنوب شرقي الأردن. وقد عاد العثمانيون — دون أن يفكوا ارتباط القدس بدمشق — فجعلوا جنوب سورية كله ولاية واحدة مركزها دمشق ولها الألوية مثل القدس وغزة والسناجق مثل طبرية والناصرة.

وغربة الحكام عن الشعب سواء في العهد المملوكي أو العثماني، مع الابتزاز لموارده والإهمال لشؤونه الحياتية أقام الانقطاع الكامل ما بين الطرفين وعزل الشعب الفلسطيني

---

[1] صارت فلسطين مرة في سنة ١٣٧٥ نيابة سلطنة مملوكية، كما صارت متصرفية مستقلة عن دمشق فترة من الفترات (بين القرن ١٧ — ١٨) أو تابعة لولاية صيدا.

العربي عزلا كاملا عن القوى السياسية، وإن كانت نزاعات هذه القوى ومصائبها تنتهي بالانصباب فوق رأسه.

كان هم "نواب دمشق" المماليك الوصول للسلطنة، ولذلك ثار ٢٩ من أصل عددهم البالغ ٧٤ فأعدم ١٥ منهم وسجن ٥ وإن نجح منهم أربعة بخلع السلاطين وإثنان بالوصول للسلطنة. وأما العهد العثماني فكان الولاء للسلطان قائما حتى في العهود المتأخرة فيما عدا بعض الثورات التي تمثلت فيها نقمة الشعب بجانب طمع المتنفذين أمثال ضاهر العمر وأحمد الجزار. ولكن الولاة كان يصطدم بعضهم ببعض كما كانت فرقهم العسكرية نفسها تتناحر فيما بينها وتحرق الأخضر واليابس.

ثانيا: الإدارة: بدأت الإدارة المملوكية في فلسطين ومصر بداية نشيطة وقد منحها السلطانان بيبرس وقلاوون الكثير من نشاطهما، للتقرب من الشعب واستغلال العواطف الدينية ببناء المساجد والقلاع وترميمها وإصلاح الموانئ وشق الأقنية وإقامة المنشآت العامة ورصد الأوقاف لها وتنظيم البريد السريع بين القاهرة ودمشق عبر فلسطين في أسبوع واحد. لكن الإدارة المدنية زالت في هذا العهد وتحولت إلى إدارة عسكرية في يد أمراء الجيش المملوكي. كما تحول الجهاز المدني القديم في الدواوين إلى جهاز ثانوي في خادم ذلك أن النظام المملوكي قام على أساس الإقطاع العسكري الذي ورثه من العصر الأيوبي — السلجوقي، مع فارق أساسي هو أنه ألغى عن هذا الاقطاع الصفة الوراثية. كما لم يكن العسكري صاحب الاقطاع مالكا للأرض ولكنه مجرد مالك لضرائبها التي يأكلها باعتبارها مرتبا له مقابل عمله العسكري ولإعداد ما يقابل إقطاعه من الجنود المماليك ومن العدة الحربية اللازمة للقتال. فكانت الإدارة مركزية لنيابة دمشق والأمراء التابعون لنائب دمشق لهم النيابات الصغرى كالقدس والنيابات الأصغر كصفد وغزة ثم الأصغر حتى القرى. وكلما جاء عهد جديد أو ظهر شيء من عدم التوازن في القسمة بين الأمراء عادوا إلى "الروك" أي أعادوا مسح الأراضي الزراعية وتعديل ضرائبها وتوزيعها فيما بينهم حسب مراكز القوى فيهم. وقد حاول المماليك إدخال شيوخ القبائل في فلسطين ضمن النظام الاقطاعي نفسه بوصفهم قوى عسكرية وسيطر هؤلاء بذلك على مساحات شاسعة من الأراضي فيها.

وحين أتى العثمانيون أدخلوا على هذا النظام التعديل الأساسي وهو تحويله إلى نظام الالتزام فالضرائب ملك للسلطان والباشوات وملتزمو الضرائب من ورائهم (المقاطعجية) يضمنون ولاياتهم ومقاطعاتهم لمدة محدودة ويدفعون للباب العالي ما التزموا بدفعه سنويا مقابل أكل واردات الولاية وتقديم الخدمات العسكرية. وقد اضطرب هذا النظام بدوره

فبعد أن كان هؤلاء من العسكريين وكانت مهماتهم الأساسية عسكرية، تحولوا بالتدريج إلى جهاز استغلال مالي. فالباشوات يشترون ولاياتهم والجباة الملتزمون يأخذون الالتزام مدى الحياة أو يهبهم السلطان ريع الأراضي. وهم يورثون أيضا تلك المقاطعات ويتصرفون أحيانا كثيرة بالأرض نفسها ويستخدمون قوة الدولة (الجند الإنكشارية) في ذلك كله. وقد عمل في الالتزام مجموعات من الوجهاء والتجار والكتاب ورجال الدين وشيوخ القبائل الذين تحولت أراضي الالتزام تحت أيديهم إلى "مالكانات" أي أملاك خاصة لذريتهم من بعدهم، ومعظم الأسر المعروفة في فلسطين كانت أملاكها العقارية الواسعة من هذا المصدر. حتى الأراضي التي هرب بها ملتزمو إقطاعها الأولون فجعلوها أوقافا أطل القرن الماضي على فلسطين وقد تحول معظمها إلى أملاك خاصة ببعض الأسر المسيطرة ذات الصبغة الدينية. فلما ألغي الاقطاع والالتزام سنة ١٨٣٩ كان هذا النظام الإداري عمليا قد انهار. ولكن تسجيل الأراضي الذي تم في نظام (الطابو) سنة ١٨٤٦ ثم في قانون الأراضي سنة ١٨٥٨ أوجد ووطد الاقطاع الحقيقي في فلسطين وغيرها.

لقد كان من أهم نتائج الإدارة الاقطاعية المملوكية وإدارة الالتزام العثمانية أن انكمشت الإدارة عمليا إلى المدن فقط حيث يقيم رجال الإدارة والجند وترك الريف لمصائره سواء تجاه الكوارث الطبيعية أو مظالم الجند والجباة أو نهب البدو حتى تحولت مناطق زراعية واسعة في فلسطين (والشام والعراق) إلى مراع بسبب إقفارها من الفلاحين الذين كان عسف الجنود وجشع المرابين وأشغال السخرة بالإضافة إلى مبالغات الجباة وتحايلهم لزيادة "الميري" تذهب بمعظم إنتاجهم إلى ما يشبه أقنان الأرض.

ثالثا: مشكلة البدو: على أن أسوأ ما كانت تقاسيه فلسطين (والشام والعراق ومصر معها) في العهد المملوكي والعثماني هو مصائب الزحف البدوي. وما يجره من نهب وتدمير وفقد للأمن ونهب للمحاصيل. وقد شعر البدو بقوتهم للدرجة التي وضعوا فيها مرة بعض المشاريع السياسية الخطيرة، فإن الشريف العنابي زعيم عربان مصر أرسل سنة ١٣٩٤ إلى زعيم عربان الكرك وجنوب فلسطين يطلب معونته على الخلافة والسلطنة جميعا، حين خروج السلطان لقتال تيمور. وإذا فشلت المؤامرة ثم لم تتكرر فإن الدولة قد حاولت عبثا "عسكرة البدو" بإعطائهم الاقطاعات ولقب الأمراء وفرض الولاء للدولة، وفرض عدد من الجند عليهم، وإلزامهم بحراسة الطرق، لكنهم كانوا يأخذون الامتيازات ولا يقومون بالالتزامات، بل يزدادون في الفوضى. وقد استفحل ذلك خاصة منذ أواخر العهد المملوكي أن بلغت الفوضى حدا جرأ البدو على غزو المدن. وهكذا نراهم يقطعون الطرق سنة ١٤٧٩ ونجدهم عند أسوار القدس يحاصرونها رغم المقاومة الشديدة سنة

١٤٨٨ (٨٩٤هـ)، ونراهم مرة أخرى عندها سنة ١٥٠٢ ثم ١٥٠٥، فإذا جاء السلطان العثماني سليم الفاتح ما كان للقدس من شكوى — مع الفقر — سوى الخلاص من "العربان". وبدلا من أن يعد السلطان بطردهم أمر ببناء سور للقدس. على أن أكثر ما كان يضايق الدولة منهم إنما هو قطع طريق الحج إلى الحرمين وطرق التجارة إلى مصر فهي تحت رحمتهم وكثيرا ما كانوا يغيرون على قوافل الحجاج بالنهب والقتل ويسببون للسلطان "خادم الحرمين الشريفين" الكثير من الحرج والضيق.

ولقد حاولت السلطنة العثمانية فرض نفوذها أحيانا بقطع بعض رؤوس البدو. ولكنها كانت مضطرة على الدوام لشراء ولائهم، فكانت تعطي زعمائهم إمارة الحج وتعطي بعضهم الأموال لخفارة الحجيج والقوافل، كما تمنح الأمراء منهم حكم بعض البلاد كالقدس وعجلون وغزة ونابلس وصفد. وهكذا نشأت إمارة بدوية محلية حاكمة شجعها العثمانيون، جرى ذلك في مناطق لبنان وفي فلسطين من مثل منصور بن فريخ، الذي أعطوه نابلس وصفد وعجلون وإمارة الحج مرتين أواخر القرن السادس عشر، وقانصوه الغزاوي، الذي حكم عجلون — الكرك، في الوقت نفسه وتسلم إمارة الحج ١٥ سنة، ثم خلفه ابنه ثم الأحفاد. ومثل هؤلاء آل طراباي في صفد حتى جبل نابلس. وظهرت في الوقت نفسه أسر من كبار الموظفين أبرزها أسرة أبي شاهين (رضوان) التي تولى عدد من أفرادها حكم غزة والجنوب الفلسطيني وإمرة الحج في القرنين ١٦ و١٧. ولعل أخطر المحاولات السياسية البدوية تلك الإمارة التي اقامها ظاهر العمر الزيداني بين سنة ١٧٣٧ — ١٧٧٥ في شمال فلسطين، وجعل مركزها عكا أهم مرفأ تجاري وحربي في سورية، كما لعب دوره الدولي في السياسة قبل أن يدمر الأسطول التركي قوته ويظهر بدلا منه، وفي المنطقة نفسها، أحمد الجزار، المغامر البلقاني الذي اشتهر بوقوفه في وجه نابليون. ولم تخل البلاد من ثورات وفتن متتالية خلال ذلك في القرن الثامن عشر، وخاصة في القدس والخليل ونابلس وبعضها طائفي نتيجة تدخل النفوذ الأجنبي والقنصليات الغربية في البلاد.

هـ) العلماء والعلم:

أولا: طبقة العلماء: بالرغم من عدم وجود نظام كهنوتي في الإسلام فإن ظروف العصر المملوكي قد أوجدت طبقة دينية مميزة اضطلعت ضمن النظام المملوكي ثم العثماني من بعده بوظائف محددة وتنظمت في سلسلة مراتب تصدر بالتعيين لها المراسيم السلطانية

(كالقضاة والمفتين والعاملين في الجوامع والمؤسسات الدينية) تحت رئاسة ما سمي في العهد المملوكي بقاضي القضاة وفي العهد العثماني بشيخ الإسلام.

وقد قامت هذه الطبقة، في العهدين المملوكي والعثماني بثلاث مهام، اثنتان منها سياسيتان والثالثة علمية:

أ ـــ أعطت هذه الطبقة للحكم صبغة الإسلام وروابطه المحلية و لم يكن يدونها أكثر من حكم مجموعات عسكرية غريبة عن السكان.

ب ـــ وفرت في الوقت نفسه لأجهزة الحكم الملاكات (الكوادر) اللازمة من كتبة الدواوين والموظفين الذين كانوا يستخرجون من مئات المدارس الدينية في القدس ودمشق والقاهرة وغيرها التي كانت تسيطر على التدريس فيها هذه الطبقة الدينية نفسها.

ج ـــ وأخيرا قاد رجال هذه الطبقة الحركة العلمية في العصرين المملوكي والعثماني. ولما كان العلم بالنسبة إليها أحادي الوجه أي أنه علوم الدين فحسب وكان قصارى الجهد في هذه العلوم هو المحافظة على ما وصلت إليه في العصور السابقة لذلك اتجهت الحركة العلمية بكل خصبها في العصرين في هذا الاتجاه الوحيد.

وكما تحولت الوظائف والمهن الأخرى في العصرين المملوكي والأيوبي بالتدريج إلى وظائف ومهن وراثية في الأسر تحولت الوظائف الدينية بدورها إلى وظائف وراثية. وكانت تتناول رزقها في معظم الأحوال من الأوقاف كما تتناول في الوقت نفسه الهبات السلطانية التي أضحى بعضها مقررا سنويا في العهد العثماني. و"الصرة" السلطانية في سنة ١٦٧١ كانت تشمل ٨٠٠ موظف ديني ـــ كما ذكر السائح العثماني أوليا جلبي ـــ في الحرم القدسي وحده. وهي تشمل أئمة المذاهب الأربعة والوعاظ والمدرسين والخدم وخمسين من المؤذنين والمسبحين والمبلغين والقراء والسدنة، وكان لهؤلاء كميات من اللحم والخبز والمؤن.

وبعض الأرقام الإحصائية قد تعطي فكرة عن أهل العلم واتجاهاتهم وأعمالهم ومراكزهم. ففي إحصاء مبدئي لعلماء فلسطين مثلا في الفترة المملوكية نجد أن ثمة حوالي ٧٥٣[1] شخصا ممن وصفوا بالعلم فيهم الفقهاء والقضاة والخطباء والزهاد، والحفاظ

---

(1) هذا الرقم جمعناه بصورة أساسية من الأنس الجليل الذي حوى ٤٤١ ترجمة من هؤلاء وأضفنا إليه ما وجدناه في مختلف المراجع الأخرى مثل الدرر الكامنة والضوء اللامع والكواكب السائرة وشذرات الذهب ولدى ابن كثير والذهبي في العبر والبوريني وفي النجوم الزاهرة وخطط المقريزي وغيرها. ومن الهام أن نسجل هنا أن أبواب فلسطين كانت مفتوحة بمعنى أن الكثير من أبنائها العلماء كانوا يتركونها إلى مصر ودمشق وغيرهما وأن الكثير من علماء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب كان يأتي ليتوطن في فلسطين.

والقراء ومنهم قرابة ٤٤٠ في القدس والخليل فقط، كان الشافعية فيهم يبلغون ٣١٨ والأحناف ١٠٨ والحنابلة ١٥. وكان في بيت المقدس ٦١ مدرسة منها خمسون أنشئت في العهد المملوكي وكانت القدس مركزا لتسع طرق صوفية لها ستة أربطة وثماني خوانق و٣٢ زاوية. كما كان لها العديد من التكايا. وكان في فلسطين في العهد المملوكي بيمارستانات في كل من القدس خاصة والرملة ونابلس وغزة وعكا وصفد والخليل والكرك.

إن هذه الأرقام قد تعطي صورة عن الحركة العلمية الناشطة التي عرفتها فلسطين في العصر المملوكي على أننا نضيف إليها لإكمال الصورة ملاحظتين:

الأولى: هي أن العلم كان أحادي الطريق. العلماء كلهم والمدارس جميعا كانت تعمل في العلوم الدينية فقط واستمرت على ذلك في العهد العثماني، واكتفت من هذه العلوم أيضا بالحفاظ على التراث الموروث منها وجمعه وشرحه واختصاره والتعليق عليه وكتابة الموسوعات فيه دون أي محاولة للإبداع. ولا تكاد تجد حتى في الطب من الاسماء البارزة سوى عشرة أطباء (هم أبن القف من الكرك ويوسف بن هلال وشهاب الدين بن يوسف وأمين الدين محمد وعلاء الدين علي والأربعة من صفد، وعماد الدين النابلسي وعماد الدين اسماعيل المقدسي وخليل بن شاهين نائب القدس وصفد، وعبد الله بن سليمان الغزي وابنه محمد الشهير بالريس) كما لا نجد في العلوم الأخرى سوى محمد بن عبد الكريم الصفدي في علم الحيوان وابن الهائم المقدسي الفرضي صاحب المؤلفات في الحساب وابن خفاجة الصفدي العالم بالفرائض.

الثانية: أن الحركة العلمية استمرت على نوعيتها في العهد العثماني وإن لم تحتفظ بنشاطها بل فقدت بالتدريج فاعليتها ومشت إلى تزايد الانغلاق. وهكذا لم يضف العثمانيون إلى المدارس في القدس سوى مدرسة واحدة. وضاعت الأوقاف بالتدريج فأهملت المدارس الأولى وانحطت مستوياتها وتوقف الكثير منها. حتى أعداد العلماء في فلسطينن في القرون العثمانية الأربعة، لا تكاد تعادل نصف ما ظهر في العهد المملوكي. وأهم من هذا كله أن حكام البلاد رغم وجود القناصل الأجانب فيها وتكاثر الإرساليات والاتصال التجاري الدائم مع الغرب لم يحاولوا فتح أي نافذة على الحركة الفكرية التي كان يزخر بها الغرب في تلك القرون والتي أقام عليها حضارته الحالية.

ثانيا: الأرض المقدسة والتصوف: رافق تلك الأجواء الدينية واتصل بها أمران:

الأول: التصعيد المتصل في قدسية القدس، ومقامها الروحي الإسلامي. وقد عبر ذلك التصعيد عن نفسه بصدور ستة كتب خلال العهد المملوكي في بيان قدسيتها. فبعد

كتاب ابن الجوزي ببغداد والكتابين اللذين صدرا في العهد الأيوبي بقلم اثنين من الدماشقة: ابن عساكر (ابن المؤرخ الدمشقي المعروف) صاحب "الجامع المستقصى" وابن عساكر (ابن الأخ) صاحب "باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس" ثم كتب ابن سرور المقدسي "مثير الغرام بفضائل القدس والشام" وابن المرجى المقدسي "فضائل القدس" والشريف عز الدين حمزة، كتابا مثله. ثم وضع مجير الدين الحنبلي كتابه الضخم "الأنس الجليل" وأخيرا الجلال السيوطي كتاب "إتحاف الإخصا". وبالرغم من أن معظم هذه الكتب تكرر بعضها إلا أنها كانت تعبر عن الجو الروحي القدسي الذي أحيطت به الأراضي المقدسة في تلك الفترة والذي استمر قائما في العهد العثماني كله وإن لم يكتب فيه مثل تلك الكتب.

الثاني: إن حركة الزهد والتصوف والطرق الصوفية أخذت مداها الأوسع في فلسطين في العصر المملوكي واستمرت في التوسع خلال العهد العثماني. لقد برزت الحركة الصوفية في فلسطين منذ أوائل القرن السابع الهجري، بعد تحريرها من الصليبيين واستمرت تنتشر وتقوى بالأوقاف والشيوخ والمريدين ومنها الرفاعية والقادرية والنقشبندية والوفائية والقلندية واليونسية ثم المولوية في العهد العثماني. وقد أسست أكثر من نصف الطرق والخوانق والزوايا في فلسطين في القرن الثامن الهجري / السابع عشر الميلادي. كان في القدس وحدها تكايا لسبعين طريقة كانت تقوم على أكتافها المواسم الدينية في فلسطين وصارت مشيخة الطرق، مع الأيام، وظيفة تتوارثها الأسر (كالعلمي والدجاني مثلا) وامتلأت كتب التراجم والسير بأخبار "الأقطاب" "العارفين" و"المكاشفين" وأهل الكرامات والأولياء وأصحاب الأضرحة والمزارات.

وقد ملأت "كرامات" هؤلاء الزهاد وأخبارهم المعجزة الخيال الشعبي العام ومنحت الناس، في أجواء النكبات والمظالم والبؤس كثيرا من الاطمئنان الروحي السلبي بينما كانت السير الشعبية من أمثال سيرة الملك الظاهر وتغريبة بني هلال والأميرة ذات الهمة وعنترة وغيرها تمنح من الجانب الآخر الاطمئنان الكامل والثقة بقوة الفروسية المملوكية من خلال تجميد الفروسية في أبطال تلك السير وحكاية الآلام الاجتماعية في الوقت نفسه والتنفيس الخيالي عنها.

و) الأوضاع الاقتصادية:

أولا: الريف: لئن قام النظام المملوكي على أساس إقطاع الإرفاق أي إقطاع ضرائب الأرض للجند مقابل اضطلاعهم بالحرب والإدارة فإن ذلك لم يؤد إلى الاهتمام بالزراعة

على المدى الطويل، ولكن أدى بالعكس إلى إضعافها بعد انقضاء عهد المماليك الأوائل. فقد صار أصحاب الإقطاعات يستترفونها أسوأ الاستتراف بالجشع ولأنهم كانوا غير واثقين من بقائها في أيديهم باستمرار وغير ضامنين لقدرتهم على توريثها لذويهم، (بجعلها أراضي جيشية). وقد أعيد مسح وتوزيع إقطاعات الشام أكثر من مرة في العهد المملوكي وأهما الروك الناصري ببلاد الشام سنة ١٣١٣.

وقد ذكر أن المملكة الصفدية كانت أواسط القرن التاسع/ ١٥ ميلادي تحوي ١٢٠٠ قرية بعضها كبار كالمدن وكان في إقليم نابلس ٣٠٠ قرية ومثلها البلقاء وفي بانياس والحولة ٢٠٠ قرية[1] تزرع الرز. غير أن عددا من العوامل كان تدمر النشاط الزراعي القائم على الحبوب والقطن والزيتون والحرير والكروم ولعل أهمها تغيير العوائد (الضرائب) الدائم فحصة المقاسمة للإقطاعي في فلسطين والشام كانت بين الثمن والنصف من حاصل الأرض يضاف إليها عشر نصيب الفلاح ولكن المتسلطين لم يكونوا يعدمون الوسائل للتلاعب في ذلك لاستغلال الربا الفاحش وطلب "العاجل" وضريبة الجسور والطواحين والمعاصر ومكوس نقل الحبوب والزيت ورسوم المراعي والضيافة للجند والهدايا في المناسبات. فإذا أضفنا إلى هذا كله نكبات الفتن المحلية بين الحكام وتنقل الاقطاعات من يد إلى يد، وأعمال السخرة والزحف البدوي المتمادي على فلسطين والذي سحب البادية على العديد من المناطق الزراعية وحولها إلى مراع وأضفنا أيضا وأيضا كوارث الأوبئة والجراد وسنوات القحط وقلة الأمن وانتشار قطاع الطرق أدركنا السبب في تقلص المساحات المزروعة بشكل متماد عبر العهد المملوكي، ثم تزايد هذا التقلص في العهد العثماني، نتيجة استمرار هذه الأسباب نفسها ونتيجة ما انضاف إليها من مساوئ نظام الالتزام وبيع الاقطاعات بالرشاوى للمقربين والملتزمين والحطاط النظام العسكري لدى الانكشارية والسباهية (الفرسان). وهكذا حتى صار الكثير مما سجل على أنه قرى في "الديوان" دمنا "ومزارع" أو سمي "بالخراب الدائر". وكان جلاء الفلاحين "أهل الزرع والضرع" عن أراضيهم أمرا شائعا ومستمرا وطبيعيا نتيجة كل ذلك حتى جرت العادة في الشام (في العهد المملوكي) بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهرا ويلزم "بشد الفلاحة"[2] وكانت المظالم تصل بالفلاحين أحيانا حتى الثورة كالثورة الفلاحية التي قادها عثمان بن ثقالة في عجلون سنة ٨١٦ وسامح فيها الفلاحين بالضرائب السابقة وأعلن أن لا ضريبة إلا العشر. ولكن القوى الحاكمة كانت هي

---

(١) غرس الدين الظاهري ـــ زبدة كشف الممالك. ص٤٤ و٤٦.

(٢) السبكي ـــ معيد النعم وسيد النقم. ص٣٤.

المنتصرة دوما وبقي "مقدمو الفلاحين ورؤساء العشران" (أي العشائر) هم ملوك الريف المتقلص حتى أوائل القرن الحالي وصار شائعا في جنوب الشام القول بأن "أهل القرايا من أهل البلايا".

ثانيا: المدن: و لم تكن المدن بأحسن حالا في العهدين المملوكي والعثماني من الريف. وإذا كانت المراكز المدنية كالقدس، وصفد ونابلس وغزة والرملة وغيرها هي مراكز تجمع الحرفيين والتجار إلى جانب رجال السلطتين العسكرية والدينية وثكنات الجند فإن هذا التجمع نفسه قد فرض عليها في تلك القرون، ومع ظروف الإدارة العسكرية والكوارث والمظالم تكوينا اجتماعيا ــ اقتصاديا خاصا يمكن أن يوصف بأنه دفاعي ويتميز :

١ ــ بتشكل وحدات مهنية متساندة (أصناف) تجمع أفراد المهنة الواحدة برئاسة شيخ الكار في سوق واحد (الزجاج، الأسلحة، الزيت، الصابون، النسيج، الحرير..) ووحدات سكنية تجمع أهل الحي الواحد في مجموعة اجتماعية متساندة. ولحارات الحي أبوابها التي تغلق في ساعات معينة من الليل ولها بين شبابها رابطة محلية يتزعمها "شيخ الشباب".

٢ ــ بوجود أسوار للمدن الكبيرة ووجود قلاع فيها (كالقدس ونابلس والسلط وعجلون والكرك وبانياس وصفد وعكا).

٣ ــ بتوارث الحرف والوظائف: فالمهنة أو العمل التجاري أو الوظيفة الدينية تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء مما أعطى المجتمع صفة الثبات الاستمراري والجمود عند صيغة ثابتة معينة.

ولما كانت المدن مركز تجميع الثروة الحرفية والتجارية والإدارية فقد كانت دوما معرضة للنكبات القاصمة لا في بساتينها المجاورة ولكن في أحيائها الداخلية وبخاصة فتن الجند وخصومات الولاة بعضهم مع بعض وفي فترات الغزو الخارجي (المغول، تيمور، العثمانيين) وفي التحركات الثورية (فخر الدين المعني، ضاهر العمر، أبو نبوت..) أما في مظالم الضرائب والسخرة فلم تكن أقل معاناة من الريف وبخاصة منها الطبقات المسحوقة.

ولقد حظيت القدس وحدها بسبب مكانتها الدينية ببعض الامتيازات في العهد المملوكي والعثماني على السواء "فلم تكن يؤخذ (في اسواقها) شيء من المكوس بخلاف

جميع المدن"[1] ومع ذلك فقد أنهكتها الأحداث وهجمات البدو في أواخر الفترة المملوكية وحين فتح السلطان سليم البلاد قدمت القدس مائدتها للسلطان في قصاع (هنايب) من الخشب واعتذر أهلها عن ذلك قائلين: نحن فقراء[2] ولقد انتعشت فترة من الوقت بعد ذلك فكان فيها في أوائل القرن السابع عشر مثلا ٤٦ ألف نسمة لهم ٤٣ ألف كرم و٦ حمامات و٢٤٠ محراب صلاة وخمس كنائس و٤٠ مدرسة و٧ دور للحديث و٢٠ دار للقرآن وتكايا لسبعين طريقة صوفية وكان فيها ٢٥٤٠ دكانا وستة خانات[3]. لكن الأمن من حولها مفقود! وكان في غزة ٦٠٠ دكان و٧٠ مسجدا و٢٠٠ سبيل ماء، و١٣٠٠ مترل وعدة حمامات وتكايا و٧ آلاف كرم.

ثالثا : حركة التجارة : كانت التجارة في الواقع النشاط الاقتصادي الأساسي الذي حمل النظام المملوكي على كتفيه. وإذا طفا هذا النظام على نهر من الثروة وتمكن من البقاء الطويل واستطاع منح فلسطين (مع مصر والشام) أجمل المباني فإن ذلك يعود إلى أن المركانتلية الإسلامية في عهد المماليك أوج قوتها، قبل أن تستطيع المركانتلية الأوروبية المنافسة تطويقها ثم قطع الطرق عليها ثم الحلول محلها حتى في أراضيها نفسها.

كان الأيوبيون منذ عهد صلاح الدين قد فتحوا الطريق للتجارة الشامية بالمعاهدات والتسهيلات التي منحوها لأساطيل المدن الإيطالية وقد تابعهم المماليك من بعدهم في ذلك ـــ وإذا كانت سيطرة المغول على المشرق الإسلامي كله قد نشطت الطرق البرية بين الشرق والغرب فإن الطرق البحرية قد أصبحت تغذي الشام ومصر عن طريق البحر الأحمر وعلى أيدي تلك المجموعة التجارية الدولية التي عرفت بتجار "الكارم". كانوا ملوك الفلفل والبهار والتوابل في العالم وعلى ثروات تمكنهم من إقراض السلاطين والتدخل في سياسة الدولة. وقد ضعف الطريق البري إلى المشرق في القرن الرابع عشر وانتصر الطريق البحري وصارت مدن وموانئ الشام ومصر في هذا القرن مراكز التجارة العالمية. وتوطنت فيها جاليات أوروبية تجارية وزادت موارد الذهب على المماليك من النوبة ومن السودان الغربي مما جعل الطبقة التجارية وواردات الدولة تتمتع بأحسن الرخاء.

---

[1] غرس الدين ـــ زبدة ص٢٣.

[2] مما ذكره الرحالة العثماني أوليا حلبي في كتابه أوليا حلبي سياحة نامه سي ونقله عارف العارف ـــ المفصل في تاريخ القدس. ص٢٦٨.

[3] عارف العارف ـــ المفصل ص٢٦٤.

وقد أصيبت تجارة فلسطين مع مصر والشام بضربة قوية في أواخر القرن الرابع عشر حين صار الحكم للمماليك الشركسة بعد سنة ١٣٨٢ وغرقت البلاد في الفتن الأهلية حوالي ربع قرن واستغلت الجماعات البدوية ذلك لتدمير الريف الزراعي كما توالت غزوات القراصنة الأوروبيين للسفن الإسلامية والموانئ، ونضبت موارد الذهب النوبي بينما اجتذب الأوروبيون ذهب السودان الغربي عن طريق المغرب الأقصى وانهار النظام النقدي بغش الذهب وظهور العملة النحاسية وكملت المصائب بانتشار الطاعون الأسود ثم بتخريب التتر (مع تيمور) شمال الشام وتوالى الجراد وتكرر المجاعات والقحط والغلاء.

وقد اعتدلت الأمور فترة بعد هذه النكبات فاستقر النقد وعادت التجارة تدريجيا ووطد المماليك علاقاتهم مع القرى التجارية الأوروبية في البحر المتوسط (جنوة والبندقية وفلورنسة وبيزا وشركة جان كير الفرنسية ومع قطالونية وقشتالة) وصار لهذه القوى وكالاتها التجارية وفنادقها وجالياتها في مدن الشام (ومنها في القدس ويافا وعكا وصور) وصارت أساطيل البندقية وبيزا تحمل القطن في الصيف من يافا وصور كما ينقل الفرنسيون وغيرهم الأصواف والحرير والزيوت مع التوابل والعاج والعقاقير ويأتون مقابل ذلك بالحجاج والمنتجات الأوروبية النسيجية والمعدنية والفراء. وبعد أن سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين سنة ١٤٥٣ زاد انتعاش التجارة المملوكية بسبب سياسة التضييق العثمانية على التجارة الأوروبية. وحسب المماليك أن العصر الذهبي قد عاد مع تحول التجارة العالمية بكثافتها إليهم ومحاولة القوى الأوروبية المختلفة استرضاءهم بعقد الصلات وكثرة الجاليات والوفود وطلب الإعفاءات وتعدد وكلاء القناصل في المرافئ فبالغوا في استغلال الحركة التجارية. وقادهم الخطر العثماني وحروبهم مع الدويلات التابعة له وتخريبات القراصنة في البحر والبدو في البر مع الحاجة المتزايدة للمال، إلى احتكار التجارة لأنفسهم، لاغتنام أرباحها كلها. وهكذا احتكروا منذ أيام برسباي (١٤٢٢ ـــ ١٤٣٨) تجارة السكر والقطن ثم تجارة التوابل والفلفل وغيرها. وفرضوا على الأهلين والأوروبيين الأسعار العالية وبخاصة في الشام وحولوا "الكارمية" موظفين عندهم وتلاعبوا بعيار العملة وكانوا كثيرا ما يلجأون في فلسطين وغيرها إلى إجبار الأهلين على شراء مخزون الحكام من الغلال والبضائع (كالزيت والقطن والحبوب) بأضعاف السعر لجمع المال.

كانت المواقع الجغرافية حتى أواخر القرن الخامس عشر هي التي تفرض التوازي في المنافسة بين المركانتلية المملوكية والمركانتلية الأوروبية الطامحة والمتجهة إلى الرأسمالية. وقد انكسر هذا التوازي فجأة باكتشاف الأوروبيين، في وقت واحد طريقين إلى الشرق

القصي: طريق الأطلسي الذي أوصلهم إلى اكتشاف أمريكا وذهبها وخيراتها وسمح لهم بالتحول إلى الرأسمالية وطريق رأس الرجاء الصالح الذي قطع به البرتغاليون شرايين التجارة المملوكية في المحيط الهندي. وإذا لم يكن المماليك ينتظرون مثل هذا الانقلاب ولا كانوا يستطيعون منع وقوعه فإنهم في الوقت نفسه كانوا أضعف بكثير من مقاومته بعد أن وقع. وفي الوقت الذي كانت فيه قواهم الاقتصادية والبحرية والعسكرية تنحط، جاءتهم الضربة من العثمانيين واحتل السلطان سليم بلاد الشام وفلسطين سنة ١٥١٦ ثم مصر ١٥١٧. تواقت الحادثين معا: الانقطاع التجاري والفتح العثماني، أعطى بلاد الشام بما فيها فلسطين مع مصر مصيرا جديدا، ذلك أن العثمانيون اهتموا بالقضية السياسية ـــ الدينية في الجنوب العربي وفي البحر المتوسط، و لم يأبهوا كثيرا للقضية التجارية. و لم يعد شرقي البحر المتوسط المركز الرئيسي للتجارة العالمية ولبضائعها الثمينة بعد الصراع الضاري الذي كسبه البرتغاليون في المحيط الهندي، فانكمشت علاقات بلاد الشام واقتصرت على الخطوط البرية الضعيفة التي صارت تمر خاصة بحلب في شمال الشام في الوقت الذي كانت فيه الحركة الرأسمالية الأوروبية تبلغ أقصى نشاطها بما وفدها من خيرات أمريكا والهند، وتتوغل في البلاد العثمانية المشرقية ومنها فلسطين لا للبحث عن البضائع الثمينة ولكن لتحويل هذه البلاد إلى أسواق للبضائع الغربية. تغيرت طبيعة العلاقات التغير الجذري. المعاهدة التجارية التي "تلطف" الباب العالي بتوقيعها للفرنسيين سنة ١٥٣٤ أعطت تجارهم الامتيازات من حرية التجارة إلى حرية العبادة والتملك فامتدت أيديهم خاصة إلى القدس وعكا ويافا ثم لحقهم الانكليز بامتيازات مماثلة سنة ١٥٨٠ ثم الهولنديون سنة ١٦١٢ وتحرك الجو التجاري في فلسطين والشام كله بحلول هؤلاء وأولئك محل البنادقة والجنويين، ولكنه لم يكن نشاطا شاميا وإنما كان نشاطا أوروبيا في بلاد الشام. وما كان مادة أولية كما في الماضي ولكن مصنوعات وتكونت له مراكز وخانات ووكالات وقنصليات وإرساليات تبشيرية. كما تكونت له، مع ظهور الضعف العثماني حمايات وأطماع. وحين وقع السلطان محمود الأول مع فرنسا سنة ١٧٤٠ معاهدة فتح بموجبها الأراضي المقدسة لجميع المسيحيين الوافدين إلى الشرق تحت العلم الفرنسي وجدنا للفرنسيين جالياتهم القوية في القدس ويافا وعكا والرملة وغيرها. ولئن استفادت الطوائف المسيحية من ذلك النشاط التجاري الأوروبي فإن البلاد لم تستطع أن تستفيد منه بسبب الأوضاع العثمانية الداخلية التي تميزت منذ القرن السابع عشر بضعف الإدارة ونشاط البدو في الشام، وخطر الطرق وكثرة الفتن، وبسبب السياسة العثمانية الخارجية، التي كانت تعتمد على الانغلاق والمحافظة. وإذا ترك أثر ذلك

على عدم تطوير الصناعة في الشام وغيرها وعلى اعتماد الاقتصاد الزراعي وحده، رغم ضعفه، فإنه أثر في الوقت نفسه على ثروة البلاد التي دخلت دور الاستتراف الخارجي الاستعماري.

ولقد عرفت فلسطين بعض النشاط التجاري عن طريق مرفأ عكا أيام ضاهر العمر بعد سنة ١٧٥٠ ولكنه كان نشاطا محدودا عمل في تصدير الحرير والقطن والقمح من الحاصلات الزراعية في فلسطين و لم تلبث نتائجه الاقتصادية أن الهارت مع الهيار الرجل. وقد تابع خلفه أحمد الجزار سياسة أخرى باحتكار بعض المرافق التجارية واستطاع أن يكون ثروة ويبني بعض المباني في المدينة (كالجامع والسور) واستطاع الإثنان "بالدويلة" التي أقاماها حول عكا أن يدخلا فلسطين ضمن الاهتمام العالمي من الناحية السياسية بجانب مكانها الديني.

وحين أطل القرن الماضي كانت جميع البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية في فلسطين في حالة جمود وانكماش وفقر شديد. وكان جنود نابليون قد اخترقوها قبل سنة من ذلك من غزة حتى عكا وأصيبوا بالطواعين!.

الآثار العمرانية: ربما كان أهم ما كسبته فلسطين (ومعها الشام ومصر) من العهد المملوكي خاصة والعهد العثماني بعده هو المباني (الدينية والتعليمية والتجارية والاجتماعية والدفاعية) التي أقاموها في مختلف المدن وبخاصة في القدس. فبالرغم من كل ما توصف به الفئات المملوكية من العسف والجشع فإنها كانت في النتيجة تنفق ما يفيض لديها من المال في العمران. ودوافع هذا العمران متعددة منها تآلف قلوب الرعية ومنها التكفير عن الذنوب وبعضها لأغراض الدفاع وبعض لتهريب الأموال من المصادرة المحتملة بحبسها على الأوقاف وبعض لتخليد الذكر بالأضرحة الضخمة أو بالمشاريع الاجتماعية كتوفير المياه أو الحمامات والخانات. حتى غدا العصر المملوكي واحدا من أزهى عصور العمارة الإسلامية. وإذا ظهر ذلك واضحا في القاهرة، في الدرجة الأولى، فإنه ظهر خاصة في فلسطين وفي القدس من بلاد الشام.

وقد بدأ ظهور الفن المعماري المملوكي بطابعه المعروف، منذ العهد الأيوبي وفي الأبنية التي أكثر منها الأيوبيون بالشام والتي تميزت باستخدام الأحجار بسبب توفرها في سورية، وبالمناعة المحكمة بسبب الرغبة في إظهار القوة تجاه الصليبيين وتأكيد مناعة المسلمين، وبالوظيفة الدينية بسبب موجة الإيمان العارمة في تلك الفترة الصراعية. وقد أضاف مهندسو العصر المملوكي إلى ذلك الزخارف الكثيرة والأنيقة في ظاهر البناء

وداخله والعناية بالمداخل والمقرنصات وبرفع القباب على شكل خوذة المحارب وبالتناسب المتوازن في الشكل العام للبناء.

وإذا كانت معظم الآثار الإسلامية الباقية في فلسطين إنما تعود إلى العهد المملوكي فلأن هذا العهد كان أيضا أكث العهود الإسلامية عمرانا وبناء فيها. كان المماليك يعتبرونها جوهرهم الدينية ويتباركون بقدسيتها حتى شملت عنايتهم العمرانية مختلف مدنها وأنحاءها. ففي كل بلد منها أكثر من أثر لهم. وقلائل هم السلاطين الكبار أو النواب الذين لم يتركوا فيها بصماتهم العمرانية وأوقافهم. وأبرز هذه الأسماء التي تتكرر هي أسماء الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون وبرقوق وقايتباي وجقمق من السلاطين وأسماء جاولي وتنكز من كبار الأمراء، وقد تنوعت وظائف الأبنية المملوكية في فلسطين (وغيرها) فهناك:

أ) أبنية دينية: وبديهي أن الاهتمام العمراني الأول إنما توجه إلى الجوامع، وإلى العناية بالحرم القدسي والحرم الإبراهيمي. وهكذا نجد أبنية بيبرس في المسجد الأقصى وجامع نابلس وصفد ونجد اسم قلاوون في حرم الخليل وفي مسجد الخضراء بنابلس، ونجد جوامع ايبك والناصر محمد وقايتباي في غزة، هذا عدا الجوامع الأخرى، والمآذن الأنيقة وعدا التجديدات لها في الرملة وعكا وصفد ويافا وعدا جوامع جاولي وتنكز في الخليل وغزة وغيرهما.

ويتبع الأبنية الدينية مجموعات الزوايا والخانقاهات والتكايا وأضرحة الأنبياء والصالحين والمزارات وهي عديدة جدا. وإذا كانت القدس قد اختصت في العصر المملوكي بخمسة أربطة وست خانقاهات و١٥ زاوية، إلا أنها تتوزع أيضا في جميع أنحاء فلسطين. ففي المدن التكايا والزوايا كما في غزة وعكا والخليل، وصفد وبيسان ويافا واللد والرملة والمجدل وطولكرم وفي القرى عشرات المقامات والمزارات ومنها مقامات النبي موسى قرب القدس والنبي روبين في يافا والنبي صالح وضريح سكينة وكلها بناها الظاهر بيبرس وإن دثر بعضها.

ب) أبنية تعليمية: وهي المدارس والبيمارستانات خاصة. وإذا حظيت القدس وحدها بخمسين مدرسة مملوكية فقد كان للمدن الأخرى نصيبها أيضا ومن ذلك مدارس غزة الخمس في عهد الناصر محمد ومنها مدرسة جاولي ومدارس صفد وعكا والخليل والرملة. كما توزعت البيمارستانات، وفيها التعليم الطبي، فيما عدا القدس ما بين بيمارستاني جاولي في غزة وفي الكرك ومارستان تنكز في صفد ومارستان الخليل والمارستانات التي أقيمت في أيام الناصر محمد في الرملة ونابلس على يد محمد بن فضل الله.

ج) أبنية دفاعية: ومنها القلاع والأسوار. وقد بنى الظاهر بيبرس قلعة صفد كما بنى باب الأسباط في القدس وبنى قلاوون قلعة رأس العين وبنيت ورممت في العهد المملوكي أسوار عكا وقلعة غزة وعجلون والكرك والرملة.

د) أبنية الخدمات العامة: وهي متنوعة ولعل أهمها ما يتصل بتوفير المياه بسبب قلتها. ومن ذلك سبيل قايتباي في الحرم القدسي وجر مياه العروب إلى القدس سنة ٨٨٨ وبئر حقمق في غزة. ومن أبنية الخدمات بناء الحمامات مثل حمام الناصر في القدس وحمام جاولي في غزة، وبناء الجسور مثل جسر دامية الذي بناه الظاهر بيبرس على نهر الشريعة سنة ٦٦٤ وما تزال قنطرته قائمة، وجسر اللد الذي بناه بركة خان سنة ٧٧١ وهو من أجمل جسور فلسطين وطوله ثلاثون مترا. أما بناء الخانات والفنادق للتجارة والمسافرين فكانت تتوزعها مختلف المدن التجارية الفلسطينية وبخاصة في مرافئ عكا ويافا كما أقيمت في غزة والرملة وبيت لحم.

و لم يتابع العهد العثماني العمل المملوكي العمراني، وبالرغم من أن السلطان سليمان القانوني قد منح القدس عنايته فبنى لها الأسوار وجدد في قبة الصخرة، كما أقام ستة أسبلة للماء فيها ورمم الأقنية كما رمم قلعة القدس إلا أن هذه العناية العارضة انقطعت بعده ولا نكاد نسمع عن بناء جديد إلا ما قامت به حفيدة قانصوه الغوري من بناء جامع وتكية وحمام في جنين وما قام به الوالي فروج من بناء وكالة للتجار في نابلس أوائل القرن العاشر سنة ١٦٠٠م. وما زاد على الزوايا في القدس (٧ زوايا وخانقاه واحدة). وحتى ظهور ظاهر العمر ثم أحمد الجزار وابنه بالتبني سليمان وعامله في يافا أبو نبوت لكي نشهد بعض الحركة العمرانية، في الساحل الفلسطيني، المتصلة بأمور التجارة والدفاع وأمور الدين، فيبني العمر برج حيفا وأحمد الجزار أسوار عكا والسوق ومخازن الحبوب والميناء والجامع المعروف باسمه مع المدرسة المتصلة به ويبني أبونبوت سور يافا وسبيل الماء فيها والجامع. ولكن هذا كله كان فترة عارضة في انتظار أحداث العصر الحديث.

وأخيرا ...

إن خلاصة ما يمكن أن تقول هذه المقدمة التاريخية هو أن فلسطين التي كانت عربية في جذورها الاتنوغرافية واللغوية والحضارية قبل الإسلام قد أخذت ملامحها العربية الإسلامية الواضحة منذ الفتح العربي الأول وقد تجلى ذلك في تراثها الفكري والأثري تجليه في أهلها وفي بناها الاجتماعية وتطورها التاريخي وعلاقاتها السياسية، وقد كانت

على الدوام صلة الوصل ما بين الجناحين الشرقي والغربي للعالم الإسلامي وللوطن العربي ولم يكن ذلك في الموقع الجغرافي فحسب، ولكن في العطاء الحضاري أيضا. كما كانت أحد مناطق اللقاء والصراع الأساسية بين الشرق والغرب عبر العصور، عسكريا وحضاريا واقتصاديا. وإذا منحتها قدسية أرضها مكانتها السامية لدى أهل الأديان السماوية، فقد انعكس ذلك في تراثها الحضاري والعمراني وبخاصة في العصور الإسلامية التي استمرت أربعة عشر قرنا حتى الآن وأعطتها طابعها العربي الإسلامي المميز. وإذا دفعت ثمن هذه القدسية الكثير من الآلام وناضلت ضد عنيف الأطماع فقد كسبت من ذلك الكثير من المكانة في التاريخ ومن الصلابة في النضال وإثبات الذات ومن الترابط العميق بين أهلها وأرضها. ولعل أرضها إنما كانت مقدسة لا لما عرفت من الأنبياء والأحداث والآثار والرؤى الدينية فقط ولكن أيضا لما عرفت من الآلام...

النقود العربية الإسلامية المضروبة في فلسطين العربية

الدكتور: محمد أبو الفرج العش

تمهيد:

اهتم العلماء والباحثون بالمسكوكات المضروبة في شتى البلاد، وجمعوها ونظفوها وصنفوها حسب العصور التاريخية، وحسب الدول الساكّة وحسب المدن التي سكت بها، لقد بدأ العمل فردياً في العالم، ثم غدا عمل المؤسسات الأثرية والعلمية. أصبحت النقود القديمة الآن من أهم المواد المكتشفة في أثناء التنقيبات الأثرية، وهي تدل بصدق ووضوح عن عمر الطبقة التي ينقب فيها، وهي بالتالي تحدد عهد المكتشفات الأخرى التي وجدت مرافقة للنقود.

هذه الدراسات المستفيضة: حل الرموز، قراءة الكتابات، التعرف على تاريخ العاهل الذي ضرب النقد، المكان الذي ضُرب فيه النقد، السنة التي ضرب فيها، الصور الماثلة على النقود، الزخارف، وزن النقد، حجمه، المادة التي ضرب منها النقد، عيار هذه المادة، الخلائط المعدنية، طريقة ضرب النقد، النقد المسكوك بصورة سليمة، النقد المزيف قديماً أو حديثاً، الأغلاط الواردة على النقد بشكل غير مقصود، الأغلاط المقصودة[1]... كل ذلك هو ما يشغل عالم النقود.

أطلق العلماء على هذا العلم Numismatics نسبة إلى وحدة النقد اليوناني الصغيرة (نُمّيّ)، وقد راق لأحد المشتغلين العرب[2] بهذا العلم فسمى هذا العلم (علم النمّيّات)، ولكن استحسن الباحثون العرب فيما بعد تعبير (علم المسكوكات).

اتسع ميدان هذا العلم، وتشعبت فروعه، فكان لا بد أن يختص كل عالم في نطاق محدود، ليستطيع أن يحيط به، ويجيد العمل فيه.

اهتم العلماء بدراسة النقود العربية الإسلامية، وذلك للأسباب التالية:

---

[1] الأغلاط المقصودة على النقود العربية الإسلامية كانت لغرض الدعاية كما فعل الفاطميون حين ضربوا نقوداً فاطمية عليها مكان الضرب (مصر) وتواريخ سابقة لفتحهم مصر، وتكون الأغلاط على الأكثر بسبب كتمان موت الحاكم أو الخليفة والبلاد في حالة حرب.

[2] وهو الأب أنستاس ماري الكرملي صاحب كتاب: النقود العربية وعلم النمّيّات، القاهرة ١٩٣٩م.

١ ـــ التقويم الهجري: النقود العربية بعضها لا يحمل تاريخاً، أما النقود التي سبقت النقود العربية مباشرة، وهي النقود الساسانية الإسرانية والنقود البيزنطية، فهي تحمل تاريخاً محدوداً يبدأ من حكم كل عاهل. لذا لجأ علماء النقود إلى تنظيم لوائح بحكم هؤلاء الملوك مقارنة بالتقويم الميلادي.

النقود العربية الإسلامية حملت التاريخ الهجري باستمرار، وفي هذا إبداع وتجديد وتثبيت، جعلت الأمم فيما بعد تسير وراء العرب المسلمين في تأريخ نقودهم حسب تقويم ثابت، وهو التاريخ الميلادي.

٢ ـــ عرب الحجاز قبيل الإسلام كانوا يتعاملون فيما بينهم بالتبادل، لكنهم عرفوا النقود بفضل تجارتهم الخارجية مع اليمن والحبشة شتاءً ومع بلاد الشام والعراق صيفاً. وكانت أكثر النقود المتعامل بها الدراهم الساسانية الكسروية وهي من الفضة، والدنانير البيزنطية وهي من الذهب، والفلوس البيزنطية وهي من النحاس.

نظم الإسلام التعامل بالنقود، ومنع قصها، وتزييفها، والتلاعب بعيارها، وظل العرب المسلمون يتعاملون بالنقود الأجنبية، لكنهم منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذوا يسكون النقود حسب الأنماط القديمة، وعدلوا وزن الدرهم الساساني، فقد كان رائجاً نوعان من الدراهم: البغلي ويزن الواحد ٣ غرامات تقريباً، والطبري ويزن غرامين تقريباً، فأمر الخليفة عمر بسك الدرهم الإسلامي وهو وسط بين الدرهمين القديمين، جعل وزنه ثلاثة غرامات تقريباً، وتكون النسبة بين الدينار البيزنطي (الذي يزن مثقالاً = ٤.٥ غرامات تقريباً) وما يعادله من الدراهم الإسلامية، بحيث يكون الدينار يعادل عشرة دراهم.

كان هذا أول اصلاح إسلامي طرأ على إصدار النقود من أجل تنظيم أمور الزكاة، وتثبيت أنصابه، ولم يعدل المسلمون شيئاً من مظاهر الدرهم الساساني إلا أنهم أضافوا في هامش الوجه الذي يحمل صورة العاهل الإيراني كلمة أو كلمتين أو أكثر باللغة العربية: لله، بسم الله، بسم الله ربي.. أطلق العلماء على هذه النقود "الدراهم العربية الساسانية المغفلة". واصطلحوا عليها بالمغفلة لأنها لا تحمل اسم الحاكم المسلم.

مرت النقود العربية الإسلامية بمراحل من التطور الهادئ، بدأ في عهد الخليفة الثاني، وانتهى في عهد عبد الملك بن مروان حين عرّب النقود تعريباً نهائياً في آخر سنة ٧٧هـ. قد يقول قائل: لماذا تأخر العرب المسلمون هذه المدة الطويلة (حوالي ستين سنة) حتى عربوا النقود؟ — الجواب: النقود تعتبر دعامة الأمور المالية والاقتصادية: إن هذه الأمور حساسة جداً لا ينفع فيها التغيير المفاجئ، لأنها تقوم على الثقة والعُرف، لذا كان في التطور الوئيد كل الحكمة.

قصة تطور النقود العربية الإسلامية جذبت اهتمام العلماء المتخصصين، لذا أفردوا لها أبحاثاً هامة، بدؤوا بها الكتب التي وضعوها لدراسة النقود العربية الإسلامية. وقد أفادوا كثيراً من المعلومات التي أوردها المؤرخون العرب المسلمون أمثال: البلاذري والطبري وابن النديم وابن الأثير والماوردي وابن الطقطقي والمقريزي وابن خلدون والقلقشندي.. كما أفادوا من الأخبار الواردة في كتب الأدب والكتب المؤلفة في سك المعادن ودور الضرب والتقطوا بعض المعلومات من الوثائق القديمة وسجلات المحاكم الشرعية والإدارات[٣].

٣ — المعلومات الهامة عن أسماء الخلفاء وأولياء العهد والأمراء والملوك والولاة والوزراء وأمراء الأمراء والمشرفين على السك والملوك والسلاطين ورؤساء الزعامات المحلية والثوار... في العهد الأموي وأوائل العهد العباسي، لم يذكر الخلفاء أسماءهم على الدنانير والدراهم، وإنما بدأ ذكرها على الفلوس في العهدين الأموي والعباسي، ثم بدأت

---

[٣] نورد هنا فيما يلي أهم الأبحاث التي تكلمت عن تطور النقود العربية الإسلامية القديم من هذه الأبحاث ذكر في مقدمات كتب النقود المصنفة:

Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulumanes, Vol. I (Khalifes, Orientaux), Paris, 1887.

Lane - Poole: Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol. I, London, 1875.

Walker: Catalogue of Muhammadan Coins, Vol. I, London, 1.

Idem: Catalogue of Muhammadan Coins, Vol. II, London, 1956.

عبد الرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربية وعلم النميات.

١ — فجر السكة العربية — القاهرة ١٩٦٥. ١٩٧٠.

ناصر الدين النقشبندي: الدينار الإسلامي — بغداد ١٩٥٣.

محمد أبو الفرج العش: النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن (مؤتمر بلاد الشام — عمّان، ١٩٧٤).

على نطاق ضيق على الدراهم العباسية، ثم ظهرت على الدنانير والدراهم بشكل متقطع في عهود الرشيد والأمين والمأمون، وأخيراً أصبح إثباتاً على جميع النقود أمراً سياسياً منذ عهد المعتصم بالله ٢١٨ ـ ٢٧٧هـ.

ولما كانت الدولة العربية الإسلامية قد اتسعت اتساعاً عظيماً في العالم، حتى وصلت إلى الصين شرقاً والأندلس غرباً وسيبيريا شمالاً ومنابع النيل جنوباً، وسيطرت على أقاليم عديدة، وضمت شعوباً كثيرة، وسمحت للعصبيات المحلية في الأقاليم بإقامة دول تابعة للخلافة، فإن المعلومات من الأسماء الأعلام على النقود تكاد تفوق الحصر، لذا اهتم علماء النقود بتنظيم لوائح ونبذ تاريخية عن الدول الإسلامية والأسر الحاكمة، وكان أولهم ستانلي لين بول(٤). وكان الثاني إدوارد زمباور النمسوي فوضع كتاباً بالموضوع نفسه بالألمانية ونقله إلى الفرنسية، ثم ترجم إلى اللغة العربية(٥).

وبالرغم من أهمية الكتابين المشار إليهما فإنه من الممكن وضع كتاب آخر يصحح فيه ما ورد من الأغلاط الكثيرة ويضاف ما استجد من المعلومات المستنبطة من النقود التي عرفت حديثاً.

٤ ـ المعلومات الهامة عن أسماء المدن التي ضربت فيها النقود العربية الإسلامية.
كثير من المدن قد بادت، وكثير منها تطورت وربما تبدلت أسماءها. اهتم أيضاً بهذا الموضوع زمباور المشار إليه، فوضع قبل وفاته كتاباً(٦) نشره Peter Jaekel فسد نقصاً كبيراً في علم المسكوكات ثم ظهرت نقود تحمل أسماء مدن غير معروفة سابقاً، وقد صنفها الدكتور جورج مايلز(٧) ونشرها ولا زالت الأرض تجود علينا بمكتشفات جديدة، ولا بد من تجميع المعلومات ونشرها(٨).

---

(٤) Lane - poole: Muhammadan Dynasties, London, 1897.
اهتم بهذا الكتاب العالم الروسي بارثولد فترجمه إلى الروسية، وأضاف إليه بعض المعلومات المفيدة، استفاد العالم التركي خليل أدهم من الأصل والترجمة الروسية فترجمه إلى التركية. وأخيراً انبرى عالم دمشق الأستاذ محمد صبحي فرزات تحت اسم (الدولة الإسلامية) دمشق ١٩٧٣.

(٥) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي (ترجم تحت إشراف الدكتور زكي محمد حسن وعدد من طلابه، وطبع في القاهرة سنة ١٩٥١.

(٦) Zambaur: Die Munzpragungen des Islam, Wiesbaden, 1968

(٧) Miles: Addition to Zamaur Munzpragungen des Islam

(٨) سأقوم بهذا العمل ـ إذا يسر الله ـ وقد جمعت عدداً من أسماء المدن غير المعروفة ولا أزال أجمع.

٥ ـــ كثير من الدول والدويلات الإلاسلامية قامت في العالم الإسلامي معتمدة على شعارات دينية[٩] هذه الدول ذكرت شعاراتها على النقود. نكتفي بذكر ثلاثة شعارات فقط: الخوارج وضعوا "لا حكم إلا الله".

الفاطميون وضعوا "عليّ وليّ الله".

الصليبين في فلسطين وضعوا "الأب والابن والروح القدس إلاه واحد"....

٦ ـــ ألقاب الخلفاء والحكام ذكرت على النقود العربية الإسىلامية بوفرة عظيمة اهتم بهذا الموضوع الدكتور حسن الباشا[١٠] ثم الدكتور باقر الحسيني[١١] أول هذه الألقاب "أمير المومنين" ظهر على النقود العربية الساسانية مكتوباً بالفهلوية، وظهر بالعربية على الفلوس الأموية والعباسية ثم على النقود العباسية عامة.

ثاني هذه الألقاب "خلفت الله"[١٢] أو "خليفت الله" ويقصد به "خليفة الله" ظهر على النقود العربية الساسانية وعلى الفلوس العربية المتأثرة بالنمط البيزنطي قبل التعريب النهائي.

استحسن الخلفاء العباسيون أن يكون لكل واحد منهم لقب يعرف به مثل: السفاح، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد ... وجرى على ذلك الخلفاء الفاطميون، وتابعهم في ذلك خلفاء المغرب والأندلس، وطغى اللقب حتى نكاد لا نعرف الاسم.

أما زعماء العصبيات المحلية أو الحركات الدينية كالقرامطة، فهم ابتدعوا أيضاً لأنفسهم ألقاباً. ويهمنا في هذا البحث اللقب الذي اتخذه لنفسه الحسن بن أحمد القرمطي وهو "السيد الرئيس" أو "السادة الرؤساء" يبدو أنه كان يذكر اللقب بصيغة المفرد إذا كانت سلطته عالية ويذكر بصيغة الجمع إذا ارتفعت عليه سلطة مجلس الشورة. سنجد هاتين الصيغتين على نقوده المضروبة في فلسطين.

---

(٩) اهتم بهذا الموضوع الأستاذ سمير شما والدكتور محمد باقر الحسيني.

(١٠) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، القاهرة ـــ ١٩٧٥.

(١١) نشر عدة مقالات في مجلة المسكوكات الصادرة في بغداد وفي غيرها.

(١٢) من العجيب أن يقع ناقش النقود بهذه الغلطة ربما عالجت هذا الموضوع في بحث عن تطور الخط العربي بعد الإسلام وقد كنت كتبت بحثاً عن الخط العربي قبل الإسلام في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية سنة ١٩٧٣.

بعض هذه الألقاب مطابقة لأفعال وإمكانات أصحابها مثل (العادل) لنور الدين محمود بن زنكي و(الناصر) لصلاح الدين يوف بن أيوب. ولكن كثيراً من الملوك والسلاطين فخموا أنفسهم بالألقاب التعظيمية الكثيرة وما كانوا على المستوى اللائق في الحكم.

هنالك ألقاب مزدوجة، أحد هذين اللقبين رافق صاحبه قبل الوصول إلى الملك مثل: نور الدين، صلاح الدين، سيف الدين... وقد أهمل الناس اسم الشخص الحقيقي، واكتفوا بلقبه: حتى أن الناس اتخذوا مثل هذه الألقاب أسماء في العصور المتأخرة.

٧ ــ الكنية لازمت الخلفاء والأمراء وبعض الملوك والسلاطين مثلاً: أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور، أبو تميم معد المستنصر بالله الفاطمي.. ذكرت الكنى أيضاً على النقود بكثرة منذ القرن الرابع الهجري.

لمحة تاريخية من خلال دراسة النقود:

فلسطين جزء من بلاد الشام الطبيعية، وبلاد الشام تعتبر الجناح الغربي من الهلال الخصيب، وهو يعتبرالمنطلق المتمم لشبه جزيرة العرب: وشبه جزيرة العرب تعتبر الخزان البشري العربي الأصيل، يقذف بين حين وآخر منذ الألف الرابع قبل الميلاد بدفعات من البشر، إما إلى الجناح الشرقي من الهلال الخصيب وهو العارق، وإما إلى الجناح الغربي الذي هو بلاد الشام.

تتبع العلماء هذه الهجرات العربية منذ الألف الرابع قبل الميلاد حتى الفتح العربي الإسلامي، فأحصوا الشعوب المهاجرة التي استقرت في الهلال الخصيب، وأطلقوا عليها الشعوب السامية، تمييزاً لها عن الشعوب العربية التي ظلت قاطنة في شبه الجزيرة العربية.. وقد ذبت لهم أصولها العربية من دراسة الوثائق المكتوبة التي وجدت في العراق وبلاد الشام، بنتيجة التنقيبات الأثرية، فوجدوا تطابقاً وتوافقاً في الأصول، وتشابهاً في التفكير والحياة الاجتماعية. وقد دلت الدراسات الأنتروبولوجية على أنهم جميعاً من أصل واحد.

ليس هنالك حاجز طبيعي بين بوادي الجزيرة الشمالية وبادية الشام، لذا كانت القبائل العربية تترح نحو الشمال وتغذي الهلال الخصيب ــ بدماء عربية جديدة. كانت آخر الهجرات القديمة في القرنين الثانيوالثالث الميلاديين: هجرة اللخميين الذين أسسوا

مملكة الحيرة، وهجرة الغساسنة الذين أسسوا مملكة دمشق الممتدة إلى تخوم الجزيرة العربية، أما قبائل تميم وتغلب وكلب وسواها فقد استقر بعضها في الشمال، وظل بعضها الآخر متنقلاً بين شبه الجزيرة والشمال.

لو أردنا أن نلخص أسباب هذه الهجرات، والتنقل، فإننا نجد الأسباب الاقتصادية والاجتماعية أبرز هذه الأسباب، ولا سيما الابتعاد عن مشاكل الثأر والانتقام المبتلى بها جميع أنواع القبائل في الدنيا.

يروق لبعض المؤرخين أن يجعلوا الفتح الإسلامي هجرة من هذه الهجرات وهم يجعلون أسباب الفتح الأساسية هي الاقتصادية. ولكن لو درسوا التاريخ العربي والإسلامي وروح الإسلام دراسة واعية، لوجدوا بسهولة الأسباب الحقيقية الأساسية لهذه الحركة هي: الفتح لنشر الإسلام، دين الحق والعدالة، ولتصفية العلاقات السياسية والعسكرية مع الدولتين الإيرانية والبيزنطية اللتين كانتا تكيدان للعرب سواء أكان منهم المقيمون معهم في الهلال الخصيب، أم العرب المحددون الذين حملوا لواء الدعوة الإنسانية بعد أن أصبحوا أمة واحدة، وأقاموا دولة واحدة.

بلاد الشام تمتاز بتضاريسها الطبيعية: جبال منيعة، ووديان سحيقة، وأغوار تفصل بين أجزاء البلاد، لذا كانت فلسطين جزءاً يتمتع بمزايا خاصة في التاريخ القديم، إلا أنه في التاريخ العربي الإسلامي اندمج اندماجاً كلياً مع الأجزاء الأخرى، لأن النظام الإسلامي وحد القلوب والمفاهيم العقلية والخلقية.

اهتم الأمويون بجميع البلاد وخاصة دمشق وفلسطين، وعادت القدسية الروحية إلى القدس الشريف، فبنى فيها عبد الملك قبة الصخرة سنة ٧٢ هجرية. وكانت أول عمل عمراني عظيم وجميل، وبنى خلفاؤه المساجد والقصور والقلاع والمدن منها الرملة التي شيدها سليمان بن عبد الملك وأقام فيها منذ سنة ٩٠هـ، أي قبل خلافته.

ضربت النقود العربية الإسلامية في العهد الأموي[١٣]، وربما قبله، ووجدنا فلوساً تحمل مكان الضرب: فلسطين وإيليا ـ فلسطين وإيليا، تعني القدس، وضرب الفلوس في

---

(١٣) في العهد الأموي اقتصر سك الدنانير على دمشق وربما ضربت أيضاً في مصر، ولكن لم يذكر عليها مكان الضرب، ما عدا إفريقية والأندلس والحجاز. أما الدراهم الأموية فقد ضربت بدمشق وسمح الخليفة الأموي بضربها في مدن العراق وإيران وأرمينية وأفريقية والأندلس. أما الفلوس الأموية فقد ضربت في كثير من مدن بلاد الشام وغيرها ومنها مدن فلسطين.

جبرين (وبيت جبرين) وبيسان والرملة وصفورية وطبرية وعسقلان وعكا وغزة واللد ويُبنى وحطين.. وربما جادت علينا الأرض بأسماء مدن أخرى؟.

ضربت النقود في فلسطين في الدور العباسي الأول، ولكن لا نعرف منها حتى الآن إلا فلوساً، وسكت في العهد الطولوني، ثم ضربت عباسية بين سنتي ٢٩٣ و٣٣١هـ، ثم ضربت في العهد الإخشيدي، وضربت عباسية سنة ٣٥٥هـ ثم عادت إخشيدية حتى سنة ٣٥٨هـ. بعد الغزو الفاطمي لمصر سنة ٣٥٨هـ، وبعد أن استقر لهم الأمر دخلوا فلسطين ودمشق، فلاقوا فيها مقاومة عنيفة وعنيدة... ضرب الفاطميون في فلسطين النقود سنة ٣٥٩هـ.. زحف الحسن بن أحمد القرمطي إلى دمشق واستولى عليها وعلى فلسطين وطرد الفاطميين سنة ٣٦٠هـ، وضرب النقود في فلسطين سنة ٣٦١ و٣٦٢ هـ، ثم هاجم مصر متفقاً مع بعض القبائل العربية لكنه أخفق، وطمع به الفاطميون فانسحب إلى بلاده الأحساء، لكنه عاد مؤازراً القائد التركي (الفتكين) الذي لجأ إلى بلاد الشام فراراً من الخلافات بين آل بويه في العراق واستطاع الرجلان طرد الفاطميين من فلسطين فحكماها بين ٣٦٤ و٣٦٧هـ. ضرب الفتكين ديناراً بويهياً ليطمئن عضد الدولة، لكنه عند ضعف مركزه سنة ٣٦٧هـ انحاز إلى العزيز بالله الفاطمي الذي أكرمه وقربه[١٤].

هذه البلاد المقدسة الجميلة غدت في القرن الخامس الهجري \ الحادي عشر الميلادي هدفاً لغزو أوروبي استعماري، ألبسوه حلة صليبية مسيحية، يتبرأ منها سيدهم وسيدنا المسيح، فاكتسحوا بلاد الشام ساحلياً حتى وصلوا إلى فلسطين، واستطاعوا البقاء بسبب تمزق الدولة العربية الإسلامية والتناحر على السلطة بين أفراد البيت الحاكم الواحد وبين الأسر الحاكمة المتجاورة وبين العصبيات المسلحة. لقد ضعف الرادع الديني وكثر الإقبال على الدنيا بطمع وجشع، حتى آذن الله بتوحيد القوى والصفوف بفضل طهارة ونبل أسرة زنكي، وخاصة الملك العادل محمود بن زنكي، وبفضل تماسك الدويلات الإسلامية بزعامة الأسرة الأيوبية في أول عهدها على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان بنتيجة هذا التصحيح في المنهج أن أسفر الصراع بين المسلمين والصليبيين عن تفوق المسلمين في جميع المجالات.

---

[١٤] ابن الأثير ج٨ (ص: ٢١٧ ــ ٢١٩).

شكل الصليبيون عدة دويلات وكان لا بد لهم من نقود يتعاملون بها فيما بينهم ومع جيرانهم. كانت النقود الفاطمية هي النقود الطاغية على الأسواق في بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط، لذا استعملها الصليبيون أولاً، ثم ضربوا نقوداً قلدوا بها النقود الفاطمية تقليداً أعمى، لأن ناقش النقود كان يجهل اللغة العربية، فكانت النقود من حيث الظاهر مشابهة، لكن الكلمات الصحيحة قليلة، وأكثرها مبهمة، بل بعضها عبارة عن خطوط قائمة ونائمة، ولا تعني شيئاً. بعض الدنانير الصليبية المقلدة كانت أفضل من غيرها من حيث الكتابة ومن حيث العيار، لكن أكثر هذا النوع من الدنانير كان عيارها ضعيفاً جداً، يميز ضعف عيارها بسهولة من لونها الأصفر الفاقع وخفة وزنها.

عندما سيطر الأيوبيون على مصر والشام، وحلت نقودهم محل النقود الفاطمية قلد الصليبيون أيضاً النقود الأيوبية الذهبية والفضية. كانت النقود الذهبية على الأكثر تسك في الديار المصرية، أما الدراهم والفلوس الأيوبية فكانت وافرة جداً في بلاد الشام وخاصة المضروبة في دمشق. النقود الذهبية المقلدة كانت تحمل اسم دور الضرب المصرية، أما الفضية فهي تحمل اسم دمشق، وعلى الأخص في عهد الملك الصالح اسمعيل الذي حكم دمشق مرتين بين سنتي ٦٣٥ و٦٤٣هـ وكانت علاقاته مع الصليبيين حسنة، لأنه كان في عداء مستمر مع السلطان الأيوبي في مصر.

يجدر بنا أن نذكر أن النقود الصليبية المقلدة في العهد الأيوبي كانت أفضل بكثير من النقود المقلدة في العهد الفاطمي وهذا يدل على أن الصليبيين تعلموا اللغة العربية، وربما استخدموا بعض المسيحيين المحليين في نقش النقود.

يمكن تصنيف النقود الفضية الصليبية التي تحمل اسم (دمشق) كما يلي:

١ ـــ النقود المقلدة تقليداً حسناً دون زيادة ولا نقصان، وهي تعرف من خطها.

٢ ـــ النقود التي تحمل في طيات الكلام صليباً صغيراً.

٣ ـــ النقود التي تحمل التاريخ الميلادي.

سأنشر هذه النقود في بحث هام وهو: "النقود العربية الإسلامية المضروبة بدمشق" ـــ إن شاء الله ـــ.

وأخيراً ضرب الصليبيون نقوداً ذهبية وفضية ونحاسية مسيحية خالصة، كتبت باللغة العربية وبخط لين وبشيء من الركاكة، حملت اسم مكان الضرب (عكا) والتاريخ الميلادي ١٢٥١ ــ ١٢٥٨. هذا يدل على أن أكثر الصليبيين استعربوا، وضربوا أيضاً نقوداً من خليط معدني، أكثره نحاس وأقله فضة، لونه أسمر كتب عليه "ضرب قدس" وضربوا فلوساً نحاسية صغيرة في عكا.

هذا المعدن يطلق عليه بالفرنسية (Billon). في عهد بودوان الثالث ملك القدس (١١٤٣ ــ ١١٦٣)[١٥] ضربت نقود فرنجية تحمل الصليب في الوجه مع اسم بودوان (Baldvins rex) وعلى الظهر صورة معبد كتب حوله (✝ De Jerusalem = sic) أي القدس مع شيء من التحريف. ضربت في عهد الملك نفسه نقود فضية تحمل اسمه ومكان الضرب (✝ De Jerusalem) مع كتابات أرمنية مما يدل على أنه كان في فلسطين وخاصة القدس متطوعون أرمن.

* * *

مدينة غزة في فلسطين ظلت تحت حكم الأيوبيين وكانت تعتبر الخط الأمامي لمقارعة الصليبيين. ضربت فيها النقودُ الأيوبية. أقدم نقد مسجل ضرب بغزة يعود إلى سنة ٦٢٣هـ وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق. استمر إصدار الدراهم الأيوبية في غزة حتى آخر عهد الملك الكامل محمد سنة ٦٣٥هـ[١٦].

* * *

---

[١٥] يوجد ثلاثة ملوك صليبيين من ملوك القدس يحملون اسم بودوان، يظن أن أحدهم ضرب النقود وهم:
بودوان الثالث: ١١٤٣ ــ ١١٦٣م.
بودوان الرابع: ١١٧٤ ــ ١١٨٥م.
بودوان الخامس: ١١٨٥ ــ ١١٨٦م.
رجح الأستاذ شلومبرجه أن هذه النقود ضربت في عهد بودوان الثالث لا غير:
Schlumberger, G. Numismatique de l' Orient Latin, Paris, 1877.

[١٦] هذا ما هو في حد علمنا، لكننا ننتظر الكتاب العام الذي ينشره عن النقود الأيوبية الدكتور بالوغ.

تزعزع مركز الصليبيين في عهد الملك الناصر صلاح الدين، وتقلصت مناطق نفوذهم، ولو أن الأجل تأخر، لكان صلاح الدين طهر البلاد من الصليبيين. توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ = ١١٩٣م، فحكم مصر والشام وأولاده وأخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، كل في منطقة نفوذه، فتمزقت الوحدة التي كونها صلاح الدين، ولكن لم يمض وقت طويل حتى استطاع الملك العادل سيف الدين أن يسيطر على الموقف، وأعاد الوحدة إلى البلاد، وصمد في وجه الصليبيين.

توفي الملك العادل سنة ٦١٥هـ = ١٢١٨م فتقاسم أولاده وبعض أولاد أخيه صلاح الدين حكم البلاد، وتمزقت الوحدة من جديد، وحصل تنافس بين الملوك الأيوبيين بل نزاع وقتال. وكان هذا هو السبب في انتعاش الصليبيين وبقاءهم، وأمل الأوروبيون في استعادة القدس وتمكين نفوذهم، فتجدد إرسال الحملات.

في هذه الفترة لم يضرب الأيوبيون نقوداً في فلسطين إلا في (غزة) على نطاق محدود.. كما أشرنا سابقاً.

* * *

كان موقف الملك الصالح أيوب (٦٣٧ ـــ ٦٤٧هـ/١٢٤٠ ـــ ١٢٥٠م) ضعيفاً في مصر بسبب مناوأة ملكي دمشق والكرك والأيوبيين، وبسبب تقدم الصليبيين ومحاولتهم استعادة القدس ثم وصول الحملة الصليبية الكبرى إلى مصر بقيادة لويس التاسع الفرنسي.

لم يكن يثق الصالح أيوب بالأيوبيين أنفسهم الذين ثاروا عليه في مصر بالذات بالإضافة إلى مناوأة ملك دمشق الذي كان يحاول الاستيلاء على مصر، لذا اشترى الصالح عدداً كبيراً من المماليك الأتراك، وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة في النيل، وعاش معهم، وتزوج منهم، ودربهم على الأعمال الحربية والإدارية.. فكانوا قوة لا يستهان بها.

هؤلاء المماليك هم الذين صمدوا في محاربة الفرنجة في مصر، في معركة المنصورة. واستطاعوا فيما بعد أن يستولوا على الحكم بسبب تخاذل الأيوبيين. وصمدوا لغزو هائل بحماس منقطع النظير، وهو الغزو المغولي الي كان هدفه الاستيلاء على مصر، فكسروا شوكته في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ =١٢٦٠م، وارتفع اسم المماليك في العالم الإسلامي عامة، وفي مصر والشام خاصة، واستطاعوا أن يوطدوا حكمهم في مصر والشام، ثم أخذوا على أنفسهم تصفية الصليبيين في بلاد الشام.

حكم المماليك الأتراك مصر بين سنتي ٦٤٧ ــ ٧٩٢هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٣٩٠م. وتأخر بدء حكمهم في الشام إلى ما بعد انتصارهم في عين جالوت ٦٥٨هـ ــ ١٢٦٠م. وحكم المماليك الشراكسة مصر والشام بين سنتي ٧٨٤[١٧] ــ ٩٢٣هـ[١٨]/ ١٣٨٢ ــ ١٥١٧م.

ضرب المماليك الأتراك والشراكسة جميع أنواع النقود في مصر والشام[١٩]، إلا أنهم لم يضربوها في مدن فلسطين إلا ما ندر، لقد ذكر زمباور[٢٠] نقداً ضرب في (عكا) في مصنفة الإحصائي عن مدن الضرب، لكنه لم يشر إلى المرجع الذي وجده فيه، وهو مؤرخ من سنة ٦٧٨هـ أي من عهد بدر الدين سلامش أو سيف الدين قلاوون.

وجدت في متحف دمشق درهماً مقصوصاً عليه مكان الضرب (غزة) واسم الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩هـ ثم ٧٩٢ ــ ٨٠١هـ)، لم يظهر التاريخ على الدراهم لأنه مقصوص من أطرافه.

هذا كل ما ورد من النقود المملوكية المضروبة في فلسطين، عسى أن تجود الأرض علينا باكتشاف جديد، يزيد من معلوماتنا عنها.

* * *

أما في العهد العثماني فقد وردت أوسمة ضربت في (عكا) سنة ١٢٥٦هـ باسم السلطان عبد المجيد من الذهب والفضة والبرونز مكافأة للجنود الذين بذلوا جهوداً كبيرة في إخراج جيش محمد علي من بلاد الشام.

---

(١٧) وثب الظاهر سيف الدين برقوق الشركسي على الصالح صلاح الدين حاجي الثاني فاستولى على الحكم سنة ٧٨٤هـ لكن المماليك استطاعوا إعادة حاجي سنة ٧٩١هـ فحكم إلى سنة ٧٩٢هـ تحت اسم المنصور ناصر الدين حاجي. استجمع المماليك الشركسة قواهم، واستطاعوا أن يسيطروا على الموقف سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م

(١٨) استولى السلطان العثماني سليم الأول على سورية سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م ثم استولى على مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م.

(١٩) أحسن مرجع لهذه النقود ما كتبه بالوغ

Balog, P.: The Coinage of the Mamluk Saltans in Egypt and Syria, New York, 1964.

(٢٠) Zambuor: Die Munzpragungen des Islams, Wiesbadenm 1968 (c).

مصنف النقود العربية الإسلامية المضروبة في فلسطين

سأتبع في تصنيف النقود المضروبة في فلسطين الأسس التالية:

١ ـــ تسلسل الدول:

العهد الأموي، العهد العباسي، الطولوني، العباسي الثاني، الإخشيدي، العباسي الثالث، العباسي الحمداني، القرمطي، تداخل القرمطي والفاطمي والبويهي، الفاطمي، الصليبي، الأيوبي، المملوكي، العثماني.

٢ ـــ سأفصل في كل عهد ـــ إن وجد ـــ الذهب عن الفضة عن النحاس.

٣ ـــ إذا اقتضت الضرورة أن أجعل التاريخ أساساً، فسأتبع التسلسل الزمني.

٤ ـــ في عرض فلوس العهد الأموي اضطررت أن أتبع مبدأين:

أ ـــ بيان تطور الفلوس من شكلها البيزنطي، والتقدم في تعريبها تدريجياً إلى أن أصبحت عربية خالصة.

ب ـــ إحصاء الفلوس الأموية حسب التصنيف الأبجدي لمدن الضرب مع مقدمة صغيرة عن كل مدينة.

النقود المضروبة في فلسطين في العهد الأموي

ملاحظة التطور التدريجي في تعريب الفلوس المضروبة بفلسطين:

كنا ذكرنا في اللمحة التاريخية أن العرب لم يضربوا في فلسطين دنانير ولا دراهم، وإنما ضربوا الفلوس فقط. والفلوس على قلتها في فلسطين تمثل إلى حد ما تطور النقود في شكلها البيزنطي إلى التعريب النهائي. لتسهيل البحث سنعطي درجات التطور أرقاماً:

١ ـــ يعتبر أقدم فلس ضربه العرب في فلسطين هو الفلـــس المضـــروب بطبريـــة والذي يحمل اسم (خالد)، كتاباته جميعها يونانية حتى اسم خالد فقـــد كتـــب Xaled وكتبت طبرية THABERIA.

من هو خالد؟ لا شك أنه خالد بن الوليد، لأن فلساً آخر مشابهاً يحمـــل اســم (عمر) باللغة الرعبية.

نشرها ووكر[٢١] لكنه يشك بصحة دراستها Walker, II, pp. 46 - 50: لذا لـــن أدخلها في التصنيف.

* * *

٢ ـــ في أول درجات التطور قلد العرب الفلوس البيزنطية كمـــا قلـــدوا الدنانـــير البيزنطية[٢٢]، وكان التقليد غير دقيق، ووضعوا عليها أسماء المـــدن الشـــامية، ولم يكـــن البيزنطيون يضعون على نقودهم أي اسم مدينة شامية ما عدا إنطاكيـــة لمقامـــها الديـــني عندهم.

أقدم فلس مـــن التقليـــد يحمـــل اســـم (بيســـان) باليونانيـــةويلفظ باللاتينيـــة SCYTHOPOLIS.

هذا الفلس هو تقليد لفلس جوْستان الثاني وصوفيا (٥٦٥– ٥٧٨م). واسـم مدينـــة الضرب الأصلية NIKO وهو مختصر (نيكوميديا)، لكنه ذكر باليونانية (سيتوبوليس) مجزأ في طرفي وجه الفلس، ولم يكن دقيقاً في كتبة Niko إذ زلق الحرف O إلى ما تحـــت التـــاريخ المكتوب عمودياً . يقدر ووكر تاريخ ضرب هذا الفلس المقلد سنة ٦٥٠م.

في اللوح صورة الفلس الأصلي والمقلد ١ ـــ ٣ Walker, II pl. I

* * *

---

(٢١) سنذكر جميع المراجع باختصار، وسنعطي أسماءها كاملة في ثبت أخير مع المختصرات.

(٢٢) راجع بحثي المشار إليه سابقاً، "النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن" (مؤتمـــر بـــلاد الشام ـــ عمان ١٩٧٤).

Traces du Classicism dans la Numismatique Arabe- Islamique (AAAS. vol. 23 (1971), pp. 304- 5).

٣ ـــ في هذه المرحلة لم يقلد العرب تقليداً أعمى ـــ كما حصل في المرحلة الثانية ـــ وإنما قصدوا ضرب الفلوس على النسق البيزنطي، واحتفظوا بعناصره: صورة العاهل البيزنطي واقفاً مع شاراته المسيحية في الوجه، أما في الظهر فقد وضعوا حرف M وفوقه الشارة المقدسة †، وكتبوا إلى يسار M اسم المدينة باليونانية THBEPIADO بحيث تشغل اليسار والأسفل، وكتبوا إلى يمين الحرف باللغة العربية طبرية.

Walker, II, p.11, no. p4, pl. III.

في هذه المرحلة بالذات وعلى النسق نفسه وضعوا صورة هرقل (هيراكليوس) وولديه مع شاراتهم المسيحية في الوجه. أما الظهر فلا يختلف عن الشكل الأول إلا بالشارات فقط[٢٣]. Walker,II,p15,nos-43-51,-pl.III

يمكن أن نعد من هذه المرحلة أيضاً فلساً مشابهاً للفلس السابق الذي يحمل صورة العاهل هرقل وولديه في الوجه. أما في الظهر فلم تكتب (طبرية) باليونانية وإنما كتبت OIA من الأعلى إلى الأسفل، وكتبت (طبرية) بالعربية إلى اليمين كالسابق، ولكن كتب M كلمة مصري .هي بلا شك مصري.

هذا الفلس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق، وكنت نشرته في بحث ألقي في المهرجان الألفي لمدينة القاهرة سنة ١٩٦٩، تحت عنوان:

"مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية"[٢٤].

اطلعت حديثاً على فلس مماثل، لكن كاتبي المقال لم يستطيعا تفكيك كلمة (مصري)[٢٥].

* * *

---

(٢٣) سنبين هذه الشارات وتنوعها في المصنف التالي.

(٢٤) نشرت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة أبحاث المهرجان في أربعة أجزاء، بحثي في الجزء الثاني بين الصفحتين ٩٠٥ ـــ ٩٩٥. أشرت إلى هذه الفلس في حاشية الصفحة ٩٠٨ تحت الرقم (٢).

(٢٥) Metcal and Payne: Some Byzantine and Arab- Byzantine Coins obtained in Jerusalem (Spink Son's Numismatic Circular, June- December 1965).

٤ ــ استغنى العرب عن رسم الامبراطور البيزنطي، ووضعوا عوضاً عنــه رســم الخليفة الأموي في الوجه، مثلوه واقفاً، يرتدي ثوباً منمقاً، يضع يده اليمنى على مقبــض سيفه الذي يسنده بيده اليسرى، ويبدو مائلاً إلى يساره. كتب إلى يمين رســم الخليفــة بالخط الكوفي (محمد ر) وإلى يساره (سول الله). نقش على ظــهر الفلــس حــرف m وكتب إلى يسار الحرف (ايليا) وإلى يمينه (فلسطين).

من ضرب الفلس، و لم يذكر اسمه؟ يرجح علماء النقود أنه ضرب قبل عهد عبــد الملك بن مروان. أظن أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي ضربه. ذلك لأن المقريــزي[٢٦] ذكر: ".. معاوية ضرب دنير عليها تمثاله متقلداً سيفاً". لم يعثر حتى الآن علــى دينــار لمعاوية يحمل صورته، ولكن يحتمل أن يكون ضرب فلوساً يحملها. يوجد عدد كبير مــن هذه الفلوس المضروبة قبل عبد الملك بن مروان الذي ذكر اسمه صراحة مع صورته.

Walker, II, p22, nos. 73- 79 and ANS. 5.

* * *

٥ ــ كانت خطوة عبد الملك بن مروان جريئة جداً، فقد عرب الدينار ووضــع صورته عليه والتاريخ ٧٤هــ[٢٧]، واستمر بضرب هذا النمط حتى أواخر سنة ٧٧هــــ حيث ضرب أول دينار عربي خالص[٢٨]. وعرب عبد الملك أيضــاً الفلــوس، ووضــع صورته واقفاً على نحو ما وصفنا، وكتب حول شخصه (لعبد الله عبــد الملــك أمــير المؤمنين) أما الظهر فقد بدا في وسطه الصليب البيزنطي المحوّر[٢٩] مرفوعاً ثلاث درجــات وكتب إلى يساره كلمة (واف) يعني صحيح الوزن والضربة. وإلى يمينه جبرين[٣٠].

Walker, II, p.33, no. 105, pl. VII.

* * *

---

[٢٦] المقريزي: "شذور العقود في ذكر النقود" اقتطف الأب أنستاس ماري الكرملي في كتابه المعلومــات الهامة عن النقود، وذكر ما يخص المقريزي في ص ٣١ ــ ٣٤، وذكر هذه الجملة ص٣٤.

[٢٧] انظر صورته الواضحة في بحثي Traces اللوح (١١) XCII، الرقم ١٩.

[٢٨] انظر صورته في بحثي الآنف الذكر في اللوح نفسه الرقم ٢٠.

[٢٩] نقصد بالمحوّر أن أزيلت عارضة الصليب، ووضع فوق قائمته حلقة أو كرة صغيرة.

[٣٠] يوجد عدد كبير من هذه الفلوس من ضرب: دمشق، حمص، بعلبك، قنسرين...

٦ ــ وهي المرحلة الأخيرة فقد زال كل تأثر في النمط البيزنطي، وغدت الفلوس بمأثوراتها العربية خالصة، تتضمن معلومات مفيدة: مكان الضرب، التاريخ، أحياناً، بعض رسوم الحيوان، غصن النخيل، زهرة... سنرى في المصنف التالي أنواعاً من هذه الفلوس المضروبة في المدن الفلسطينية.

*   *   *

نعتمد في هذا المصنف لدراسة فلوس العهد الأموي[٣١] على مجموعة المتحف الوطني بدمشق وعلى كتاب ووكر: الجزء الثاني، الذي أشرنا إليه سابقاً لأنه جمع في كتابه الصادر سنة ١٩٥٦ كل المعلومات المذكورة في المصادر السابقة، ونقحها وصححها وأحسن تصنيفها وترتيبها، ولقد ظهر بعد نشره الكتاب نقوداً فيها شيء من الطرافة.

سأعرض هذه الفلوس حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المدن.

١ ــ الأردن:

لن أتكلم عن الفلوس التي سكت في شرقي الأردن، لكن الأردن، ويقصد به كور الغور وحوالي البحيرات جميعاً، صار له كيان بعد الفتح الإسلامي أطلق عليه (جند الأردن)، وهو يضم طبرية والسامرة (نابلس) وبيسان وفحْل وجرش، وعكا وقدس وصور، والغور[٣٢].

أ ــ غير مؤرخ من النمط العربي.

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

---

[٣١] نذكر العهد الأموي، ولكن يجب ألا نتجاهل أن بعض الفلوس التي ضربها العرب حسب النمط البيزنطي قد سُكّت قبل العهد الأموي، ونخص منها الفلس المضروب بطبرية ويحمل اسم (خالد) باليونانية.

[٣٢] ذكر هذا ابن الفقيه. نشر هذه النصوص لوسترانج

Le Strange, G.: Palestine under the Moslems, London, 1890.

ترجم الكتاب السيد محمود عمايري: فلسطين في العهد الإسلامي، عمان ١٩٧٠، وقد اعتمدنا على الترجمة. نص ابن الفقيه ص٤٧.

المدار: بسم الله ضرب بالأردن المدار غير واضح، يظهر من المأثورة كلمة (محمد)

في أسفل الوجه عند ووكر Walker, II, p128, no. 743: no. 745

ب ــ مؤرخ سنة ١١٠هـ

هذا الفلس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق تحت الرقم ع/ ٢٠٦٠ (القطر ٢٣ مم).

٢ ــ إيليا:

هذا الاسم أتى من التسمية الرومانية AELIA، فقد أنشأ الامبراطور هارديان سنة ١٣٠م مستعمرة أطلق عليها Aelias Haderianus، وقد ضربت فيها النقود من عهد هادريان إلى عهد هوستليان[٣٣]، لكنها لم تذكر على النقود البيزنطية.

هذا الاسم (إيليا) ظهر باللغة العربية مع (فلسطين)، ولوحده، وهي تعتبر حاضرة فلسطين في العهد العربي، وأطلق عليها (قدس) أو (القدس) أو (بيت المقدس) وقد ورد هذا الاسم في جميع المصادر التاريخية القديمة على أنه هو (القدس)، وقد ذكر كتاب الصلح الذي كتبه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى أهل إيليا[٣٤] سنة ١٥ هجري.

أقدم فلس ضرب بإيليا فلسطين عربي متأثر بالنمط البيزنطي، مثل عليه شخص الخليفة واقفاً (في الوجه)[٣٥]، وحرف m (على الظهر).

هذا الفلس ضرب قبل عهد عبد الملك بن مروان، لأن فلوس عبد الملك أكثر إتقاناً، وخاصة في نقش صورته، وقد كتب عبد الملك على فلوسه اسمه ــ كما مر معنا.

نشر ووكر عدداً من الفلوس المشابهة، مع اختلاف بسيط ببعض الإشارات (ووكر ٧٧) اللوح١ Walker, II, p.22, nos. 73- 79 and ANS. 5.

---

(٣٣) وقد عرفت أيضاً Hill: BMC, Palesyine, pp. 82, ff. (Aelias Capitalinas).

(٣٤) الكبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١ ص١٥٩، المطبعة الحسينية المصرية.

(٣٥) سأصف الوجه في الجهة اليسرى، والظهر في الجهة اليمنى مراعاة لما هو منشور باللغات الأجنبية، حتى لا يحصل التباس.

٣ ـ إيليا (النمط العربي):

ليس على هذا الفلس أي أثر للنمط البيزنطي.

في الوسط ضمن حرز	في الوسط ضمن طوقين
محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

Walker, II, p235, no. p 124, pl. XXVI.

* * *

٤ ـ بَيْسان (بفتح الباء وتسكين الياء):

هذه المدينة ـ كما ذكرت في مقدمة هذا الفصل ـ معروفة قديماً، وكانت حاضرة فلسطين الثانية في التقسيم الإداري الوارد في قانون جوستينيان[٣٦] في القرن السادس الميلادي.

أقدم فلس يحمل اسمها باليونانية، ويلفظ (سيتوبوليس). وهو يعتبر في أول مرحلة التعريب، وقد أشرنا إلى ذلك. الفلس البيزنطي الأصيل الخالي من اسم الدينة سيتوبوليس: * (ووكر الرقم B) اللوح١.

(صورة جوستينيان الثاني)

الفلس العربي تقليد البيزنطي ويحمل اسم بيسان باليونانية علىالوجه: * (ووكر الرقم١) اللوح١.

صورة جوستينيان الثاني وصوفيا

كتبت كلمة (سيتوبوليس) باليونانية مجزأة من الطرفين

---

* هذه الإشارة تعني أن للنقد صورة ويشار إلى اللوح.

[٣٦] لوسترانج (مترجم) ص٤٣.

Walker, II, Prototype: No, B: Arab- Byzantine: Nos. 1-3, and A.2.

* متحف دمشق ع/ ١٦٨٦٩ اللوح١ (يشبه ووكر ١.٢)، ولكن الصورة تمثل هرقل وولديه.

الفلس العربي تقليد البيزنطي ويحمل اسم بيسان بالعربية (بيسن)

(صورة جوستينيان الثاني وصوفيا)

Walker, II, p.2, no. Bel. 2.

عهد جوستنيان الثاني وصوفيا ٥٦٥ ـــ ٥٧٨م، وهو مضروب في السنة الثامنة من حكمه أس ٥٧٢م، أما الفلس فإن ووكر يقدر تاريخه بسنة ٦٥٠م أي حوالي سنة ٢٩هـ.

* * *

٥ ـــ بيت جبرين أو جبرين:

ورد اسم هذه المدينة على الفلوس الأموية بهذين الشكلين. يبدو أن هذا الاسم يمكن أن يكون بيت جبريل[٣٧]، وقد دعاها المؤرخ يوسيفوس (بيتوجابرا)، لكن البيزنطيين أطلقوا عليها (ELEUTHEROPOLIS)، وهو اسم معروف في العهد الرومايي، وقد ذكره هيل[٣٨].

أ ـــ جبرين ـــ عبد الملك (بن مروان) وهو من المرحلة الخامسة المتطورة.

المدار: (لا إله إلا) اله وحده	(شخص عبد الملك)
محمد رسول الله	المدار: لعبد الله (عبد الملك أمير المؤمنين

(٣٧) لوسترانج (مترجم) ص٠ ٣١٠.

(٣٨) Hell: BMC (palestine), p. XV

Walker: II, p. XCIII.

Walker. II, p.33. no. 105, pl. VII, p. 33, no, 105, pl. VII.

بيت جبرين ــ غير مؤرخ ــ النمط العربي

محمد　　　　لا إله

رسول　　　　إلا الله

الله　　　　وحده

المدار: ضرب هذا الفلس ببيت جبرين

Walker. II, p.239 and 240, no 791 and th 14.

ج ــ مثل الفلس ب ولكن (جبرين)

Ibid, no 782.

* * *

د ــ جبرين ــ مؤرخ ولكن لا يبدو من التاريخ إلا ( ) نقدر الآحـــاد [ ] [ ] أي أن التاريخ يجوز أن يكون ٩٤ أو ١٠٤هـــ.

★

محمد　　　　لا إله إلا

رسول　　　　إله وحده

الله　　　　لا شريك له

المدار: .. [الفلـــ..] س بجبرين سنة [ا] رد...

هذا الفلس وحيد، لم ينشر مثله وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشـــق تحـــت الرقم ع/ ١٦٦٠١.

* * *

٦ ــ حطين:

لم يذكر أحد من علماء النقود العربية الإسلامية هذا الاسم لكنه واضح على الفلس الذي ندرسه. ذكر ياقوت قرية[٣٩] هذا الاسم تقع بين أرسوف[٤٠] وقيسارية على الساحل الفلسطيني، ونسب إليها الرجل الصالح الزاهد هيّاج محمد بن عبيد بن حسين الحطيني. ثم ذكر موضع حطين الذي جرت فيه المعركة الشهيرة التي انتصر بها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، وهو يقع بين طبرية وعكا.

هذا الفلس من المرحلة الخامسة التطورية باسم عبد الملك

(شخص عبد الملك)

المدار: لا إله إلا (الله وحده) محمد رسول لعبد الله عبد الملك أمير المؤ[منين]

* هذا الفلس وحيد ومحفوظ في المتحف الوطني بدمشق[٤١] الرقم (ع/ ١٤٣٦٨) اللوح١.

* * *

٧ ــ الرملة:

وهي في جند فلسطين، تقع على بعد ٢٥ ميلاً عن القدس.

أنشأها سليمان بن عبد الملك قبل توليه الخلافة وأقام فيها منذ سنة ٩٠هـ وكان يقيم فيها غالباً بعد الخلافة سنة ٩٦هـ.

---

(٣٩) ياقوت: معجم البلدان ج٢، (نشر دار صادر ببيروت) ص٢٧٣.

(٤٠) أرسوف هي يافا الصغيرة حسب تعريف المقدسي وعين أبو الفداء مكانها بدقة: تبعد ١٢ ميلاً عن الرملة و٦ أميال عن يافا و١٨ ميلاً عن قيصرية. ص٢٣٩. (لوسترانج ــ مترجم ص٣١٨).

(٤١) أسجل هنا شكري وعرفاني للأستاذ محمد الخولي محافظ الآثار الإسلامية في المتحف الوطني بدمشق لتعاونه المخلص.

أ ـــ الرملة غير مؤرخ

محمد	لا إله
رسو (كذا)	إلا الله
اله	وحده

المدار: بسم الله ضربـــ (...) بالرملة في مكان المدار خطوط قطرية ||||

* متحف دمشق ع/ ١٧١١٩ (٢٣مم، ٤.٩٢ غ) اللوح١.

Walker, II, no. 853 and ANS.

ب ـــ شبيهة بالسابق لكن غصن النخيل إلى يمين مأثورة الوســـــط، ولا توجـــد حبيبة في الأسفل.

Walker, II, no. 846.

ج ـــ المأثورتان في الوسط في الوجه والظهر هي نفسها ولكن دون غصن النخيل

المدار: ضرب بالرملة لله الملك فلس واف

Walker, II, p 255, no. p. 132.

د ـــ غير مؤرخ

في الوسط

المدار: ضرب هذا (....) بالرملة لا إله إلا الله وحده

Walker, II, no. 855.

هـــ ـــ مؤرخ سنة ١١٦هـــ

نشره ستيكل[٤٢] لكنه اعتبره مضروباً في (الرقة) ووكر وجد أنه مضروب بالرملـة لكن مكان الضرب كتب دون لام أي (الرمة).

Walker, II, p, 259, footnote 2.

و ـــ مؤرخ سنة ١١٧هـــ

________________ (٤٣)

[٤٢] Stickel: ZDMG, 1885, p 39.

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلس
بالرملة سنة سبع عشرة ومئة (لا يوجد مدار في الوجه)

عبد الرحمن فهمي: الموصوعة. الرقم ٩٧٣.

ز ــ المؤرخ سنة ١١٨هـ

مثل الفلس السابق: فهي الرقه ٩٧٤، لكن التاريخ ١١٨هـ.

* * *

٨ ــ صفّورية:

تقع قرب طبرية في جند الأردن، وكان اسمها في العهد الروماني SEPHORIS وضرب فيها النقود، ورد اسمها أيضاً على الفلس الثاني (صفّوربية).

النمط العربي

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

المدار: بسم الله
ضرب هذا الفلس بصفورية

Walker, II, p. 266, nos. p.135 and 884.

في متحف دمشق مثال جيد (الرقم ع/ ١٥٢١٣)

* * *

(٤٣) نعني بهذا الخط أن المأثورة الوسطى هي العادية المألوفة ولكن تحتها كلمة أو إشارة، الكلمة هي (بـخ) وهي للاستحسان وتقدير الجودة.

٩ ــ طبرية:

لعبت طبرية دوراً كبيراً في التاريخ قبـــل الإســـلام وبعـــده بســـبب موقعـــها الاستراتيجي. ضربت فيها النقود العربية المتأثرة بالنمط البيزنطي في وقت مبكر. أليكـــم منها ثلاثة أمثلة:

أ ــ النمط البيزنطي، صورة العاهل البيزنطي(٤٤) واقفاً:

شخص العاهل مع شعاراته المسيحية

Walker, II, p.11, no. p4, p1. III

ب ــ النمط البيزنطي صورة العاهل هرقل وولديه

الأشخاص الثلاثة هيراكليوس وولداه

مع شعاراتهم المسيحية

كالسابق لكن الشارات مختلفة

مع اختلاف وضع الهلال

* (ووكر ٤٨) اللوح١. Walker, II, p. 15, nos. 43-51.

ج ــ النمط البيزنطي: صورة العاهل هرقل وولديه مع كلمة (مصري).

الأشخاص الثلاثة

مع شعاراتهم المسيحية

لا ندري ماذا يقصد بكلمة (مصري) هل ضرب هذا الفلـــس في مصـــر أو أن ضاربه يحمل نسبة (مصري)؟.

* الفلس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق تحت الرقم ع/ ١٠٤٦٨ (١٩مـــم، ٣.١٨ غ) اللوح١.

* * *

د ــ النمط العربي مع صورة رأس كبش ذي قرنين بشكل محور أو تعبير زخرفي:

---

(٤٤) من مقارنة الفلوس العربية البيزنطية بالنقود البيزنطية لم يكن الجزم بالشخص المقصود من الأبـــاطرة أن يكون المقصود في التقليد موريس تيبر يوس (٥٨٢ ــ ٦٠٢م).

المدار: محمد رسول الله — لا إله إلا الله وحده

Walker, II, p. 267, no. p.137.

هـ ـــ النمط العربي مع غصن

ضرب	لا إله
طبرية	إلا الله
	وحده

Walker, II, p. 267, no. p.51

و ـــ فلوس طبرية:

بسم ا	بسم ا
لله فلو	لله محمد
س طبر	رسول ا
ية ٥	لله

Walker, II, p. 267, no.885.

ز ـــ صورة طائر في أعلى المأثورة

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلس بطبرية

Walker, II, p. 267, no.886.

يوجد مثل هذا الفلس ولك عوضاً عن الطائر ــــــ ــــــــ

* متحف دمشق ع/ ١٧٠٩٠ اللوح١.

ح ـــ غصن نخيل:

محمد	الله أ
رسول	حد الله
الله	الصمد

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلس بطبرية

Walker, II, p. 269, no 898.

ط ـــ أسد رابض مؤرخ سنة ١١٠هـــ

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده
(بسم الله ضرب)	
بطبرية سنة عشر ومئة	(أمر) أمير المؤمنين بالوفا

Walker, II, p.270. no. ANS 42.

* يوجد في متحف دمشق الوطني منه (الرقم ع/ ١٤٨٢٣) ولكن أمر به عبد الله أمير المؤمنين اللوح١.

ي ـــ ذكر اسم أمير (رستم؟) مؤرخ سنة ١٢٠هـــ.

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده
بسم الله ضرب بطبرية	
عشرين مئة (كذا)	..... أمير رستم؟

Walker, II, p.270, no. Zamb 1.

* * *

١٠ ـــ عسقلان

مدينة ساحلية تقع إلى الشمال من غزة على بعد عشرة أميال منها وقد كانت من جند فلسطين. المدينة القديمة ومشهورة في العهد الروماني وقد ضربت فيها نقود رومانية وكان اسمها ASCALON كتب اسمها على النقود العربية (عسقلن)

أ ـــ عسقلن فلسطين

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
اله	وحده
ضرب بعسقلن فلسطين	لله الملك، فلس واف

Walker, II, p. 273, no 903.

ب ــ مثل الفلس السابق ولكن ذكر فيالمدار عسقلن فقط. ولا توجد مــأثورة في الوجه.

Walker, II, p.274, no. p.139.

١١ ــ عكا:

مدينة ساحلية مشهورة بموقعها الحصين. كان اسمها في العهد الكلاسيكي - ACE PTOLEMAIS وقد ضربت فيها نقود في العهد الروماني.

تعتبر في العهد العربي من جند الأردن. وقد لعبت دوراً كبيراً في العهود الإسـلامية وخاصة في أيام الصليبيين

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

بسم الله ضرب هذا الفلس بعكا

Walker, II, p 274, no.904.

* * *

١٢ ــ فلسطين:

ورد اسمها مع إيليا سابقاً وورد مع عسقلان وغزة.

أ ــ النمط العربي المتأثر بالنمط البيزنطي وعليه رسم الخليفة قبل عبد الملك بــن مروان كتب اسمها (فلسطين) كذا .Walker, II, p.25, no. p.5

نشر أيضاً ووكر تحت الرقم ٧٥ مثله، لكن (فلسطين) إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل

ب ــ النمط العربي مع غصن في المدار:

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده
ضرب بفلسطين	لله الملك فلس واف

توجد أنواع أخرى .Walker, II, p. 276, no.910

*　　*　　*

١٣ ــ فلسطين غزة:

تعتبر من جند فلسطين، تقع على الطريق الرئيسي إلى مصر ــ كان لها مكانة في العهد الكلاسيكي، وضرب فيها النقود في العهد الروماني.

وردت على الفلوس الأموية مركبة للتدليل على أنها تابعة لجند فلسطين

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده
المدار: ضرب بفلسطين بغزة	لله الملك فلس واف

Walker, II, p. 275, no. 908.

*　　*　　*

١٤ ــ لُدّ أو اللُّدّ

تقع في الجنوب الشرقي من يافا على طريق القدس، وهي عاصمة فلسطين القديمة، وظلت كذلك في العهد العربي الإسلامي الأول لكنها تنازلت عن مكنها بعد بناء الرملة في العهد الأموي.

كان لها ماضٍ مهم في العهد الكلاسيكي، وكان اسمها DIOSPOLIS.

أ ــ فلسطين بلُدّ

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده
المدار: ضرب فلسطين بلد	لله الملك، فلس واف

Walker, II, p. 280, no.924.

ب ــ لُدّ:

محمد	لا إله ا
رسول	إلا الله و
الله	حده

بسم الله ضرب هذا الفلس بلُدّ

Walker, II, o. 280. no.925.

* * *

١٥ ــ يُبْنَى

تقع بين يافا وعسقلان على الساحل الشامي، ويظن أنها هي التي ضربت فيها النقود. يوجد مكان في البلقاء بهذا الاسم أيضاً، ورد ذكره في موقعة مؤتة على عهد الرسول (ص).

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

بسم الله (ضرب هذا الفلس) في يبنى

Walker, II, p. 288, no. th.17.

* * *

النقود المضروبة في فلسطين في العهد العباسي

لاحظنا أن النقود المضروبة في فلسطين في العهد الأموي كانت فلوساً نحاسية فقط، وقد ورد عليها أسماء مدن عديدة في فلسطين، وهي مهمة من الناحية التاريخية والجغرافية ودراسة المسكوكات.

نجد في العهد العباسي دنانير ودراهم وفلوس ضربت في فلسطين

١ ـــ النقود العباسية ضربت في ثلاث فترات:

أ) في الدور الأول ضربت فلوس فقط في فلسطين.

ب) بعد انقراض الدولة الطولونية بين سنتي ٢٩٣ و٣٣١هـ ضربت دنانير ودراهم.

ج) في أثناء ضعف حكم الدولة الإخشيدية في فلسطين سنة ٣٥٥هـ فقط.

د) بعد دخول الفاطميين إلى فلسطين وضربهم النقود سنة ٣٥٩هـ.

تغلب القرامطة على فلسطين، وقد والوا الخليفة العباسي المطيع لله ثم ضربوها بعد اتفاقهم مع الفتكين التركي، وهذا ضرب نقداً بويهياً سنة ٣٦٧هـ آملاً في التقرب من عضد الدولة.

١ ـــ ذكر على النقود الذهبية والفضية اسم فلسطين وطبرية فقط، لكن الفلوس حملت الأسماء التالية: الرملة، غزة، طبرية.

٣ ـــ الدنانير كثيرة لكن الدراهم والفلوس المعروفة حتى الآن قليلة. سأفصل في المصنف الدنانير عن الدراهم عن الفلوس.

* * *

الدنانير المضروبة في فلسطين

١٦ ــ ذ[*] ــ فلسطين ــ ٢٩٣هـ ــ المكتفي بالله ــ مثال

لله	لا إله إلا
محمد	الله وحده
رسول	لا شريك له
الله	المدار الداخلي: بسم الله ضرب هذا
المكتفي بالله	الدنير بفلسطين سنة ثلاث
المدار : محمد رسول الله	وتسعين ومائتين
أرسله المشركون	المدار الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد
.	يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

Zambour: Wien (NZ, LV, 1922)

*　　*　　*

١٧ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٤هـ ــ المكتفي بالله ــ ٤ أمثلة[٤٦]

لله[٤٥]

المكتفي بالله　　　يلاحظ حبيبات حول المأثورة الوسطى

المتحف الوطني بدمشق الرقم ع/ ٢٦٧١ (٢٥مم، ٤.٠٣ غ)

***

١٨ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٥هـ ــ المكتفي بالله ــ ٥ أمثلة[٤٧]

---

[*] ذ = ذهب.

[٤٦] أكتفي بعرض مثال واحد وأشير إلى عدد الأمثلة المعروفة فقط وأذكرها مختصرة في الحاشية
Zambour: Baghdader. ; Allan (NC, IV. XIX< p.197.).

[٤٥] النقود العباسية متشابهة من حيث المأثورات لذا سأعرضها مختصرة وأقصد بالخط الأفقي (المأثورة الوسطة المتكررة) وأذكر ما فوقها وما تحتها، أما مأثورات المدار فلن أكررها إلا إذا كان هناك مشاكل أو اختلاف.

[٤٧] متحف دمشق ع/ ٥٨٨٦. عراقي مهاب ٦٩١٣. زمباور NZ, LV ;.. Baghdader
يكتفى بالإشارة إلى .Baghdader وهو كنز خضر الياس نشره النقشبندي في سومر ١٠ ج٢.

لله

المكتفي بالله

* متحف قطر الوطني (٢٢مم، ٤.٢٥ غ) ــ اللوح٢.

***

١٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٥ ــ المقتدر بالله ــ مثالان

فهمي ــ ٢٤٦٥ (٢٢مم، ٤.٥١ غ)(٤٨)

Lavoix, I, no, 1123 (- 3.78).

*   *   *

٢٠ ــ ذ ــ فلسطين ٢٩٦هـ ــ المقتدر بالله ــ ٣ أمثلة(٤٩)

* متحف دمشق ع/ ٥٣٤٩ (٢٣، ٣.٤٥) اللوح٢.

٢١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٧هـ ــ المقتدر بالله ــ مثال

* متحف دمشق ع/ ١٥٨١ (٢٤، ٢.٨٢) اللوح٢.

٢٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٨هـ ــ المقتدر بالله ــ ٨ أمثلة(٥٠)

متحف دمشق ع/ ٢٦٩٧ (٤٢، ٤.١٥)، ع/ ٨٨٤ (٢٥، ٣.٥٤).

* متحف قطر (٢٥، ٣.٨١) اللوح٢.

لله

المقتدر بالله — أبو العباس بن أمير المؤمنين

٢٣ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٩هـ ــ المقتدر بالله ــ ٣ أمثلة

(٤٨) تذكر المراجع مختصرة سنشير إلى المختصرات في آخر البحث ــ نقصد بفهمي (عبد الرحمن فـهمي)، ر = الرقم، تذكر بين قوسين القطر بالمليمترات والوزن بالغرامات دون ذكر مم، غ فيما بعد. ذ = ذهب.

(٤٩) Lane Poole, BMC, I, no. 412 (24, 3.65) Zambour: Baghdader..

(٥٠) Lane Poole: op. cit, no 713 (24., 4.66)' Zambour: op. cit.

عراقي ــ مهاب ٦٨٩٧، مجموعة الصراف ٢٦٢، السيوفي.

Soret: RNB, IV, 2e serie (1857); Tiesenhausen: Khalifes..;
Zambour: Baghdader..

* * *

٢٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٠هـــ ـــ المقتدر بالله
مثالان ـــ عراقي ـــ مهاب ٢٨٩٨ (٢٥، ٣.٠١) و..Zambour: Baghdader

* * *

٢٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠١هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ أربعة أمثلة[٥١]
عراقي (مجموعة الصراف) ٢٥٨ (٢٤، ٣.١٠).

* * *

٢٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٢هـــ ـــ المقتدر بالله
مثال وحيد كنز خضر الياس ..Zambour: Baghdader

* * *

٢٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٣هـــ ـــ المقتدر بالله
مثال وحيد: كنز خضر الياس ..Zambour: Baghdader

* * *

٢٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٤هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثالان
عراقي (مجموعة الصراف) ٢٦٦ (٢٧، ٤.٣)
كنز خضر الياس ..Zambour: Baghdader

* * *

---

(٥١) Lane Poole: Calverst's Coll. and Khed. no 678 (13.90).

٢٩ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٥هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة[٥٢]

Lane Poole: BMC. IX, p.76, no. 413 (26., 4.15)

* * *

٣٠ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٦هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ثلاثة أمثلة[٥٣]

عراقي ـــ مهاب ٦٨٩٩ (٢٥، ٤.٠٠)

* * *

٣١ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٧ ـــ المقتدر بالله ـــ أربعة أمثلة[٥٤]

عراقي مهاب ٦٨٧٦ (٢٤.٥ ـــ ٣.٠٠٥)

* * *

٣٢ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٨هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة

* متحف دمشق ع/ ١٨٩٥٩ (٢٥، ٣.٨٨)، متحف قطـــــر (٢٤.٢، ٣.١٧) اللوح٢.

عراقي ـــ مهاب ٦٩٠٢ (٢٣، ٤.٠٩)

* * *

٣٣ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٠٩هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٥ أمثلة[٥٥]

متحف دمشق ع/ ٤٥٢٧ (٢٤، ٤.١٢) اللوح٢.

* * *

٣٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣١٠هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة[٥٦]

---

(٥٢) السيوفي وكنز خضر الياس ..Zambour: Baghdader

(٥٣) السيوفي و (Lavoix, I, no. 1124 (- 3.50) BMC. IX, p.76, no 413h (26, 4.21

(٥٤) Lane Poole: Khed. no. 642; Rogers: N.c> III
Allan: N.C. XIX, p. 197.

(٥٥) عراقي ـــ مهاب ٦٨٧٩ (٥٤، ٤.٠٨)، مجموعة الصراف ٢٦٣ (٢٦، ٣.٠٧).
السيوفي وكنز خضر الياس ..Zambour: Baghdader

Lane Poole: BMC. I. no.414 (24., 3,45).

*　*　*

٣٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣١١هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة[٥٧]
عراقي ـــ مهاب ٦٨٨٠ (٢٤، ٤.٠٠)

*　*　*

٣٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣١٢هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثالان
متحف دمشق ع/ ٥٥٠٦ (٢٤، ٣.٧٢)

لله　o

المقتدر بالله　أبو العباس بن
.　أمير المؤمنين

Lane Poole: BMC. I. no. 415 (23., 3.65).

*　*　*

٣٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣١٣هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثالان
السيوفي، كنز خضر الياس.. Zambour: Baghdader

*　*　*

٣٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣١٤هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثالان
* متحف دمشق: ع/ ١٦٠٩ (٢٤، ٢,٨٠) كالسابق دون حبيبات، اللوح ٢
Zambour: Neue (Wiener NZ,LV)

*　*　*

---

(٥٦) السيوفي وكنز خضر الياس Ibid.
(٥٧) السيوفي وكنز خضر الياس Ibid.

٣٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣١٧هـ ــ المقتدر بالله ــ مثالان
السيوفي (Laviox< I. no. 1152(- 4.18

* * *

٤٠ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣١٨هـ ــ المقتدر بالله ــ مثال
Zambour: Neue (Wiener, NZ,LV)

* * *

٤١ ــ ذ ــ طبرية ــ ٣١٩هـ ــ المقتدر بالله ــ مثالان
* متحف دمشق ع/ ٥٣٥٠ (٢٦، ٤.٩٢) اللوح٢.
Zambour: Neue (Wiener, NZ,LV)

* * *

٤٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣١٩هـ ــ المقتدر بالله ــ مثال
Zambour: Neue (Wiener, NZ,LV)

* * *

٤٣ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٢٠هـ ــ المقتدر بالله ــ أربعة أمثلة[٥٨]
* متحف قطر (٢٥.١، ٣.٩٣) اللوح٢.
متحف دمشق ع/ ٥٤٢٠ (٢٥، ٣.٦٥)
لله

المقتدر بالله	أبو العباس بن
عميد الدولة	أمير المؤمنين

* * *

(٥٨) Vasmer:... Pereyaslago.., Berlin, I

٤٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٢٢هـــ ـــ القاهر بالله ـــ مثال
السيوفي

*　　*　　*

٤٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٢٣هـــ ـــ الراضي بالله ـــ مثال
Berlin, I

*　　*　　*

٤٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٢٥هـــ ـــ الراضي بالله ـــ ٣ أمثلة
Berlin, I; Markov: Inventarny...; Allan (N.C. XIX, p.198).

*　　*　　*

٤٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٢٩هـــ ـــ الراضي بالله ـــ مثال
Lane Poole: BMC. I, no. 456 (22., 3.25).

*　　*　　*

٤٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٥٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ ٦ أمثلة[٥٩]
متحف دمشق ع/ ١١٢٩٤ (٢٣، ٤.١٥) كتبت (　ـخمس) اللوح٢.
متحف دمشق ع/ ٢٨٢٥ (٢٣، ٣.٨٠)
لله

المطيع لله
هذا النقد مهم لأنه يدل على أن العباسين استعادوا فلسطين من الإخشيديين بعض الوقت بعد موت علي بن الإخشيد لكن كافور استطاع تسوية الأمر.

---

(٥٩) متحف دمشق (ع/ ٢٨٢٦)
Lavoix, I, no. 1269 (- 3.50)
Rogers: Dinars Abbasid, p. 32, Tornberg, Symbolae, IV, p.48.

النقود الفضية المضروبة في فلسطين

في العهد العباسي

٤٩ ـــ ف* ـــ فلسطين ـــ ٢٩٧هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثال الله

المقتدر بالله	أبو العباس بن أمير المومنين
المدار: محمد رسول الله أرسله ... المشركون	١. بسم الله ضرب هذا الدرهم بفلسطين سنة سبع وتسعين ومائتين. ٢. لله الأمر من قبل وبعد...

Vasmer: Friedrichshofer Funde, ١٩٢٨.

* * *

٥٠ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣١٧هـــ المقتدر بالله ـــ مثال

متحف دمشق ع/ ٥٢٢٥ (٢٥، ٢.٥٠)

٥١ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٢٠هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ مثال

Berlin, I; BMC. IX, p.٧٩, no. 413h (28, 2.20).

* * *

٥٢ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٢٢هـــ ـــ القاهر بالله ـــ مثال

Berlin, I

* * *

* ف = فضة

٥٣ ـــ ن** ـــ الرملة ـــ التاريخ ناقص ـــ الرشيد ـــ مثال

لله

جعفر

وهو جعفر بن يحيى البرمكي، يمكن تقدير تاريخ النقد بين ١٧٦ ـــ ١٨٧هـــ

فهمي ٧٦٦، ر٢٧٤٣ (١٨، ٢.٣٢).

٥٤ ـــ ن ـــ الرملة ـــ ٢٠٥هـــ ـــ المأمون ـــ ٤ أمثلة

(....) سرح

المدار: ضرب هذا الفلس بالرملة على يدي بسم الله مما أمر به الأمير سعيد بـــن السرح

أبي الزباء [ ] .

الأمير سعيد بن السرح حكم الرملة سنة ٢٠٥هـــ، ذكر هذا في كتاب العيـــون(٦٠)

* متحف دمشق: ع/ ١٩٢٢ (١٧.٥، ١.٩٤) اللوح٣.

Lavoix, I, no. 1586 (160, 1.70) Zambour: Inventar - Katalog.

مثال لافوا ينقص اسم الضارب (أبي الزباء) فهمي ٢٧٤٤ (الفلس ناقص)

* * *

** ن = نحاس

ر = رقم

(٦٠) J. de Goeje et P. de Jong: Fragmenta Historicorum Arabicorum, p.363.

أشار إلى ذلك لافوا ص٤٣٦.

٥٥ ـــ ن ـــ الرملة ـــ ٢١٠هـــ ـــ المأمون ـــ مثالان

Tiesenhausen Khalifes... no. 2596

Soret: Letters... a' Dorn, 2, no.13.

*　　*　　*

٥٦ ـــ ن ـــ الرملة ـــ ٢١٧هـــ ـــ المأمون ـــ ٦ أمثلة

أ ـــ

بخ
بالرملة سنة سبع عشرة ومائتين

Lavoix, I, no. 1587 (18., 2.88)

ب ـــ

• بخ •　　...

Lavoix, I, no. 1585 (19., 2.60).

*　　*　　*

٥٧ ـــ ن ـــ غزة ـــ ٢١٧هـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة

بخ

Miles: RIC, nos. 384- 5 (21-2. 82, 19, 2.67)

Miles: op. cit., no. 386 (21, 2.64)

٥٨ ـــ ن ـــ الرملة ـــ ٢١٨هـــ ـــ المقتدر بالله ـــ ٣ أمثلة

بخ

Miles: RIC, nos. 374-5 (20-21, 2.3- 310)

السيوفي: ص٦٣.

*　　*　　*

٥٩ ــ ن ــ طبرية ــ ١٨١هــ ــ هارون الرشيد ــ مثال
* متحف دمشق ع/ ١٦٣٨٤ (٢١، ٤.٠٠٥) اللوح٣.

عدل
المدار: مما أمر به عبد الله هرون أمير ضرب هذا الفلس بطبريـة
سنة احدا
المؤمنين نصره الله (كذا) وثمنين [و] مئة.

* * *

٦٠ ــ ن ــ طبرية ــ التاريخ ناقص ــ ؟
متحف دمشق ع/ ١٩٩٨٥ (يجوز أن يكون أموياً) على الأرجح.

الدنانير المضروبة في فلسطين في العهد الطولوني

٦١ ــ ١ ــ فلسطين ــ ٢٧٧هــ ــ المعتمد على الله ــ خمارويه بن أحمـــد ــ
٨ أمثلة(٦١)

لله	لا إله إلى الله
محمد	محمد رسول الله
رسول	المفوض إلى الله
الله	
المعتمد على الله	١. بســـ الله هذا الديــنر
بفلسطين سنة	
خمارويه بن أحمد	سبع وسبعين ومائتين

(٦١) كنز خضر الياس... Lavoix, III, p.11, nos. 23-4: Zambour: Baghdader
السيوفي .(Samma: (Al_ Abhath< XXIV, p.26, nos. 1-3

المدار: محمد رسول الله أرسله ...   ٢. لله الأمر ...بنصر الله

... المشركون

* متحف قطر (٢٢.٨، ٤.٣٣) اللوح٣.

*   *   *

٦٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٧٨هـ ــ المعتمد على الله ــ خمارويه بن أحمد ــ ٥ أمثلة

السيوفي، Lavoix< III, no. 27 (- 4,20) = Shamma, 4-7

فهمي ٢٩٨٣

*   *   *

٦٣ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٧٩هـ ــ المعتضد بالله ــ خمارويه بن أحمد ــ ٣ أمثلة(٦٢)

لله

المعتضد بالله

خمارويه بن أحمد

* متحف قطر (٢٢.٨، ٤.٠٣) اللوح٣

*   *   *

٦٤ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٨١هـ المعتضد بالله ــ خمارويه بن أحمد ــ ٤ أمثلة

كنز خضر الياس Shamma, op. cit, nos. 10-11; Zambour: Baghdader

Istanbul: Sultan Ahmet.

*   *   *

(٦٢) Shamma: op. cit, no.9: Bmunc. (23, 4.06) = Grabar, no.55.

٦٥ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٨٢هـ ــ المعتضد بالله ــ خمارويه بـــن أحمـــد ــ

مثالان

Shamma, op. cit., no.13 = ANS (20. 4.03)

Paris, Unc. (22.2. 89)

* * *

٦٦ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٨٥ ــ المعتضد بالله ــ هرون بـــن خمارويـــه ــ ٤

أمثلة[٦٣]

Lane Poole: BMC. II, no. 228; Regers: Tuluni, nos. 96-7

ANS. UM = Shamma, no.15 (22., 4-29).

* * *

٦٧ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٨٧هـ ــ المعتضد بالله ــ هرون بن خمارويـــه ــ ٣

أمثلة

Istanbul: Sultan Ahmet (22., 3.31) = Shamma, no.22.

السيوفي، كنز خضر الياس ..Zambaur: Baghdader,

٦٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩٠هـ ــ المكتفي بالله ــ هرون بن خمارويـــه ــ ٥

أمثلة[٦٤]

متحف دمشق١) ع/ ٩٦٤٨ (٢٣.٦، ٤.٢٢)

٢) ع/ ١٥٧٥ (٢١.٥، ٤.١٤)

---

* متحف قطر (٢٢.١، ٣.١٦) اللوح٣.

---

(٦٣) كنز خضر الياس .Zambaur: Baghdader.. ; Markov, p. 928, no.136

Istanbul: Sultan Ahmet (21., 3.75) = Shamma, no.21.

(٦٤) Lane - Poole: Khed., p.141. no. 939; Rogers: Tuluni, no. 113.

٧٠ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٢٩١هــ ــ المكتفي بالله ــ هرون بن خمارويــه ــ ٦ أمثلة(٦٥)

* متحف قطر (٢٢.٤، ٣.٧٢) اللوح٣.

* * *

الدنانير الإخشيدية المضروبة في فلسطين

٧١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٣١هــ ــ المتقي لله ــ الإخشيد ــ ٥ أمثلة(٦٦)

لله

المتقي لله	أبو منصور بن
الإخشيد	أمير المؤمنين

المدار: محمد رسول الله أرسله.. ١. .. بفلسطين سنة حدى (كذا) وثلثــين وثلثماية

المشركون ٢. لله الأمر...

* متحف دمشق ع/ ١٤٧٣٢ (٢٣.٢، ٣.٨٧) اللوح٣.

ع/ ١٤٧٣٣ (٢٢.٨، ٣.٥٤)

ع/ ٢٠١٦ (٢٤.٣، ٢.٩٤)

٧٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٣٢ هــ ــ المتقي لله ــ الإخشيد ــ ٩ أمثلة(٦٧)

متحف دمشق ع/ ٧٠٧٧ (٢٢.٨، ٤.١)

متحف قطر (٢٥.٥، ٤.٥٣)

---

(٦٥) Shamma, no.26; ANS- UM (22., 3.63); Markov p.49.

Zambaur (Wiener NZ, LV, p.9); Forter (N.C. 5th Series, p. 324).

(٦٦) Shamma, 2 (Al- Abhath, AUB, XXII, 3-4) -ANS (24., 2-38) Nassar: PAM, III, 12= Shamma,3.

(٦٧) Lane - Poole; BMC. IX, no. 230t, Idem: Khed. no. 937

السيوفي، مجموعة خاصة (2-55 ,.22) Lavoix. III, no. 48

النقشبندي (سومر م٣، ج٢) ص٢٧٩ مثالان.

٧٣ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٣هـــ ـــ المتقي لله ـــ الإخشيد ـــ ٩ أمثلة[٦٨]
متحف دمشق ع/ ١٦١٠ (٢٣.٥، ٣.٩٠)
ع/ ٢٨٢٠ (٢٢.٢، ٥.٣١)

* * *

٧٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٤هـــ ـــ المستكفي بالله ـــ الإخشيد ـــ مثال
* متحف دمشق ع/ ١٠٢٩٥ (٢٣.٣، ٣.٩٠) اللوح٣.

* * *

٧٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ الإخشيد ـــ مثال
لله

المطيع لله
الإخشيد
متحف دمشق ع/ ١٣٥٢ (٢٢.٦، ٤.٥٣)

* * *

٧٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم بن الإخشيد ـــ ١٨ مثالاً[٦٩]
أ ـــ لله

---

[٦٨] الصراف (٤٥٣)
Lane- Poole: BMC. II, nos. 231 and 232; Lavoix. III, no.49.
النقشبندي: سومر ٣/٢ ص٢٧٩، مجموعة خاصة.
[٦٩] متحف دمشق ٤ أمثلة أخرى متنوعة
Zambaur: Inventar- Katalog
Paris Unc. (23., 4-58)
شما ٣٠-٣٤ وغيره كثير BMC. IX, no232

المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد
متحف دمشق ع/ ١٦١٢
ب ـــ . لله .

صلى الله عليه	أبو القسم بن
المطيع لله	الإخشيد

متحف دمشـــق ع/ ٢٨٢١ (٢٣، ٤.١٩)، متحـــف قطـــر (٢٣.٢، ٣.٨٥) اللوح٣.

*　　*　　*

٧٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٦هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثال
لله

المطيع لله	أبو القسم بن
	الإخشيد

Lane- Poole: Khed., no.938.

٧٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٣٧هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ ٤٣ مثالاً[٧٠]
متحف دمشق ع/ ١٤٣٧٥ (٢١، ٤.٠٣)
لله
و

المطيع لله	أبو القسم بن
	الإخشيد

---

(٧٠) شما ٤٩ – ٥٥، ٦٠ النقشبندي، السيوفي، مجموعة خاصة. فهمي ٣٠١٨ (دون زخرف)
ANS; BMC, II, no.233; Khed. nos. 339- 40; Lavoix, III,51-2; AUB; Wien, no. 7815...

* متحف قطر (نصف عيار) (٢٠، ٢.٤٣)

*　　*　　*

٧٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٣٩هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ ٦ أمثلة[٧١]

لله

صلى الله عليه	أبو القسم بن
المطيع لله	الإخشيد

* متحف قطر (٢٢.٢، ٣.٣٠) اللوح٤.

متحف دمشق ع/ ٣٧٩٩ (٢٢.٢، ٣.٨٥) بفلسطين (كذا)

لله

صلى الله عليه	أبو القسم بن
المطيع لله	الإخشيد

شما ٧٦ (٢٢، ٣.٥٧)

لله

صلى الله عليه	أبو القسم بن
المطيع لله	الإخشيد

*　　*　　*

٨٠ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤٠هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثالان

Gagarine: Weyl Coll. no. 426; Private Coll.

*　　*　　*

٨١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤١هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ ٨ أمثلة[٧٢]

---

[٧١] النقشبندي ANS; BM unc. (22., 3.57)

متحف دمشق ع/ ٧٠٠٩ (٢٠.٥، ٢.٢٣) لا توجد زخارف
ع/ ١٦٩٣٦ (٢٣، ٣.٣٠) لا توجد زخارف
* متحف قطر (٢٤، ٣.٥٠) اللوح٤.

* * *

٨٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤٢هــ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ ٣ أمثلة[٧٣]
متحف دمشق ع/ ١٤٧٤٠ (٢٣.٥، ٤.٨٦٠).

* * *

٨٣ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤٣هــ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال السيوفي

* * *

٨٤ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤٥÷ــ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ ٢٠ مثال[٧٤]
متحف دمشق ع/ ١١٣٠٢ (٢٢، ٣.٩٤) دون زخرفة
ع / ١٤٧٤١ (٢٣.٥، ٤.٥٢) دون زخرفة.
* متحف قطر (٢٣، ٣.٥٨) اللوح٤.

* * *

٨٥ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٤٦هــ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ ١٤ مثالاً[٧٥]

---

(٧٢) Lane- Poole: Khed, no. 971; BM unc. (27., 3.81)
ANS; Shamma, no. 90; Wien, no. 7868.

(٧٣) Tiesenhausen {RNB (1875), no.145}
Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV).

(٧٤) BMC, II, no.235; Lavoix, III, nos. 53-4 (3.70 et 3.40)
ANS = Shamma, 105; BM unc. (23., 4.50) = Shamma, 99; Shamma, 106 (22., 4.68); Blau et Stickel, no. 51.

(٧٥) متحف دمشق ثلاث أمثلة أخرى، النقشبندي، فهمي ٣٠١٩ (٢٣، ٣.٠٠٣)
Tiesenhausen (RNB, XXXI, no.146); Markov: Inventarny..
Casanova: Prencessa Ismail: Gagarine, no.427; Balog Coll., Shamma, 116 (23., 3.15).

متحف دمشق ع/ ١٤٧٤٣ (٢٣، ٣.٨٦)
* متحف قطر (٢٢.٦، ٣.٣٤) اللوح٤.

* * *

٨٦ ـ ذ ـ فلسطين ـ ٣٤٧هـ ـ المطيع لله ـ أبو القسم ـ ٧ أمثلة(٧٦)
متحف دمشق ع/ ١٤٧٤٦ (٢١، ٣.٠٨)

* * *

٨٧ ـ ذ ـ فلسطين ـ ٣٤٩هـ ـ المطيع لله ـ أبو القسم ـ مثال

لله

المطيع لله	أبو القسم بن أمير المؤمنين

* متحف قطر (٢٣، ٣.٩٥) اللوح٤.

* * *

٨٨ ـ ذ ـ فلسطين ـ ٣٥٠هـ ـ المطيع لله ـ علي الإخشيد ـ ١٠ أمثلة(٧٧)

لله

صلى الله عليه وعلى آله المطيع لله	علي بن الإخشيد

متحف دمشق: ع/ ١٤٧٤٨ (٢٢، ٣.٧٨)

---

(٧٦) متحف دمشق مثالان آخران

Lavoix, III, no.55 (, 3.45)

Teisenhauesn: (RNB, XXXI, no.147; Johnston: Catalogue... 1906; Gotha- Schluman, no.1006.

(٧٧) متحف دمشق يوجد أربعة أمثلة أخرى، فهمي ٣٠٤٢ (٢٢، ٤.٧٥)، مجموعة خاصة.

ANS = Shamma, 138, Lane - Poole; Khed., no.943 (4.15). Lavoix. III, no.57 (,3.18).

٨٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٥١هــ ــ المطيع لله ــ علي ابــن الإخشــيد ــ ٩ أمثلة(٧٨) متحف دمشق ع/ ٧٠٩٥ (٢٢، ٣.٣٠)، ع/ ٢٨٢٣ (٢٢، ٣.١٧) = مثــل الرقم ٨٨.

* * *

٩٠ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٥٣هــ ــ المطيع لله ــ علي بن الإخشـــيد ــ ١٧ مثالاً(٧٩)

متحف دمشق ع/ ١٦١٣ (٢٤.٤، ٣.٧٠) ع/ ١٦١٤ (٢٤.٦، ٣.٤٢)
متحف قطر (٢٤، ٣.٦٥)

* * *

٩١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٥٤هــ ــ المطيع لله ــ علي بن الإخشيد ــ مثالان
Castiglione: Milano..., Soert: (RNB, IV, 2e serie, p.59)

* * *

٩٢ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٥٥هــ ــ المطيع لله ــ كافور ــ ٧ أمثلة
لله

صلى الله عليه
على آله
المطيع لله

---

(٧٨) Lane- Poole: Khed. nos. 945-6; Lavoix, III, no.58 (, 3.50)
Tiesenhousen: RNB, XXXI, no.149: Gagarine, no429.
الصراف ٤٢٥ (٢٤، ٣.٢)، بغداد ٤٥٥ (٢٤، ٣٢٠).

(٧٩) النقشبندي، السيوفي، شما ١٦١ (٢٢، ٣.٨٦)
Lavoix, III nos. 59-61. BMC, II, 237; Khed. no. 947; Markov, no.5, Gagarine, no430...

يلاحظ أن الدينار الإخشيدي المضروب سنة ٢٥٥هـ خال من اسم الأمير الإخشيدي، لكنه يحمل الحرف كـ، وهو مذكور على دنانير أبي القاسم وعلي بن الإخشيد سابقاً. هذا الحرف يرمز[٨٠] إلى الحاكم الحقيقي وهو كافور الإخشيدي. وقد كان الحكم بيده بعد موت الإخشيدي لأن ولدي الإخشيد أبا القاسم وعلياً كانا صغيري السن، وقد ماتا ميتة بشعة. وبعد موت علي سعى كافور الإخشيدي لدى الخليفة، فاعترف به أن يكون صاحب مصر: لكنه لم يحكم إلا سنتين: ٣٥٥ و٣٥٦هـ ومات[٨١].

ألفت النظر هنا إلى أنه يوجد دنانير عباسية مضروبة في فلسطين سنة ٣٥٥هـ وقد ذكرتها تحت الرقم ٤٨ من هذا المصنف. يعني هذا تدخل الدولة المركزية في فلسطين لشعورها بضعف الدولة الإخشيدية، وخاصة بعد موت علي بن الإخشيد وشغور منصب الإمارة، لكن يبدو أن كافوراً استطاع أن يطمئن أصحاب الأمر في بغداد (وهم الخليفة وونبوبويه) وثبت مركزه في مصر وفلسطين.

إليكم الدنانير الإخشيدية المضروبة سنة ٣٥٥هـ[٨٢]

متحف دمشق ع/ ٤٤٨٧ (٣، ٢٢.٣، ٣.٧٦)

* * *

٩٣ ـ ذ ـ فلسطين ـ ٣٥٨هـ ـ المطيع لله ـ أحمد بن علي والحسين بن عبيد الله ـ ١١ مثالاً[٨٣]

أ ـ لله   لا إله إلا الله

---

(٨٠) من الجدير بالذكر أن اسم الأستاذ كافور ظهر كاملاً على فلس لا يحمل مكان الضرب ولا التاريخ فهمي ٣٠٤٥ وقد ظهر اسمه أيضاً على دينار وحيد في (مدينة رسول الله) سنة
بحلة سمير شما: مجلة العربي العدد ٢٣٢ ص١٢٠.

(٨١) ابن الأثير: ج٨ ص١٩٢ ذكر موته سنة ٣٥٦هـ.

(٨٢) Lane- Poole: Khed. no. 949; Idem: BMC. II, no.239; ANS; Nassar: QDAP XIII (PAM. H. 19.40); AUB, no.c. 8761; النقشبندي.

(٨٣) Lavoix, III, no.63, no.64; Zambaur: Inventar- Katalog: Tiesenhausen, no.150: Wien, no,7866; BM unc. (24., 2.78); ANS; Balog Coll.

محمد	الله وحده
رسول الله صلى	لا شريك له
الله عليه وعلى آله	الحسين بن[٨٤]
المطيع لله	عبيد الله
أحمد بن علي	

متحف دمشق ع/ ١٥٧٦٩ (٢٢، ٥.٠٥)

ب ـــ

طغج

متحف دمشق ع/ ٢٨٢٤ (٢٤.٣، ٤,٤٥).

بعد موت كافور تولى الحكم أبو الفوارس أحمد بن علي وكان عمره إحدى عشرة سنة وكان الوصي الحسين بن عبيد الله الإخشيدي. وقد وضعت كلمة (طغج) في أسفل الكتابة الوسطى من الظهر للدلالة على جد الأسرة الحاكمة.

لم يكن الحكم مستقراً في مصر، فقد اضطربت الأمور بعد موت كافور وشحّت السع، وارتفع سعر الخبز ارتفاعاً كبيراً... وكانت هذه الحالة تهيء ظرفاً ملائماً لتدخل الفاطميين.

* * *

الدراهم الإخشيدية في العهد العباسي

ضرب الإخشيدي محمد بن طغج قبل سنة ٣٣١هـ دراهم بعضها يحمل مكان الضرب (مصر)، وبعضها غفل منه وهي: مصر ٣٢٤هـ[٨٥]، مصر٨ [٣٢]هـ وهو يمثل الحاكم على عرشه[٨٦]، ٣٢هـ[٨٧] (الأمير الإخشيد، محمد بن طغج)، ٣٢٩

---

(٨٤) لا أدري لماذا يذكر الدكتور فهمي عبد الرحمن اسمه (الحسن بن عبيد الله) ص١٨٤ مع أن كلمة (الحسين) واضحة على النقود.

(٨٥) Bacharach and Shamma (RN, t. XVII (1975): p.140. no.1).

(٨٦) محمد أبو الفرج العش ..Traces مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ٢٣ ص٣١١. الصورة ٤٧أ.

(٨٧) Lavois, III, p. 22, no.50.

(محمد شكر؟ الإخشيد يشكر)[88]. هذه الدراهم فريدة وهامة وهي تختلف بمأثوراتها عن الدراهم النظامية التي سكت حسب النمط العباسي منذ سنة ٣٣١هـ، وهي تخلو من اسم الخليفة. ترى، هل كان الإخشيد يترع إلى الاستقلال الحقيقي في تلك الفترة ٣٢٣ ــ ٣٣١هـ التي أثبت بها كفاءته في صد الهجوم الفاطمي على مصر؟[89] أو لأنه لم يتلق الإمارة من الخليفة رسمياً.

٩٤ ــ ف ــ فلسطين ــ ٣٣١هـ ــ المتقي لله ــ الإخشيد ــ مثال

لله	لا إله إلا
محمد	الله وحده
رسول الله	أبو منصور بن
المتقي لله	أمير المؤمنين
الإخشيد	

المدارات: المأثورات المعروفة

NASSAR, PAM, no.111.12 = Shamma.3.

* * *

٩٥ ــ ف ــ فلسطين ــ ٣٣٢هـ ــ المتقي لله ــ الإخشيد ــ ٥ أمثلة[90]

متحف دمشق ع/ ٢٠١٦ (٢٤.٣، ٢.٩٤)

* * *

٩٦ ــ ف ــ فلسطين ــ ٣٣٣هـ ــ المتقي لله ــ الإخشيد ــ مثال

Lavoix, III. no.49.

* * *

---

(٨٨) متحف دمشق ع/ ١٣٢٩ (٢٠، ٣.٢٨).

(٨٩) يلاحظ على الدرهمين الأولين المضروبين في سنتي ٣٢٤ و٣٢٨ أنهما خاليان من لقب (الإخشيد) الذي يذكّر بعراقة أصل محمد بن طغج التركي في ما وراء النهر.

(٩٠) Nassar, PAM. no.111.13; AUB; ANS; ULLA: Shm. 23242 Go.

٩٧ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٣٤هـــ ـــ المستكفي بالله ـــ الإخشيد ـــ ٣ أمثلة[٩١]

لله	لا إله إلا
محمد	الله وحده
رسول الله	لا شريك له
المستكفي بالله	
الإخشيد	

* * *

٩٨ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم بن الإخشيد ـــ مثال

Nassar: PAM, 111.20.

* * *

٩٩ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثال

Paris unc. (27., 4.45) = Shamma. 39.

* * *

١٠٠ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٣٦هـــ ـــ المطيع له ـــ أبو القسم ـــ ٣ أمثلة

BM. unc. (25., 3.14); Paris unc. (25., 2.64); ANS unc. (25., 3.12) = Shamma, 43-45.

* * *

١٠١ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٣٦هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثال

لله	لا إله إلا
محمد	الله وحده

(٩١) Nassar, PAM, no. H.19.15; ULLA, Shm. %(^^ Go; AUB.

رسول الله	لا شريك له
صلى الله عليه	أبو القسم بن
وعلى آله	الإخشيد
المطيع لله	

ANS. unc. (29., 3.39) = Shamma, 42.

*   *   *

١٠٢ ــ طبرية ــ ٣٣٧هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثالان

Nassar: PAM, no. 111.32 = Shamma, 70.

Tegner, p. 109 = Shamma, 17.

*   *   *

١٠٣ ــ ف ــ فلسطين ــ ٣٣٧هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثالان

لم يذكر علي (وعلى آله)

متحف دمشق ع/ ١١٠٢٥ (٢٩، ٣.٤٥).

Lavoix, III, no.56 (23., 4.00) = Shamma, 69.

*   *   *

١٠٤ ــ ف ــ طبرية ــ ٣٣٨هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال

Nassar: PAM, no. 111.23 = Shamma, 72.

*   *   *

١٠٥ ــ ف ــ فلسطين ــ ٩ (٣/٤)٣هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال

متحف دمشق ع/ ١١٠٠١ (٢٨، ٣.٢١)

*   *   *

١٠٦ ــ ف ــ طبرية ــ ٣٤٠هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال

Lemiere = Shamma, 83.

*   *   *

١٠٧ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٤٠هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثالان(٩٢)

ANS unc. (24., 2.38) = Shamma, 81.

ULLA: Shm. 6203 Go = Shamma, 82.

* * *

١٠٨ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٤١هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ١٠٩٧٠ (٢٨، ٣.٨٠٥) = سنة أحد وأر[بعـــين وثلـــ]ـــثمائة.

Tegner, p.109 = Shamma, 93.

* * *

١٠٩ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٤١هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ١٠٩٩٥ (٢٧، ٣.٦١) سنة ١[٤]٣هـــ

ANS unc. (23., 2.48) = Shamma, 92.

* * *

١١٠ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٤٤هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثال

متحف دمشق ع/ ١٠٩٧٥ (٢٦، ٢.١٨)

* * *

١١١ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٤٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ١٠٩٦٧ (٢٤، ٣.٣٨)

Anderson, no.336 = Shamma, 109.

* * *

١١٢ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٤٦هـــ ـــ المطيع لله ـــ أبو القسم ـــ ٤ أمثلة(٩٣)

---

(٩٢) على هذا النحو رسمها الأستاذ سمير شما أعتقد أنها وهي (ص)

(٩٣) متحف دمشق ع/ ١٠٩٧١ (٢٤، ٢.٨٥)

AUB. ULLA. Shm. 8503; Blek =Shamma, 122.

متحف دمشق ع/ ١٠٩٩٣ (٢٨، ٣.٧١).

* * *

١١٣ ــ ف ــ فلسطين ــ ٩[٤]٣هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال
متحف دمشق ع/ ١١٠٠١ (٢٨، ٣.٢١)

* * *

١١٤ ــ ف ــ طبرية ــ (؟) ٣٤هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثالان
متحف دمشق ع/ ١١٠١٠ (٢٦، ٢.٨١)
ع/ ١٤٤٠٣ (٢٧، ٢.٥٣) التاريخ غير مقروء، ولكن يلاحظ اللقب (أنوجور) على مأثورة الوجه

أبو القسم أنوجور
بن الإخشيد

* * *

١١٥ ــ ف ــ فلسطين ــ (؟)٣٤هـ ــ المطيع لله ــ أبو القسم ــ مثال
متح دمشق ع/ ١١٠٩٩٢ (٢٦.٥)

* * *

١١٦ ــ ف ــ فلسطين ــ ٣٥٠هـ ــ المطيع لله ــ علي بن الإخشيد ــ مثال

وعلى آله	علي بن الإخشيد
المطيع لله	كـ

يلاحظ طوال حكم علي بن الإخشيد ظهور الحرف (كـ) للدلالة على الحاكم المستبد كافور الإخشيدي
Naasar. PAM, no. H. 19.29 = Shamma,141.

١١٧ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥١هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بن الإخشـــيد ـــ ٤ أمثلة.

متحف دمشق ع/ ١١٤ (٢٤، ٣.١٥)

ع/ ١٠٩٦٩ (٢٦، ٢.٨٠)

ع/ ١١١٥١ (٥، ٣.٢٧) التريخ ١[٣٥]هـــ

لله

ـــــــــ ـــــــــــــــ

لله كـــــــ

ـــــــــ ـــــــــــــــ

. كـــــــ

AMS. unc = Shamma, 150.

* * *

١١٨ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٢هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بـــن الإخشـــيد ـــ مثالان(٩٤)

متحف دمشق ع/ ١٨٠٠٥ (٢٣.٥)

Tegner, p.110 = Shamma, 153.

* * *

١١٩ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٥٣هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بن الإخشيد ـــ مثالان

BM unc. (25., 3.18) = Shamma, 175.

ANS unc. (24., 2.65) = Shamma, 176.

* * *

١٢٠ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٣هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بن الإخشيد ـــ ١٠ أمثلة(٩٥)

---

(٩٤) صحح الأستاذ سمير شما التاريخ فجعله ٣٥٢هـــ بعد أن كان ٣٥٥هـــ خطأً.

متحف دمشق ع/ ١١٠١٥ (٢٥، ٣.٢٧)
لله

ـــــــــــ ـــــــــــــــــــــــــ

كـــــ

BMC, II, no.238 = Shamma, 169.

* * *

١٢١ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٤هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بـــن الإخشـــيد ـــ مثال

AUB = Shamma, 179.

* * *

١٢٢ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بـــن الإخشـــيد ـــ مثالان

AUB, c. 8763 (21., 1.66)

نصف درهم = Shamma, 188.

Lane- Poole: BMC. II, no.239 (23., 4.65)

* * *

١٢٣ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بن الإخشيد ـــ مثال
متحف دمشق ع/ ١٤٤٠٨ (٢٥، ٢.٦١)

* * *

---

(٩٥) Tornberg: Symbolae, IV, 148; Blau: Nachlese, p.26;
ANS unc. (25., 3.41) = Shamma, 172; BM unc. (25,3,06) + Shamma, 170.
متحف دمشق أربعة أمثلة أخرى.

١٢٤ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بـــن الإخشـيد ـــ مثالان

Copenhagen Mus. (25., 2.90) = Sh.191.

AUB. = Sh. 208.

* * *

١٢٥ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٧هـــ ـــ المطيع لله ـــ علي بـــن الإخشـيد ـــ مثال

لله	لا إله إلا
محمد	الله وحده
رسول الله صلى	لا شريك له
الله عليه وعلى آله	الحسين
المطيع لله	بن عبيد الله
أحمد بن علي	(زخرفة)
طغج	

في موضع الزخرفة كان كافور يضع رمز اسمه كـــ. خلـو الدرهـم المـؤرخ ٣٥٧هـــ من رمزه يدل على أن كافوراً كان قد مات. وهذا يثبت ما ذهب إليـه ابـن الأثير أن كافوراً مات سنة ٣٥٦هـــ خلافاً لما هو مذكور في مراجـع أخـرى (أنظـر الحاشية ٨١ من هذا البحث وما يتعلق بها).

Nassar; PAM, H. 19.42 = Shamma, 190.

* * *

١٢٦ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٥٨هـــ ـــ المطيع لله ـــ أحمد بـــن علـي ـــ ٤ أمثلة(٩٦)

(٩٦) ANS unc = Shamma, 204: Nassar: PAM, H. 19.43 = Sh.204.

لله

المطيع لله	الحسين
أحمد بن علي	بن عبيد الله

متحف دمشق ع/ ١٠٩٣٣ (٢٦، ٢.٩٠)

لله

المطيع لله	الحسين
أحمد بن علي	بن عبيد الله

طغج

متحف دمشق ع/ ٢٧٥٣ (٢٦.٥، ٣.٧).

*   *   *

النقود العباسية الحمدانية المضروبة في فلسطين

في أثناء الحكم الإخشيدي وفي أول عهده، ضربت النقود الإخشيدية في فلسطين منذ سنة ٣٣١هـ ــ كما مر معنا ــ العجب أن يضرب درهم عباسي في فلسطين سنة ٣٣١هـ في الوقت الذي كان يشغل به الزعيمان الأخوان الحمدانيان ناصر الدولة أبو محمد وسيف الدولة أبو الحسن منصب أمير الأمراء في بغداد.

أنا في الواقع أعد النقود التي ضربها ناصر الدولة وسيف الدولة نقوداً عباسية، إلا أن الأمر يختلف عندما يكون الضرب في فلسطين. ذلك لأن سيف الدولة أمير حلب كان يتمنى من كل قلبه أن يستولي على كل بلاد الشام، وقد حاول مراراً، ودخل دمشق وفلسطين، لكنه لم يستقر بسبب مشاغله في مجابهة الروم البيزنطيين، لذا أعتبر هذا الدرهم هاماً جداً.

١٢٦ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٣١هـ ـــ المستكفي ـــ ناصر الدولة وسيف الدولة ـــ مثال

لله	لا إله إلا الله
محمد رسول الله	وحده لا شريك له
صلى الله عليه وسلم	سيف الدولة
المستكفي بالله إمام الحق	أبو الحسن
ناصر الدولة أبو محمد	
المدار: محمد رسول الله أرسله	..بفلسطين (كذا) سنة إحدى

وثلثين وثلثمائة

Lane - Poole: BMC. 111, p.5, no.6 (26., 3.36).

* * *

نقود القرامطة المضروبة في فلسطين

عاشت بلاد الشام، وخاصة فلسطين، فترة من الاضطراب العنيف في أثناء الغزو الفاطمي لمصر والشام، وأصبحت مطمعاً لكل طامع بين ٣٥٨ و٣٦٧هـ.

كان والي الشام وفلسطين الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي. عندما سقطت مصر بيد الفاطميين حالو المقاومة، فجعل مقره الرملة استعداداً لملاقاة الفاطميين. لما ساتقر جوهر الصقلي بمصر[٩٧] وثبت قدميه سيّر جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فيلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج. تغلب عليه جعفر وأسره مع غيره من القواد، فسيرهم إلى جوهر، وسيرهم جوهر إلى المعز بأفريقية ودخل ابن فلاح البلد عنوة.. وسار إلى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام فيها الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها إلى دمشق فقاتله أهلها، و لم تهدأ دمشق إلا بعد صراع طويل.

---

[٩٧] ابن الأثير ج٨ ص١٩٤ و١٩٥.

كان الحسن بن عبد الله بن طغج، قد تعهد لقرامطة البحرين بدفع مبلغ سنوي قدره ثلاثمئة ألف دينار، فلما ملكها جعفر، وعلموا أن المال يفوقم[٩٨] فعزموا على قصد الشام، وصاحبهم حينئذ الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي، فأرسل إلى عز الدولة بختيار (البويهي صاحب الأمر في بغداد) يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه إلى ذلك. وساروا إلى دمشق سنة ٣٦٠هـ فاستهان بهم جعفر بن فلاح فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشف وأمنوا أهلها، وساروا إلى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما[٩٩]...

ظل القرامطة في دمشق وفلسطين ما بين ٣٦٠ و٣٦٣هـ وضربوا النقود في السنتين ٣٦١ و٣٦٢هـ. حاول القرامطة الاستيلاء على مصر سنة ٣٦٣هـ متفقين مع بعض القبائل العربية البدوية لكنهم أخفقوا وانسحب الحسن بن أحمد القرمطي إلى بلاده ودخل الفاطميون فلسطين ودمشق وضربوا النقود سنة ٣٦٤هـ، لكنهم أساؤوا معاملة أهل دمشق فالتفوا هؤلاء حول قائد تركي اسمه (الفتكين) كان لجأ إلى بلاد الشلم بعد الاضطراب العنيف الذي حصل في العراق بين آل بويه (بين بختيار وعضد الدولة) ـ تعاهد الفتكين مع أعيان دمشق على النصرة والحماية فاستطاع الفتكين طرد الفاطميين مستعيناً بالحسن بن أحمد القرمطي، وبقيت سيادتهم إلى سنة ٣٦٧هـ. يبدو أن الفتكين ضرب ديناراً بويهياً في فلسطين ليطمئن عضد الدولة على موالاته. لكنه في السنة نفسها سنة ٣٦٧هـ انحاز إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله بعد أن تضعضع موقفه[٩٩]'.

يبدو أن الحسن بن أحمد القرمطي كان طامعاً بدمشق وفلسطين قبل الغزو الفاطمي سجل زمباور ديناراً قرمطياً ضرب في فلسطين سنة ٣٥٧هـ وهو

١٢٧ ـ د ـ فلسطين ـ ٣٥٧هـ

Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV)

---

(٩٨) المرجع نفسه ص٢٠٣ ذكر اسم الزعيم القرمطي (الحسين) بينما هو على النقود الحسن.

(٩٩) يوجد درهم قرمطي ضرب بدمشق سنة ٣٦٠هـ سأنشره في بحث "دمشق على النقود العربية الإسلامية" إن شاء الله.

(٩٩)' ابن الأثير ج٨ ص٢١٧ ـ ٢١٩.

لم نستطع حالياً الاطلاع على البحث لنعطي وصفاً لهذا الدينار وإنما أشـــار إليـــه زمباور في كتاب: .Die Munzpragnugen des Islam

وهو دينار هام يدل على ما ذكره ابن الأثير من أن الحسن القرمطي كان متفقـــاً مع الحسن الإخشيدي صاحب دمشق وفلسطين على جعل سنوي يؤدى إليه قبل الغـــزو الفاطمي.

* * *

١٢٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦١هـــ ـــ المطيع لله ـــ الحسن بـــن أحمـــد ـــ ٥ أمثلة[١٠٠]

لله	لا إله إلا الله
محمد رسول الله	وحده
صلى الله عليه	لا شريك له
وعلى آله	السادة
المطيع لله	الرؤسا
الحسن بن أحمد	
المدار محمد رسول الله أرسله .. المشركون	.بفلسطين سنة إحـــدى وســـتين وثلثمائة

متحف دمشق ع/ ١٤٧٨ (٢١.٥، ٣.٥٢)

متحف قطر (٢٣، ٤.١٧)

يلاحظ لقب (السادة الرؤسا) الذي يدل على أن الحسن بن أحمد كان يحكم مـــن خلال مجلس الثورة.

١٢٩ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٢[١٠١]هـــ ـــ المطيع لله ـــ الحسن بن أحمـــد ـــ مثالان

(١٠٠) Blau: (Wiener, NZ. VI- VII); Lane - Poole: Khed., p.337; Zmabaur: Neue (Wiener NZ,LV)

(١٠١) سجل زمباور درهماً ضرب في فلسطين سنة ٣٦٢هـــ من المؤكد أنه قرمطي Zambaur: Inventar - Katalog.... (مخطوطة)

لله

المطيع لله	السيد
الحسن بن أحمد	الرئيس

يبدو أن سلطة الحسن بن أحمد قد تزايدت حتى وضع لقباً مفرداً.

متحف دمشق ع/ ١٥٧٧١ (٢١، ٤.٣٧)

Lane- Poole: Khed. p.337.

* * *

١٣٠ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٥هـــ ـــ الطائع لله ـــ ٤ أمثلة

Rogers: Dinars of Abbased..;

Vasmar and Zograph:

Dr. Otto Blau Coll. Munzforscher, p.140;

Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV);

Blau and Stickel (ZDMG, XI, p.450, no.18).

* * *

١٣١ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٦هـــ

يوجد الدينار في مجموعة المكتبة الأهلية في باريس ذكر في مخطوطة محفوظة ليس لدينا حالياً وصفاً له.

* * *

١٣٢ ـــ ف ـــ فلسطين ـــ ٣٦٧هـــ

أشار زمباور Die Munzpragungen des Islam إلى أحمد ظيا الذي ذكر هذا الدرهم، لم نستطع أن نعثر على المرجع للتأكد منه.

* * *

دينار بويهي

١٣٣ ـــ د ـــ فلسطين ـــ ٣٦٧هـــ

ذكر هذا الدينار زمباور Die Munzpragungen des Islam لكنـــــه لم يشـــر إلى المرجع. ليس من المعروف حتى الآن أي نقد بويهي ضرب في بلاد الشام أو فلســـطين، لكنه لا نستغرب أن يضرب الفتكين التركي هذا الدينار لإظهار موالاته إلى عضد الدولة.

* * *

الدنانير* الفاطمية المضروبة في فلسطين

كل النقود الفاطمية المعروفة هي من الذهب ما عدا قطعة واحدة فضية مضروبـــة في طبرية سنة ٣٧٤هـــ. الدراهم الفضية نادرة جداً في المشرق. وكذا الفلوس النحاسية، إلا أن الدراهم وافرة في المغرب.

كما ألمحنا إلى دخول الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح الكتـــامي واســـتلائه على فلسطين ودمشق ٣٥٩هـــ، لكن الفاطميين اضطروا إلى إخلائـــها تحـــت ضغـــط القرامطة برهة من الزمن.

سأعرض هذه النقود تبعاً للتسلسل الزمني:

١٣٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٥٩هـــ ـــ المعز لدين الله ـــ ٤ أمثلة[١٠٢]

وضعت المأثورات في ثلاثة مدارات نبدأ بالداخلي وهي تحيط بدائرة صغيرة مركزية

١ ـــ المعز لدين الله أمير المؤمنين لا إله إلا الله محمد رسول الله

٢ ـــ دعا الإمام معد لتوحيد الله الصمد وعلي أفضل المؤمنين ووزير خـــير المرسلين

٣ ـــ بسم الله ضرب هذا الدينر بفلسطين سنة محمد رسول الله أرســـله بالهدى ودين الحق

---

* بينها درهم فضي مضروب بطبرية سنة ٣٧٤هـــ.

(١٠٢) Lavoix, III, p.47, no.98 (21., 3.95), Markot: Invertarny...
Miles: Fatimid Coins, no.28.

تسع وخمسين وثلثمائة | ليظهره على الدين كله ولو كـــره المشركون

* متحف دمشق ع/ ٢٨٢٧ (٢٠.٥، ٣.٦٣) اللوح٤.

*　　*　　*

١٣٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٤هـــ ـــ المعز لدين الله ـــ مثالان[١٠٣]
متحف دمشق ع/ ٣٠٥٧ (٢٢، ٤.٢٤).

*　　*　　*

١٣٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٤هـــ ـــ المعز لدين الله (ربع دينار)
BMC. IV., no.42 (15., 100)

*　　*　　*

١٣٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٨هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثال
Frahn: Nova Supplementa.

*　　*　　*

١٣٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٦٩هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثالان
المأثورات محصورة في مدارين حول دائرة مركزية: نبدأ بالمدار الداخلي:
١ ـــ عبد الله ووليه نزار الإمام | لا إله إلا الله محمد رسول الله علي خير
العزيز بالله أمير المؤمنين | صفوة الله
٢ ـــ بسم الله ضرب هذا الدينر | محمـــد رســول الله أرســـله .. المشركون
بفلسطين سنة تسع وستين وثلثمائة
Lane- Poole: BMC. IV, no.54 (23., 4.12)

---

(١٠٣) Lavoix, iii, no.99.

Idem: Khed. no.1007.

* * *

١٣٩ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٧٠هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثال

* متحف قطر (٢٤، ٤.١٥) اللوح٤.

* * *

١٤٠ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٧٣هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثالان

Blau: (Wiener, NZ, VI-VII)

Zambaur: Cintributation, Iie partie (NZ. XXXVI- XXXVII).

* * *

١٤١ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٧٤هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثال

* متحف قطر (٢٢، ٤.١٠) اللوح٤.

* * *

١٤٢ ـــ ف ـــ طبرية ـــ ٣٧٤هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثال

Johnston: Catalogue.. 1906.

* * *

١٤٣ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٧٥هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ٣٧٣١

متحف قطر (٢٢.٥، ٤.٠٨) اللوح٤.

* * *

١٤٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٣٧٦هـــ ـــ العزيز بالله ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ٣٧٢٢ (٢٢، ٣.٣٩).

Lane- Poole: BMC, IV. no.60 (23., 4-10)

* * *

١٤٥ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٨٣هــ الحاكم بأمر الله ــ مثال

Lane- Poole: BMC, IV. no.65 (21.5, 4.18)

١٤٦ ــ ذ ــ طبرية ــ ٣٩٥هــ ــ الحاكم بأمر الله ــ مثال

ضمن دائرة

الحاكم بأمر الله	محمد رسول الله
أمير المؤمنين	علي ولي الله
المدار ١ــ عبد الله ووليه المنصور	لا إله إلا الله وحده لا شريك له
أبو علي الإمام	محمــد رســول الله أرســله ..

المشركون

٢ ــ بطبرية سنة خمس وتسعين وثلثمائة

Lavoix, III, no. 167 (4.11)

* * *

١٤٧ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٣٩٩هــ ــ الحاكم بأمر الله ــ مثال

لم يذكر القياس .Lane- Poole: Khed. no. 1045

* * *

١٤٨ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٠١هــ ــ الحاكم بأمر الله ــ مثال

* متحف قطر (٢٢.٥، ٣.٩٦) اللوح٤.

* * *

١٤٩ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٠٤هــ ــ الحاكم بأمر الله ــ مثالان

عزت باشا: مسكوكات قديمة Lane- Poole: Calvert's Coll

* * *

١٥٠ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤١٢هــ ــ الظاهر لإعزاز دين الله ــ مثال

Johnston: Catalogue.. 1906..

١٥١ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤١٧هـــ ـــ الظاهر لإعزاز دين الله ـــ مثال

Zambaur: Inventar- Katalog. (مخطوطة)

*　　*　　*

١٥٢ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤١٨هـــ ـــ الظاهر لإعزاز دين الله ـــ مثال

* متحف قطر (٢٤، ٤,٠١) اللوح٥.

*　　*　　*

١٥٣ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٢٣هـــ ـــ الظاهر لإعزاز دين الله ـــ مثال

المأثورات ضمن ثلاث مدارات حول دائـــرة مركزيـــة فيـــها الحـــرف ز في الوجهين:

١ـــ الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين	محمد رسول الله علي ولي الله
٢ ـــ عبد الله ووليه علي أبو الحسن الإمام	لا إله إلا الله وحده لا شريك له
٣ ـــ .. بفلسطين سنة ثلاث وعشرين واربعة مائة	محمد رسول الله أرسله .. المشركون

Lane - Poole: BMC, IV, no.119 (21.5, 4.18).

*　　*　　*

١٥٤ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٢٤هـــ ـــ الظاهر إعزاز دين الله ـــ مثال

المدارات حول في الوجهين

* متحف قطر (٢٤، ٣.٩٢) اللوح٥.

*　　*　　*

١٥٥ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٢٨هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

الإمام	لا إله إلا الله
معد أبو تميم	وحده لا شريك له
المستنصر بالله	محمد رسول الله
أمير المؤمنين	علي ولي الله

المدار: محمد رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بفلسـطين سنة

أرسله المشركون ثمان وعشرين وأربعمائة

Lane- Poole: Khed., p. 174, no.1101.

* * *

١٥٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٣٢هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

* متحف قطر (٢٢.٢، ٤.١٥) اللوح٥.

* * *

١٥٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٣٤هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثالان

متحف دمشق ع/ ١١٢٨٧ (٢٤.٥، ٤.٠٦).

متحف دمشق ع/ ٣٧٣٦ (٢٣، ٣.٦٦)

* * *

١٥٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٣٥هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثالان

Lane- Poole, BMC IV. no.133 (23., 4.30).

* * *

١٥٩ ـــ ذ ـــ طبرية ـــ ٤٣٦هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثالان

معد علي

ولي الله

* متحف دمشق ع/ ١٣٥٧ (٢٢، ٣.٩١) اللوح٥.

Lane- Polole: BMC IV, no.135 (23., 4-16).

١٦٠ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٣٦هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ ثلاثة أمثلة

* متحف قطر (٢٣، ٤.١٠) اللوح٥.

Lane -Poole: BMC IV, p321, no 135a (22.5, 4.34)

Ibid, IX, p.322, no. 135 (22.5, 3.88).

* * *

١٦١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٣٨هــ ــ المستنصر بالله ــ ٣ أمثلة

* متحف قطر (٢١، ٣.٦٥) اللوح٥.

Lane- Poole: Khed. no 1122; Idem: Calvert's Coll.

* * *

١٦٢ ــ ذ ــ طبرية ــ ٤٣٩هــ ــ المستنصر بالله ــ مثال

الإمام

علي ولي الله

Lavoix, III, no.337.

* * *

١٦٣ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٣٩هــ ــ المستنصر بالله ــ ٣ أمثلة

* متحف دمشق ع/ ١٥٧٤ (٢٢، ٣.٥١) اللوح٥

متحف دمشق ع/ ٩٧٥٠ (٢٢.٨، ٣.٩١)

Lane- Poole: BMC, IX.

* * *

١٦٤ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٢١هــ ــ المستنصر بالله ــ مثال

مجموعة الصراف (المسكوكات٢، ص٦٢، الرقم ٤٨٤)

* * *

١٦٥ ــ ذ ــ طبرية ــ ٤٤٢هــ ــ المستنصر بالله ــ مثالان

المأثورات نظمت في ثلاثة مدارات حول دائرة مركزية في الوجهين من الداخل:

١ ـــ المستنصر بالله أمير المؤمنين لا إله إلا الله محمد رسول الله
٢ ـــ دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد وعلي أفضل الوصيين ووزير خـــير المرسلين
٣ ـــ بسم الله ضرب هذا الدينر بطبرية محمد رسول الله أرسله .. المشركون (كذا)
سنة اثنين وأربعين وأربعمائة
* متحف دمشق ع/ ٤٥٣١ (٢١، ٤.٠٠) اللوح٥
السيوفي.

* * *

١٦٦ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٤٢هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ ٣ أمثلة
متحف دمشق ع/ ١٢٨٥ (٢٢، ٣.٦٠)؛ مجموعة الصراف ٤٨٦.
Lane- Poole: BMC, IV, no.46 (21.5, 4.31).

* * *

١٦٧ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٤٣هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ نصف دينار ـــ مثال
* متحف قطر (١٩.٢، ٢.٦٠) اللوح٥

* * *

١٦٨ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٤٤هـــ ـــ المستنصر بالهه ـــ ٣ أمثلة
متحف دمشق ع/ ١١٢٨٥ (٢٢، ٣.٦٠)
Lane- Poole: Khed. p.179., no 1141; Markov: Nachtrag I-II

* * *

١٦٩ ـــ ذ ـــ طبرية ـــ ٤٤٧هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال
أشار إليه Miles: Fatimid, p.50.
١٧٠ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٤٧هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Lane- Poole: Khed. p.180, no.1153.

* * *

١٧١ ــ ذ ــ فلسطين ــ ٤٤٩هــ ــ المستنصر بالله ــ مثالان

متحف دمشق ع/ ٩٧٥٢ (٢٣.١، ٤.٠٥)

Casanova: Princesse Ismail Coll.

* * *

١٧٢ ــ ذ ــ طبرية ــ ٤٦٠هــ ــ المستنصر بالله (ربع دينار) ــ مثال

الإمام

علي ولي الله

المدار: بسم الله ضرب هذا الدينر

بطبرية سنة ستين وأربعمائة

الوجه

مأثورة الضرب مكررة في هـــذا

وهذا خطأ نادر

Lavoix, III, no. 338 (, 0.98) = Miles, p.50.

* * *

١٧٣ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٦٢هــ ــ المستنصر بالله ــ مثال

معد

علي

ولي الله

...سنة ثنين (كذا)..

Lavoix, III, 349 (3.48).

* * *

١٧٤ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٧٣هــ ــ المستنصر بالله ــ مثال

... المشركين (كذا)

Lane- Poole: BMC. IV, no.173 (26., 3.84).

* * *

١٧٥ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٦٤هـ ــ المستنصر بالله ــ مثال

* متحف قطر (٢٣.٨، ٢.٦٥) اللوح٦

* * *

١٧٦ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٦٥هـ ــ المستنصر بالله ــ مثال

ضمن دائرة:

عبد الله ولي علي

عهد المسلـ ولي الله

ـــمين

المدار ١ ــ الإمام معد أبو تميم المستنصر بالله لا إله إلا الله محمد رسول الله

أمير المؤمنين

٢ ــ ضرب عكا سنة خمس وستين محمد رسول الله أرسله

.. المشركون

وأربعمائة

* مجموعة خاصة (٢٢.٥، ٢.٩١) اللوح٦

* * *

١٧٧ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٦٦هـ ــ المستنصر بالله ــ مثال

Miles: Fatimid Coins, p.50.

* * *

١٧٨ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٧٢هـ ــ المستنصر بالله ــ مثال

Miles: Op. cit, p.50.

١٧٩ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٧٣هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Itid, p.50.

*   *   *

١٨٠ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٧٤هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Lane- Poole: Khed. no. 1178.

*   *   *

١٨١ ـــ ذ ـــ فلسطين ـــ ٤٧٥هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال د

Johnston: Catalogue de Vente, 1906.

*   *   *

١٨٢ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٧٦هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Karabacek: ZDMG (1867), p.622.

*   *   *

١٨٣ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٧٨هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Karabacek: ZDMG (1867), p.623.

*   *   *

١٨٤ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٨٣هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

Ibid. p. 624.

*   *   *

١٨٥ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٨٤هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ ٤ أمثلة

* متحف قطر (٢٣.٥، ٣.٦٣) اللوح٦

Gagarine: Weyl, Berlin; Karabacek: op. cit, p.624;

Lane- Poole: Khed. no. 1188.

١٨٦ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ٤٨٥هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ مثال

* متحف قطر (٢٣.٥، ٣.٩٢) اللوح٦

*　　*　　*

١٨٧ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٨٦هـ ــ المستنصر بالله (ربع دينار) ــ مثال

* متحف دمشق ع/ ١٥٢٦٠ (١٥.٥، ٠.٩٢) اللوح٦

*　　*　　*

١٨٨ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٨٧هـ ــ المستنصر بالله ــ مثالان

* متحف قطر (٢٥، ٤.٠٠) اللوح٦

Lavoix, III, no.350 (　,4,10).

*　　*　　*

١٨٩ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٨٨هـ ــ المستعلي بالله (ربع دينار) ــ مثالان

متحف دمشق ع/ ٢٠١٠١٢ (١٥، ٠.٩٣)

متحف دمشق ع/ ١٨٩٨٤ (　)

*　　*　　*

١٩٠ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٩٠هـ ــ المستعلي بالله ــ ٣ أمثلة

* متحف قطر (٢٣.١، ٤.٤٠) اللوح٦

السيوفي .Karabacek: ZDMG (1867), p.625

*　　*　　*

١٩١ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٩٣هـ ــ المستعلي بالله ــ مثال

Miles: Fatimid ...p. 50.

*　　*　　*

١٩٢ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٩٥هـ ــ المستعلي بالله

* متحف قطر (١٥.٠٠، ٠.٩٣) = ربع دينار، اللوح٦

Lavoix, III, no. 411.

* * *

١٩٣ ــ ذ ــ عسقلان ، ٥٠٣هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثالان

Lane- Poole: BMC IV, no. 203 (23., 4,10)

Idem: Khed, no.1218.

(لا يوجد قياس)

* * *

١٩٤ ــ ذ ــ عسقلان ، ٥٠٤هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثال

الإمام المنصور	عال غاية
المدار ١ــ أبو علي الآمر بأحكام الله	لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي
أمير المؤمنين	الله
٢ــ ... الدينر بعسقلان	محمد رسول الله أرسله ...
سنة أربع وخمسمائة	

Lavoix, III, p.157, no.417 (,3.77).

قرأ لاقوا عسقلان خطأً (عسكلان) وهي مرسومة ( )

وقرأ التاريخ خطأً ٥٠٧ وهو (٥٠٤) وهي مرسومة ( ) ولا يمكن أن تقرأ (سبع)

* * *

١٩٥ ــ ذ ــ عسقلان ، ٥٠٥هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ ثلاثة أمثلة

* متحف قطر (٢٢.٢، ٣.٩٦) اللوح٦

Beyram Bey: Catalogue de Vante (schulman, 1909).

* * *

١٩٦ ــ ذ ــ عسقلان ــ ٥٠٦هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثال

قرأها لين بول (عسكلان) Lane- Poole: Khed.

* * *

١٩٦أ ــ ذ ــ عسقلان ــ ٥٠٧هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثال

* متحف دمشق ع/ ٤٥٣٨ (   ) اللوح٦

* * *

١٩٧ ــ ذ ــ عكا ــ ٥٠٧هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثال

* متحف قطر (٢٣، ٣.٨٠) اللوح٦

* * *

١٩٨ ــ ذ ــ عسقلان ــ ٥٠٩هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثالان

* متحف قطر (٢١، ٣.٨٢) اللوح٧

Johnston: Catalogue de Vante, 1906.

* * *

١٩٩ ــ ذ ــ عسقلان ــ ٥١٠هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثالان

Zambaur: Conributation... lie partie (Wiener NZ, XXXVI et XXXVII).

Johnston: catalogue de Vante, 1906.

* * *

النقود الصليبية المضروبة في فلسطين

تقليد النقود الفاطمية:

٢٠٠ ــ ذ ــ طرابلس ــ ٤٣٧هـ ــ المستنصر بالله ــ مثال

معد	علي
عبد الله ووليه	لا إله إلا الله
الإمام أبو تميم	وحده لا شريك له

المستنصر بالله	محمد رسول الله
أمير المؤمنين	ولي الله
بسم الله الرحمن الرحيم ضرب	محمد رسول الله أرسله ... المشركون
هذا الدينر سنة سبع وثلثين	
وأربعمائة	

هذا وصف الدينار الفاطمي الأصيل، قلده الصليبيون، وبالرغم من دقة التقليد، لكن كلمات كثيرة لا يمكن قراءتها.

Lavoix;... Croises, pp. 37-9, nos. 6 et7.

* * *

٢٠١ ــ ذ ــ مكان الضرب والتاريخ غير موجودين ولكن T للدلالة على طرابلس: Tripoli

الدينار المقلد من عهد المستنصر بالله أيضاً، وقو حوى في رأس المأثورة الوسطى حرف B وهو بلا شك يرمز إلى ملك طرابلس الصليبي Bertrand (١١٠٩ ــ ١١١٢م).

الخط رديء جداً، صليب يبدو في مركز الوجه.

* متحف دمشق ع/ ١٤٠٦ ( ) اللوح٧ ولكن * بدلاً عن T.

Lavoix:.. Croises, pp. 39-40, nos. 8 et9.

* * *

٢٠٢ ــ ذ ــ عكا ــ ٤٥٤هـ ــ المستنصر بالله ــ تقليد حسن

* متحف دمشق ع/ ٥٨٩٧ (٢٢.٢، ٣.٢٨) اللوح٧.

* * *

٢٠٣ ــ ذ ــ مصر ، ٦ [٥٠]هـ ــ الآمر بأحكام الله ــ مثالان

كتب التاريخ على الدينار الصليبي المقلد (سنة ...) أي سنة ٥٠٦ أو ٥١٦، أو ٥٠٧ أو ٥١٧هـ.

* متحف دمشق ع/ ١٥٣٢٠ (   ) اللوح٧.

Lavoix:.. Croises, p.35, no2- Balog et Yvon: Deux Tresors, p. 299, no.17 (22., 3.91).

مثال آخر: التاريخ = ٥٠٦هـ Ibid, no 18.

* * *

٢٠٤ ـ ذ ـ مصر ـ ٥١٤هـ ـ الآمر بأحكام الله ـ مثال:

Lavoix:.. Croises,, p.34, no1.

* * *

٢٠٥ ـ ذ ـ فلسطين؟ ـ التاريخ غير مقروء ـ الآمر بأحكام الله ـ مثالان:

متحف دمشق ع/ ١٦٧٧٥ (٢٢.٥، ٣.١٨) كتب مكان الضرب

ع/ ١٦٧٧٦ (٢٢.٥، ٣.١٥)

* * *

تقليد النقود الأتابكية والأيوبية(١٠٤)

تقليد الدينار الذي ضربه صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٦٦هـ باسم الأتابك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وباسم الخليفة المستضيء بأمر الله الإمام الحسن.

الدينار الأصيل هام ونادر. وقد ضرب مثله في الاسكندرية. إليكم وصف الأصيل، وقد ضرب حسب النمط الفاطمي:

عال   الإمام

(١٠٤) كنت أشرت في المقدمة أن الصليبيين قلدوا دراهم الصالح إسماعيل ملك دمشق الأيوبية المضروبة في دمشق سنة ٦٤٣هـ، وأعطيت ثلاثة أنماط لها. لا أرى ضرورة لإيرادها اختصاراً للبحث. أحب أن أشير إلى أن بعض علماء النقود اعتبروا الدراهم الأيوبية المضروبة بحلب بعد موت الملك الظاهر غازي والملك العادل أبي بكر أنها تقليد صليبي وكتبت بحثاً عن هذا الموضوع ألقيته في مؤتمر النقود المنعقد في لندن (نيسان/ ابريل) ١٩٧٦، أنكرت فيه أن تكون تلك الدراهم من تقليد صليبي.

محمد الحسن
بن زنكي
المدار: السلطان الملك العادل المستضيء بأمر الله أمـــير
المؤمنين
وسلم
٢ ــ محمد رسول الله صلى الله لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه
محمد
عليه وعلى آله رسول الله
٣ ــ محمد رسول الله أرسله.. بسم الله الرحمن الرحيم ضـــرب
هذا الدينر
كله بالقاهرة ســـنة ســـت وســـتين
وخمسمائة

الانحطاط في الدينار المقلد:

= أمير المؤمنين

رسول الله = لم تكتب

= الرحمن الرحيم

= ست (وستين) وخمسمائة

(من مجموعة خاصة)

* * *

٢٠٧ ــ تقليد دينار صلاح الدين يوسف بن أيوب المضروب في القاهرة ســـنة ٥٧١هـــ، الدينار الأصيل مضروب أيضاً حسب النسق الفاطمي:

الأغلاط كثيرة حتى أن (سبعين) كتبت أشبه ما تكون بـــ (اربعن) (من مجموعـــة خاصة).

٢٠٨ ــ تقليد دينار أيوبي باسم صلاح الدين يوسف بن أيوب ضــــرب ســنة ٥٨٦هــ، ولم يذكر على الدينار المقلد مكان الضرب.

Balog et Yvon: RN (1958) pp. 152-3, no52. (22., 3.31).

*　　*　　*

النقود الصليبية الأصيلة بالعربية:

٢٠٩ ــ ذ ــ عكا ــ ٥[٤]١٢ مم ــ مثال وحيد

	إلاه واحد
المدار: ضرب بعكا سنة ألف	
ومائتين وخمس	مأثورة المدار غير واضحة يتخللها
	صليب نقــدر أن تكــون (الأب والابــن
	والروح القدس)

Lane- Poole: Khed., p.351.

قدر لين بول التاريخ ١٢٤٥م لأن هذا الدينار بدائي الضرب، وهو لا يشبه أبــداً الدينار المضروب سنة ١٢٥٥م بمأثوراته.

*　　*　　*

٢١٠ ــ ذ ــ عكا ــ ١٢٥١م

المدار: + نفتخر بصليب ربنا يسوع	+ضرب بعكــا ســنة ألــف
	ومائتين أحد
المسيح الذي به سلامتنا وتحيتنا	وخمسين لتجسد
٢ ــ + وقيامتنا وبه تخلصنا وعفينا	+ الأب والابن والروح القدس

* متحف دمشق ع/ ٥٣٥٤ (٢٣، ٣.١٧) اللوح٧

متحف دمشق ع/ ٥٨٨٧ (٢٢، ٣.١٦) نقص بالتاريخ

Lavoix:.. Croises, p53, no.10.

مع اختلاف ومأثورة الضرب كاملة (تجسد ربنا المسيح)

Balog et Yvon: RN (1958), p.158, no.70 (23., 3.30).

* * *

٢١١ ــ ذ ــ عكا ــ ١٢٥٣م.

Lavoix:.. Croises, p.54 (23., 3.39)

Nassar: PAM, C. 3346 (23., 3.12)

BM unc. (22.,) = Balog et Yvon, p.159.

* * *

٢١٢ ــ ذ ــ عكا ١٢٥٤م

Paris unc., F. 1102 (23., 3.15)

Paris - Vogue 855 (21., 2.83) = Balog et Yvon. p.150.

Lavoix:.. Croises, p54.

* * *

٢١٣ ــ ذ ــ عكا ــ ١٢٥٥م

Balog et Yvon, p. 159= Collection Pflieger

* * *

٢١٤ ــ عكا ــ ١٢٥٦م

Balog et Yvon, p.159:

1- Collection Balog (22., 3.55)

2- Paris unc., D. 3581, (23., 3.13).

* * *

٢١٥ ــ ذ ــ عكا ــ ١٢٥٧م

Lavoix:.. Croises,.. pp. 54-5.

ذكر لافوا أنه شاهد عند صديقه سوفير Souvaire ديناراً صليبياً مؤرخاً من سـنة ١٢٥٧ أو ١٢٥٩م

BM unc. (23., 3.63).

*   *   *

٢١٦ ـــ ذ ـــ عكا ـــ ١٢٥٨م

Balog et Yvon, p. 159 = BM unc. (22., 3.30)

*   *   *

النقود الفضية الصليبية العربية:

٢١٧ ـــ ف ـــ عكا ١٢٥١م

لله المجد	ضرب بعكا
الأب والابن	الله واحد هو
والروح القدس	الإيمان واحد
إلاه واحد	المعمودية واحدة

* متحف دمشق ع/ ١٨٩٨١ (٢٣،) وست أمثلة أخرى ـــ اللوح٧

Lavoix:.. Croises, p55, no.1.

توجد دراهم أخرى شبيهة Balog et Yvon, p.160

ولكن تختلف من حيث ترتيب كلمات المأثورات والإشارات

*   *   *

٢١٧أ ـــ ف ـــ عكا ـــ ٥١ [١٢]م ـــ نصف درهم

* متحف دمشق ع/ ٢١١٢ اللوح٧

إلاه واحد	ضرب بعكا
والروح	الاب
القدس	والابن

٢١٨ ـــ ف ـــ عكا ـــ دون تاريخ ـــ أنصاف دراهم

الله واحد	لله المجد
والروح	الاب
القدس	والابن

Lavoix:.. Croises, p.57, no.12.

متحف دمشق ع/ ١٨٢١٢ (١٧، ١.٥٢).

* * *

النقود الصليبية العربية من النحاس والخليطة:

٢١٩ ـــ ن ـــ عكا ـــ دون تاريخ

Balog et Yvon, p. 167, fig.50 = Paris unc. (14., 2.48).

* * *

٢٢٠ ـــ خليطة: قد[س] ـــ دون تاريخ

هذه الخليطة مكونة من ٧٥% نحاس، و٢٥% فضة اسمها بالفرنسية Billon

Ibid = Paris unc. (11.2, 0.76).

* * *

النقود الصليبية الفرنجية:

٢٢١ ـــ ذ ـــ (القدس) Jerusalem ـــ بودوان[١٠٥] BALOVIN ـــ دون تاريخ.

في المركز

المدار Jerusalem	BALOVINS REX

Yvon: Monnaies et Sceaux (R.N. t. VIII, 1966, p.92, p1. III.3).

(١٠٥) تكتب بالفرنسية BAUDOUIN وهو واحد من خمسة ملوك حكموا مملكة القدس بهذا الاســـم. يرجح الأستاذ شلومبرجه أن يكون هذا الملك بودوان الثالث (١١٤٣ ـــ ١١٦٣م) ويوجـــد بمتحـــف دمشق عدد من نقوده الفضية المضروبة في القدس: تحمل حروفاً أرمنية وهي مسجلة بين الرقمـــين: ع/ ١٨٠٤٢ ـــ ع/ ١٨٠٤٩.

٢٢٢ ـــ ذ ـــ (القدس) Jerusalem ـــ (هنري) Henri ملك القدس وقبرص.

المدار Jerusalem HENRI REX DE

Miles: Some Hoards of Crusader Bezants (ANS. MN. 13 (1967), p.202.

* * *

النقود المضروبة في غزة في العهد الأيوبي[١٠٦]

٢٢٣ ـــ ف ـــ غزة ـــ ٦٢٣هـــ ـــ الخليفة العباسي المستنصر بالله ـــ الملـــك الكامل محمد ـــ مثال

لا إله إلا	بسم الله
الملك الكامل	الإمام المنصور
أبو المعالي	أبو جعفر
محمد بن أبي	المستنصر بالله
بكر بن أيوب	أمير المؤمنين

متحف دمشق ع/ ١٣٣٦٧ (٣٢.٥، ٢.٧٧)

* * *

٢٢٤ ـــ ف ـــ غزة ـــ ٦٢٤ أو ٦٣٤هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ الملك الكـــامل ـــ ٣ أمثلة (مثل السابق مع اختلاف في توزيع الكلمات). رقم العشرات غير واضـــح، أرجح أن تكون هذه الدراهم مضروبة سنة ٦٢٤هـــ.

* متحف دمشق ع/ ١٨١٠٤ (٢١، ٢.٩٨) اللوح٧

ع/ ١٠٠٧٣ (٢١.٥،)

ع/ ٢٩٥١ (٢١،)

Lowick: Spink's Numismatic Circular, Oct. 1971, p.359.

ذكر لويك درهماً أيوبياً للكامل ضرب بغزة، لكن التاريخ غير مذكور لنقصه.

٢٢٥ ـــ ف ـــ غزة ـــ ٥[٦٢] هـــ ـــ المستنصر بالله ـــ الكامل ـــ مثال

---

[١٠٦] لم تضرب النقود الأيوبية إلا بغزة، وكلها دراهم وأنصاف دراهم.

* متحف دمشق ع/ ٢٩٤٨ (٢١.٥،) كتب التاريخ ناقصاً ٥[٦٢]هـ ـ اللوح٧.

* * *

٢٢٦ ـ ف ـ غزة ـ ٦٣٥هـ ـ المستنصر بالله ـ الكامل ـ مثال

متحف دمشق ع/ ١٤١٨٠

* * *

٢٢٢ ـ ف ـ غزة ـ التاريخ ناقص ـ المستنصر بالله ـ الكامل ـ مثال (نصف درهم).

لا إله إلا	ضرب بغزة
الملك	الإمام
الكامل	[المسـ]ـتنصر

متحف دمشق ع/ ٣٠٢٦ (١٦.٥،)

* * *

النقود المضروبة في غزة في العهد المملوكي(١٠٧)

في حد علمنا لم يسجل حتى الآن في دراسات النقود أي نقد ضرب في فلسطين في العهد المملوكي. لكنا عثرنا في متحف دمشق على درهم واحد.

٢٢٨ ـ ف ـ غزة ـ التاريخ مبهم ـ أبو سعيد برقوق ـ مثال

[الملك] الظا[هر]	[ضرب] بغزة
سيف الدنيا والدين	لا إله إلا الله
[أ]بو سعيد برقوق	محمد رسول الله

(١٠٧) ذكر زمباور Die Munzpragungen des Islam (ص ١٧٨) نقداً ضرب بعكا سنة ٦٧٨هـ ـ أي في العهد المملوكي وذلك في سياق النقود الأيوبية لم اسجله في هذا البحث لأني أعتقد أن هناك خطأ. لم يذكر المرجع حتى نتأكد من موضوعه.

خلد الله [أر]سله بالهدى ودين

[ملكه] [الحق]

متحف دمشق ع/ ١٤٠٠٦ (١٨.٥،).

* * *

النقود المضروبة في عكا في العهد العثماني

٢٢٩ ـــ ف ـــ لم نعثر على نقود ضربت في فلسطين في العهد العثماني، ولكـــن ذكر لين بول أوسمة ضربت في عكا سنة ١٢٥٦هـــ باسم السلطان عبد المجيـــد تكريمـــاً للضباط[١٠٨] والجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً في إخراج محمد علي باشا من الشام.

رسم قلعة عكا

١٢٥٦ طغراء عبد المجيد

برية الشام وقلعة عكا

BMC. VIII, p.353, no.lx (28m.m) and 1x4 (17.4. 84).

* * *

٢٣٠ ـــ (برونز) Ibid. p.354 no. x (28m.m).

* * *

(١٠٨) ذكر لين بول أن الأوسمة سكت من الذهب والفضة والبرونز، ولكن لم يعثر حتى الآن على وســـام ذهبي.

المصادر العربية والشرقية

ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨، مصر سنة ١٣٠٣هـ.
اسماعيل غالب: موزه همايون: مسكوكات قديمة إسلامية قتالوغي قسطنطينية ١٣١٢هـ.
الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج١، المطبعة الحسينية المصرية (دون تاريخ)
عبد الرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربية وعلم النميات.
١ ـ فجر السكة العربية، القاهرة ١٩٦٥م.
عزت باشا: مسكوكات قديمة إسلامية، استامبول ١٣١٨هـ.
(أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ـ مارس/ابريل ١٩٦٩ ج٢ مطبعة دار الكتب ١٩٧١).
محمد أبو الفرج العش: النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن (مؤتمر بلاد الشام المنعقد في عمان في شهر نيسان ١٩٧٤).
محمد باقر الحسيني: دليل لمجموعة عبد الله شكر الصراف (المسكوكات ٢ ص٤٨ـ ٨١).
المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود.
مهاب درويش لطفي: الدينار العباسي في المتحف العراقي (المسكوكات٧ ص٤٤ ـ ٨٨).
ناصر الدين النقشبندي: الدينار الإسلامي في المتحف العراقي ـ بغداد ١٩٥٣.
ناصر الدين النقشبندي: الدينار الإسلامي لملوك الطوائف. (سومر م٣، ج٢ ١٩٤٧).
ناصر الدين النقشبندي: كنز خضر الياس (سومر١٠ ج٢ ١٩٥٤).
وهو نشر لمخطوطة ...Zambaur... Baghdader

مختصر أسماء الدوريات والمؤسسات العربية

AAAS	Annales Archeologiques Arabes - Syriennes
ANS	American Numismatic Society in New York
AUB	American University of Beirut
BIE	Bulletin de L'Istitut d'Egypte
BM unc	British Museum (uncatalogued coins)
BMC	British Museum Catalogue
Coll.	Collection
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society, London
MN	Museum Notes (edited by ANS)
NC, or Nchr	Numismatic Chronicle (London)
NN-M	Numismatic Notise and Monograpg - (edited by ANS)
NZ	Numismatische Zeitschrift, Wien.
Paris or P.	Cabinet des Medouilles de Paris
PAM	Palastine Archaeological Museum
QDAP	Quarterly of the Depatment of Antiquities in Palastine
RN	Revue Numismatique (Paris)
RNB	Revue Numismatique Belge
UM	University Museum (Phladelphia)
ZDMG	Zeitschrift der Deutchen Morgenlandischen

Gesllschaft, Leipzig

ZN Zeitschrift fur Numismatik, Berlin

Allan. J., Unpublished Coins of the Califate , (N. Chr., Vol. XIX (1919) pp. 197-8.

Anderson, W., Der Munz- fund von Vaabina ,(Ann. Litt. Soci, Esthonicae, I, 1973, pp. 1-84).

Al. USH, M.A.,Traces du Classicism dens la Numismatique Arab - Islamique (AAAS. 23 (1971), pp. 303- 327).

Bacharach, J.et Les Premiers Dirhams, Ikhshidides (RN, t, XVII, (1975)).
Shamma's

Balog, P., Dinars Ikgshidites trouves a Assiout en Autumne ,1954 (RNB, t. 101, (1055) pp. 303-327).

Balog, P., Tables de References des Monnaies Ikhshidites ,(RNB, t, 103. (1957)).

Balog, P., The Coinage of the Mamluk Sultans in Egypt and Syria, New York, 1964.

Balog, P.et, Monnaies a Legendes Arabes de L'Orient Latin.
Yvon, J., (RN. (1958), pp. 133-168).

Balog, P.et,Deux Tresors de Monnaies d'or des Croises.
Yvon, J., (ANS. MN- XI).

Behzad Batuk,Resimili Turk Paralarina EK, Istanbul, (Abbased and Mamluk).

Beyram By, M.,Catalogue de Vente (Schluman, J. 1909).

Blau und Stickel,Zur Muhammedamschen Numismatik, und Epigraphik, vol. I.

Blau, O., Nachlese Orientalischer Munzei; Zuei Teile (Wiener NZ. VI- VII, 1874-5).

Casnova P., Inventaire Sommaire... des Monnaies Musulmanes... ,de la Pricesse Ismail, 1896.

Castiglione, C.O. Monete Cufich dell' J.R. Museo di Milano, 1819.

Cottevielle.(R.N. (1935)).

Giraudet, R.

Frauhn, C.M.,Nova Supplementa (Opusculorum Postumorum Pars I (1855), II (1877)).

Gagarin, F.,Verkaufs Katalog A. Weyl, Berlin, 1885.

Gotha- Schluman Catalogue de Venta, 22 mai, 1928.

Garbar, O.,The Coinage of the turunides, New York, 1957.

Hill,Catalogue of the Roman Coins in the British Museum ,(Palastine).

Johnston, J.M.C. Catalogue de Venta (Sotheby), London, 1906.

Lane - Poole, S. Catalogue of Oriental Coins in the British Museum vols. I,II,III,IV and 1876- 1889.

Lane - Poole, S. Fasti Arabici: II Calverst's Collection (N. Chr. 1885).

Lane - Poole, S. Catalogue of the Arabic Coins.. in the Khedivial Library at Cairo, 1897.

Lane - Poole, S. Muhammadan Dynasties, London, 1894.

ترجمة محمد صبحي فرزات تحت إشراف الأستاذ محمد أحمد دهان "الدولة الإسلامية" دمشق ١٩٧٣.

Lavoix, H., Monnaies a' legendes Arabes frappes en Syrie par ,es Croises 1877.

Lavoix, H., Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque, vols. I et III 1887 , et 1895.

Lematre, P.,Muhammadan Coins in the Convent of the ,Flagellation, Jerusalem (N. Chr., XVIII (1938), pp. 295-9).

Le Strange, G.,Palastine under the Moslems, London, 1890.

ترجمة محمود عمايري "فلسطين في العهد الإسلامي" عمان ١٩٧٠.

Markov, A.,Inventary Katalog Musulmanskich Monet, St. Petersburg, 1896.

Markov, A., I, II Nachtrag.

Miles, G.C., Rare Islamic Coins (ANS, NN-M. 118) New York. 1950.

Miles, G.C. ,Fatimid Coins (ANS- NN-M> 121) New York, 1951.

Miles, G.C. ,Some Hoards of Crasnader Bezants (ANS. MN. 13, 1967).

Miles, G.C.,Additions to Zambaur's Munzpragungen des Islam (ANS. MN. 17/971).

Nassar, N.G., The Arabic Mints Palastin and Trans- Jordan (QDAP. , XIII (1978), pp. 121-7)

Nutzel, H., Konigliche Museen Zu Berlin: Katalog der Orientalischen Munzen, Vol. I, 1898.

Rogers, E. Th.,Dinars of the Abbaside Dynasty (J. ARS, VII (1874) p. 262).

Rogers, E. Th., The International Numismats Orientalie Coins Of the Tuluni Dynasty, 1877.

Rogers, E. Th., Catalogue of a collection of Muhammadan Coins (N. Chr. III, 1883).

Bacharach, J.et (RN, t, XVII, 1975).

Shamma, S., The Ikhshidid Coins of Filastin (AUB, Al- Abhath, XXII, 3-4, Doc 1969).

Shamma, S., The Coins of the Tulunids in Falastin (AUB, Al- Abhath).

Siouffi, N., Tables Numismatiques, Moussol, 1879- 1880.

Soret, F. , Letters sur la Collection, II (a' Sawalife) (RNB, IV, 2e Serie, 1854).

Soret, F. , Letters sur la Collection, III (a' Dorn). (RNB, VI, 2e Serie, 1856).

Tegner, E., (Kgl. Vitterhets Historie Och Antiquitets Akademiens Manadsblad, 1883, pp. 97- 119).

Teisenhausen, W.Monnaies des Khalifes Orientaux, St. Petersburg, 1873.

Teisenhausen, W.Melanges de Numismatique Orientale (RNB, 1875. pp. 239- 379).

Tornberg, C.J., Symbolae ad Rem Nummariam Muhammedanorum, vol IV, 1862.

Linder- Welin

Ullas, S., Musse National de Stockholm.

Vasmer, R., Kuficeskia Moneti Pereyaslago Klads, St. Petersburg, 1914.

Vismar, R., Uber dreizehn in Privatbesitz verbaliebene Munzen des Friedrichshofer Fundes, 1928.

Vismar, R. und

Zograph. A., Dr. Otto Blau Munsforsche, Leipzig, 1928.

Yvon, Jacques , Monnaies et sceaux de l'Orient Latin (RN, t. VIII, 1966).

Zambaur, E., Contribution a' la Numismatique Orientale, Iie Partie. (Wiener NZ, XXXVI et XXXVII).

Zambaur, E., Inventar- Katalog Seiner Sammlung (manuscript).

.0Zambaur, E., Inventar- Katalog des Baghdader Goldmunzenfundes und Anderer Mohammadanischen noch nicht veroffent- lichten Munzen des Museums inTop- Sarai in Istanbul,Aufgenommen 1916 (manuscript).

نشرة ناصر الدين النقشبندي: كنز خضر الياس (سومر ١٠ ج٢ ١٩٥٤).

Zambaur, E., Neue Khalifenmunzen (Wiener NZ, LV, 1922).

Zambaur, E. ,Inventar- Katalog der Bestande der Wiener ,Offentlichen und Privat-Sammlungen an Mohammedanischen Munzen (manuscript).

Zambaur, E., Die Munzpragungen des Islam, edited by Jaeckel, P. Wiesbaden, 1968.

Zia, Ahmad , Catalogue of Islamic Coins, Istanbul, 1910.

Zia Ahmad , Bibliotheque Nationale de Paris (manuscript).

اللوح - ١



٢

Walker, 77



٤

Walker, B



٤



٤

Walker, 1



٦



٧ - ١

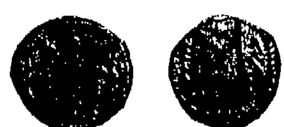


٩ - ب

Walker, 48



٩ - ز



٩ - جـ



٩ - ط

اللوح - ٢

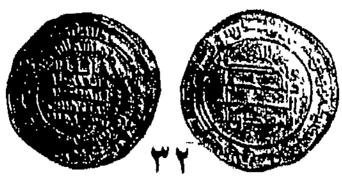

١٧


١٨

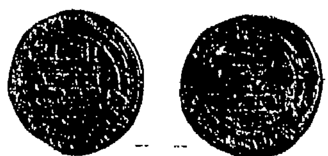

٢٠


٢١


٢٢

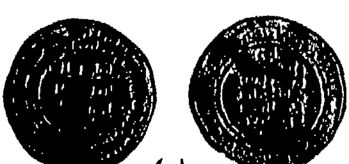

٣٢


٤٣

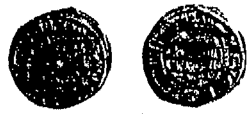

٣٣


٣٨

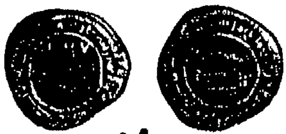

٤١


٤٨

اللوح - ٣



٥٤



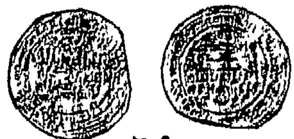
٥٩



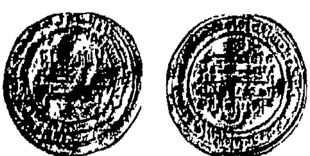
٦١



٦٣



٦٩



٧٠



٧١



٧٤



٧٦

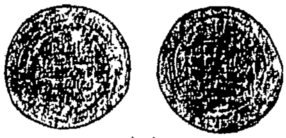


٧٨

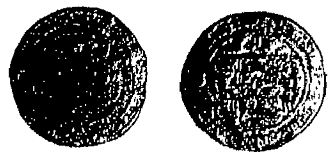
اللوح ـ ٤



٧٩



٨١



٨٤



٨٥



٨٧



١٢٨



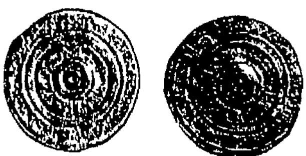


١٢٩





١٣٤



١٣٩



١٤١



١٤٣

اللوح - ٥



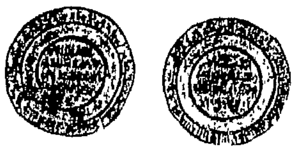
١٤٨



١٥٢



١٥٤



١٥٦



١٥٩



١٦٠



١٦١



١٦٣



١٦٥

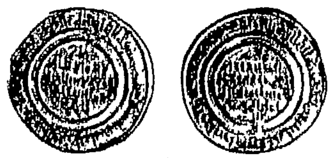


١٦٧

اللوح ـ ٦


١٧٥


١٧٦


١٨٥

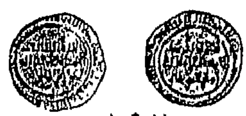

١٨٦


١٨٨


١٨٧



١٩٠


١٩٢


١٩٥


١٩٦ ـ ١

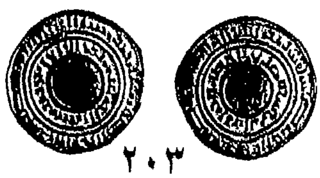

١٩٧

اللوح - ٧٠


١٩٨


٢٠١


٢٠٢


٢٠٣

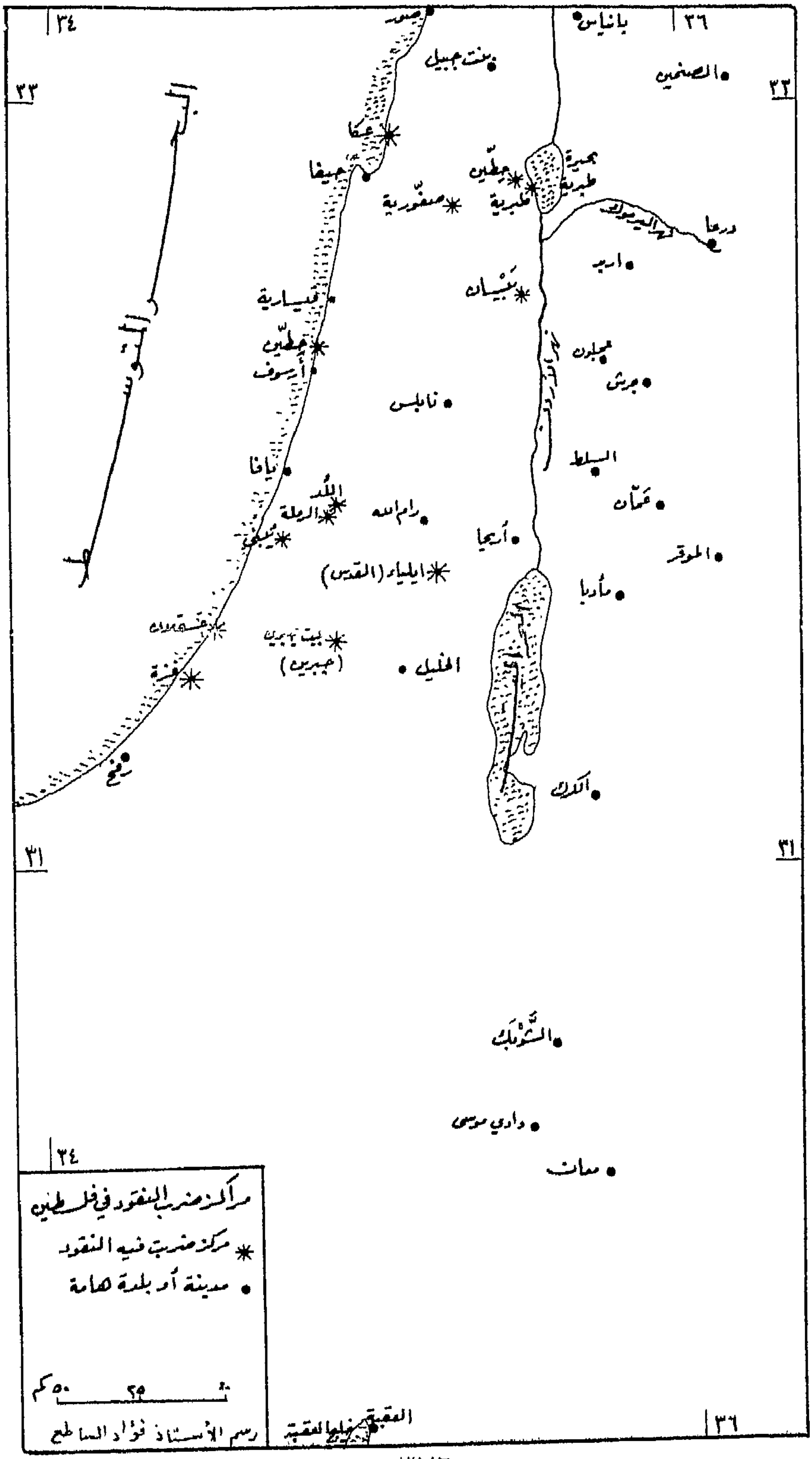

٢١٠


٢١٧


٢١٧-١


٢٢٤


٢٢٥



مراكز ضرب النقود في فلسطين
مركز ضربت فيه النقود
مدينة أو بلدة هامة
٥٠ ٢٥ ٠ كم
رسم الأستاذ فؤاد الساطع
٣٤
٣٦
٣٣
٣٢
٣١
صور
بانياس
بنت جبيل
الصنمين
عكا
حيفا
بحيرة طبرية
حطين
صفورية
طبرية
اليرموك
درعا
اربد
بيسان
قيسارية
أرسوف
نابلس
عجلون
جرش
السلط
يافا
اللد
الرملة
رام الله
أريحا
عمان
الموقر
ايلياء (القدس)
مأدبا
الخليل
غزة
رفح
الكرك
الشوبك
وادي موسى
معان
العقبة

الفنون الإسلامية المبكرة في فلسطين

الدكتور: صفوان خلف التل

تمهيد:

لقد حبت القدرة الإلهية أرض فلسطين العربية بخصائص ومميزات جعلتها ترفل بالعز والطهر والقداسة منذ بزوغ فجر الإسلام عليها، حيث حمل المسلمون مشاعل النور إلى أرضها بعد أن حطت رحال رسول الله فيها قبل عروجه إلى السماء، يبارك أرضها، ويشرف حرمها، ويهلل اسم الله في سمائها، ويؤمل شعبها بالتحرر من العبودية والظلم. وكان وعد الله حق عندما فتحت أبواب القدس إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ودخل الناس دين الله أفواجاً..، مستهلين بعودة الحرية والكرامة إلى الأمة بعد أن دام استعبادها ردحاً طويلاً من الزمن، وقاسى سكانها من ويلات الحروب والاحتلال على أيدي الدول الكبرى الممثلة بامبراطوريات اليونان والرومان والفرس.

دخل الإسلام إلى فلسطين في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، وفتحت أبواب القدس الشريف، وسجل التاريخ لنا صفحة مذهلة من الأخلاق الكريمة التي عكست أصالة العروبة وسماحة الإسلام، وكان ذلك إثر صدور العهد العمري الذي جاء فيه ما يلي:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ

منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية)).

ووقع الخليفة عمر بن الخطاب على هذه الوثيقة، وشهد عليها كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكان ذلك بتاريخ ١٥ للهجرة النبوية[١].

وفي عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٨ ـ ٦٦١) انصهرت عروبة فلسطين في بوتقة الإسلام، وشاع في ربوعها الأمن والسلام. وكان هم العرب الأول في هذه الفترة المهمة هو نقل الرسالة الإسلامية إلى أقاصي الأرض، وكانت هذه المهمة الهدف الأسمى والأمل المرتجى ابتغاء مرضاة الله، وسعياً إلى توفير السعادة والرخاء لشعوب المسلمين. وعليه كانت محصلة الاتجاهات الإسلامية هي اتجاهات روحية إنسانية.

ومع انتقال عاصمة الخلافة من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، كانت معظم المهمام الروحية قد اكتملت، وبدأت الخلافة الأموية في دمشق أسلوباً جديداً في مواجهة الحياة الاجتماعية ومتطلبات العصر، وخاصه بعد أن وصلت الدعوة الإسلامية إلى أسوار الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً. وبطبيعة الحال انعكست الأساليب الجديدة على الرقعة المحيطة بالعاصمة الأموية دمشق لتشمل منطقة جغرافية عربية متكاملة سميت بلاد الشام[٢]. ونلاحظ أن البذور الجديدة التي شهدتها الأرض العربية في منطقة بلاد الشام كانت أول التجارب لتحديد الاتجاهات الجديدة، فدار الخلافة في دمشق، وقبلة المسلمين الأولى في القدس، والقصور في الأردن. ومن خلال هذه الامتيازات الخاصة لهذه الأقاليم، يمكن أن نحدد المعالم والانجازات الفنية التي شهدتها أرض فلسطين العربية إبان هذه الفترة المجيدة.

ونتيجة لاعتلاء الخليفة معاوية بن أبي سفيان على كرسي الخلافة، وما أعقبه انشغاله بالمصاعب والتحديات الداخلية، كانت الفرصة متاحة بشكل أوسع، إلى حد ما، في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث تمكن من قطف ثمار الجهود السالفة لحكمه، وبدأت في أيامه مظاهر جديدة في أساليب الدولة الحضارية من حيث الشكل والمضمون. وكان لإقليم فلسطين وافر من الاهتمام والرعاية وبشكل خاص مدينة القدس[٣].

شهدت مدينة القدس بناء أقدم صرح إسلامي فوق موقع الصخرة المشرفة (لوحة ١، ٢) في وسط الحرم الشريف. واستقطب عبد الملك بن مروان كل المهارات العربية المحلية لإقامة بناء قبة الصخرة، ولا شك أن هذا البناء يمثل قلادة كريمة على صدر فلسطين، يحفظ لها الامتيازات الكريمة التي نمت على أرضها العربية المسلمة، ويسجل بالفخر والاعتزاز ثمار الجهود والطاقات العلمية والفنية الكامنة في شخصية الإنسان العربي في فلسطين وبقية أقاليم بلاد الشام. وفي الوقت الذي كان الخليفة عبد الملك منشغل بإدارة العالم الإسلامي في دمشق كان أبناؤه الأمراء الوليد وسليمان ويزيد وهشام يجوبون بلاد الشام سعياً في مشاركة والدهم في الاطلاع على شؤون البلاد، وللتدرب على مهارات العرب في الفروسية والآداب كانت أرض فلسطين مرتعاً ومصيفاً جميلاً لهم حتى إذا ما تربع أحدهم على كرسي الخلافة نشط في رفد هذا الإقليم بالبناء والإعمار في كل مناحي الحياة[٤]، فأقيمت المدن والمساجد والقصور والسدود والطرق والصناعات، كما ضربت النقود في كثير من مدنها الهامة حتى بدت فلسطين إقليماً مميزاً بأسلوب مبانيها وفنونها العربية الجميلة.

وبعد ما شهدته القدس من اهتمام عبد الملك كان الخليفة سليمان سباقاً إلى وضع مخطط بناء لأول مدينة إسلامية في فلسطين وهي مدينة الرملة. كما كان يزيد وهشام سباقين إلى بناء أول قصر أموي متكامل قرب مدينة أريحا وهو قصر خربة المفجر المشهور.

وهكذا كان الخلفاء الأمويون يتبارون في إقامة العمائر الدينية والمدنية، وأصبحت آثارهم قمة في تاريخ الفنون الإسلامية في فلسطين وبقية أقاليم العالم الإسلامي.

ومن الجدير بالملاحظة أن عدداً كبيراً من مؤرخي الفن المستشرقين قد أسهبوا في الإشارة بمقالاتهم أو مؤلفاتهم عن الفن الإسلامي وعلاقته المباشرة بالفن البيزنطي أو الفن الكلاسيكي (اليوناني والروماني)، وبشكل خاص الفنون الإسلامية المبكرة التي نمت وترعرعت في بلاد الشام. ويبدو أن التركيز على هذا الاتجاه عدم استيعاب البعض للرابطة العربية التي ربطت بلاد الشام بالجزيرة العربية. وكذلك لم يكن العرب في بلاد الشام مجرد ناقلين أو مقلدين بل هم أنفسهم الذين ساهموا في وضع الفنون العربية

المسيحية (البيزنطية) قبل الإسلام، وهم أنفسهم الذين وضعوا الأسس الفنيـــة لدينـــهم الجديد. لقد كان تقبل العرب في بلاد الشام للدين الإسلامي أثره العظيـــم في صمـــود الدعوة وانتشارها وتحقيق ركائز الدولة السياسية والاقتصادية والدينية والأدبيـــة. لقـــد كانت بلاد الشام كلها مستعمرة للدول الغربية والشرقية، وقد سيطرت هـــذه القـــوى (اليونانية والرومانية والفارسية) في فترات طويلة عليها، ولكن هذه السيطرة لم تنتـــه إلى خلع العرب من جذورهم، بل على العكس فقد ساهم الشعب العربي في هذه البـــلاد في كل مجالات الحياة الدينية والدنيوية خلال جثوم الاستعمار على أرضه، هذه الأرض الـــتي شهدت منذ أقدم الفترات سلسلة طويلة من أحداث التاريخ المؤلم الذي طـــوق أهلـــها وسرق خيراتها وإنجازاتها في كل ميدان.

لعله من الأجدر أن نطلق على الفنون التقليدية في بلاد الشـــام قبـــل الإســـلام اصطلاح (الفنون العربية) سواء أكانت فنوناً مبتكرة أو مختلطة مـــع التقـــاليد الوافـــدة، ولطالما استعمل مؤرخو الفنون اصطلاحات كهذه على حساب الفنون الشرقية والغربيـــة حين أطلقوا عليها اسم الفنون الهلنستية. إن الفنون الرومانية هي التي عمَّت في الأصـــل جمهورية روما ومستعمراتها القريبة منها. ولا ننكر أن النماذج الهامة ذات الطابع الرسمـــي والديني قد تم نقلها إلى المستعمرات في الامبراطورية الرومانية الواسعة، ولكن الشـــعوب التي كانت تخضع تحت نفوذها كانت أيضاً ذات حضارة محلية وتقاليد وطنية، وعليـــه لا يمكن إنكار وجود هذا التراث وهذه التقاليد إلا إذا قبلنا أن المستعمرات الرومانية كـــانت خالية من شعوبها!. لم يكن الاستعمار الروماني للمشرق العربي سوى جيش محتل، فـــرض نفوذه بالقوة، ولكن الشعب العربي قاومه بكل الوسائل المادية والفكرية حتى تمكن مـــن دحر المعتقدات الوثنية الرومانية عندما ظهرت المسيحية في فلسطين وامتدت إلى المشـــرق والمغرب والتي امتدت إلى روما نفسها وأطاحت بامبراطوريتها الوثنيـــة. ولعـــل هـــذه الصورة تتكرر في القرن السابع الميلادي عندما ظهرت الدعوة الإسلامية وأسدلت الستار على تاريخ الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في المنطقة.

وفي بلاد الشام لم تكن بذور الحضارة الإسلامية غريبة عن ديار العروبة، فالمشـــرق العربي هو الذي احتوى الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، و لم تكن هذه الدعوة محـــررة

للعقيدة والفكر فحسب بل عملت بكل شجاعة وحماس إلى تحرير الأرض العربية من ربقة الاستعمار والعبودية.

لقد كان للعرب حضارتهم الواقعية، وكان لهذه الحضارة أثرها الفعال في تاريخ الشعوب المجاورة لهم، والحضارة السليمة هي الحضارة التي تأخذ وتعطي وتتفاعل، وبلاد العرب، من الناحية الجغرافية، تتوسط العالمين الشرقي والغربي، وهي تتمتع بموقع جغرافي استراتيجي يعتبر جسراً للشعوب وللحضارات المتنوعة، ومن خلال هذا الواقع سعت القوى العالمية إلى فرض سيطرتها عليه خلال التاريخ القديم والحديث.

كانت أرض فلسطين العربية ترفل بالحضارة والثقافة والعمران، كما كانت الصناعات الحضارية تنتشر على سواحلها وجبالها وسهولها مثل بقية أقاليم بلاد الشام. كانت المعابد والكنائس والأديرة والقصور والحمامات والموانئ والقلاع تعج بالفنون وبالتقاليد المحلية ذات الطابع الأصيل. وتم توجيه هذه المعالم وهذه الصناعات إلى خدمة المجتمع الدولي طوال قرون عديدة من الزمن، ومع دخول الإسلام إلى فلسطين وبقية أقاليم المشرق العربي تحولت هذه الصناعات والتقاليد والفنون الجميلة إلى خدمة الدين بأسلوب خاص وبعيد عن الفوضى والارتجال. لقد سعت الدولة الإسلامية إلى ضبط التقاليد القديمة. وبناء على فلسفة الإسلام واجتهاد العلماء تم اختيار نماذج معينة من الفنون العربية المحلية، ثم ضبطها وتوزيعها بأسلوب جديد مميز عن أساليب وأنماط الفنون القديمة كلها.

لقد تم استعمال العناصر الشائعة في الفنون القديمة كالعمائر والزخارف الخاصة بها كالنحت أو الفسيفساء أو الجبصين أو كالرسوم الزيتية والمعادن الجميلة والخشب والخزف والكتابات وغيرها. لقد كانت زخارف الفسيفساء من أكثر الزخارف والفنون شيوعاً في بلاد الشام، وقد شهدت أرض الأردن وفلسطين أكبر مجموعات فسيفسائية عرفتها الحضارة الإنسانية[٥]. ولعل هذه الصناعة من أعز الفنون في فلسطين، وخاصة بعد أن حظيت القدس بإقامة أول صرح إسلامي كبير فوق الصخرة المشرفة إذ كانت زخارفه من الفسيفساء الزجاجي الملون، كما ازدهرت صناعة الفسيفساء في موقع إسلامي آخر في فلسطين وهو المعروف بقصر خربة المفجر أو قصر هشام، بالقرب من

مدينة أريحا، فكانت الأساليب على النماذج مشبعة بالحركة والحيوية، كما كانت متأثرة بالأساليب المحلية القديمة.

لقد كان العرب في بلاد الشام مؤهلين من الناحية الفنية ولهم في فنون تاريخهم الحضاري موهبة جمالية انطلقت من الجزيرة العربية لغة وأدباً وشعراً، وانسجمت في بلاد الشام مع متطلبات أدوار التاريخ على الصناعات الفنية التي انتظمت في معابدهم أو كنائسهم أو قصورهم تسجل روائع خالدة في الآداب والفنون الإنسانية. وحفظ لنا التاريخ نماذج نادرة في صناعة الافسيفساء في كم مأدبا وجرش وبيسان وبيت لحم وإنطاكية والشهباء وتدمر وغيرها، وكان لا بد من قيام مدرسة فكرية وجمالية جديدة تحتل موقعها المناسب على جسم الحضارة الإسلامية الجديدة في المنطقة.

فسيفساء قبة الصخرة في القدس ٧٢هـ | ٦٩١م.

تعتبر الفنون والزخارف الجدارية المصنوعة من الفسيفساء داخل بناء قبة الصخرة في القدس من الأمثلة الفريدة لأصول فن الزخرفة في العمارة الإسلامية. و لم تكن هذه الزخارف نماذج خيالية أو عشوائية بل كانت ذات منطق إسلامي صريح نابع من فلسفة الإسلام ومنسجمة مع نهج الرسول الكريم. ولعل المهندسين الذين وقفوا على زخرفة بناء قبة الصخرة، من حيث التوزيع الملائم للبناء، أو من حيث المواضيع، أو من حيث الأسلوب، قد أدركوا القيمة المعنوية لهذا البناء، فعملوا بذلك على وضع الأصول المناسبة للزخارف الإسلامية وخاصة ضمن بناء ديني له اعتباره الروحي الكبير[٦]. ولذا كان لا بد من الحيطة والحذر لكي لا يقع خطأ ما يتنافى مع التعاليم الإسلامية أو يتعارض مع ذوق المسلمين.

ولما كانت مدرسة الفنون العربية قبل الإسلام تزخر بنماذج فنية، ذات طابع ديني، كثيرة ومتشعبة، كان لا بد من ابتكار مدرسة جديدة للفنون الإسلامية، لها شخصيتها المستقلة ولها طابعها الخاص المميز عن بقية المدارس والأساليب التي شهدتها المنطقة عبر تاريخها الطويل. وبالفعل تم استنباط نماذج جديدة شكلاً ومضموناً لتناسب العقيدة الإسلامية ولكي تعكس الشخصية المستقلة للدولة القوية القائمة.

كانت جدران بناء قبة الصخرة الداخلية هي المكان المناسب لتطبيق الأفكار والأساليب الفنية الإسلامية الأولى. وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٥). فمن حيث نوع الفسيفساء فقد تم اختيار النوع الزجاجي والملون بالألوان الرئيسية ومشتقاتها، بالإضافة إلى قطع صغيرة من الصدف، أما من حيث المواضيع فقد تم اختيار نماذج نباتية خالصة، أو متحدة كالشجر الكثيف الأوراق والقليل الأغصان الذي ينطلق من منابت خصبة، أو بشكل مزهريات محشوة بالأغصان والأزهار، أو لفائف متسلقة من الأغصان المنتشرة على مساحات واسعة بشكل لولبي متكرر. أما المواضيع الأخرى فكانت النماذج الهندسية المتكررة التي اعتمدت الإطارات الهامشية المحيطة بالمناظر المصورة. ومن المواضيع الأخرى الشائعة ما يسمى بأسلوب (الأرابسك)، حيث كان التوزيع الهندسي هو الهيكل للنماذج النباتية أو بالعكس.

أما أسلوب هذه اللوحات الفسيفسائية فلقد اعتمد المركزية لكل موضوع ولعل التوازن والتناظر في توزيع الشكل كان أسلوباً تقليدياً، كما أن الأسلوب قد اعتمد مبدأ المبالغة والتكرار وملء الفراغ والجمود والابتعاد عن العمق الفني. لوحة ٣.

إن النماذج النباتية تمثل القسم الأكبر من لوحات الفسيفساء الزجاجية الملونة. إن هذه النماذج تمثل أغصاناً وأوراقاً وأزهاراً وثماراً ضمن شريط طويل له إيقاع فني جميل، ولعل التناظر في توزيع الأغصان أو الأوراق أو الثمار على النموذج الواحد يوحي وكأننا حيال الأوزان الشعرية المنتظمة والمنسجمة التوزيع. وكثيراً ما نلاحظ أغصاناً منتظمة الحركة تنطلق من مركز محدد ثم تتوزع باتجاه واحد أو باتجاهين متناظرين أو بحركة دائرية منتظمة تمكن الفنان من تعبئة الفراغ. (لوحة ٤،٥).

إن هذا الأسلوب يمثل ظاهرة صوفية في الفن الإسلامي فهو يستقطب المسلم روحياً ويعزله تماماً عن مظاهر الحياة المادية. لقد سيطر على رواد الفنون الإسلامية شعور عميق ضد تصوير جميع المخلوقات ذات الأرواح، ولعل هذا الشعور ينسجم مع آراء الرسول الكريم نحو الصور والمصورين، كما كان شبح الوثنية لا يزال ماثلاً للذاكرة حين ساد الاعتقاد بأن رسوم المخلوقات كانت تحتوي على الأرواح ولها امتيازات خاصة وطقوس خفية شجعت السحر والخرافات(٧).

لقد نجح الأوائل في الفنون الإسلامية في وضع أسس فنية جديدة ليس للمسلمين فحسب بل للحضارة الإنسانية كلها. ولعل زخارف الفسيفساء الجدارية المصنوعة من الزجاج الملون كانت عنصراً جيداً لإثبات هذه الحقيقة داخل بناء قبة الصخرة في القدس. إن دخول الضوء الطبيعي من نوافذ الجدران والقبة كانت كفيلة لأن تجعل المكان قبة ساطعة بالنور المتشابك مع ألوان طيف الشمس وبقية الألوان. وهذا بطبيعة الحال، يجلب المسرة والراحة والاعتزاز في نفوس المصلين داخل البناء. (لوحة ٦،٧).

نلاحظ توزيع النماذج والوحدات الفنية على واجهات الجدران الداخلية وعلى الأقواس المحمولة وعلى عنق القبة الداخلي المطل على الصخرة المشرفة. بينما تم تغطية بقية الأجزاء بصفائح من الرخام المعرق والملون المصقول. ويمكن لنا وضع الخصائص الفنية للرسم الإسلامي من خلال دراستنا لجميع النماذج الفنية في بناء قبة الصخرة. إن الخصائص الفنية قد انحصرت ضمن هذه الشروط:

١ ـــ انطلاق المنظر من مركز اللوحة.

٢ ـــ التوزيع المتناظر حول النماذج المصورة.

٣ ـــ انتشار الأغصان بطريقة التموجات المنتظمة لتعبئة الفراغ في اللوحة.

٤ ـــ الأشكال والخطوط الهندسية ذات طبيعة نباتية، أو النباتات تتوزع بشكل هندسي.

٥ ـــ الجمود والسكون يسيطران على معظم المناظر الفنية.

٦ ـــ المبالغة الغير طبيعية في التوزيع النباتي من حيث الحجم أو اللون.

٧ ـــ الاعتماد على البعد الأول في التصوير.

٨ ـــ خلو الأشكال البشرية وكافة صور المخلوقات من اللوحات والمناظر الفنية.

اعتمدت الفنون والزخارف الإسلامية في معظم صناعاتها على المهارة في الرسم، ولا بد أن تتم عملية الرسم قبل المباشرة في صناعة أي عمل فني[٨]. لقد كانت خصائص الفنون الإسلامية المبكرة في فلسطين وفي أقاليم بلاد الشام الأخرى تخضع لمعظم الشروط التي تم حصرها، وخاصة في فنون بناء قبة الصخرة في القدس. غير أن هذه الشروط لم تستمر طويلاً بعد الخليفة عبد الملك بن مروان، ولنا من المعالم الفنية الكثيرة التي خلدها أبناؤه الوليد وهشام ما يخرج عن القاعدة الفنية وحتى ما هو خارج عن التعاليم والتقاليد

الإسلامية[9]. غير أن الزخارف المجردة وذات الأسلوب المشترك بين الأشكال النباتية والهندسية بقي محافظاً على حاله ومستمراً ونشيطاً عبر العصور الإسلامية كلها، وهذا الأسلوب دفع كثيراً من مؤرخي الفن إلى تسميته بـ (الأرابيسك) أي الفن العربي الذي تناوله الفنان المسلم في جميع أقطار العالم الإسلامي بدون استثناء[10]. لوحة (٧،٨).

وفي زخارف بناء قبة الصخرة، كانت أهم الخصائص تنصب على اختيار مركز اللوحة ومحورها، فكان غالباً ما يتكون من شجرة أو مشربية تنطلق منها الأغصان والأزهار والأوراق ويتم توجيه هذه الأغصان بطريقة متناظرة ومنتظمة، تحقق انتشاراً طبيعياً في أنحاء اللوحة والمكان. كما استعمل الفنان نماذج من أوراق الخرشوف البري (الأكانتوس) وقد تمكن من تحقيق صورة طبيعية لهذه النباتات بواسطة عناصر الضوء والظل في الرسم، فكانت أوراق الخرشوف تبدو يانعة وندية تنطلق منها أغصاناً متموجة بشكل لولبي منتظم. وبهذه النماذج وهذه الخصائص تم توزيع المناظر النباتية المرسومة على جدران بناء قبة الصخرة الداخلية كلها. ولا شك أن استعمال الفسيفساء الزجاجي والصدف قد جعل لهذه اللوحات بريقاً خاصاً يجمع بين عفوية المنظر وبين صخب الألوان الحادة والمتعددة.

وزيادة في تأكيد قداسة المكان ونقاء الزخارف تم تخصيص إطار امتد على قمة الجدران الداخلية يحتوي على آيات من القرآن الكريم، وقد تضمن هذا الشريط كتابة تذكارية تشير إلى الباني وسنة البناء. ورغم أن سنة البناء قد سجلت السنة ٧٢ للهجرة غير أن تحريفاً لاسم الباني قد حصل في وقت لاحق حيث تم استبدال اسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان باسم الخليفة العباسي المأمون. إن الشريط الكتابي المشار إليه يمثل نموذجاً لأقدم أساليب الكتابة العربية الإسلامية، وهو الأسلوب الكوفي البسيط الذي ازدهر في الكتابات الإسلامية المبكرة. وقد بلغ طول هذا الشريط الكتابي حوالي ٢٤٠ متراً[11].

ذكرت بعض المصادر التاريخية الإسلامية أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أوعز إلى كل من رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام للإشراف على تنفيذ بناء قبة الصخرة وزخرفتها، وقد عرف من المصادر أيضاً أن أحدهما من مدينة القدس والآخر

من مدينة بيسان في فلسطين. لا بد أن لهذين المشرفين علاقة وثيقة بأعمال التصميم والتنفيذ(١٢). نلاحظ في تاريخ العمارة القديمة أن بعض الأشخاص قد اقترنت أسماؤهم ببناء العمائر الضخمة كما في تاريخ العمارة الرومانية أو البيزنطية وحتى في تاريخ العمارة الإسلامية فيما بعد، ومن هنا نلاحظ الصفة الخاصة لمثل هؤلاء في التصميم أو التنفيذ للعمائر التي اقترنت أسماؤهم معها.

وخلاصة لمفهوم الفن الإسلامي المبكر في زخارف قبة الصخرة الداخلية نلاحظ أن الفنان العربي المسلم قد استمد من تراثه القديم أسلوباً خاصاً وجديداً ينسجم مع الفلسفة والتقاليد الإسلامية بحيث استطاع أن يضع المسلمون داخل هذا البناء في جو خاص مفعم بالطبيعة المجردة ذات الألوان الزاهية والبريق الحاد، وكأنه قصد هذا الأسلوب تحويل المكان إلى جنة أو حديقة غناء. فالأشجار والأغصان والأزهار والثمار كلها عناصر ذات طابع شمولي مجرد، وبعيدة عن المظاهر المادية الخاصة بالإنسان. ولطالما كانت هذه العناصر الفنية مبادرة رائدة في كافة الفنون الإسلامية في مختلف العصور.

الفنون والزخارف في خربة المفجر (قصر هشام) (٧٢٤ ـ ٧٤٣).

بالقرب من مدينة أريحا تم اكتشاف قصر أموي كبير يدعى خربة المفجر. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين اسم قصر هشام. ويتكون هذا القصر من مجموعة من المباني والغرف والساحات، وهي بمثابة قصر الخليفة الخاص والحمام والمسجد وتوابعها. كما كان يحيط هذه المباني جميعها أسوار محصنة بالقلاع والأبواب، وقد تم توزيع هذه المرافق توزيعاً هندسياً محكماً انسجم مع الأسلوب الأموي الشائع في عمارة بلاد الشام. ولعل بناء هذا القصر من حيث التنظيم الهندسي أو من حيث الموقع يعكس رغبة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، في الاستقلال عن حياة المدن الكبيرة والابتعاد عن شتاء العاصمة البارد، ولقضاء فصول الشتاء على سواحل البحر الميت، وقرب حدائق أريحا الدافئة(١٣).

ويبدو أن الدولة الأموية قد جهدت في استقطاب خيرة المهندسين والنحاتين والفنانين لبناء هذا القصر وجعله قمة في الفنون الإسلامية. لقد شهدت ساحات هذا القصر وأرضيات معظم المرافق أكبر ساحة مرصوفة بالفسيفساء الحجري والرخامي الملون

على سطح الأرض. ولوحظ أن زخارف الفسيفساء الأرضية قد أكدت المقدرة الكبيرة التي عرفها الإنسان العربي في فلسطين، منذ عدة أجيال. لقد تم توزيع أرضيات القصر الخاص بالاستقبال وكذلك أرضية الحرم الضخم توزيعاً هندسياً جذاباً بحيث كانت مرصعة على الأرض وكأنها مجموعة من السجاد المزخرف، والمفروش بانتظام في جميع الأماكن. وكان لكل سجادة أسلوب خاص في زخرفتها، ولو أن جميع هذه الزخارف كانت تعتمد الأسلوب الهندسي الخالص. لقد أصبح الأسلوب الهندسي يمثل اتجاهاً جديداً في تاريخ الفنون الإنسانية تبناه المسلمون طوال تاريخهم الحضاري. ولا شك أن اعتماد الأسلوب الهندسي في زخارف الصروح الإسلامية قد فتح آفاقاً جديدة ومتعددة في الفن الإسلامي، كما أكد مقدرة العرب العلمية والفنية. ولعل الأسلوب الهندسي كان هدية العرب لحضارة الدولة الإسلامية الناشئة.

إن زخارف الفسيفساء الأرضية في خربة المفجر تمثل طابعاً هندسياً عاماً (لوحة ١١)، ولكن طبيعة هذه الأشكال والخطوط كانت تتكون من عناصر أو نماذج فنية صغيرة وهي في معظم الحالات من النباتات أو الأزهار. ولذلك اقتضى الأمر أن تكون هذه العناصر الصغيرة من حجارة الفسيفساء الصغيرة جداً. ففي بعض اللوحات نجد أن مساحة ١٠ سم٢ منها تحتوي على ١٦٥ قطعة من الفسيفساء وأحياناً نجد ٦٠ قطعة في مثل هذه المساحة، وبطبيعة الحال تكون الحجارة أو القطع صغيرة في الحجم كلما كان النموذج المرسوم دقيقاً ومعبراً(١٤).

تمكن الفنان المسلم في خربة المفجر من تحديد أنماط الأشكال الهندسية في زخلوف الفسيفساء، فانطلق يرسم المثلث والمربع والمستطيل والشكل الخماسي والسداسي والسباعي والثماني، وكذلك الدائرة أو أجزاء منها، وقد تمكن أيضاً من دمج هذه الأشكال مع بعضها بشكل دقيق، وهذا العمل جعل الأشكال المحدثة غزيرة ومتنوعة. وربما يتصور أحدنا أن الأشكال الناتجة عن تقاطع الخطوط هو عمل بسيط يعتمد على التكرار، ولكن في الواقع أن هذا العمل يحتاج إلى دقة متناهية في الحساب والهندسة حتى يتمكن الفنان من استنباط نماذج جميلة تستحق الثناء والتقدير. وبالإضافة إلى الأشكال الهندسية كان هنالك مجموعة كبيرة من الأشكال الفنية الأخرى مثل اللفائف الحلزونية

والشبائك والجدائل والأشكال الصدفية والأشرطة المتموجة، وكذلك بمجموعات كبيرة من نماذج الورود والأوراق والثمار، وقد ساهمت الألوان المتعددة في تحقيق مستوى جيد من التعبير والأداء الفني وخاصة في إبراز طبيعة الضوء والظل على هذه النماذج[١٥].

وفي خضم هذا العدد الكبير من اللوحات الأرضية التي تمثل الأشكال الهندسية الصامتة والنماذج النباتية المتعددة تم العثور على لوحة فريدة من الفسيفساء تمثل صورة شجرة ضخمة وقد ظهر تحتها أسد يهاجم ثلاثة غزلان[١٦]، ولعل هذا المنظر هو أول عمل فني إسلامي مصنوع من الفسيفساء يصور منظراً للمخلوقات ، كالأسد والغزلان (لوحة ١٢). وتعتبر هذه اللوحة هي المنظر الوحيد الذي تجاوز رسوم الزخارف في هذا القصر من حيث الأسلوب والموضوع، ولذلك اختلف عدد من مؤرخي الفن في تفسير أبعادها الفنية، وكما عزاها البعض إلى تفسيرات رمزية لقضايا اجتماعية أو سياسية، وخاصة لوجود هذه اللوحة في قاعة الديوان الخاص بحمام الخليفة[١٧]. إن الأسلوب الفني الإسلامي لا يشابه الأسلوب الفني الغربي في تصوير الأفكار بالرموز. لقد كان الفنان المسلم بعيداً في سعيه هنا عن إبراز أي صيغة للرمزية و لم يكن سعيه في الواقع إلا البحث عن الجمال الصوفي والتكامل الفني الذي يعكس مقدرته على الإبداع والتجديد.

لقد كانت مدارس فنون الفسيفساء في كل من الأردن وفلسطين تعكس المقدرة والمهارة الفنية من جهة وتعكس أبواباً متعددة في المواضيع الدينية والأدبية من جهة أخرى. ومن خلال استعراضنا للفنون العربية المسيحية التي شاعت في كل من مأدبا وجرش وبيسان وبيت لحم يمكن لنا متابعة التنويع في الأساليب والمواضيع ضمن الإطارين الديني والأدبي. ومع ظهور الإسلام في فلسطين وبقية أقاليم بلاد الشام نلاحظ أن الفنون قد تم ضبطها في البداية ضمن إطار محدود ينسجم مع الفلسفة الإسلامية والتعاليم الدينية.

ويبدو أن الفنون في خربة المفجر قد تجاوزت الإطار المشار إليه، وقدمت نماذج مذهلة في الفنون الجديدة على مواد مختلفة من الفسيفساء أو الجبصين أو الحجارة أو الرسوم الزيتية. لقد تجاوزت فنون خربة المفجر كثيراً من القيود وخاصة فيما يتعلق بتصوير المخلوقات ولا شك أن الرسوم الزيتية الموجودة على جدران قصير عمرة شرقي

عمان كانت البداية الأولى الجريئة لمثل هذا التجاوز[١٨]. وشملت رسوم هذا القصر صوراً متعددة من الواقع والخيال للمخلوقات الآدمية والحيوانية وسواها، فكانت صورة الخليفة ورسوم ملوك العالم ورسوم النساء السافرات ورسوم الحيوانات والطيور وغيرها. ويبدو أن التجربة الأولى في إخراج الفنون الإسلامية عن صمتها قد تمت في قصير عمرة بالأردن، وقد تم متابعة النشاط الجديد وبشكل موسع وكبير في خربة المفجر بفلسطين. لقد احتوى قصر خربة المفجر أنواعاً متعددة من الصناعات الفنية وكانت لوحة شجرة البرتقال والغزلان من أول النماذج التي تصور المخلوقات على أرضية الحمام الفسيفسائية.

ومن المواد الجديدة التي أدخلها الفنان المسلم في فلسطين هي مادة الجبصين، فقام بتغطية جدران القصر الداخلية بألواح كبيرة تمثل زخارف من الجبصين المحفور (لوحة ١٣، ١٤) أو المصنوع ضمن قوالب خاصة تمثل تشكيلات هندسية ونباتية متنوعة[١٩]، وقد تم ترميم أقسام كثيرة منها. ولم يكتف بهذه النماذج بل توسعت الفنون في إنتاج نماذج للإنسان والحيوانات والطيور، وعلى سبيل المثال كان لتمثال الخليفة هشام، وهو يقف فوق قاعدة عليها أسدين، ضجة كبيرة في تاريخ الفن الإسلامي، ولأول مرة يبدو خليفة مسلم في تمثال من الجبصين وهو واقف يرتدي حلة (لوحة ١٦) مهيبة ويضع يده على مقبض سيفه، تماماً كما هو مألوف في رسوم والده الخليفة عبد الملك بن مروان[٢١] على واجهات النقود الأولى التي صكها في دمشق سنة ٧٦ ـ ٧٧هـ. وفي أرجاء قاعات القصر والحمام نجد نماذج خيالية للأطفال والنساء وللطيور والحيوانات وكل منها يأخذ موقعاً مناسباً مع هندسة المكان وغايات استعماله. (لوحة ١٥).

إن العناصر الفنية لزخارف الجبصين في خربة المفجر متعددة جداً وبهذا يمكن لنا القول إن الفنان العربي المسلم في فلسطين قد أثرى الفنون الإسلامية المبكرة بأكبر مجموعة فنية من حيث المادة والموضوع والأسلوب. وباعتبار قصر الخليفة هشام قد أسهم في وضع مادة الجبصين لاستعمالات إنشائية وزخرفية في العمارة الإسلامية، ومنه انتشر إلى بلاد الشام كلها. ولوحظ أن الأساليب الفنية التي ابتكرها الفنان المسلم في فلسطين قد عزاها بعض مؤرخي الفن إلى مصادر أجنبية.. فأحياناً يتم ربطها مع الفنون الكلاسيكية وأحياناً

تم ربطها مع الفنون الفارسية وبحماس كبير[٢٢]. وللأسف تم تجاهل مقدرة الإنسان العربي في إنتاج هذه الأساليب الراقية التي سبق وشوهدت في نماذج الفسيفساء والحجارة والمعادن التي أبدعها العرب قبل الإسلام بفترة ليست بعيدة. لم يكن الفنان العربي في فلسطين بعيداً عن المدارس الفنية العربية التي شاعت في كل أقاليم سورية إبان الحكم الروماني والبيزنطي. فقد ساهم مساهمة نشيطة ومباركة في وضع الخطوط العريضة لصناعة الفنون الإسلامية منذ ايام الإسلام المبكرة.

زخارف بناء المسجد الأقصى

شهد بناء المسجد الأقصى في القدس عدة تغيرات وإضافات عبر أحداث التاريخ التي شهدها فلسطين. ولا شك أن أساس البناء أموي يعود تاريخه لأيام الخليفة الوليد بن عبد الملك، وشهد البناء توسيعاً في بداية العصر العباسي (لوحة ١٧)، واستمر التجديد والإعمار فيه أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وقد كان البناء ضحية لتغيرات شاملة إبان احتلال الفرنجة لمدينة القدس من سنة ١٠٩٩ ولغاية ١١٨٦. ولعل الاحتلال الفرنجي قد أتى على معظم المعالم الفنية التي أقامها الأمويون والعباسيون داخل هذا البناء، حيث استعمله الفرنجة مكاناً لإقامتهم ولمساكنهم ومخازن لقوتهم. ويبدو من الآثار والفنون التي سلمت من العبث مجموعة من الجسور الخشبية أو الدعائم المزخرفة التي أقامها الفاطميون عندما تم تجديد السقف أيام الخليفة الحاكم في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي[٢٣]. (لوحة ١٨،١٩،٢١).

تنحصر الجسور الخشبية الممتدة فوق تيجان الأعمدة بين صحون المسجد المتوازية، وتبلغ أطوال الألواح الخشبية هذه حوالي ١٣ متراً، وقد تم رسم الزخارف على واجهاتها المطلة على صحون المسجد وقوام هذه الزخارف الدهان الزيتي بألوان حادة تمثل زخارف نباتية وهندسية تتناسب أسلوباً مع الزخارف الأموية الشائعة في فلسطين، كما نجد في موقع آخر من المسجد ألواحاً خشبية كبيرة الحجم تم تغليفها بصفائح خشبية رقيقة من خشب الصنوبر وعليها نماذج في غاية الدقة والكمال. إن الصفائح المحفورة هذه تشكل مدرسة فنية إسلامية تمتد في جذورها إلى الأساليب المبتكرة في الفن

الإسلامي، وتعتبر هذه اللوحات من أجمل النماذج الإسلامية المحفورة على الخشب بشكل نافر وعميق[٢٤]. (لوحة ٢٢-٢٦).

إن أسلوب النحت على واجهات هذه الجسور الخشبية يمثل المركزية في كل لوحة، ويعتمد المنظر على مزهرية متوسطو تنطلق منها الأغصان والأزهار باتجاهات منتظمة يحكمها التوازن والتناظر. كان تنويع اللوحات يحافظ على الأسلوب العام من حيث التكرار في رسم النماذج أو التنويع في أشكالها. ولعل دمج الأسلوب النباتي بالأسلوب الهندسي يوفر فرصة كبيرة للتنويع أو التشكيل أو التكرار. إن الأشكال الفنية التي صممها الأمويون داخل بناء قبة الصخرة سواء من الفسيفساء أو على الألواح المعدنية تذكرنا بأصالة الأسلوب، وكذلك الأشكال الفنية التي وجدت بكثرة في الواح الجبصين بقصر هشام في أريحا، تؤكد العلاقة الوطيدة بين صانعي النماذج، فهم سواء في العصر الأموي أو العصر الفاطمي من أبناء فلسطين. أن التشكيلات الفنية التي تم حصرها في قصر هشام الأموي تعتبر المصدر الأصيل للفنون الإسلامية التقليدية. ونتيجة لمقارنة الزخارف والفنون الإسلامية المبكرة نلاحظ أن هذه النماذج متشابهة وكأنها مصنوعة بيد واحدة أو تحت إشراف فنان واحد. ولو أن التاريخ السائد لزخارف المسجد الأقصى الخشبية قد تم حصره في بداية العصر العباسي، وأحياناً في عهد الفاطميين، غير أنني لا أحيد عن القناعة بأن صانع هذه اللوحات الخشبية هو من أبناء أو أحفاد الفنانين الفلسطينيين الذين ساهموا في زخرفة بناء خربة المفجر في أريحا. إن الزخارف النباتية المنتظمة في لوحات الجبصين التي كانت تغطي جدران القصر الداخلية في خربة المفجر تتكرر من جديد في زخارف المسجد الأقصى المحفورة على جسور الخشب، وتتكرر التجربة ذاتها على صفائح من النحاس في بناء قبة الصخرة الذي بني قبل المسجد الأقصى وقبل خربة المفجر بعدة سنين. (لوحة ٧).

الفنون الإسلامية في العصور المتوسطة والأخيرة.

لقد ساهمت الفترة الأيوبية بجهود كبيرة في زخارف المباني الإسلامية وبشكل خاص مباني مدينة القدس. فقد حرص صلاح الدين الأيوبي على إعادة الأماكن الإسلامية إلى سابق عهدها، وقام بترميم وإضافة أقسام جديدة عليها، ولا شك أن عهده يتسم

بالإعمار والإصلاح فهو منقذ القدس ومحرر فلسطين، ولا بد أن تنعكس آثار دوره البطولي على المباني المقدسة والعزيزة على جميع المسلمين. كان من أول أعماله صيانة المسجد الأقصى وإزالة الأنقاض والأقسام التي أضافها الفرنجة داخل البناء. كما أمر بترميم أقسامه ورصف ساحاته وواجهاته بالرخام الجميل، ورصع بعض الأقسام بالفسيفساء المذهب والملون، كما جدد محراب المسجد وزخرفه بالفسيفساء وبالنقوش التذكارية وأهمها النص الذي خلده فوق المحراب وفيه الكتاب التالية[٢٥]:

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ٥٨٣ وهو يسأل الله إدامة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة)) .

ولعل أشهر آثار صلاح الدين في المسجد الأقصى هو إحضاره للمنبر المشهور (لوحة ٢٠)، الذي بناه نور الدين محمود قبل حوالي عشرين عاماً من تحرير القدس، والذي كان حلماً يراوده ليقدمه هدية إلى المسجد الأقصى يوم تحرير القدس، ولكن ذلك لم يتحقق إلا على يد صلاح الدين. وقد تم عمل هذا المنبر الجميل في مدينة حلب وبقي في مسجدها الكبير طيلة هذا الوقت بانتظار اليوم الموعود لوضعه داخل المسجد الأقصى، وقد حشد نور الدين لهذا العمل أشهر الصناع والنقاشين فكان مثلاً فريداً للفنون الإسلامية فهو مصنوع من خشب أرز لبنسان، وتم ترصيع أقسامه بالعاج والأصداف، كما تم ربط أجزاءه ربطاً محكماً بخيوط من الذهب والفضة، وقد نقش على جوانبه كتابات قيمة منها الكتابة التاريخية التالية[٢٦]:

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمته، الذاكر لنعمته، المجاهد في سبيله، المرابط لأعداء دينه، الملك العادل نور الدين، فكر الإسلام والمسلمين، ومنصف المظلومين من الظالمين، أبو القاسم محمود بن زنكي أبو سيف ناصر أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وأدام اقتداره، وأعلى مناه، ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه، وأعز أولياء دولته، وأذل كفار نعمته، وفتح له وعلى يديه، وأقره بالنصر، وارحمنا برحمتك يا رب العالمين، وذلك سنة ٥٦٤)) .

وهناك كتابة أخرى على جانب المنبر اليمنى، تجاه المحراب، كتب عليها الآية الكريمة التالية:

((بسم الله الرحمن الرحيم، في بيوت أذن الله أن رتفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغد والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة)) .

كما تم كتابة آية أخرى على جهة المنبر اليسرى جاء فيها:

((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)) .

هذا وقد أحيطت جوانب المنبر بآية الإسراء:

((سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير)) .

ولعل بناء المسجد الأقصى وما احتواه من آثار إسلامية فريدة تمثل سجلاً كاملاً لتاريخ الإسلام في فلسطين. ولما كانت معظم موجوداته الفنية من الخشب قامت الحركة الصهيونية بدفع عميل للقيام بحرق المسجد الأقبصى بتاريخ ٢١/ ٨/ ١٩٦٩، وذلك سعياً وراء طمس تاريخ العرب والمسلمين في هذا البناء العزيز[٢٧].

ومن جهة أخرى كان من أهم أعمال صلاح الدين تجديده لقبة الصخرة الداخلية، حيث تم تجديد الخشب وزخرفته بالنقوش النباتية وبالكتابات النافرة المطلية بماء الذهب، وقد كتب في القبة الداخلية[٢٨] (لوحة ٦):

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد وتذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العادل صلاح الدين يوسف بن أيوب تغمد الله برحمته وذلك في شهور سنة ست وثمانين وخمسماية)) .

استمرت أعمال الإعمار والبناء أيام حكم الأيوبيين (١١٧١ ــ ١٢٤٩)، واستمر الاهتمام في مباني القدس الإسلامية في أيام المعظم عيسى ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، ولكن الحركة المعمارية والفنية في فلسطين تضاعفت إبان حكم المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٦). لقد جدد هؤلاء الصروح الإسلامية المهمة في القدس، كما أقاموا

القلاع والحصون والمزارات والمقامات على أضرحة الأنبياء والصحابة والمجاهدين، وذلك احتراماً لهم ووفاءً لذكراهم، وسعياً لتوثيق الأمة بأرضها وتاريخها الحافل، ولنا من مقامات النبي صالح في الرملة، والنبي موسى بين القدس وأريحا، والنبي روبين في يافا، ووادي النمل في عسقلان، والمنطار في غزة وغيرها الكثير، حيث كان المسلمون يجتمعون حول هذه المقامات في المناسبات الدينية. لقد ترك المماليك كتابات ونقوش عديدة على معظم إنجازاتهم والتي تسجل لهم أعمالهم القيمة بأحرف من نور. ومن أهم هذه الإنجازات قلاع صفد ورأس العين ويافا وعمائر القدس وغزة ونابلس والخليل وطبريا والنبي موسى وغيرها من مدن فلسطين.

ولعل امتداد حكم المماليك على مصر وبلاد الشام طيلة قرنين ونصف من الزمان تقريباً قد ساهم في مضاعفة النشاط العمراني والتجاري، وهذا وفر للدولة إمكانيات مادية كبيرة للإصلاح وأعمال البناء. وهنالك أعداد كبيرة من المباني كالجوامع والزوايا والأضرحة والمدارس والجسور والبرك وغيرها من الآثار القيمة على أرض فلسطين، ومن أشهر السلاطين المماليك الذين اسهموا في رعاية الصروح والمباني في فلسطين كان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) الذي عرفته المنطقة كفارس شجاع وسلطان حكيم، وله يعود الفضل في بناء باب الأسباط في مدينة القدس حيث تم نحت صورة أسدين على طرفي الباب وهما شعار الملك الظاهر بيبرس وهذا الشعار موجود على معظم المباني التي أقامها بيبرس في فلسطين والأردن وفي مصر والشام[٢٩].

وفي ساحة الحرم الشريف نجد عدداً من المباني التي أقامها المماليك كالمآذن المربعة والأقواس والقباب المزخرفة كقبة المعراج المباركة[٣٠].

لقد ترك العهد العثماني آثاراً كثيرة في فلسطين، وكانت في مجملها صروحاً دينية وعسكرية ومرافق عامة كالمساجد والزوايا والمدارس والقلاع والأسوار والبرك، وقد تركزت معظم هذه المباني في مدينة القدس بصفة خاصة، وفي مدن الساحل الفلسطيني بصورة عامة. وقد مهد السلطان سليم (١٥١٢) حكم ولايات المشرق العربي لابنه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) الذي كان له دور عظيم في إقامة المباني وازدهار صناعة الفنون الزخرفية. ومن أشهر ما عرف عن السلطان سليمان اهتمامه

بمدينة القدس فجدد أسوارها وأبوابها، وزخرف بناء قبة الصخرة (لوحة ٩، ١٠) بأجمل أنواع الخزف الزجج والملون ذي التشكيلات النباتية والهندسية. لقد تذوق السلطان سليمان الفنون والزخارف الإسلامية وشجعها، وتأثر بالمهندسين والفنانين الأتراك المسلمين الذين أقاموا مصانع خاصة بالخزف في أنحاء متعددة من الأناضول. وفي ميدان العمارة كان على راس الهندسين العاملين في قصره المهندس سنان الذي أقام وصمم عدداً كبيراً جداً من المباني الدينية والمدنية المتنوعة في أرجاء الامبراطورية العثمانية(٣١).

إن تغطية واجهات بناء قبة الصخرة بالبلاط المزجج قد ساهم في حفظ البناء أولاً، كما جعل لبناء القبة منظراً سامياً خالداً يضاهي جمالها الداخلي، ويجعل من البناء جوهرة ساطعة في وضح النهار بتأثير انعكاس الشمس على البناء، وقد أضاف على الزخارف التقليدية كتابات قرآنية من البلاط المزجج أيضاً عليها سورة (يس) مكتوبة باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء غامقة. لقد كانت القبة والسقف مغطاة باشرطة من الرصاص غير أن ترميماً شاملاً قد تم للقبة الرصاصية باستبدالها بقبة أخرى من الألمنيوم المطلي بالذهب وذلك قبيل احتلال القدس عام ١٩٦٧.

لقد ساهم السلطان سليمان القانوني بتجديد النوافذ القديمة ووضع بدلها نوافذ مطلية بالذهب، كما جدد الأبواب الخارجية للقبة. ويبدو أن السلطان سليمان حشد فريقاً ضخماً من المهندسين لزخرفة البناء، وجاء في كتابة ذهبية فوق لوحة نحاسية موضوعة فوق الباب المعروف بباب الجنة جاء فيها:

((جدد بحمد الله قبة الصخرة من بيت المقدس الفائقة ببنائها في ظل دولة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم واسطة عقد الخلافة بالنصر والبرهان أبي الفتوح سليمان خان)) .

لقد لوحظ اهتمام ملوك وأمراء المسلمين وسلاطينهم تركز في مدينة القدس وذلك لقداستها الخاصة ولاعتبارها الأدبي في الدولة الإسلامية، فمنذ ظهور الإسلام كانت القدس ملتقى الأنظار بعد مكة والمدينة في قلب الجزيرة العربية، وعندما دب الضعف في الدولة العباسية وحدث الانقسام والتصدع في أقاليم الامبراطورية الإسلامية، بدأت القوى الاستعمارية تركز سهامها نحو القدس، وبالفعل كانت أوروبا تقذف

بجيوش الفرنج نحو القدس وبقية فلسطين في حملات مدمرة، فكان أولها احتلال القدس سنة ١٠٩٩، وكان آخرها سنة ١٢٩١ عندما سقطت مدينة عكا بايدي الجيوش الإسلامية، وكانت حينئذ آخر معاقل اللاتين في الشرق[٣٢].

ولم تقف الأحداث عند هذا بل كانت فلسطين وبقية المشرق العربي تتعرض لضربات مؤلمة من التتار والمغول القادمين من الشرق، وكانت معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ بداية لموسم جديد من الحروب في تاريخ فلسطين وبقية المشرق العربي، واستمرت الحروب مع المغول خلال حكم المماليك حتى بداية القرن الخامس عشر. ونتيجة لهذا الوضع المتأجج بالحروب الخانقة التي استمرت قرابة ثلاثة قرون من الصراع المستمر، أصبح إقليم فلسطين العربي ساحة قتال مستعرة انعكست نتائجها على طبيعة المباني والفنون، فأصبح الأسلوب العام للبناء يعتمد على المتطلبات العسكرية والاستراتيجية، وعليه كان مجال الفنون الزخرفية ضيق جداً في هذا المضمار. ولما أعلنت فلسطين إقليماً من أقاليم الامبراطورية العثمانية بدأت مدينة القدس تستعيد شخصيتها في مجال الفنون الإسلامية، ولنا من إنجازات السلطان سليمان القانوني خير مثال على اعتزازه بالمدينة الخالدة.

ولا شك أن الانجازات الفنية المتعددة التي خلدها المسلمون على الصروح والمباني المختلفة في فلسطين لدليل قوي على اعتزاز الأمة العربية والإسلامية بهذا الجزء العزيز طوال التاريخ الإسلامي. ولعل هذه الانجازات الفنية تؤكد الطاقة الكامنة التي تمتعت بها الأجيال العربية في فلسطين، وتؤكد الثقة بالعودة إلى ربوعها استناداً إلى سنة التاريخ...

الفخار والخزف الإسلامي في فلسطين

ازدهرت صناعة الفخار والخزف الإسلامي في فلسطين منذ إعلان الدولة الأموية في دمشق، حيث كانت أرض فلسطين والأردن من الأجناد العربية الإسلامية التي أقرتها الدولة الإسلامية منذ ايام الخليفة عمر الفاروق[٣٣].

وبطبيعة الحال كانت الصناعات العربية في فلسطين إبان الحكم البيزنطي على بلاد الشام تلبي حاجة المجتمع، واستمر إنتاج هذه المواد في مدن بلاد الشام الكبرى، وقد

لمع في إقليم فلسطين في كثير من الصناعات والفنون الصغرى بشكل ملحــــوظ. لقــد ازدهرت صناعة الفخار الفلسطيني في العصور القديمة بحيث لعبت هــذه الصناعــة دوراً هاماً في تحقيق دراسات مستقصية عن التطور الحضــاري للإنســان العــربي في هــذا الإقليم[٣٤]. وأثناء مرحلة التأسيس للدولة الإسلامية (في العهدين الراشدي والأمــوي)، نلاحظ استمرار مراكز الصناعة في الانتاج، شأنها بذلك شأن كثــير مــن الصناعــات والعادات المألوفة منذ العهد البيزنطي وقبله. لقد استمرت الدولــة الإســلامية تراعــي الأوضاع والتقاليد العربية الموروثة في كثير من الصناعات، وتركت كثيراً مــن التقــاليد السائدة للظروف المناسبة. وعلى سبيل المثال، كانت التقسيمات السياســية للأقــاليم، ونظام الدواوين والإدارة، وكل ما له علاقة بالمظاهر المادية المألوفة، لا تتعارض مع طبيعـة الدين الإسلامي، واستمر استخدام كثير من هذه التقاليد حتى قيام الدولة الأموية. ومــع انتقال الحكم إلى دمشق، بدأت التغييرات الحاسمة تأخذ دوراً بارزاً في طبيعــة المجتمــع الإسلامي، وكان ذلك منذ ايام الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي استمر في اســتعمال النقود البيزنطية المعربة وانتهى إلى تعريبها في سنة ٧٦هـ/٦٩٥م، وهكــذا حصــل في الدواوين، وبكل ما يتعلق في تحديد هوية الحكم العربي الإسلامي.

أما فيما يتعلق بالصناعات الخفيفة كالفخار والمواد المعدنية وسواها فقــد بقــي محافظاً على أسلوبه العربي الكلاسيكي من حيث طبيعة المواد، وأحياناً من حيث طريقــة التشكيل. غير أن الإضافات وبعض اللمسات الفنية المضافة عليها أصبحت هي موضــع المراقبة والمتابعة بحيث لا يمكن قبول أي لمسات دينية أو رمزية على هــذه الصناعــات تتعارض مع فلسفة الدين الإسلامي ومفهوم الفن في المجتمع الإسلامي الجديد. ولهذا نجــد أن أنماطاً كثيرة من الخزف والفخار التي عايشت القرن السابع إبان الحكم البيزنطي، قــد تكرر إنتاجها واستمر في العهد الأموي، وعليه نجد أن المواصفات لهذه الصناعــات ذات طابع مشترك. غير أن الأسلوب الزخرفي والفني لهذه الصناعات قد تحول في القرن الثـامن إلى اسلوب إسلامي محافظ، عمادة التشكيل الهندسي والنباتي والكتابي. وقــد أظــهرت الحفريات في فلسطين نماذج جيدة للفخار الإسلامي المبكر[٣٥]. (لوحة ٢٧).

ومع انتقال العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد نجد أن أقاليم بلاد الشام، ومنها إقليم فلسطين، قد حافظ على الأسلوب الأموي، و لم تحدث خطوات جديدة في عالم هذه الصناعة التي كانت تزدهر بشكل ملموس في مراكز السلطة والخلافة والثروة.

وفي العصر العباسي ازدهرت صناعة الخزف والفخار، ووصل إلى أعلى مراحل الرقي مع تطور صناعته إلى الطلاء الزجاجي ذو البريق المعدني، وما انبثق عنه من أساليب متعددة في الرسم والتصوير فوق الطلاء أو تحته، فأصبحت هذه الصناعة الراقية تحظى برعاية الدولة المباشرة، وظهر في كل من العراق وإيران أسلوب إسلامي راق، امتاز بالسلوب المشترك لطبيعة الرسوم، كما ازدهر في سورية أسلوب مشابه للأسلوب العباسي، وكان مقره مدينة الرقة(٣٦).

وبعد ظهور دولة الأيوبيين ومن ثم المماليك في العصور الوسطى، اتخذ الخزف الإسلامي أسلوباً بسيطاً اعتمد على التشكيل الهندسي والزخارف النباتية المحورة (اللوحات ٢٨،٢٩،٣٠)، هذا وقد عثر على أوان فخارية تحمل الكتابات التاريخية والرموز السياسية، وقد انتهجت هذه الصناعة أسلوباً بسيطاً وبدائياً وذلك نتيجة للحروب التي فرضها الغرب والشرق على المنطقة ممثلة بالحروب مع الفرنج أو مع المغول. ويمكن اختصار خصائص صناعة الفخار والخزف في العصور الوسطى بأنها اكتسبت طابعاً جافاً نتيجة للسرعة في إنجازها، ونتيجة لطبيعة الظروف السياسية والاقتصادية التي كانت تواجه أقاليم بلاد الشام في تلك الفترة. ولعل المواصفات الفنية في صناعة الخزف والفخار كانت مشتركة وذات طبيعة متجانسة في معظم أقاليم العالم الإسلامي وفي معظم العصور، وعليه نجد الفخار والخزف في إقليم فلسطين يمثل الأسلوب الإسلامي العام الذي ازدهر في أقاليم بلاد الشام والعراق. ويمكن أن نحدد مواصفات الفخار والخزف الإسلامي بشكل عام ضمن العناصر التالية:

١ ــ تجانس التشكيل من التراب الخاص.

٢ ــ التشابه في استعمال الأفران.

٣ ــ الصقل والطلاء بالألوان.

٤ ــ الزخارف بالدهان البسيط.

٥ ـــ الزخارف بالتشكيل المباشر على الأواني.

٦ ـــ استعمال الطلاء المعدني فوق أو تحت الرسوم التشكيلية.

أما الزخارف الخارجية، فقد اعتمدت الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية والكتابية والرموز والرنوك، كما ازدهر نقش الكتابات التاريخية والدينية بالتشكيل بالقالب أو باليد. وتكون الأواني المزججة متعددة الألوان أو ذات لون واحد، ويغلب عليها اللون الأزرق والأسود فوق الأرضية البيضاء، وتكثر الألوان الرمادية والبرتقالية والبنية والسوداء فوق الأواني غير المزججة والتي ازدهرت في الفخار الأيوبي والمملوكي.

وفي القرن السادس عشر استحدث الأسلوب العثماني أنواعاً جديدة من الخزف المزجج، وقد استمر الأسلوب الهندسي والنباتي والكتابي على نماذج الفخار والخزف العثماني. لقد كانت مصانع هذا الخزف قريبة من استانبول مركز الخلافة العثمانية، ومركز الثقافة والثروة في العالم الإسلامي. وقد أقيمت مراكز صناعة الخزف في كل من مدينة أزنك وقوتاهية، وكذلك في دمشق، وتم تصدير هذه الصناعة الثمينة إلى أنحاء العالم الإسلامي(٣٧). كما تم تغطية بناء قبة الصخرة في القدس بأرقى أنواع البلاط العثماني المزجج.

المراجع والملاحظات

(١) Duncan, Alistair, The Noble Sanctuary, portrait of a Holy Place Arab Jerusalem, Norwich, p22.

العابدي، محمود، **مأساة بيت المقدس**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمان ١٩٦٩، ص١٣.

(٢) سترانج، لي، **فلسطين في العهد الإسلامي**، (ترجمة محمود عمايري)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٧٠، ص٣٣.

(٣) يعتبر بناء قبة الصخرة في مدينة القدس أقدم صرح إسلامي قائم في العالم الإسلامي، راجع تفاصيل هذا البناء في

Creswell, K.A.C. Early Muslim Architecture, vol. 1,2, Oxford 1965,

Grabar, O., The Umayyad Dome of the Rock, Ars Orientalis, vol 3, 1959.

(٤) نلاحظ أن آثار الأمراء والخلفاء من أبناء الخليفة عبد الملك قد انتشرت في الصحـــراء الأردنية، وبادية الشام، مثل قصر عمرة وقصر البرقع وقصر المشتى والحلابات وقصر الحير، كمـــا نلاحظ الاهتمام الكبير في ربوع فلسطين عندما بنى الخليفة سليمان مدينة الرملة، وعندما ابتـــنى الخليفة هشام قصره الكبير في خربة المفجر قرب مدينة أريحا.

(٥) **Hamilton, R.W.** Khirbat al-Mafjar, **Oxford 1959,**

Creswell, Early Muslim Architecture, **vol I. Bagatti, "Significato dei musaici della scola di Madaba", Riv. di arch. crist., 1975. pp139.**

Krealing, C., Gerasa, City of the Dicapolis, **New Haven 1938, pp251.**

Avi Yonah, Q.D.A.P., **Vol II-III, 1933 1934. Saller - Bagatti, The town of nebo, Jerusalem 1949,**

Sejourne, P.M. "Madaba", Revue biblique, **1982.**

(٦) سترانج، لي، ص١٢٣ـــ١٤٠.

(٧) محمد حسن، زكي، التصوير عند العرب، القاهرة ١٩٤٢، ص١١٩، ١٢٨.

(٨)**Ettinghausen, R.** Arab painting, **Skira 1962. pp20.**

(٩) تعتبر الرسوم الزيتية الموجودة على جدران قصير عمرة بـــالأردن والمنســـوب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٧١١ من أقدم الرسوم التي تصور الأشخاص والمخلوقـــات في الفن الإسلامي، واستمر الخليفة هشام سنة ٧٢٤ في قصره المشهور قرب أريحا في فلســـطين في إبراز وتشجيع الصور والتماثيل.

(١٠) الأرابسك هو ابتكار جديد في فن الزخرفة الإسلامية، اعتمده العرب في صلـــب الفنون الإسلامية المبكرة، ويتركز هذا الفن على توجيه الأشكال النباتية وخاصـــة الأغصـــان والأوراق، وتوزيعها توزيعاً هندسياً دقيقاً وتتفرع وتمتد كالشبائك على مساحات كبيرة، وقـــد تم تنفيذ هذا الأسلوب على معظم الصناعات الفنية الإسلامية.

(١١) سترانج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي، ص١٢٣ ـــ ١٣٩.

Van Berchem, Corpus Inscriptionum Arabicum: **Syria du sud, p. 237, la caire 1920.**

(١٢) سترانج، ص١٤٥.

(١٣)**Baramki, D.C., "Excavations at Khirbat el-Mefjer"** Q.D.A.P. **vol V.VI, pp132.; pp157;**

Hamilton. R.W. Khirbat al-Mefjer, **Oxford 1959.**

(١٤)**Baramki, (Ibid), pp164.**

(١٥)**Hamilton, (Ibid), pp329; Baramki, (Ibid), pp157, pl, LXI, LXII.**

(١٦)**Hamilton, "A Mosaic Carpit of Umayyad date at Khirbat al-Mafjar"**, Q.D.A.P. **Vol XIV, pp120, pl. XLVI;**

Ettinghausen, R., Arab Painting, **pp36.**

(١٧)**Grube, E.**, The World of Islam, **pp26;**

Rice, D.T., Islamic Art, **pp56.**

(١٨) إن قصير عمرة أقدم من قصر خربة المفجر، فالأول يعود إلى أيام الخليفة الوليد الأول وربما بناه الوليد قبل أن يتولى الخلافة، أما الثاني فقد نسب إلى الخليفة هشام وللخليفة يزيد الثالث سنة ٧٤٤م.

(19) Hamilton, Khirbat al-Mafjar, **pp162.**

(٢٠)**(Ibid), pp 213, p1. LV.**

(٢١) العش، أبو الفرج، "النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن"، **المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام**، عمان الأردن، (بيروت ١٩٧٤) ص٢٦٧ — ٢٩١؛ الحديدي، عدنان، "فلوس نحاسية أموية من عمان"، **حولية دائرة الآثار الأردنية**، العدد ٢٠، ص٩—١٢.

(٢٢) يلاحظ على مطالعات الأستاذ هاملتون (مدير الآثار الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني) في مقالاته المتعددة في حولية الآثار الفلسطينية، وخاصة في كتابه (خربة المفجر)، ربطه للفنون والزخارف العربية الإسلامية بالفنون والمؤثرات الكلاسيكية الغربية، أو بالفنون والمؤثرات الفارسية والساسانية الشرقية. ويتكرر هذا الربط في كل مناسبة متجاهلا وجود أسلوب عربي وإسلامي محلي في المنطقة.

راجع:

Hamilton."The Sculpture of Living Forms at Khirbat al-Mafjar", Q.D.A.P., **vol.XIV, pp100.**

(٢٣) أشار عدد من المؤرخين المسلمين إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد بنى المسجد الأقصى، ولكن لم يذكر القدامى منهم أمثال البلاذري والطبري أي شيء عن ذلك. إن أقدموصف وصلنا عن المسجد الأقصى هو ما ذكره المقدسي عام ٩٨٥، أما التغيرات الكثيرة التي حصلت على هذا البناء الهام، وأهمها الزلزال الذي حدث في عام ٧٤٦، فقد ذكره المثير، وذكر أن الخليفة المنصور قد صلى في المسجد الأقصى، كما ذكر الطبري أن الخليفة المهدي قد صلى في الأقصى سنة ٧٨٠.

(٢٤)**Hamilton, R.W.,** The Strutual History of the Aqsa Mosque, **London 1949, pp74.**

(٢٥) سترانج، لي، ص١١٧؛ العابدي، محمود، **مأساة بيت المقدس**، ص٤٦. **Combe, Repertoire chro. Epi. Arabe, vol. IX. p159.**

(٢٦) العابدي، ص ٤٧ ـــ ٤٩،

(٢٧) تقوم لجنة إعمار المسجد الأقصى ووزارة الأوقاف الأردنية بمتابعة أعمال الصيانة والترميم في المسجد الأقصى، كما يقوم الفنان جمال بدران بإعادة تصميم منبر صلاح الدين، بعد أن أصبح المنبر بعد جريمة إحراق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ قطعاً صغيرة من الحطام المحروق.

(٢٨) سترانج، ص١٣٧.

(٢٩) غوانمة، يوسف درويش، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، عمان ١٩٧٩، ص ٦٩، ٨٣، حتي، فيليب (وآخرون)، تاريخ العرب (مطول)، ج٢، بيروت ١٩٦١، ص٧٩٣.

(٣٠)**Duncan, A., The noble sanctuary.., pp60.**

(٣١)**Duncan, (Ibid), pp64.**

(٣٢) حتي، تاريخ العرب، ص ٧٧٨ ـــ ٧٧٩.

(٣٣) حتي ، فيليب (وآخرون)، **تاريخ العرب**،(مطول)، ج١، ط٣، بيروت ١٩٦٩، ص٢٠٦ ـــ ٢٠٨.

(٣٤)**Lapp. P. W.** Palestinian Ceramic Chronology. **200B. C. A. D. 70.;New haven 1961.**

Albright, W.E., Archaology of Palestine, **London 1949. pp 65 -132.**

Kenyon. K. M., Archaology in the Holy Land, **New York 1960. pp58 -239.**

(٣٥)**Day, F.E.** "Early Islamic and Christian Lamps", **VII, 1942. pp 65.**

Johns .C.N. "Excavations of Pilgrims Castle Atlit" Q.D.A.P.I.1932. **pp137 -144.**

Philon. H., Early Islamic Ceramics, **Vol I, Athens, 1980. p7. fig 52.**

(٣٦)**Atil,** Esin ceramics from the world of Islam. **Washington., 1973. pp 2-11.**

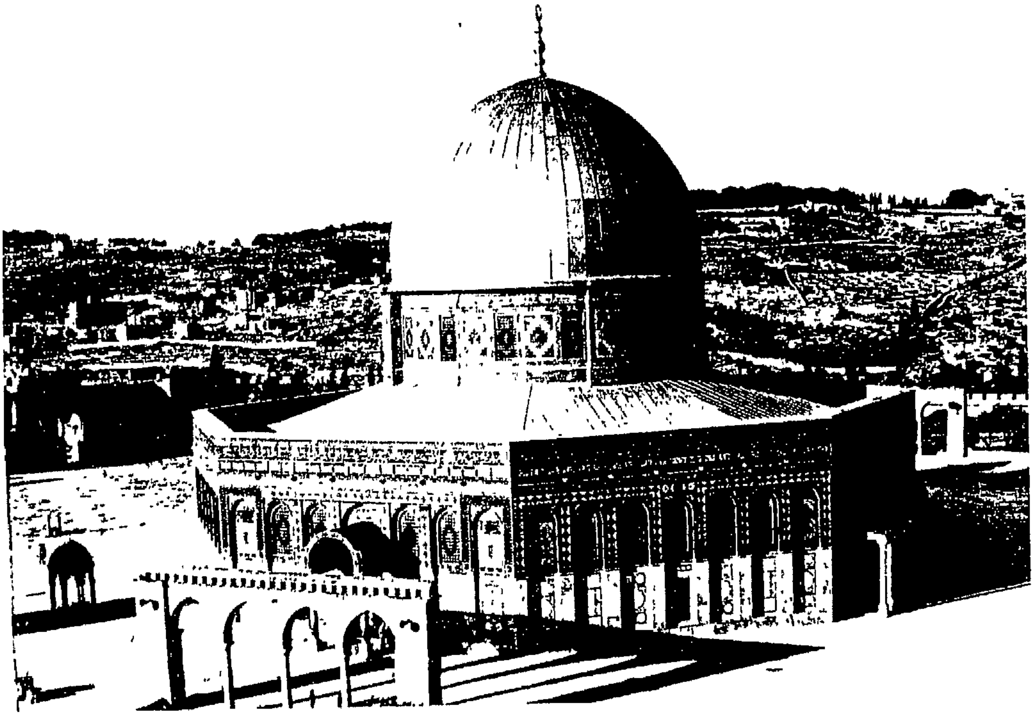
Grube, E, The World of Islam, **New York, 1966, pp35, 55, 101.**

(٣٧)**Aslanapa, O.** Turkish Art and Architecture, **London, 1971. pp 275 -285.**

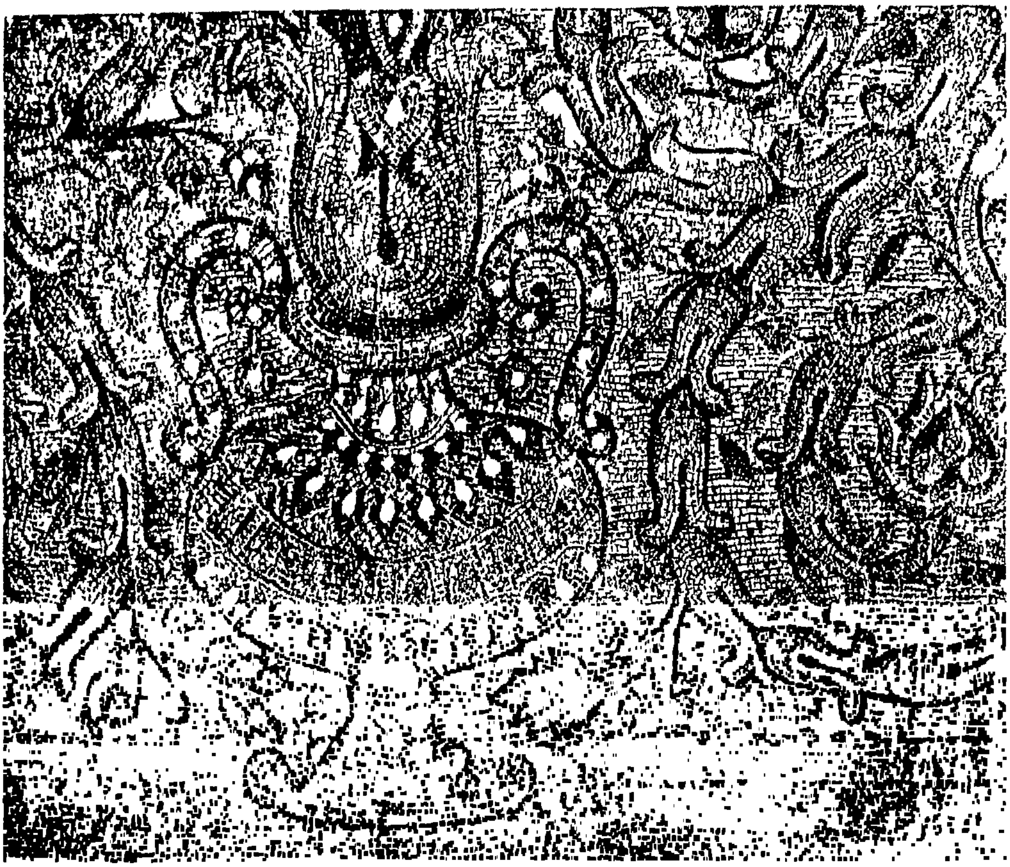
مرزوق، محمد عبد العزيز، **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني**، القاهرة ١٩٧٤، ص٨٥ ـــ ٩٥.



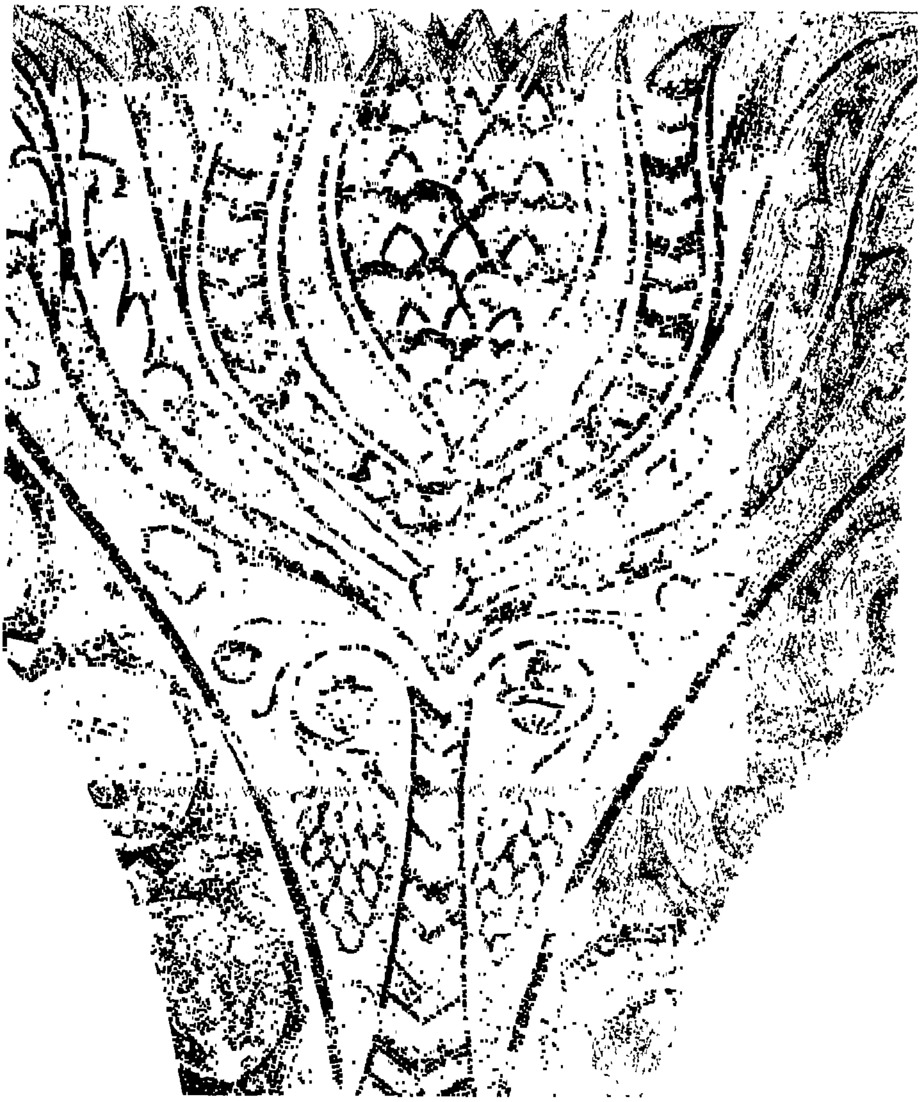
لوحة (١) منظر عام لساحة الحرم الشريف بالقدس.



لوحة (٢) بناء قبة الصخرة في القدس.



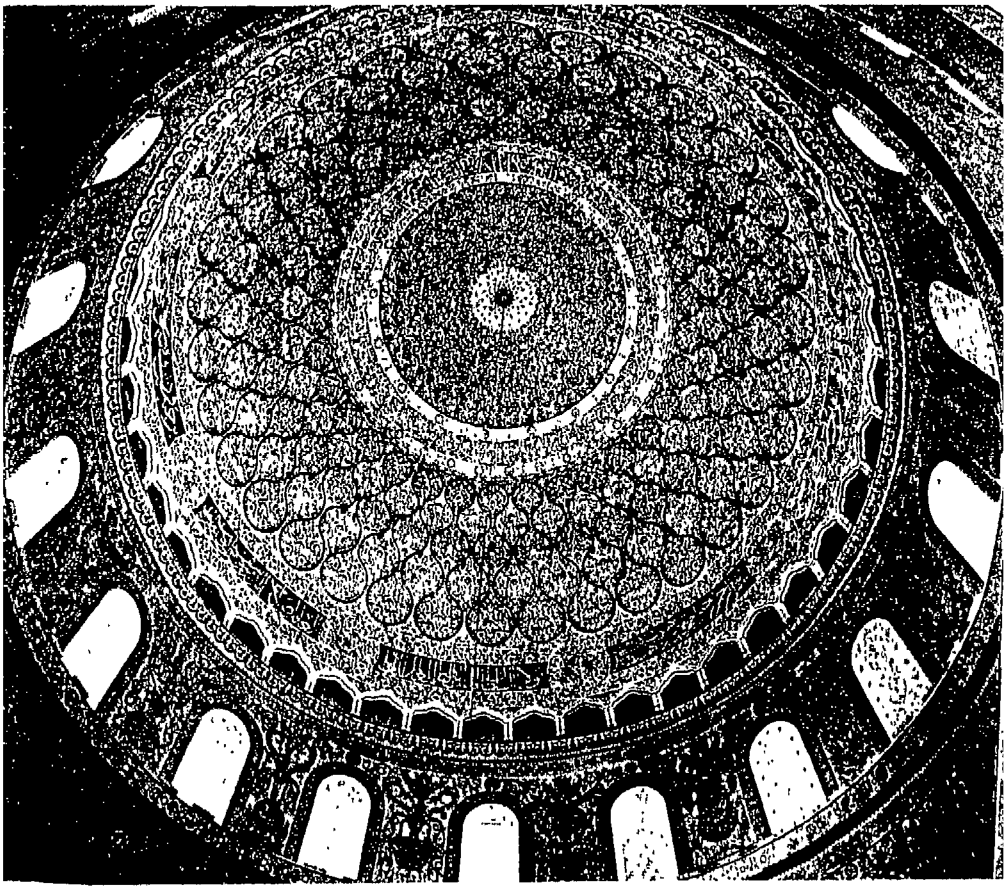
لوحة (٣) فسيفساء زجاجي ملون على جدران قبة الصخرة الداخلية.



لوحة (٤) فسيفساء زجاجي ملون في بناء قبة الصخرة.



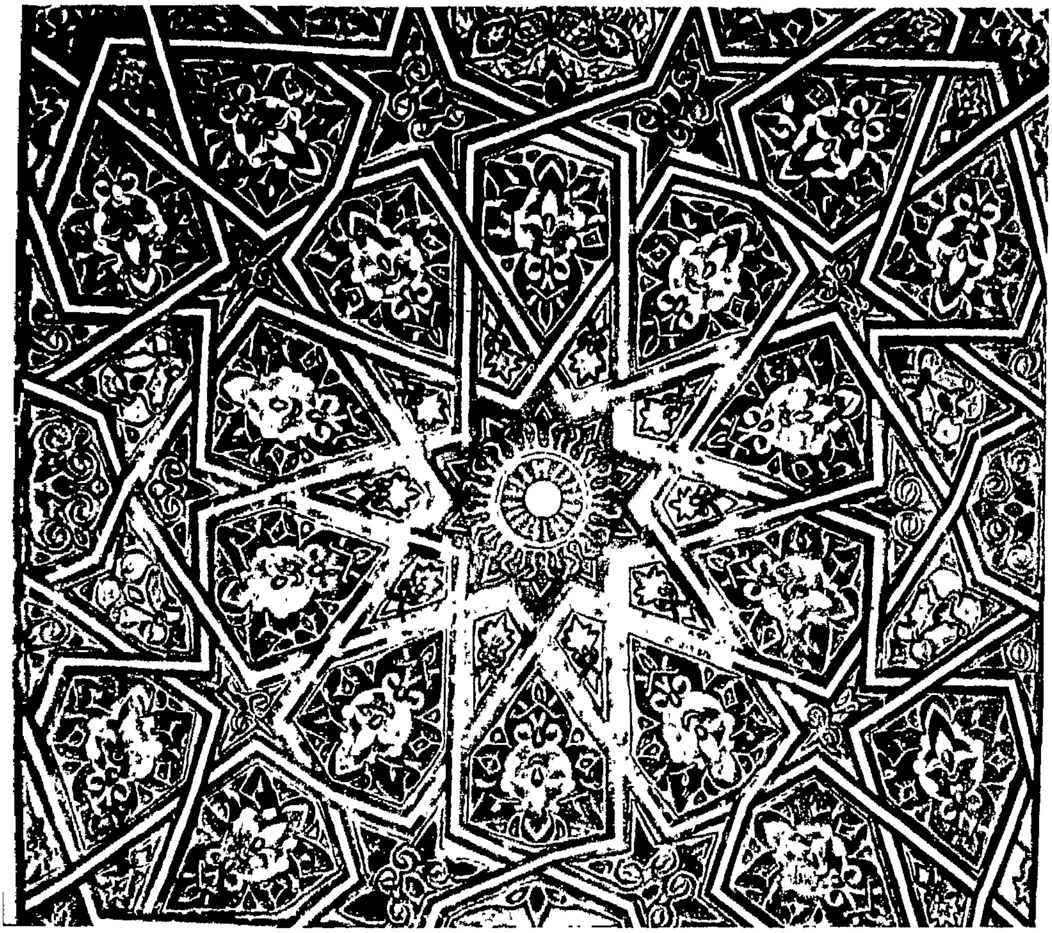
لوحة (٥) فسيفساء جداري داخل قبة الصخرة.



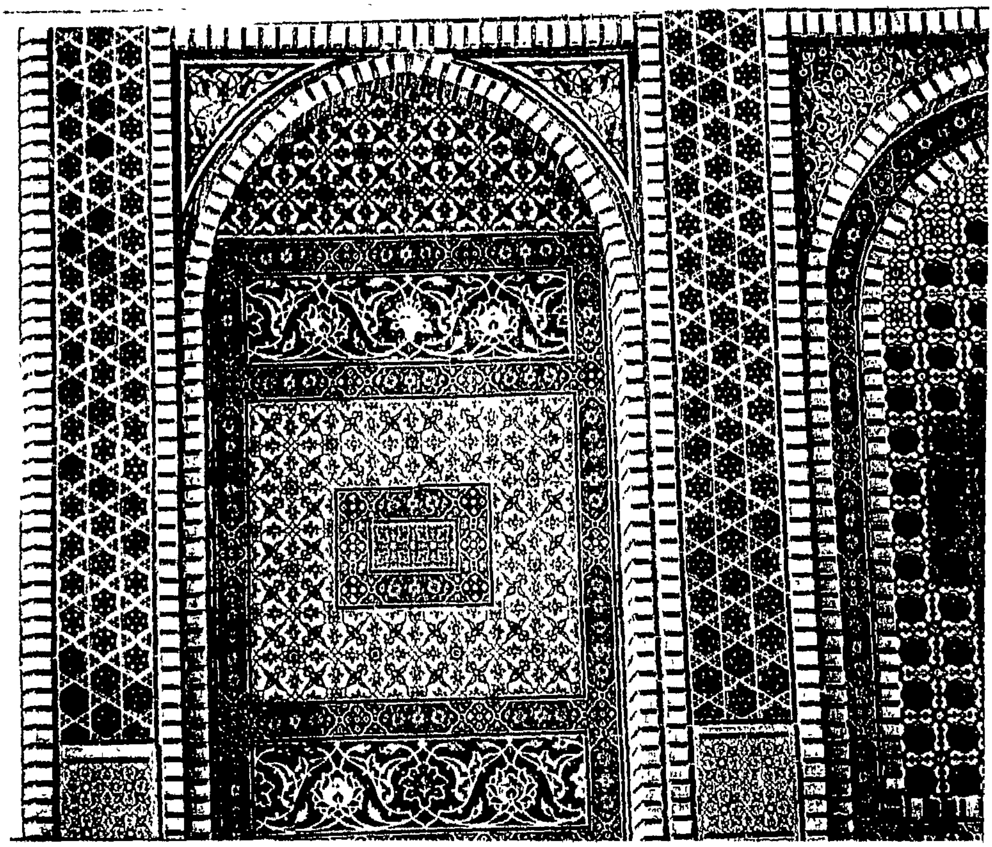
لوحة (٦) القبة من الداخل: قبة الصخرة في القدس.



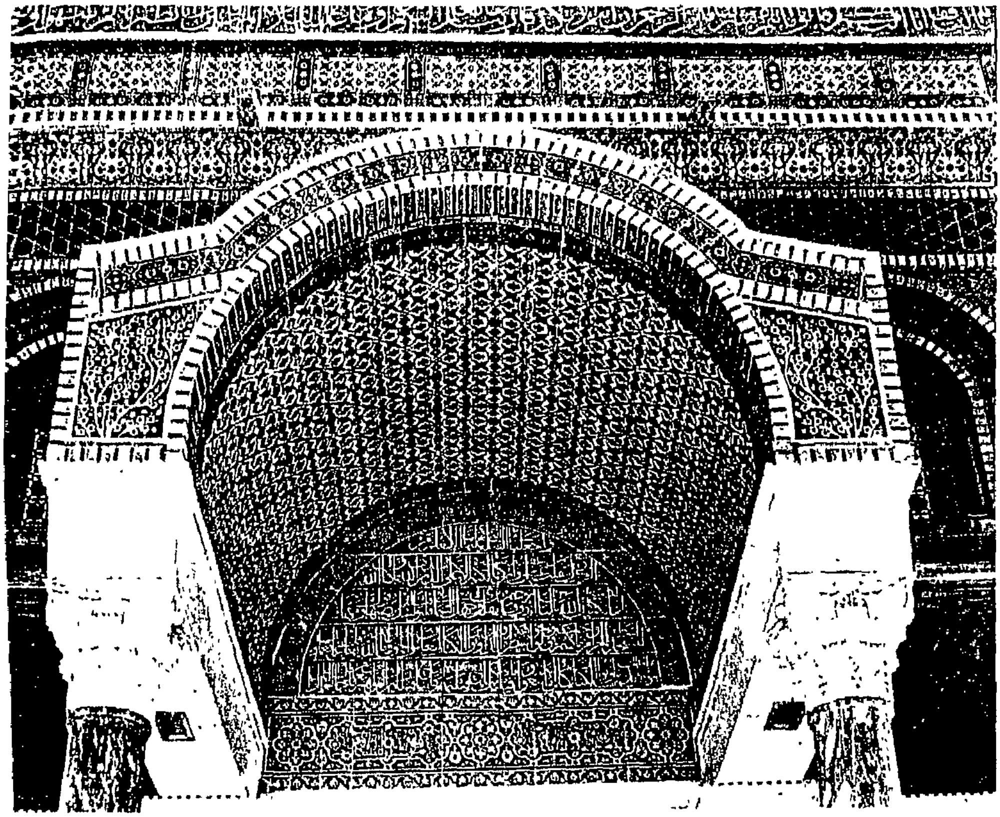
لوحة (٧) صفائح المعدن المطروق بالزخارف النباتية تغطي حلوق الجسور الداخلية في قبة الصخرة.



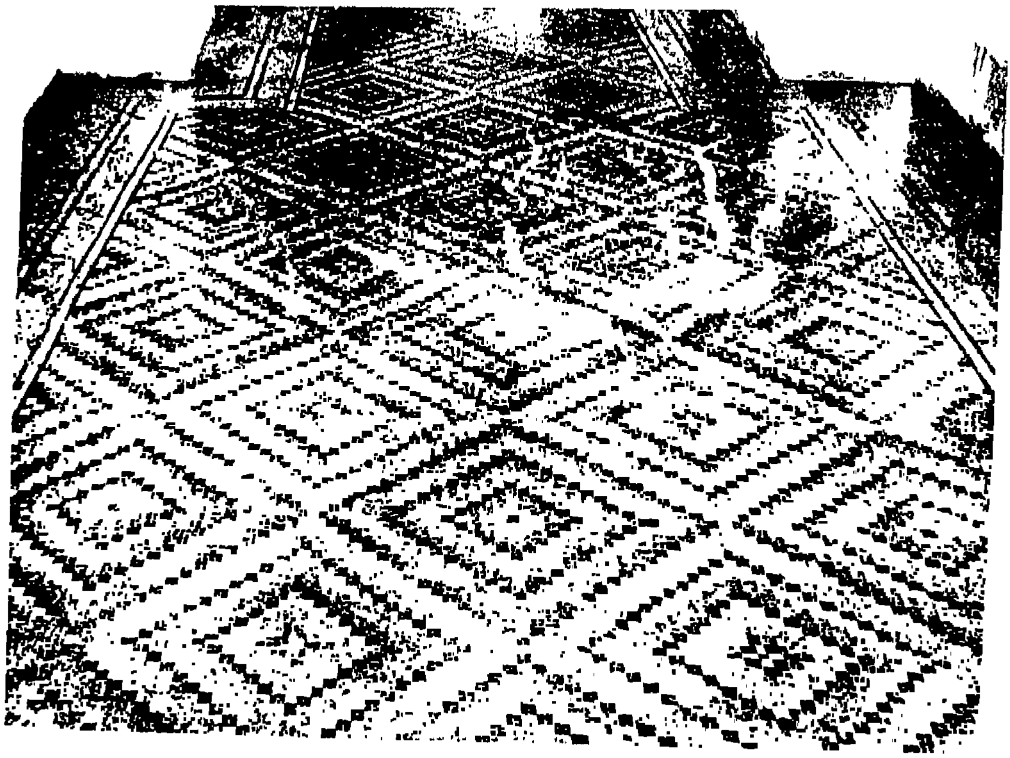
لوحة (٨) السقف الخشبي المزخرف داخل بناء قبة الصخرة.



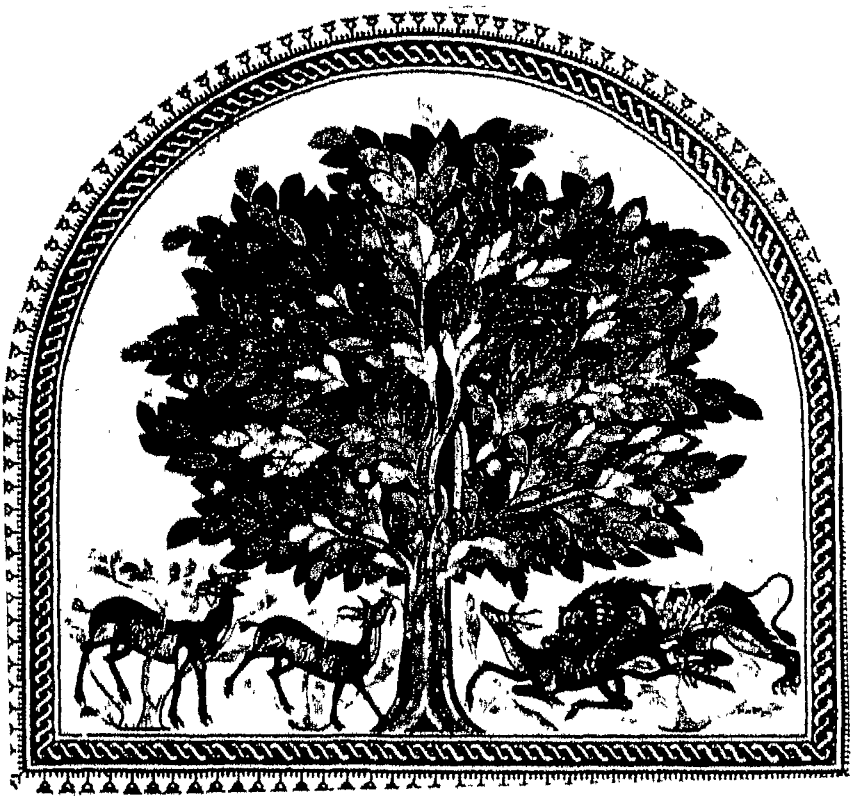
لوحة (٩) جدران قبة الصخرة الخارجية مغطاة بالقاشاني الملون المصقول.



لوحة (١٠) احدى بوابات قبة الصخرة تعلوها كتابة قرآنية.



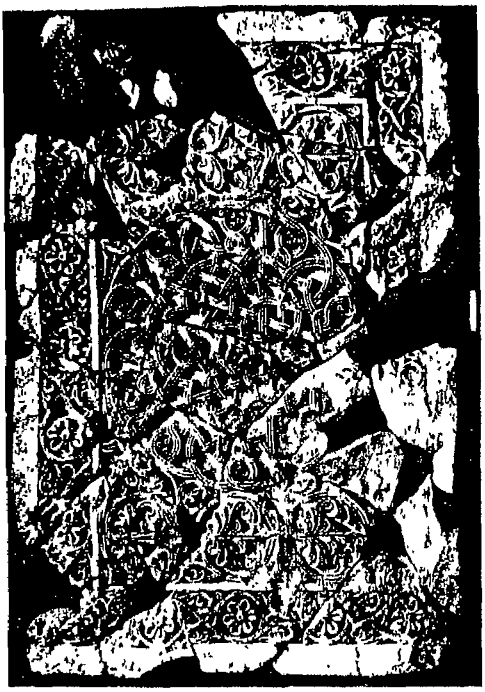
لوحة (١١) فسيفساء أرضية قصر هشام الملونة في خربة المفجر قرب أريحا.



لوحة (١٢) لوحة الأسد والغزلان في قاعة حمام الخليفة في خربة المفجر.



لوحة (١٣) جدران مقر هشام مغطاة بصفائح من الجبص المزخرف.

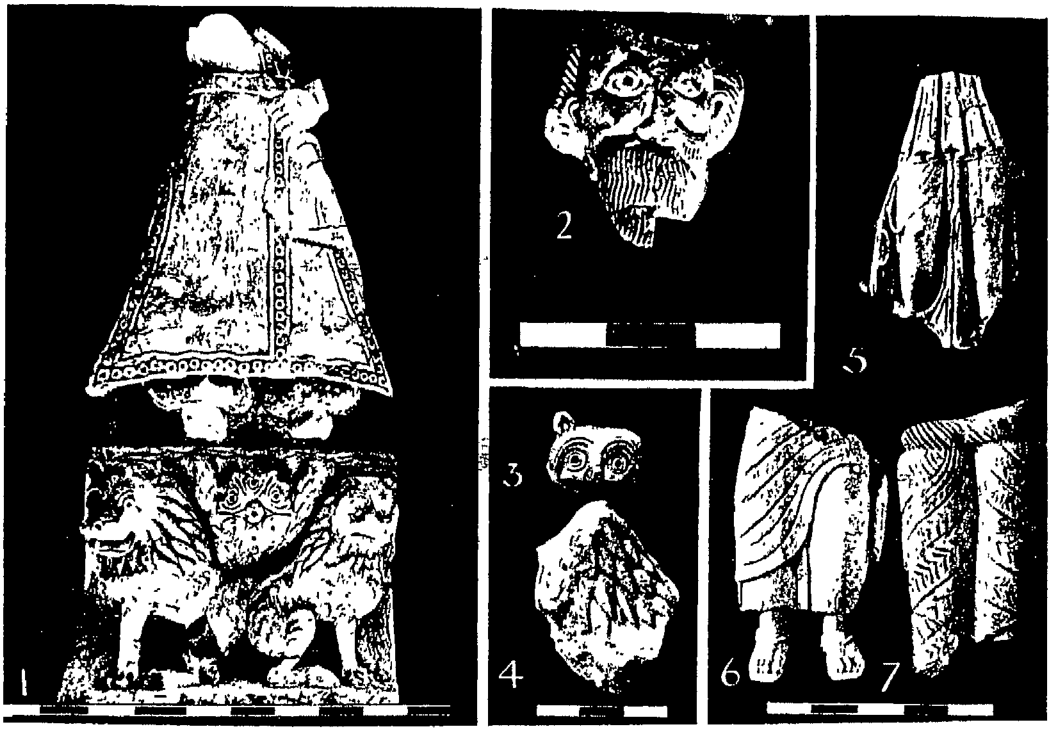




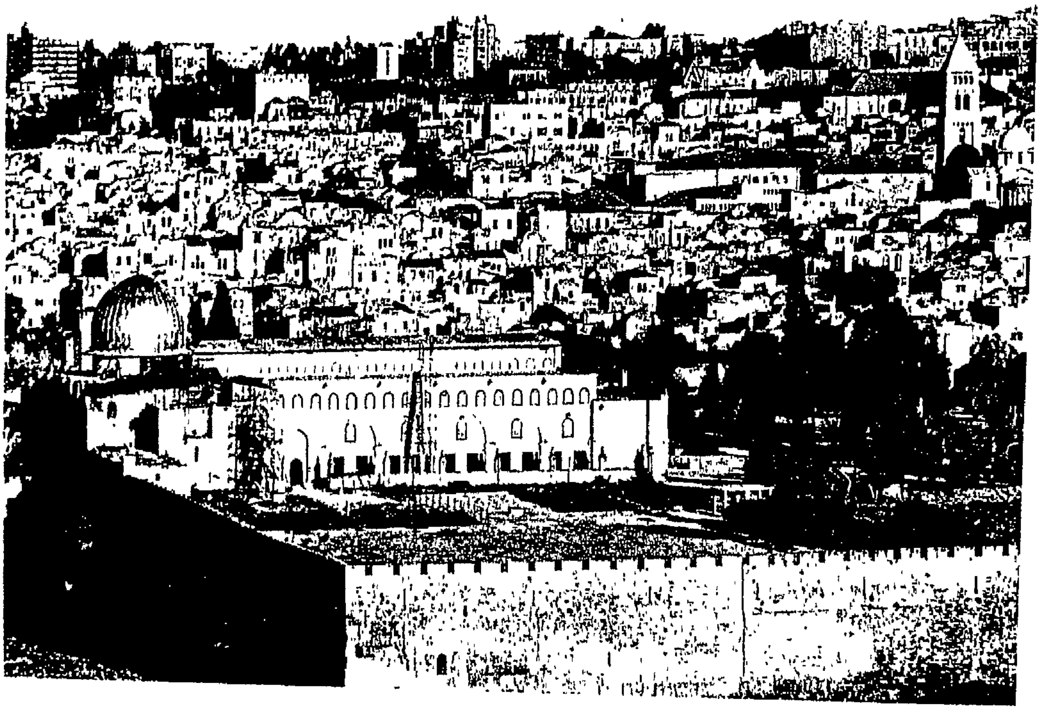
لوحة (١٤) لوحات من الجبص المزخرف كانت تغطي
جدران القصر الداخلية، خربة المفجر.



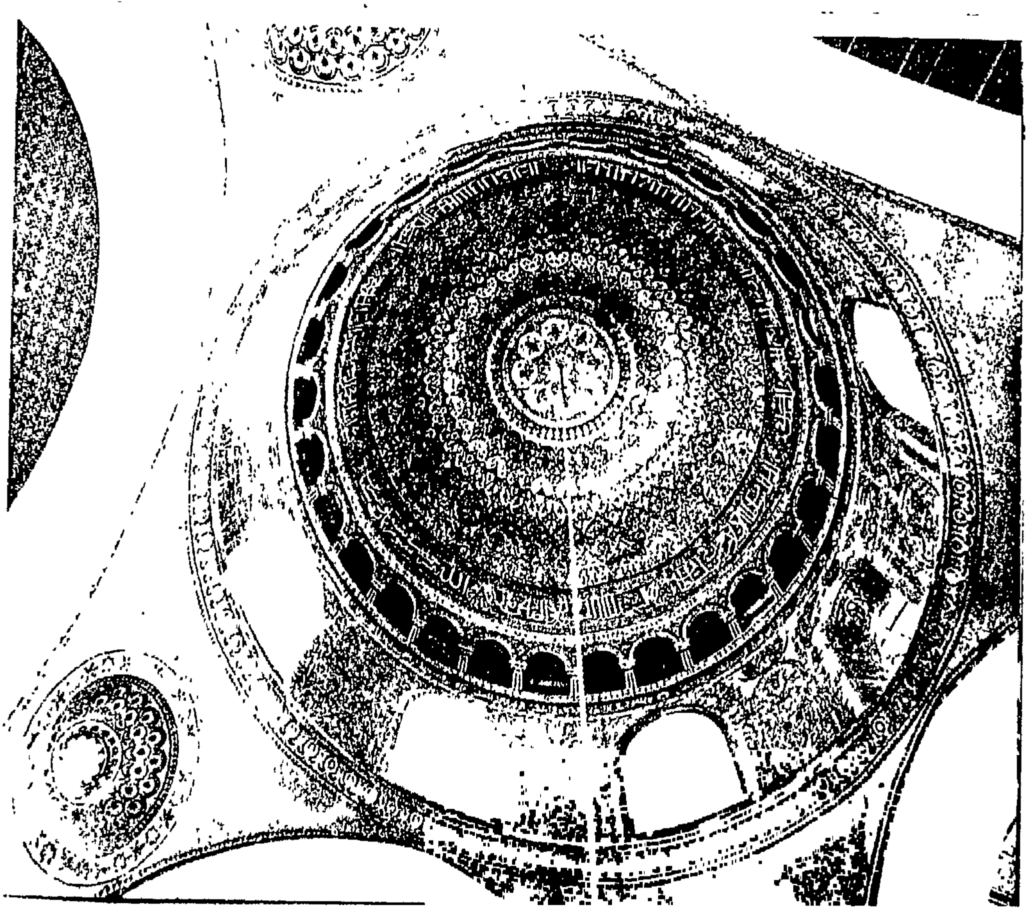
لوحة (١٥) نماذج من التماثيل لمستخدمي القصر في خربة المفجر وهي من الجبصين.



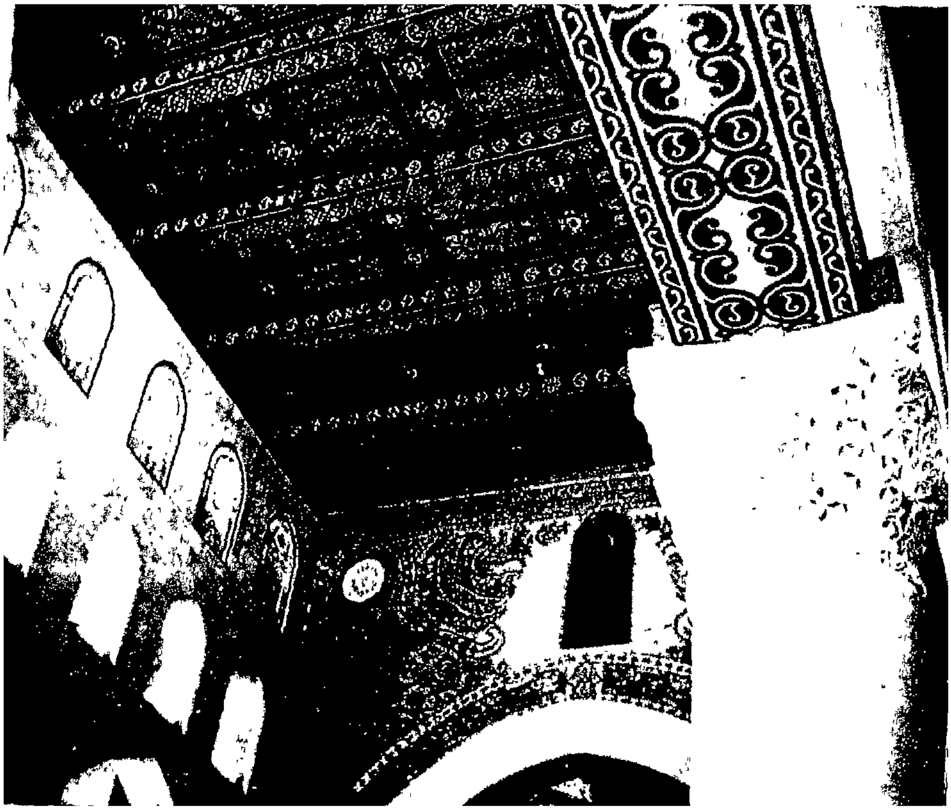
لوحة (١٦) تمثال الخليفة ورأسه (١ - ٢) وقطع أخرى
من الجبصين (٣ - ٧) خربة المفجر / اريحا.



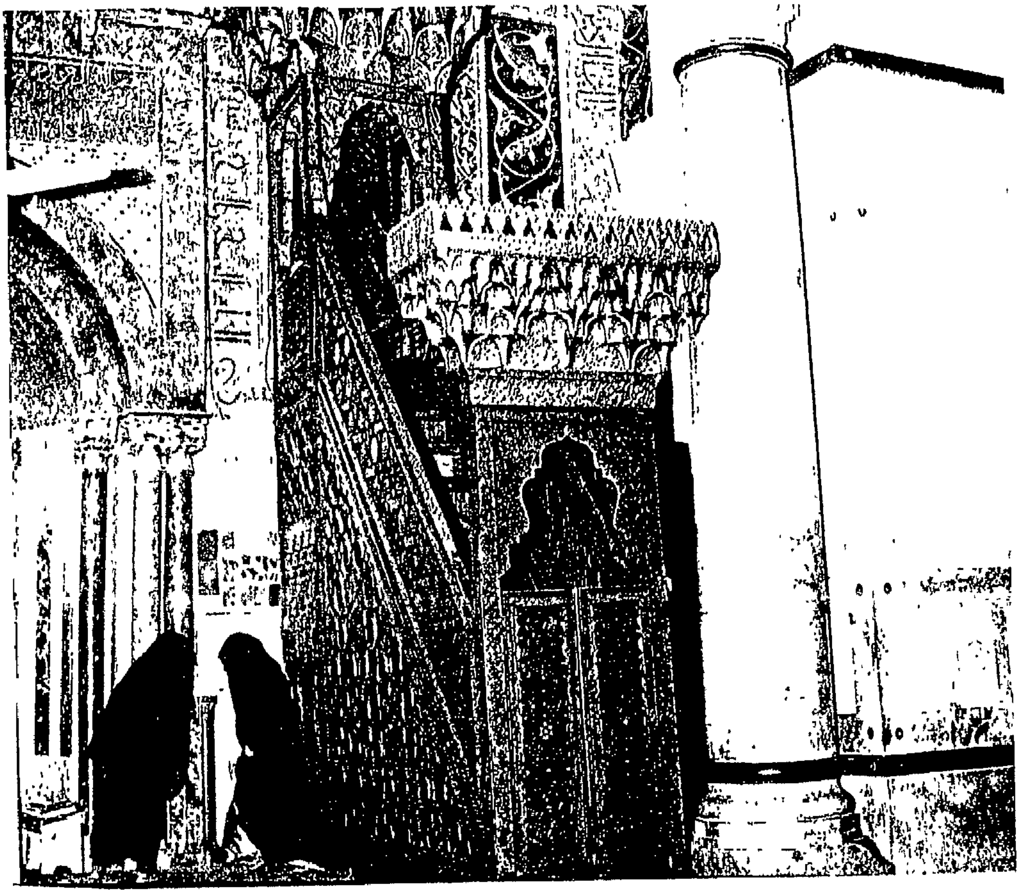
لوحة (١٧) بناء المسجد الاقصى في ساحة الحرم الشريف بالقدس.



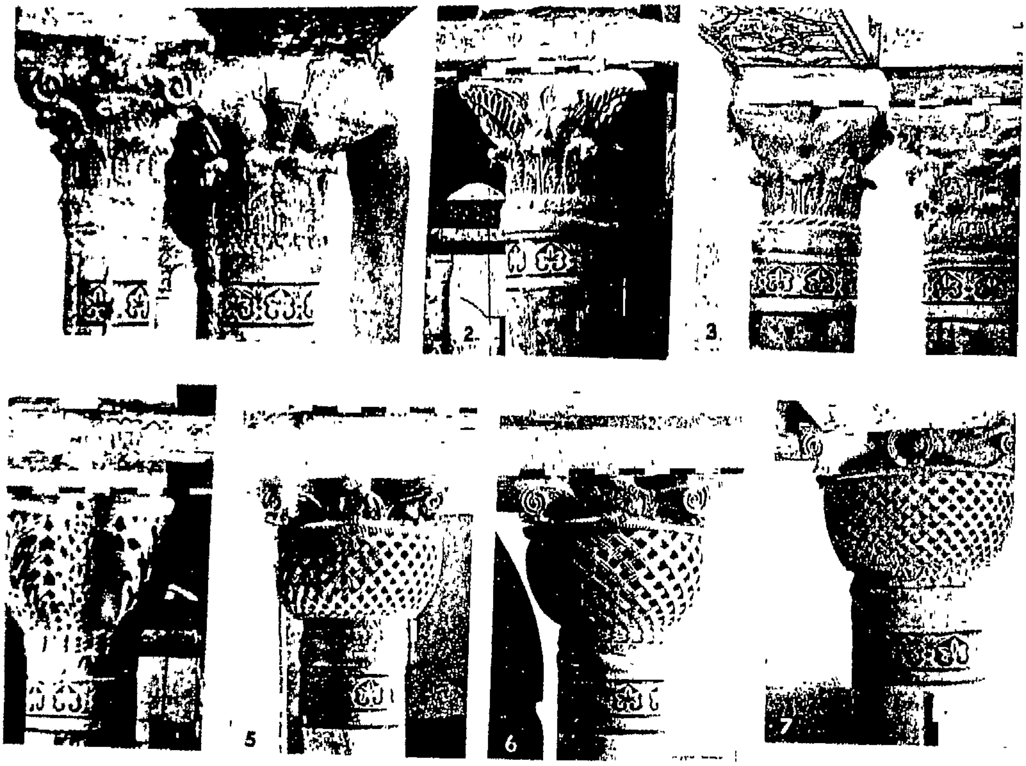
لوحة (١٨) القبة المعلقة المجاورة للمحراب في بناء المسجد الاقصى بالقدس.



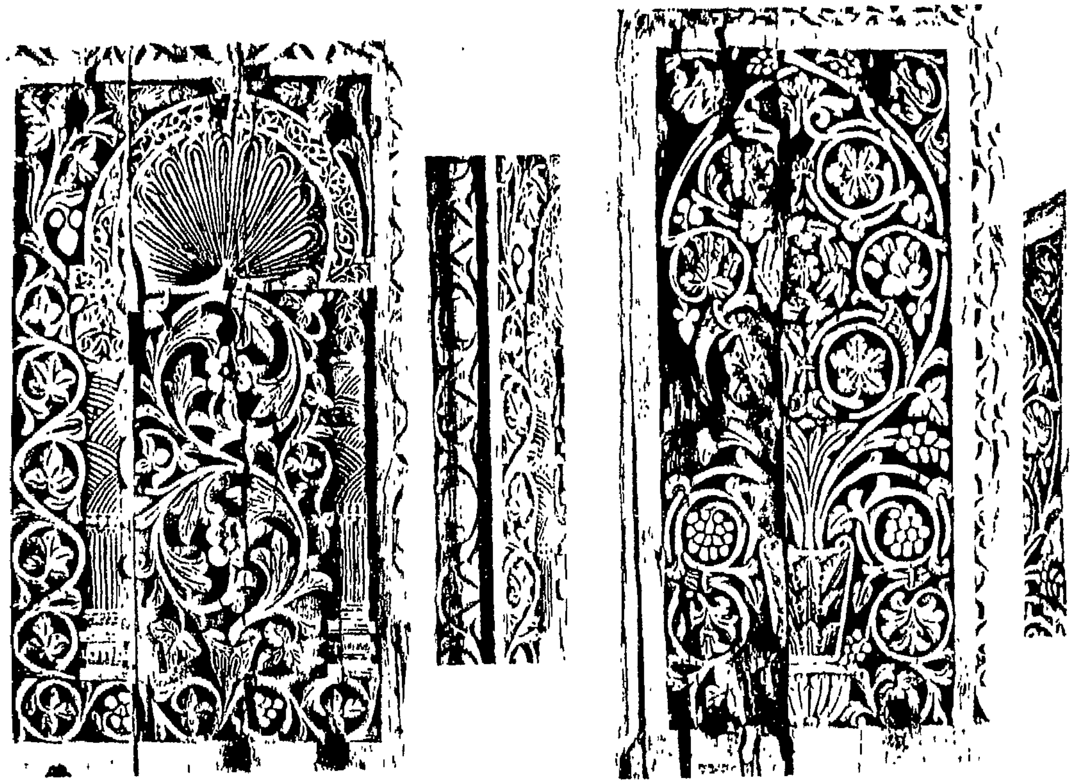
لوحة (١٩) العوارض الخشبية المزخرفة التي تحمل سقف بناء المسجد الاقصى في القدس



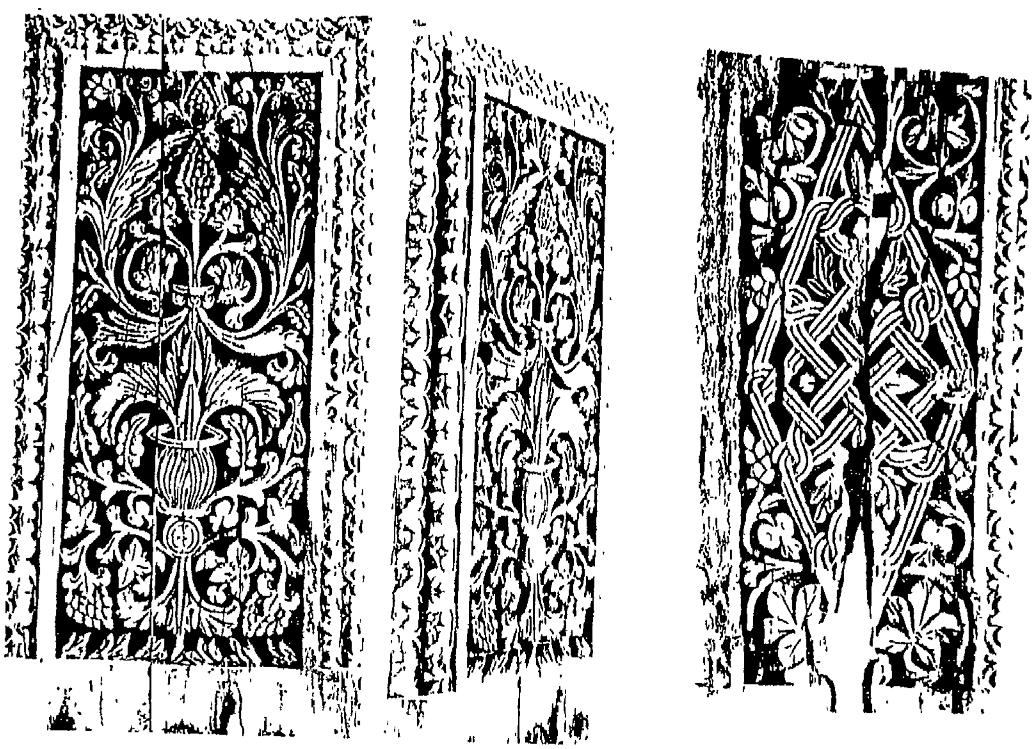
لوحة (٢٠) منبر نور الدين زنكي الذي أحضره
صلاح الدين من مدينة حلب بعد عودة القدس.



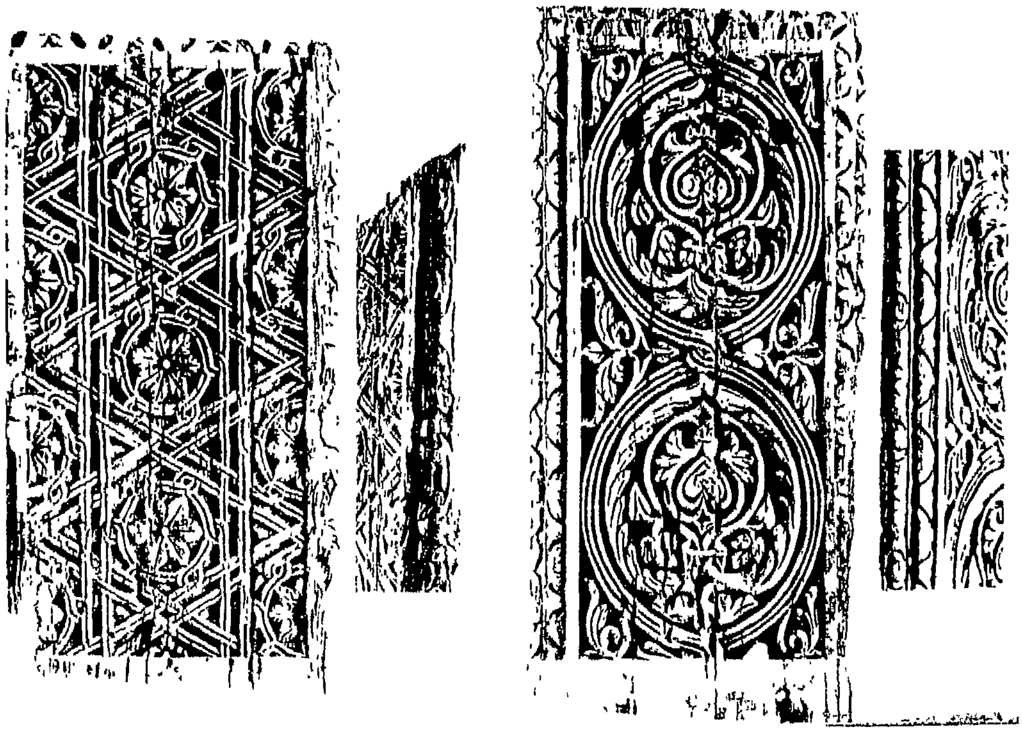
لوحة (٢١) عدد من تيجان الاعمدة التي استعملت في بناء المسجد الاقصى.



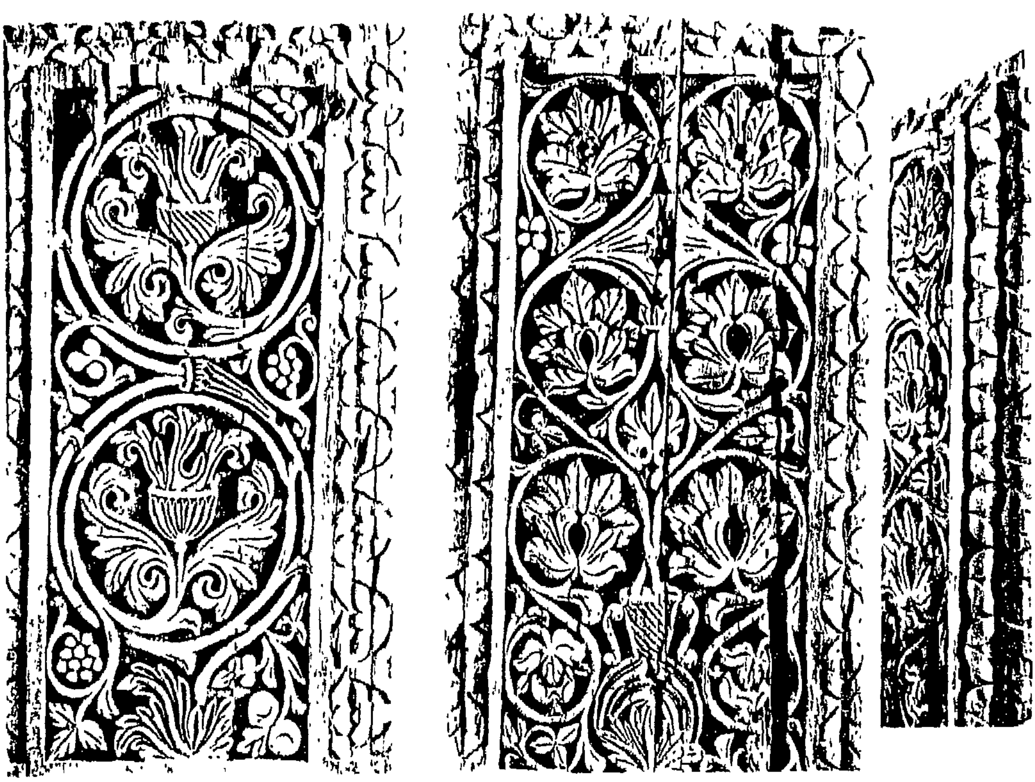
لوحة (٢٢) الزخارف المحفورة على الخشب والتي تغطي
الجسور الخشبية في سقف المسجد الاقصى.



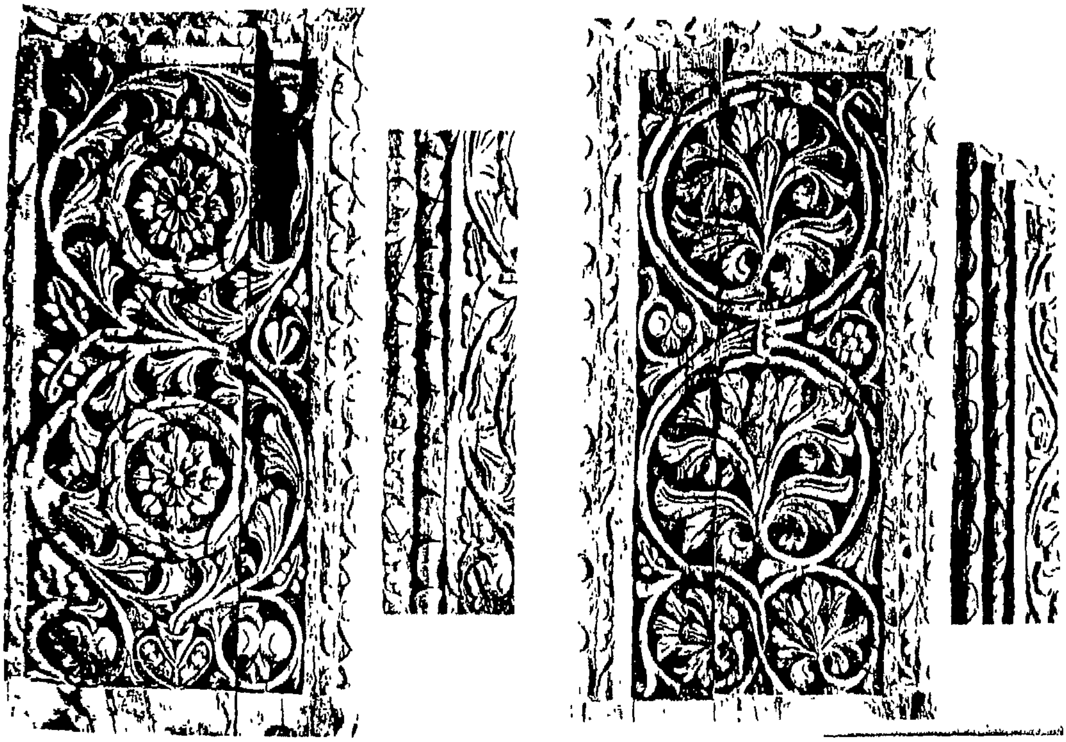
لوحة (٢٣) صفائح الخشب المحفورة على واجهات سقف المسجد الاقصى
(الزخارف النباتية).



لوحة (٢٤) صفائح الخشب المحفورة تمثل نماذج هندسية
على سقف المسجد الاقصى الداخلي.



لوحة (٢٥) نماذج نباتية على الجسور الخشبية في المسجد الاقصى.



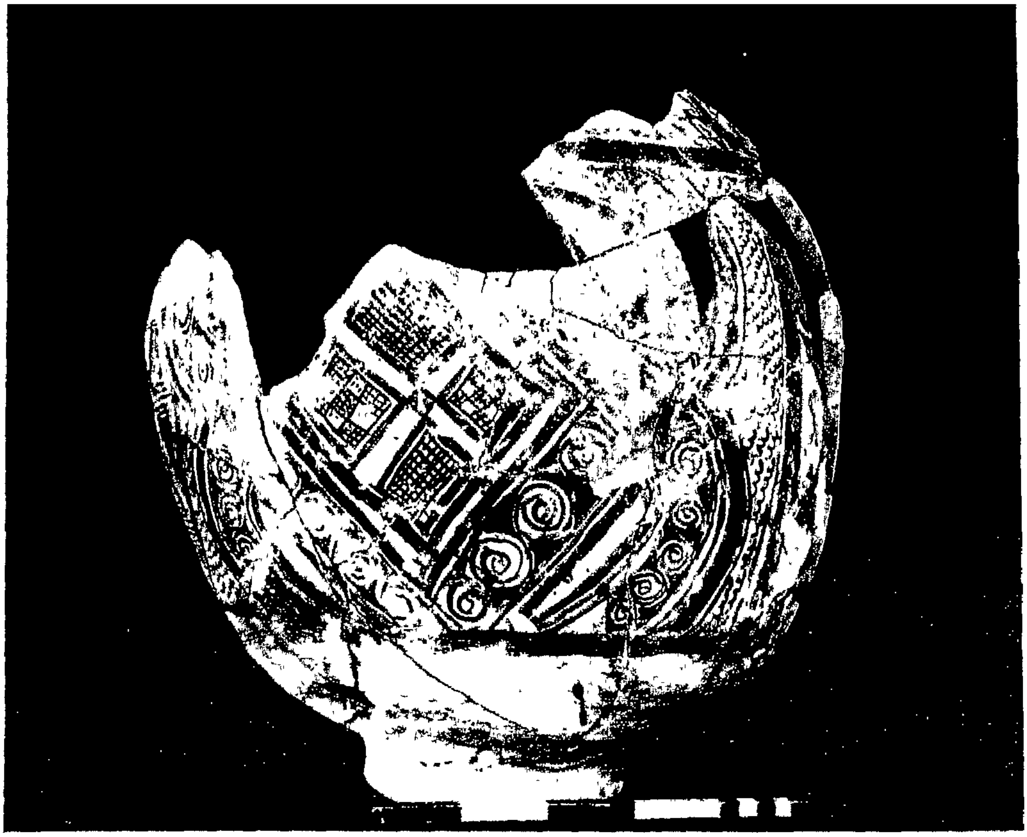
لوحة (٢٦) نماذج نباتية واشرطة متداخلة منحوتة على
الجسور الخشبية في المسجد الاقصى.



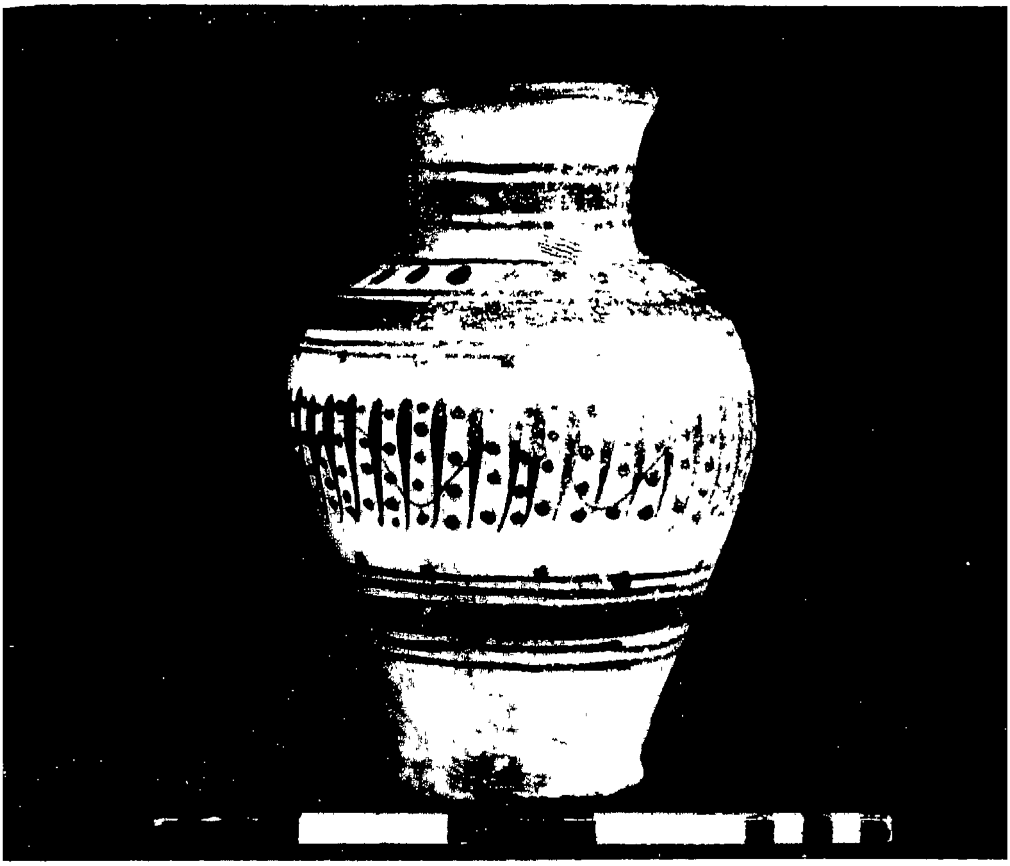
لوحة (٢٧) سراج زيت من الفخار، وقطعة من جرة فخارية مزخرفة بالكتابة
والاشكال الهندسية، عثر عليهما في حفريات الحرم الشريف في مدينة القدس.



لوحة (٢٨) مجموعة من القطع الفخارية تمثل الاسلوب المشترك
في زخارف الفترتين الايوبية والمملوكية



لوحة (٢٩) جرة فخارية مزخرفة بالرسوم التجريدية باسلوب هندسي
تمثل الاسلوب الايوبي والمملوكي في بلاد الشام.



لوحة (٣٠) مزهرية أيوبية الاسلوب من الفخار المزجج الذي ازدهر في جنوب سوريا (فلسطين والاردن)، من عين الباشا شمال غربي عمّان.

الأسواق والخانات في فلسطين في العهود الإسلامية

(دراسة أولية)

الدكتور عبد العزيز محمود

لقد حددنا الدراسة بموضوع السوق والخان كونهما يمثلان نموذجان معماريان عربي وإسلامي، ولإظهار قيمة هذا الصرح وتمييزه عن باقي الأبنية التاريخية وباعتبار الخان وثيقة مادية تظهر مدى التطور الحضاري الذي عرفته فلسطين في مختلف مراحلها، وكون الخان أيضا يعتبر مؤسسة اقتصادية وذات نفع عام وذو وظيفة خدمية، وحضوره الوافر في مدن وعلى طرق فلسطين وباقي المناطق السورية، لهو دليل على عراقة هذه المدن.

ومساهمة منا تضاف لتلك الجهود التي تبذلها الجهات المعنية والتي تعمل للمحافظة على تراث المدن التاريخية ومعالمها العمرانية، كالأحياء القديمة والأبنية التاريخية للمحافظة عليها من خطر الهدم والزوال.

وهنا تبرز خصوصية وضع المدن الفلسطينية وأبنيتها التاريخية والتي تتعرض لعاملين من عوامل التغير وخطر الزوال:

العامل الأول، ودوافعه سياسية ناتجة عن سياسة الاحتلال الإسرائيلي ومخططاته في الأرض المحتلة، والتي تستهدف تغيير وطمس المعالم التاريخية والتراثية العربية والإسلامية في المدن المحتلة لتهويدها، يكفي هنا أن نشير إلى ما تتعرض له مدينة القدس من خطر هدم معالمها التاريخية.

والعامل الثاني، ويمكن أن نعبر عنه بالعامل الطبيعي، الناتج عن التغيرات التي تطرأ على الوضع أو البناء التاريخي بفعل عوامل الزمن إلى جانب فعل الإنسان وسلوكه اتجاه بيئته وما يدخله من تغيرات بدافع الاستغلال المادي وغير المادي.

فهذه الدراسة الأولية تعتبر كدعوة لمزيد من الدراسات التي تتعلق بتاريخ فلسطين الحضاري والعمراني والاقتصادي والاجتماعي، وكونها أيضا تحذيرا موجها للمعنيين ولفت نظرهم للأخطار التي تواجه هذه الصروح التاريخية والتراثية بعد أن بدأت فعلا معاول الهدم والتهويد بالانقضاض عليها.

الخانات، تسمياتها، وظائفها وتطورها[1]:

لقد كان النشاط التجاري يتمركز إضافة إلى الأسواق في منشآت خاصة تشاد خصيصا للأغراض التجارية ولاستقبال القوافل والمسافرين من تجار وحجاج فبعضها يشاد داخل المدن والآخر على أطرافها، أو على الطرق وكان يطلق عليها أحيانا فنادق Funduq، أو قيساريات Kaisariya، وخانات Khan وهي ذات هندسة معمارية خاصة ووظائف متشابهة (شكل ١).

إن هذه التسميات تعتبر غير عربية ولكنها عربت ومستخدمة منذ عدة قرون، فتسمية فندق Funduq من أصل لاتيني دخلت عن طريق الحروب الصليبية ولقد ورد في الموسوعة الإسلامية بأن أصل الكلمة يوناني Pandoke'ion وقد استعملت أكثر في المغرب العربي[2].

أما القيسارية Kaisariya فهي أيضا من أصل يوناني وتعني البناء الملكي أو الإمبراطوري ذلك لأن السوق كان من الأملاك العامة التابعة للدولة، أي أنها ذات صفة ملكية، وتعرف باللاتينية Caesarum، أما كلمة خان Khan فأصلها فارسي وتعني القصر أو البيت.

وقد أطلق العرب على المنشآت الحصينة Castrum في بادية الشام "خانات" فالبلاذري "توفي ٢٧٩هـ / ٨٩٢م" وصف الثغور الإسلامية بـ "وكانت منازلها كالخانات" فهذا أقدم ما عثر عليه من استعمال لكلمة خان في المصادر العربية.

منذ القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي أخذت تظهر ألفاظ فندق وقيسارية وخان كأسماء للأبنية المخصصة لنزول القوافل ولممارسة أنواع النشاط التجاري والصناعي.

أما اصطلاح وكالة Wakala والتي استعملت في مصر بمعنى خان ولا سيما في العهد المملوكي واستمرت حتى العهد العثماني بمعنى خان أيضا المخصص للتجارة. يقول المحبي "توفي ١٦٩٩م" في كتابه "خلاصة الأثر.."ـ والوكالة اسم للخان في عرف المصريين، والدمشقيون يسمونه قيسارية[3].

وقد استمر إطلاق اسم خان وقيسارية على المنشآت التجارية ومحطات القوافل طوال العهد العثماني. لكن كلمة فندق قل استعمالها بعد العهد الأيوبي إلى أن ظهرت حديثا كبديل لكلمة Hotel. فالمباني الموجودة على طول الطرق التي تؤدي إليه لفترة من الزمن القوافل التجارية والمسافرين والتي تباع فيه السلع يعرف بالخان الذي يعادل اسمه Caravnse'raily فظهوره يرجع للحاجة إلى الركون والراحة وللحفاظ على أمن وسلامة قوافل التجارة والمسافرين، وهذه المؤسسة عرفت ازدهارا كبيرا ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي(٤).

إن دراسة الخانات لم تحظ باهتمام كبير على رأي Sauvaget, J وخصوصا تلك التي على الطرق المهجورة لأنها لا تساعد على تقديم تسهيلات لدراستها بالنسبة لعلماء الآثار بعكس ما يقدمه مثلا المسجد أو المدرسة أو القصور(٥).

لقد لعبت الخانات دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية، فهذا النوع من العمارة قدم مثالا هاما بالنسبة لدارسي الفن المعماري كونها تمثل نموذجا فريدا وذا أهمية في دراسة العمارة الإسلامية، وهي تقدم خدمة ثمينة لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. فقد كانت تنتشر هذه المؤسسات ـــ العمائر على طول طرق التجارة والحج ووظائفها الاقتصادية منذ القرون الوسطى إلى العصور المتأخرة لم تتبدل.

فعلى المستوى المعماري فالخان يمثل نموذجا من القدرة الإنسانية على الأعمال الفنية، فالوظيفة الاقتصادية للخان فرضت نوعا محددا من التصميم المعماري وفرضت توزيعا مناسبا للعناصر المعمارية.

فالمخطط العام للخان يكون مربع أو مستطيل الشكل. ويتألف البناء من مستويين علوي وسفلي، فالطابق العلوي غرفة مخصصة لمبيت النزلاء بالخان، والغرف السفلية مخصصة لخزن البضائع، ويتوسط الخان صحن تتوسطه بحرة (بركة ماء)، وتنفتح غرف الطابق الأرضي إما مباشرة على الصحن أو يتقدمها رواق. ويدخل إلى الخان من باب واسع يفتح في منتصفه تماما ، يلي المدخل دهليز معقود من على يمينه ويساره يوجد مدرج يؤدي إلى الطابق العلوي ليصل من خلاله للغرف العلوية التي تفتح على رواق

يتقدمها ويحيط بالصحن. ويغطي صحن الخان أحيانا بالقباب، وفي معظم الأحيان يكون مفتوحا على السماء.

يعتبر هذا المخطط بديهية عند إنشاء هذا الخان، وقد روعي لتحقيق سهولة الحركة في الخان عند التصميم الداخلي على تحقيق سهولة الاتصال بين الغرف والانتقال بين الأروقة والاتصال بالساحة الرئيسة للخان ـ الصحن ـ والغرف إما أن تكون بحجم واحد أو مختلفة حسب موضعها ودورها، أما الممرات والعقود وسماكة الجدران تتلاءم وحجم الخان، ووزعت الفتحات والمداخل بشكل يوفر المناخ الملائم في فصل الحر والبرد(٦).

وقد روعي على توفير جو الراحة في المكان، فداخليا هناك النور والظلمة، والمنخفض والعالي، والسماكة والرقة، والصغير والكبير، والفسيح والضيق، في تناسق منسجم.

وتلقى الخان العناية الفائقة بتهذيبه وتزيينه، وذلك حسب حجمه وغناه. فكانت العناية بالزخرفة المعمارية فائقة وتركزت على واجهات الخان الرئيسة وحول المدخل الرئيس. ونفذت بمواضيع هندسية ونباتية وكتابية، تبرز بوضوح تاريخ البناء ومؤسس الخان وتمجد الخان بأدعيات الخير والبركة للمكان.

وقد حليت المداخل بالمقرفصات والمنحينات والشرفات التي تفتح على الباحة الرئيسة المغطاة بالقباب.

أما الغرف بين الخانات التي وجدت داخل المدينة وتلك التي بنيت على طرق القوافل، فكلا النوعين يقومان بنفس الدور مع زيادة بفاعلية واستمرارية نشاط تلك التي في المدن، كونها تستمد نشاطها من حركة أسواق المدينة، وتحتوي على بعض الحرفيات بداخلها. أما على المستوى المعماري، فتلك التي على الطرق تكون أكبر حجما وتكون من مستوى واحد أرضي وذات باحة فسيحة وأبواب وغرف واسعة وذلك لاستيعاب القوافل وتزود أحيانا بأبراج.

وإمعانا في توفير كافة وسائل الراحة والخدمات فقد حرص على أن يلحق بالخان، سوق ومصدر ماء ومسجد وحمام ومرافق صحية وجناح لحشر الدواب كل حسب

جنسه. الشيء الذي يجعل من بعض الخانات سببا في نشوء وتطور عمراني بالقرب منـــه، كما هو الحال في مدينة خان يونس(٧).

والخان يتميز عن باقي العمارة الإسلامية بهيئة "Tipe" معمارية أتت ملائمة لـــدور ووظيفة الخان. الشيء الذي ميزه عن باقي العمائر الإسلامية.

ففي العهود الباكرة للدولة الإسلامية فرضت الناحية الدينية نوعا مـــن العمـــارة تتمثل بالمسجد، وبتطور الدولة وأجهزتها الدينية والإدارية والعســكرية ظـــهرت أبنيـــة كثيرة: كدار الإمارة والأسوار والقلاع. ومع التطور السياسي والفكري ابتداء من القـــرن الحادي عشر ظهر نموذج المسجد ـــ المدرسة. وباتساع رقعة الامبراطوريـــة الإســـلامية وتطورها الاجتماعي والسياسي ظهرت عمارة ذات أهداف خيرية تقوم على رعايتـــــها فئات عقائدية تمثلت بعمارة الربط والتكايـــا والخانقـــاوات والزوايـــا، بالإضافـــة إلى البيمارستان والحمام.

ومع التطور الاقتصادي والاجتماعي وتأكيدا لسلطة الحكام في فـــترة النـــهوض المحلي وكبار التجار والميسورين تطورت عمارة القصور، وانتشرت الخانات وتوســـعت الأسواق في القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد عرف عن الخانات في فترة التبادل التجاري بين الشرق والغرب ابتداء مـــن القرن السابع عشر، بأن تخصصت بعض الخانات بخزن وبيع نوع محـــدد مـــن الســـلع ويستدل على هذه الخانات من تسمياتها، كخان الحرير بدمشـــق، والصـــابون بحلـــب والزيت في القدس، والقهوة بغزة...

ومع انتهاء الحروب الصليبية في القرن الخامس عشر وفي ظل التحولات السياســـية والاقتصادية والاجتماعية، تطورت وتعقدت وظيفة الخان وخرج عـــن تقليديتـــه الأولى كمأوى للقوافل والمسافرين. فكان تعبيرا لتبادل الآراء بين الأفراد والجماعـــات الذيـــن جاؤوا من كل حدب وصوب والعمليات التجارية الكبرى في ميدان الاستيراد والتصديـــر كانت تتم في الخانات(٨). فالجاليات الأوروبية وقناصلها كانت تسكن أحيانا في الخانـــات حتى أن بعض الخانات سميت بأسماء الجاليات التي تقطنه كخان البنادقة بحلب نسبة لرعايـــا البندقية الإيطالية. وقد تأسست الوكالات التجارية بالخانات، ففي عكـــا مثـــلا عمـــل

البنادقة والجنويون على تنشيط الحركة التجارية فيها وبنوا أسواق وبيوت لخزن البضائع بها وحصلوا على قطعة أرض لبناء سوق في القدس مقابل دفع الضريبة.

واشترى بعض التجار الفرنسيين في عام ١١٥٢م نصف عسقلان، وأعطى أحد أمراء الصليبيين الفرنسي الأصل تجار مونبليه الفرنسية رخصة بعمارة أسواق في عكا(٩).

وفي مطلع العهد العثماني، أي منذ القرن السادس عشر، بدأت تتوسع التجارة الخارجية، وعلى إثر ذلك وقعت الاتفاقيات والامتيازات مع الوكالات الأجنبية، فازدهرت عمارة الخانات في مدن المنطقة، وفي كل من دمشق وحلب وحماه وعكا والقدس.. فأغلب الخانات بنيت في هذا العهد، فالقوانين السياسية والاقتصادية والاجتماعية للسلاطين والأمراء المحليين وكبار التجار تتسابق وبشكل منظم وبوتيرة سريعة للتأكيد على سلطتهم المحلية، فإن مصالح هؤلاء أعطت الدافع لبناء الخانات كونها مؤسسات اقتصادية تستثمر بالتجارة وخلال مواسم الحج(١٠).

بعض المظاهر الاجتماعية في خانات فلسطين

لقد أسهب الرحالة الأوروبيون في القرون المتأخرة في وصف الأرض المقدسة ومعالمه التاريخية وقد توقفوا كثيرا عند الخانات العزيزة لديهم لما توفره من راحة وأمن في حلهم وترحالهم(١١).

فما ذكر كوصف لهذه الخانات .. «منذ القديم يعتبر مترل الشيخ وخيمته كانا يقومان مقام الخان كملجأ لاستقبال المسافرين وعابري السبيل فاعتبرت أفضل مكان في البلدة وأكثرها أمنا لما يتمتع به الشيخ من سلطة.

وقد عمد المحسنون العرب من الأمراء والشيوخ من أصحاب الثروة والجاه إلى بناء الخانات. فمن الممكن مشاهدة الكثير من هذه الخانات في ضواحي القدس وقوب وادي اللطرون وفي أريحا وسهول البحر الميت. وتمتاز هذه الخانات بأنها منشآت للإحسان والمنفعة العامة لذلك كان لها صفة التقديس حتى أيام الحروب كان هنالك اتفاق على عدم المساس بها. وكان يقوم الخان بدور المستشفى في بعض الأحيان، والأمراء والحكام يعتنون ببنائها وفقا لأصول الفنون المعمارية السائدة، وكان للخان صفة تماثل في بلاد الشرق المحكمة، أو دار البلدية في الغرب.

ففي الخانات كان يشاهد الرجال يؤدون الصلاة، وفي الساحة يجلس التجار إلى جانب رزم البضائع حيث يأتي العنبر من بحر البلطيق، والحلى الذهبية من القاهرة، والشالات من الهند والبهارات من اليمن، والعطور من مؤاب، وهناك رجال يغسلون ايديهم قبل أن يجلسوا لتناول الطعام، وهنالك حلاق يقص شعر أحدهم وهنالك فلاح ينام في الظل وفي الخان حركة دائبة(١٢).

لقد كان هناك خان في بيت لحم قرب المغارة التي ولد بها السيد المسيح، وأيضا في منتصف الطريق بين القدس وأريحا هناك خان آخر. وربما يكون السيد المسيح قد توقف في هذا المكان ليأخذ قسطا من الراحة وفي أجواء هذا المكان قدم المثل الإنساني للناس جميعا.

وكذلك خان المنية قرب طبريا، وخان التجار الذي يقع على طريق عكا، وقد روعي أن تكون المسافة بين الخان والآخر مسيرة نهار الراجل.

وفي بعض الأحيان أصبحت الخانات نوعا من المزارات الذي يجب المحافظة على سلامتها وهدوئها حيث أن الناس لا يحاولون نقل حجارتها، ويتمتع الخان بطول العمر مثله مثل المسجد، والأرض التي يقوم عليها تصبح ذات اعتبار واحترام كأراضي الوقف»(١٣).

بعض الخانات في فلسطين:

بعد هذه الجولة، سنلقي بعض الأضواء على خانات فلسطين في العهود الإسلامية، فمن الصعوبة بمكان أن تحصر جميع خانات فلسطين من حيث تاريخ إنشائها زمنيا، ومسحها مكانيا وحالتها الراهنة كذلك، لأن ذلك يتطلب بحث مدقق في كتب التراث الإسلامية والمصادر الأخرى بالإضافة إلى دراستها على الواقع*. لكن نتوخى بإثارة الموضوع على أن يكون دافعا ومقدمة لدراسات أخرى لاحقة. فمن الخانات الموجودة بالقدس: خان الظاهر بيبرس ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢م، بناه الملك الظاهر بيبرس، وذكره ابن شداد بكتابه "الأعلاق الخطيرة.." «وبني بخارج البلد خانا للسبيل ونقل إليه

* للباحث دراسة "مخطوطة" عن خانات دمشق في العهد العثماني، وصف وتحليل معماري وتاريخي. تمت الدراسة بموقع هذه الخانات في صيف ١٩٨١، ١٩٨٣.

الباب الذي كان على دهليز القصر الذي يدخل منه إلى البيمارستان بالقاهرة، وبنى فرنا وطاحونا ووقف عليه ثلاث قراريط ابلطرة من أعمال دمشق، وثلث أوربع قرية المشلوفة ونصف قرية من أعمال القدس وشرط أن يعرف ذلك في جتروفلوس وإصلاح زرابيل من يبيت في هذا الخان من المسافرين»(١٤).

خان وحمام الأمير تنكز بالقدس، أو "خان أوتزبر Otuzbir" وتعني بالتركية خان "الإحدى والثلاثين"، يقع الخان ضمن سوق القطانين، ويتكون من طابقين ويتوسطه صحن عرضه عشرون مترا تقريبا يقسم إلى قسمين، الأول يحتوي على غرفة معقودة والثاني يحتوي على غرفة أكبر حجما.

فان برشيم V. Berchem الذي درس الموقع يشير إلى وجود مطحنة للقمح ضمن الخان وبناء على وصف آشبي Ashbe'e يذكر المطحنة، ويذكر أن الغرفة المعقودة عرفت بـ Classrom، والغرف التي تطل على الصحن تسمى، Dyeing and Spining والغرف التي تطل على القسم الثاني من الصحن تسمى Reserved for glass work فمن الممكن الاستنتاج أن هذه الغرف استخدمت من قبل الحرفيين(١٥).

وفي القدس أيضا خان السلطان، يقع إلى الجانب الشرقي لطريق بـاب السلسلة والخان مربع الشكل يستعمل كدكاكين وغرف لإيواء التجار، وقد ذكره مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل .." بأنه مبنى واسع وهو من أوقاف الحرم. وذكرت الكتابة التي على مدخله بأنه جددت هذه القيسارية على يد السلطان برقوق ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٦م(١٦).

في عكا، ذكر من خاناتها، خان الفرنج نسبة للتجار الفرنجة الأوروبيين ويعتبر من أقدم الأبنية التجارية فيها، ويقع إلى الشمال الشرقي من خان آخر يسمى خان العمدان، وكان يستعمل خان الفرنجة في العهد العثماني مستودعا لبضائع التجار الفرنجة وهو مكون من طابقين :الأرضي مخازن واسطبلات والعلوي غرف معدة للسكن(١٧).

بني خان العمدان في عهد الجزار ١٨٧٥م قرب الميناء ويسمى أحيانا بخان الجزار، ويحتوي على صحن تتوسطه بحرة رخامية ويحيط بها أروقة محمولة على أعمدة(١٨). ويوجد

بالقرب منه خان الشونة بني في عهد ظاهر العمر ١٦٩٥ ــ ١٧٨٢م. وفي عكـــا أيضـــا خان الحمير بناه علي باشا الخزندار ١٨١٠م، وقد كانت تربط به البهائم القادمة إلى عكا.

وهناك خان آخر يدعى خان الشوادرة "التسمية محرفة عن الشوفاليه أي الخيالــة"، يقع بين باب البحر والميناء وهو عبارة عن بناء كبير ذي أروقة يتوسطه صحن واسع وبـه سبيل(١٩).

وفي غزة، فقد ذكرت وثائق محكمتها الشرعية في القرن التاســـع عشـــر، عـــدة خانات منها خان الزيت، وخان الكتان، وخان الجمالي، وخان القهوة، وكـــان يطلـــق عليها تسمية وكالة كما هو الحال بمصر(٢٠).

وبغزة أيضا بنى الخزندار تنكز ١٣١٢ ــ ١٣٤٠م خانا، هذا وقد عـــرف عـــن تنكز بقيامه بكثير من الأعمال العمرانية في سورية وفلســـطين، فقـــد بـــنى في صفـــد بيمارستان وفي القدس رباط وحمامين وقياسر وخان في جلجولية.

وفي صفد: ذكر الرحالة التركي أوليا شلبي ١٦٧١م أنه نـــزل في خـــان الباشـــا والذي يتألف من عدة طوابق ويتسع لكثير من النزلاء، وكأنه القلعة بتحصينـــه وبابـــه الحديدي..(٢١).

وفي قاقون بقضاء غزة بنى سنجر الجاولي "توفي ١٣٤٥م" خانا، وعن غزة فقـــد ذكرت وثائق القرن السابع عشر، عن دار الوكالة، التي تخزن فيها البضائع القادمة مـــن الرملة وبضائع أخرى مثل الأرز والبلح والحنة وعصير العنب والثوم والبصـــل الناشـــف وبعض هذه المواد يأتي عن طريق البحر وتباع في أسواق المدينة(٢٢).

وفي خان يونس ،حاضرة في قضاء غزة تنسب إلى يونس النـــوروزي الـــدودار "المتوفي عام ١٣٨٨م"، بني الخان سنة ١٣٨٧م على شكل قلعة متينة الأركـــان عاليـــة الجدران لا يزال بعض أبراجه ظاهرا، فالخان كانت تمر به القوافل التجارية الذاهبـــة إلى مصر(٢٣).

وفي الخليل ذكرت وثائق القرن السابع عشر عن خان الأمير وخان الفحم وخـــان الشعراء الذي أوقف لصالح قبة الصخرة(٢٤).

أما النوع الثاني من الخانات، تلك التي على طرق القوافل والمسافرين، فمن أشهرها في فلسطين خان المنية، بناه سيف الدين تنكز ١٣٢٨م نائب السلطنة المملوكية في دمشق ١٣١٢ ــ ١٣٤٠م. وقد وصفه كثير من الرحالة الأوروبيين فقد مر به الرحالة السويسري بيركهارت Burckhadat في مطلع القرن التاسع عشر، فقال فيه: «.. خان متهدم بناؤه كبير وحسن الإنشاء»(٢٥).

وقد وصفه أيضا طومسون Thomson الذي زار المنطقة عام ١٨٣٦م بأنه يحتوي بوسطه حامل وعقود ومخازن على كل جانب وله سبيل للشرب وقد أقيمت فيه غرف لحماية البضائع وإقامة المسافرين.

ويوجد بالقرب من خان المنية، **خان التجار**، بني في سنة ١٤٤٠م وأعيد بناؤه ورمم إبان ولاية سنان باشا ١٦٦٥م، أقيم الخان لراحة القوافل والمسافرين بين دمشق والقدس وقد وصفه طومسون Thomson في مطلع القرن التاسع عشر فقال: «.. مساحته حوالي ١٠٠ متر مربع وله ابراج ذات ثمانية أضلاع ويستعمل كنزل وحصن وكان أصحاب حوانيت طبرية يذهبون إليه صباح كل إثنين للمشاركة في السوق الذي يقام قرب الخان(٢٦).

وهنالك **خان الدوير** إلى الشمال من صفد، وخان جب يوسف يقع على الطريق بين عكا ودمشق فقد نزل بهذا الخان صلاح الدين الأيوبي ١١٧٨م في طريقه إلى حطين وقد مر به ابن بطوطة ١٣٥٥م وذكره عبد الغني النابلسي ١٦٨٩م في كتابه "الحضرة الأنسية.." بأنه خان عامر البناء يأمن فيه من يخاف(٢٧). ومر به بيركهارت Burckhardt ١٨١٢م وقال فيه: «.. بأنه في سهل ضيق وهو آخذ بالانهيار وعلى مقربة منه بركة ماء وفيه جب يقال بأن أبناء يعقوب ألقوا أخاهم يوسف فيه، ويقيم فيه ستة من الجنود المغاربة وعائلاتهم يزرعون الحقول القريبة منه(٢٨).

وهناك بقايا **خان قرب قرية لوبيا** قرب طبرية، وخان بيسان من بناء سنجر الجاولي ١٣٠٨م نائب السلطنة المملوكية في غزة، وقد مر به بيركهارت أيضا وذكر بأن القوافل التي تسلك طريق القدس دمشق تستريح به.

وبين القدس وأريحا يقع **الخان الأحمر** ويعرف الموقع باسم St.Euthymius نسبة لهذا القديس الذي أسس في المكان دير وكنيسة ٤٢٨م. وقد اتخذ هذا الموقع منزلا للتجار والحجاج السائرون إلى الغور(٢٩).

وفي ناحية أريحا أيضا وإلى الجنوب من عين القلط يوجد **خان الحشرورة** وهو الموقع الذي نقل إليه السامري الصالح جريحه وأوصى به صاحب الفندق (إنجيل لوقا ١٠: ٣٠-٣٧).

وهناك خان آخر **ببيت إكسا** قرب القدس، **وخان السهل** قرب القدس أيضا **وخان البيرة** في قضاء رام الله، وخان يعرف **بأبي الحاج فارس**(٣٠). وفي قضاء الجليل توجد **خربة الخان** وهي محطة قوافل بين القدس وبيت جبرين.

الأسواق القديمة في فلسطين، تاريخها، وتوزعها:

إن مصدر كلمة سوق كما ذكرت الموسوعة الإسلامية، مأخوذ من الآرامية، والكلمة تستعمل للإشارة إلى المكان الذي يقام في السوق. والسوق موضع البضاعة والأمتعة وسميت بذلك لأن التجارة تجلب إليها وتساق نحوها المبيعات(٣١). ومن الجدير بالملاحظة أن مجمل الجوانب التي ترتبط بمشكلة السوق لها علاقة وثيقة الصلة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والقانوني في الإسلام.

فيذكر الجغرافي الألماني E. Wirth في بحثه حول البازار والسوق أنه في أغلب الأحيان يوجد السوق في وسط المدينة، حيث يكون له هيكل معماري يسمح له بتلبية الحاجات الاقتصادية، لدرجة أنه حتى الآن لم يشهد السوق تأثيرات كبيرة دخيلة تغير من خصوصيته، أما على مستوى دراسات الأسواق فحتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن هنالك معلومات محددة ومتخصصة عن طبيعة الحركة الاقتصادية داخل هذه الأسواق، حتى الحرب العالمية الأولى لم يحظ هذا الموضوع بدراسته. فالسوق والبازار في الشرق يعادل المركز التجاري في الغرب وهو مركز صناعي ومصرفي ضمن الاقتصاد العمراني الحضري، وينتشر السوق في معظم المدن الإسلامية(٣٢).

فالملاحظ لدينا أن كل ما كتب عن هذه المسالة لا يعني دور وأهمية السوق، فوجود السوق له علاقة بالحفاظ على المدينة واستمرارية نموها وتطورها فكل مدينة

تحتوي على سوق رئيس وهذه بديهية منذ العهود الرومانيـــة، بالإضافـــة إلى الأســـواق الفرعية في الأحياء لتسهيل المعاملات اليومية، وتسمى هذه بسويقة، وأحيانا ربع(٣٣).

لا تخلو المصادر المتنوعة من ذكر للأسواق ودراستها ومن الممكـــن الرجـــوع إلى الأدب الذي له صلة بالدين والتاريخ والجغرافيا والفلسفة التطبيقيـــة وأدب الرحـــلات، والمصادر التي لم تتكلم عن السوق فهي في أغلبها أعمال لغوية وفلسفية نظرية.

إن أهمية فلسطين الدينية والحضارية وقدسية مدنهـــا جعلتـــها مراكـــز حضريـــة وعمرانية مأهولة بالسكان يؤمها الحجاج والسياح الشيء الذي ساهم في نشوء وتطـــور أسواقها وتنوع سلعها.

فيذكر لنا بالمناسبة الرحالة الإنجليزي كنغلك Kinglek الذي زار القـــدس ســـنة ١٨٣٣م ..بأن في يافا كان الحجاج النصارى يستأجرون الجمال والخيول لتحملـــهم إلى المدينة المقدسة فإن وصلوا أسرعوا بعرض بضائعهم التي حملوها معهم في ساحة الكنيســـة التي تتحول إلى سوق، وكذلك سكان القدس وما جاورها يعرضون في هـــذا الســـوق منتوجاتهم(٣٤).

فعن أسواق القدس ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل" بأن الخليفـــة عمر بن الخطاب عندما قدم لفتح القدس ٦٣٧م وقف على راس السوق فقال: لمن هـــذا الصف، يعني سوق البزازين، فقالوا للنصارى، فقال: لمن الصف الغربي الذي فيه الحمـــلم، فقالوا: للنصارى، فقال: بيده هكذا هذا لهم ـــ يعني للنصارى ـــ وهذا لنا مباح يعـــني السوق الأوسط الذي بين الصفين(٣٥).

سوق القطانين: لقد درس السوق من قبل ل. جولفان Golvin. L، فذكـــر بـــأن السوق كان قد وصف من قبل المؤرخين العرب المسلمين. فـــالعمري عـــام ١٣٤٧م في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" قال فيه: «من أبـــواب الســـوق نصـــل إلى القيسارية التي شيدت أخيرا وهي عبارة عن دكاكين منها ما هو وقف على الحرم ومنـــها لصالح المدارس». وهو من أقدم الذين ذكروه.

يعطينا مجير الدين الحنبلي في "الأنس الجليل.." وصفا موجزا للسوق فيقـــول «.. وهو في غاية الارتفاع والاتقان..»(٣٦).

إن تسمية سوق القطانين ترجع إلى تجارة القطن الشائع في ذلك المكان، وعلى باب السوق يشاهد كتابة مفادها أنه قد رمم ١٣٣٥م على يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وقد ذكر فان برشيم V٠Berchem بأن السوق أعد لتجار القطن منذ القرن الخامس عشر، وبانتهاء القرن التاسع عشر كانت قد أقفرت الدكاكين وخصوصا تلك الموجودة على الجانب الأيمن من الحرم ومنذ ذلك الحين لم يعد السوق إلا ركاما و لم يبق منه إلا بعض الدكاكين الموجودة في أقصى الشرق. فالأبنية التي حوله كانت وقفا لصالح مؤسسات يمتلكها تنكز. ولقد لحق بالسوق مؤسسات اقتصادية أخرى ذات خدمات اجتماعية مثل خان اوتزبر Otuzbir، المار ذكره والذي يحتوي على مطحنة قمح وحمامين، حمام العين وحمام الشفاء[٣٧].

وقد تحدث الحنبلي مجير الدين، حول الأسواق الثلاثة المجاورة لسوق القطانين أحدهما بالقرب من باب المحراب "باب الخليل" وهي بناء الروم. الأول منها بالقرب من سوق العطارين وهو وقف الملك صلاح الدين ٥٣٢ ــ ٥٨٩/ ١١٣٨ ــ ١١٩٣ على المدرسة الصلاحية والذي يليه إلى الوسط مخصص لبيع الخضراوات والذي يليه إلى الشمال مخصص لبيع الأقمشة وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى. وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء، وذلك من محاسن بيت المقدس[٣٨].

وذكر الحنبلي أيضا عن سوق المعرفة بآخر المسجد من جهة الشرق وقد عرف هذا المكان بالمعرفة لربما لترغيب أولئك الزوار ليعودوا دراويش المكان مدعو المعرفة، ونقل بعض المؤرخين أن باب التوبة كان في هذا المكان وأن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح مكتوبا على باب داره فكان يأتي إلى هذا المكان ويتضرع ويتوب إلى الله ولا يبرح المكان حتى يغفر الله له[٣٩].

وذكر ناصر خسرو عن القدس في ١٠٤٧م بها أسواق جميلة، وأبنية عالية وكل أراضيها مبلطة وفي المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاص[٤٠].

وفي سنة ١٤٧٨م مر بالقدس الرحالة اوبيدا حنا Obadiah Jane واستقر بها حتى وفاته ١٥٠٠م فذكر أن بالقدس أربعة أسواق جميلة مما لم أر له من قبل شبها، كلها مسقوفة بالقباب وتحتوي جميع أنواع المتاجر وهذه الأسواق الأربع هي سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز[٤١].

وفي القدس بنى شمس الدين بن عجور ١٨٧٨ سوق الطباخين وجعل عليه قناطر معقودة على الحوانيت للتخفيف من مشقات فصل الشتاء.

وقد زار القدس الرحالة التركي أوليا شلبي نحو ١٦٧٠م ومما جاء في وصفه: «.. وفي القدس ألفين وخمسة وأربعون دكان مبنية بالحجارة والعقود المقنطرة وفيها ستة خانات عظيمة، وأسواق كثيرة منها: سوق السلطان وهو أشهرها، والمسؤول عن إدارة السوق، المحتسب ويلقب بالآغا، ومن واجباته أن يحفظ سجلا يدون فيه أسماء التجار وأصحاب الدكاكين، وللسوق خان تحفظ فيه جميع البضائع والأمتعة القيمة.

ومن أسواق القدس: السوق الطويل تباع فيه الصحون، والفناجين وأدوات الطهي، وأدوات المترل، وسوق الحلاجين ويعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن وسوق الغلال وتعرض فيه جميع أنواع الحبوب والغلة، وسوق الحرير، والسوق القريب من باب السلسلة وسوق البزازين وله باب حديد، وفيها عدد غير قليل من الصياغ وتجار الحلي والمجوهرات. وجميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المقنطرة ومرصوفة بالبلاط النقي والطريق الكائنة بين سوق الغلال وكنيسة القيامة والمسجد العمري مرصوفة بالبلاط من القطع الكبير[٤٢].

وعن بيت لحم ذكر ياقوت الحموي "توفي ١٢٢٦" في كتابه "معجم البلدان" بأنها مدينة عامرة وفيها سوق وبيزارات.

ومن قصبات فلسطين العامرة منذ العهد الإسلامي الأول، مدينة الرملة، وقد وصفها الإدريسي "توفي ١١٦٥" مدينتا الشام هما الرملة وبيت المقدس فالرملة مدينة حسنة العمارة وبها أسواق وتجارات، تدخل وتخرج.

أسست المدينة في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ٧١٥م فبنى فيها دار الإمارة، ولما استقرت في أحيائها القبائل بنيت الدور والحوانيت والأسواق، والراجح أن

الأسواق الرئيسة وضعت إلى جانب الجامع وأنها نظمت على أساس توزيعها بين البضائع والحرف المختلفة[٤٣].

وقد وصفت الرملة في حدود ١١٠٦م بأنه كان يحيط بها سور، ولها قلعة واثنا عشر بابا ولها أربعة أسواق متصلة مع أربعة أبواب إلى وسطها وبها مسجد ومن أسواقها سوق القماحين وهو متصل بسوق البصالين، وهذه الأسواق حسنة وتباع فيها كل أنواع السلع وهنالك سوق متصل بباب القدس هو سوق القطانين ومشاطي الكتان وسوق العطارين وسوق الحبابين والخرازين ثم البقالين ويتصل بباب آخر سوق الصياقلة ثم سوق السراجين و لم يبق أثر لتلك الأوصاف التي بالرملة وقد زالت أسوارها وأسواقها باستيلاء الصليبيين عليها[٤٤].

وصف أحد الرحالة الأوربيين سوق الرملة في القرن الخامس عشر بقوله: لقد جاءنا الباعة يحملون الفراخ والحليب المطبوخ والمعجنات والأرز المصنوع بالحليب وأرغفة الخبز الممتاز الأبيض والعنب الحلو، والرمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين الكبير والصغير، والمكسرات المصنوعة من اللوز والعسل والتين المجفف والمكسرات المصنوعة من التمور واللوز والسكر والماء البارد وجاء بعضهم بقوارير جلدية وبها شراب طيب يغني عن الخمر يستعمله أشراف المسلمين وبعد الغداء زرنا أسواق المدينة التي تحتوي على كل المتاجر، ودخل بعضنا الحمام[٤٥].

زار فولني Volney الرحالة الفرنسي المنطقة في نهاية القرن الثامن عشر وذكر عن الرملة بأنه كان يقام بها سوق يتوافد عليه أهل القرى المجاورة لبيع القطن المغزول.

أما عن عكا: فالمقريزي "توفي ٨٤٥/ ١٤٤٢" ذكر في كتابه "السلوك في معرفة دول الملوك" يصف عكا: «... لعكا سوق عظيم ذا مساحة فسيحة فيه مائة وأربعين دكان بيطار، ولقد عددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدرا كل قدر يتسع لرأس غنم، وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها مدونة لدى أمين السوق وأظنها سبعة آلاف دكان. أما سوق البحر العتيق والجديد فشيء يبهر العقل وهنالك الكثير من الحمامات يتولاها مغاربة[٤٦].

وعن عكا يتحدث أيضا فولني Volney عند مروره بالمدينة سنة ١٧٨٥م أيام الجزار ١٧٧١ ــ ١٨٠٤م، فذكر بأن الجزار قام بأعمال عمرانية في المدينة فبنى جامعا جميلا وسوقا مسقوفة لا تقل شأنا عن سوق حلب، وقد أخذ بتقوية حصونها وأبراجها وأسوارها، وذلك بأن أنشأ بها العمارات وأقام بها سوق وحمام وخان العمدان وذكر بأن للفرنسيين في عكا قنصل وللتجار ستة وكالات.

ومن أسواق عكا الشهيرة، السوق الأبيض، شرقي جامع الجزار، ويتألف من صفين من الحوانيت المعقودة يفصلها ممر عريض مسقوف إلى اليمين من مدخله سبيل ماء ويعود تاريخ هذا السوق إلى عهد الوالي سليمان باشا العظيم ١٨٠٤ ــ ١٨١٨م كما تشير بذلك النقوش المكتوبة عليه، ويسمى اليوم بالسوق الشرقية، تباع فيه الخضار والفاكهة، والمجوهرات والتحف التذكارية التي تصنع يدويا(٤٧).

أما مدينة يافا، فيذكرأبو الفداء "توفي ١٣٣١" في كتابه "تقويم البلدان" في وصفها بأنها كانت حصنا كبيرا فيه أسواق عامرة ووكلاء تجار وبها ميناء كبير ترسي فيه السفن الواردة إلى فلسطين.

وعندما مر الرحالة ابن بطوطة "توفي ١٣٧٧م" بغزة ذكر بأنها مدينة حسنة متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق وبها مساجد عديدة وعليها الأسوار. هذا وقد أسهب الرحالة في القرون المتأخرة بوصف المدن والأوابد الفلسطينية وتجمع المصادر بغنى وشهرة الأسواق الفلسطينية كتلك الموجودة داخل القصبات أو التي تعقد على أطرافها حيث تقام الأسواق الأسبوعية والموسمية.

ويذكر فولني الفرنسي Volney (١٧٨٣) عندما مر بغزة يذكر بأن القوافل الرائحة والغادية بين مصر وسورية تعتبر مصدر ربح لسكان المدينة فمنها تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت وما تحتاجه من مواد تموينية في خلال الأيام التسعة التي تقضيها في اجتياز الصحراء.

وكما عرف عن المدينة في القرن التاسع عشر، بأن كانت قافلة الحج الشامي تمر بها في بعض السنوات أثناء عودتها من الحجاز لتحاشي هجمات البدو، وسميت بالطريق الغزاوي، وقد صقلت غزة بفاعليات اقتصادية مختلفة على مر العصور. ويستدل على

ذلك من أسماء الخانات والأسواق فيها، وكان بها أسواق تتخصص بنوع واحد من السلع وتتوزع على الحارات[48]. فقد ذكرت وثائق القرن السابع عشر بأن أشهر أسواق غزة، سوق الغزل والصباغة وأسواق أخرى تباع بها الدواب وكباقي المدن الفلسطينية[49]. وفي أواخر العهد العثماني اعتبرت المدينة مركز تجاري للقرويين والبدو الذين كانوا يأتون إلى اسواقها لشراء ما يلزمهم وكانت أشهر حاصلات سهولها وسهول منطقة بئر السبع، الشعير والذي كان يصدر بكميات كبيرة لأسواق العالم وخاصة بريطانيا لتصنيع البيرة، عن طريق مينائها[50].

رفح من قصبات غزة، ذكرها أبو الحسن المهلبي "توفي ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م" بقوله: «إنها مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق وقد خربت بعد ذلك، وعادت أهميتها في عهد الانتداب البريطاني، واشتهرت بزراعة الحبوب وبعض الخضار والفاكهة والاشجار المثمرة لوفرة مياه آبارها، وكان يعقد بها كل ثلاثاء سوق عام تؤمه الناس من غزة وخان يونس وبئر السبع يباع ويشترى فيه سلع كثيرة ودواب وخاصة الجمال[51].

وعند مرور الرحالة التركي أوليا شلبي في صفد ١٦٧١ نزل في سوق سنان باشا وقد وصف بيركهارت Burkhardt صفد بأنه كان يعقد فيها كل يوم جمعة سوقا تؤمه جموع الفلاحين من القرى المجاورة.

ومر بيركهارت أيضا بالخليل وذكر أن أهل الخليل اشتهروا بأنهم تجار مغامرون وهم ليسوا بمخادعين وقد كانت القوافل التجارية تسير بين الخليل والعقبة في رحلة تستغرق تسعة أيام حاملة على ظهورها مختلف أنواع السلع كما وأن الباعة من أصل خليلي كانوا يتجولون ويتوغلون في الصحراء العربية، ومنهم من يبقى على مدار السنة للتجارة.

وذكر مجير الدين الحنبلي في كتاب "الأنس الجليل" بأن في الخليل حارة الدارية غرب المسجد وبها أسواق البلد ومنافعها وهي أحسن الحارات، وذكر إن سوق الحصرية والزياتين وسوق الغزل[52].

وقد وصفت مدينة حيفا، في أواخر العهد العثماني بأنها قصبة داخلها لطيف وهي تشبه بيروت من حيث الحوانيت حيث باعة التبغ والمقاهي وبها سوق عملت فيه

تصليحات وأحدثت فيه المحلات ومخازن بقالية للأجانب والقصابين وباعة الأقمشة والمينافاتورة وأمثالها، ويمكن للزائر المتجول أن يعيش الساعات القليلة قرونا متباعدة من التاريخ فالبلدة القديمة بها المسجد الكبير والسوق العام والمحلات التي تحتفظ بطابعها الشرقي ومن أسواقها السوق الأبيض وسوق الشوام لكثرة التجار السوريين، وقد ضمت عام ١٨٠٨ تسعة مئة وثمانية وعشرين حانوتا وأربعة مئة وثلاث وعشرون مخزن(٥٣).

وأما مدينة الناصرة، فقد ذكرت ١٩٠٥ بأنها مدينة زاهرة وكانت بندرا وسوقا وفيها الحدادين والصناع والعطارين والبقالين والسروجين وصنوف التجار، ما يكفي حاجات المنطقة وكانت تؤم من قبل القرويين المحيطين بها لشراء حاجاتهم(٥٤). وقد ذكر المقدسي "توفي ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م" في "أحسن التقاسيم.." عن قصبة طبرية بأن لها سوق من الدرب ولها جامع وسوق كبير. وذكرت المدينة مؤخرا بأن سوقها يحتوي على إثني عشر حانوتا يبيع لسكان القصبة وبلاد الغور ومنطقة صفد، وقد صنفت في مطلع هذا القرن بأنها تحتوي على مئة حانوت(٥٥).

وعن أسواق القدس المتأخرة فقد ذكر عارف العارف، بأنها كانت سنة ١٨٧٦ تحتوي على ألف وثلاثمائة وعشرون دكان يعمل بها ألف وتسعماية وعشرون شخصا من كافة ارباب المهن والحرف، وفيها أسواق عديدة جلها مرصوف، بعضها يقوم على قبو مرتفع، والأسواق التي داخل المدينة معوجة وضيقة ويزدحم الناس بها بكثرة في مواسم الأعياد(٥٦).

مدينة يافا ذكرت أيضا في مطلع هذا القرن بأن وسعت شوارعها من قبل حاكمها حسن بك الجابي فأزيل السوق القديم الذي بني في أوائل القرن التاسع عشر، وبقي من أسواقها:

سوق بسترس: نسبة إلى صاحبه اسكندر عوض بسترس، ويبدأ من جوار دار الحكومة وينتهي عند الطرف الجنوبي من شارع جمال باشا.

سوق الدير: وهو من أوقاف الروم الأرثوذكس.

سوق البلابسة: ومعظم تجاره يعودون بأصلهم إلى بلبيس في مصر ويقع بجوار الجامع الكبير، وبالقرب منه يقع سوق النحاسين. وهناك سوق الحبوب وسوق المنشية

وسوق الإسعاف: وهو أحدث أسواق يافا أقيم على بقعة المقبرة الإسلامية القديمة. هذا وقد ذكرت الصحف العبرية الصادرة بتاريخ ١١/١٢/ ١٩٤٨ "هابوكير" أن اليهود هدموا مئات العمارات العربية في يافا، ومنها ما هو ذو أربعة وخمسة طوابق، ثم هدموا سوق البلابسة وسوق النحاسين وحي المسلخ وغيرها(٥٧).

ومن الأسواق الأسبوعية: فقد كان يعقد في قرية العباسية في قضاء يافا كل يوم سبت سوق يؤمه سكان القرى المجاورة، وسوق آخر في قرية أسدود بين يافا وغزة، فقد كان يعقد كل أربعاء يؤمه فلاحو وبدو المنطقة. وفي عسقلان التي وصفت قديما بأنها كثيرة المغارس والفاكهة وذات أسواق حسنة، وكذلك الفالوجة التي اشتهرت بزراعة الحبوب والخضار واشتهرت بكثرة الدواجن فيها، وصناعة الأواني الفخارية الملونة، ونساؤها تجيد الطرز وغزل الصوف وصبغه اشتهرت بين القرى، فقد كان يعقد فيها كل أربعاء سوق يستمر إلى ظهر يوم الخميس(٥٨).

وسوق يعقد كل سبت في بيت ساحور قضاء القدس يحضره عرب التعامرة والعبيدية ويبيعون فيه منتوجاتهم من الحبوب والماشية والدواجن ويشترون كل ما يحتاجون إليه من سكر وقماش وأرز(٥٩).

فهذه الأسواق الأسبوعية والموسمية، كانت تقام في إحدى أيام الأسبوع في قرى وربوع فلسطين، ويستمر عقد السوق نهارا كاملا، ومن المتعارف عليه أن هذه الأسواق موزعة بشكل منتظم على مدار الأسبوع وبأماكن متفرقة بحيث تضمن استمرار الحركة الاقتصادية للأسواق قائمة ومستمرة، فكان يقام كل يوم إثنين سوق في اللد، ويوم الجمعة في كل من القدس والخليل ويافا وغزة والمجدل ونابلس، ويوم الأربعاء في كل من بئر السبع والناصرة والرملة.

وهذه الأسواق لم تكن حكرا على ممتهني التجارة فقط، فقد كان كل شخص أو عائلة تستطيع المشاركة بالسوق، وقد كان الناس يستعدون للتحضير له قبل موعد عقده، ويراعى أن يعقد السوق في منطقة متوسطة بين جموع القرى أو في ضواحي

القصبات وعلى مساحة فسيحة يسهل الوصول إليها، ويتوفر بالقرب منه مصدر مـــاء، وبعض الخدمات وكانت غالبا ما تقام قرب بناء قديم أو خان.

وتعرض هذه الأسواق كل أصناف المواد والغلال والمنتوجات اليدوية والحرفيـــة وتعرض بها المواشي والدواب.

ولا شك أن الأسواق الشعبية كانت تتيح الفرصة لانتقال العــــادات والتقـــاليد والاطلاع على الأخلاق الاجتماعية والتقاليد الفلكلورية. وكان يسمع من أفواه الباعـــة الأهازيج الشعبية، وتعقد الجلسات للمداولات والأحاديث في شـــتى صنـــوف الأدب الشعبي، وتتناقل فيها أخبار القصبات من أمور اجتماعية وسياسية وكثيرا ما كان يبلـــغ عن الأوامر والقوانين الرسمية في الأسواق لسهولة انتشارها.

هذا وربما اختلف راويين من المحدثين حول حكاية شـــعبية أو بعـــض الابيـــات الشعرية فيقوم أحد المطلعين بدعوة الجميع إلى بيته أو إلى ديوان القرية ودون سابق معرفة وهناك يتحف السمار بحكاياته وأشعاره. وتعقد بالسوق الدبكات والرقصات الشـــعبية وتغنى الأغاني في أثناء العمل في حال التهيئة للسوق بالتحميل والتنزيل.

ومن نداءات الباعة، تسمع نداء البائع الفلسطيني الذي اشتهر بصوتـــه الحنـــون وبكلماته المعبرة ويتجلى الإيمان بندائه كأروع ما يكون فتسمع أحيانا من بائع يضع على رأسه شيئا لا تعرف ما هو، تسمعه يقول: خلي اعتمادك على الله..!، أو يا غـــني يـــا كريم..! فتكتشف بعد ذلك أنه يبيع نوعا من الحلوى الذي صنعته يداه!.

وأحيانا يلفظ كلمة واحدة فقط ليدل على ما يبيع كأن يقول، بالمسمن! وأحيانـــا يعبر عن أصل السلعة ليعلن عن جودتها كأن يقول: يا فاوي يا برتقال، خليلي يا عنـــب، وريحاوي يا موز..![٦٠].

منذ مطلع القرن التاسع عشر نقل لنا الرحالة طومسون Thomson وصفـــا حيـــا ودقيقا للسوق الذي كان يقام كل إثنين عند خان المنية، فقـــال: «... المكـــان يصبـــح بساعات قليلة حيا ورائعا ومفعما بالحياة وتعطي هذه التجمعات فرصـــة ممتـــازة لمراقبـــة الأخلاق والعادات والأزياء في المنطقة وكذلك للتعرف على المنتوجات وأصنافها، فـــآلاف الناس يتجمعون من جميع أنحاء البلاد إما للبيع أو التجارة أو للشراء، فقد كان يأتي بـــالجبن

واللبن والسمن والعسل وما شابه. ثم هنالك أصناف جيدة من الدجاج والبيض، والتين والزيت والتفاح والبطيخ والعنب، وأما الخضار والفاكهة فيؤتى بها في فصول نضجها ويضع الباعة المتجولون ما يحملونه من أقمشة مغرية ويعرض الجوهري بضاعته القليلة القيمة "تقليدية" والحلي الطريفة ويأتي الخياط بملبوساته الجاهزة وصانع الأحذية بصنادله الخشبية فضلا عن الأحذية الصفراء والحمراء. وكذلك نجد البيطار بأدواته ومساميره وحذواته وهو يقوم بعمل مفيد وصانع السروج بأكياسه الخشنة وهكذا الحال بالنسبة لجميع المهن.

والضوضاء لا تنقطع وهي تبدو عن بعد وكأنها أصوات مياه كثيرة، فهذا رجل ينادي على أدواته بأعلى صوته، وتسمع صياح الدجاج والديوك، ونهيق الحمير، وتشاجر الكلاب، فكل كائن حي يضفي شيئا إلى هذا الضجيج المتنوع النغمات وكأنها ملهاة متنوعة يقوم بها كل ممثل بدوره راضيا كل الرضى. ويجد الناس عدة أسباب للحفاظ على هذه الاجتماعات القديمة والحديثة فكل رجل وامرأة وكل صبي لديه الرغبة للمتاجرة وتلتقي هنا بالطبع جميع الطبقات والفئات في هذه البورصة الكبيرة، للتحدث عن أحوال السوق من سعر الخيار إلى سعر القطن أو سعر الحصان الحوراني وكل عربي سياسي فتتجمع الناس على جوانب الحشر للتباحث بما تقوم به الدول المتحالفة ضد محمد علي باشا ــ والي مصر ــ وآخر فرمان أصدره السلطان والضريبة الجديدة التي يطلبها الحاكم.

وإذا انتقلنا إلى الأمور العادية فإننا نجد أن هذه الأسواق أمكنة كبيرة للتحدث فالأصدقاء يقابلون بعضهم البعض ويتبادلون أخبار الزواج والمواليد والوفيات وجميع الحوادث المتنوعة بتعبير آخر إن هذه الأسواق تعتبر الجريدة اليومية للأحداث، لأنه يعقد ، في العادة، واحد منها في كل يوم من أيام الأسبوع ضمن منطقة يبلغ محيطها أربعون ميلا. وهي تشكل مكتب تبادل للأخبار السياسية والاجتماعية كما تشمل الاحتفالات والمهرجانات وفوق كل ذلك هنالك فكرة الربح واردة.

هكذا يكون الحال في خان التجار صباح كل إثنين، ولكن قبل مغيب الشمس بوقت لا تجد أيا من هذا المشهد، فالجميع يعودون إلى منازلهم أو يلجؤون إلى قرى مجاورة»(٦١).

بهذه الجولة نكون قد ألقينا بعض الأضواء على أسواق وخانات فلسطين في العهود الإسلامية.

فاستطعنا بذلك تقديم صورة عامة عن جانب من تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي والمعماري.

ربما هذه الدراسة سدت بعضا من النقص حول هذا الموضوع الهام، فمن خلال الأسواق والخانات والنماذج المعروضة وقفنا على وظائفها والحركة الاجتماعية بها ووصفها المعماري وتوزعها الطبوغرافي.

ففلسطين تمنح البحاثة أغنى الوثائق التاريخية لدراسة جوانب متعددة ومواضيع مختلفة سواء أكانت معمارية، كالمساجد والمدارس والحمامات والخانات والمزارات أو الديارات، أو دراسات اقتصادية واجتماعية وفنية، كالخزفيات والصناعات اليدوية.. مثلا. أو دراسات اثنوغرافية أو اثنولوجية كدراسة التوضعات السكنية لقبائل قرى، مدن... تبقى المهمة الأساسية الكشف عن هذه الوثائق من خلال المحفوظات (الأرشيفات) المتعددة، لكن الصعوبة التي تطرح مع بدء العمل مشكلة توزع هذه الوثائق على المكتبات ودور المحفوظات المختلفة وفي أنحاء متعددة ومتباعدة، فتطرح بذلك صعوبة وصول الدارسين لها، وأحيانا لأسباب أخرى متعددة.

الهوامش

١ ـــ حول كل ما يتعلق بالخانات، وإشكاليات دراستها ومصادرها يراجع ما يلي:

- Muller, K, Die Karawanserai In Vorderen Orient, Bauwissnschafthich Beitrage, Band C. Berlin 1920.

- Erdmann, K, Das antoliche Karavansaraay des 13. Berlin 1961.

- **Sauvaget, J ,Caravanserails Syriens du hadjdj de Constantinople dans, Arts Islamic IV ,(1937) 98-121 et Caravanserails du moyan- Age Ibid VI (1939) 46-55.**

- **Foud Yahia, Inventaire Archeologique de Caravanserails de Damas (These) de 3em Cycle, Un, de Provence Centre d'Aix** (1981).

أنظر أيضا

عبد القادر الريحاوي، خانات مدينة دمشق، الحوليات الأثرية السـورية ـــ مجلـد ٢٥ (١٩٧٥).

حبيب الزيات، خانات دمشق القديمة، نشر مخطوط، يوسف بن حسن بن عبد الهـادي "الإعانات على معرفة الخانات"، مجلة المشرق ـــ المطبعة الكاثوليكيـة ـــ بـيروت (١٩٣٨) ص٦٦.

٢ ـــ عبد القادر الريحاوي، خانات مدينة دمشق ، الحوليات الأثرية السورية ـــ مجلـد ٢٥ (١٩٧٥)، ص٥١.

٢ ـــ محمد المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجـزاء، المطبعـة الوهبية، القاهرة ١٢٨٤هـ ـ ١٨٦٧م، ج٤ صفحة ٣٥٦.

٣ ـــ لقد ذكرت المصادر بأن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ٦١ ـــ ١٠١هـــ / ٦٨١ ـــ ٧٢٠م. كان أول من اتخذ من الخانات مكانا لإيواء القوافل.

وجاء في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الفرنسية (باريس ١٩٧٣) بأن أول خان ظـهر في سورية، خان العقبة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م.

5- Sauvaget, J. Caravanserails Syriens du moyan- Age, ArtIslamic IV (1937) p.46.

٦ ـــ دراسة هامة عن خانات دمشق القديمة تلك الواقعة بين سوق مدحـت باشـا وسوق البزورية.

George Saba et Klous Saizweda Typlogie de Caravanserails dans la ville de Damas dans les cahiers de la recherche Architecturale 10-15 2em trimest. Paris (1983) pp. 52-59.

٧ ـــ حول خان يونس انظر مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلسطين بيروت، دار الطليعـة (١٩٧٣). الجزء الأول. صفحة ١٣٥, ١٤٤. (سنذكره بعد ذلك بالدباغ فقط)

حول خان يونس أنظر أيضا:

Abukhalaf. F, Marwan. Khan Yonus and the Khan of Palestine
Juor: (Levant) vol:XV pp 178-186, Jerusalem - Amman (1983).

٨ ـــ مرجع أساسي لدراسة اقتصاد سورية وفلسطين في القرن الثامن عشر، راجع:

Charles Raux Francois les Echelles de Syrie et de Palestine en XVIII. Paris (1927).

أنظر أيضا:

Heyd. W. Histoire du Commerce du lavant an moyon- Age. Lipzig 1936. p93.

٩ ـــ حول الامتيازات والعلاقات الدولية، وعلاقة الامبراطورية العثمانية مع الـــدول الأوروبية. أنظر:

Pellissie de Kausas le Regem des Capitalation dans l'empire Ottoman Paris (1902) p.25.

١٠ ـــ حول قافلة الحج الشامي ودورها في سورية، راجع:

Sauvaget, F. Esquisse d'un Histoire de le vie de Damas R. des etude Islamique (1934) p.469.

لقد كانت القافلة كما وصفت في نهاية القرن الثامن عشر تعد من ثلاث إلى أربعة آلاف جمل، وهي تعمل على تنشيط الحركة التجارية بين الأناضول وطوال الطريـــق إلى مكـــة عـــبر سورية. وكانت القافلة تنزل بالخانات المنتشرة على هذه الطريق. أنظر وصف للقافلـــة ذكـــره الرحالة الفرنسي فولني Voleny.

Voleny. M. C.V Voyage en Syrie et en Egypt. Paris (1959).

هذا ونفس الدور كانت تلعبه قوافل الحج المسيحي القادمة من أوروبـــا إلى الأراضـــي المقدسة فتعمل على تنشيط الحركة التجارية في المدن الفلسطينية، وخصوصا في مواسم الأعيـــاد الدينية، فكما هو معروف كان الحجاج يدفعون ضريبة دخول معلومة. وقد بقيـــت الخانـــات مركز استقبال لهؤلاء الحجاج حتى نهاية القرن التاسع عشر. حيث أخذت الأديرة تقـــوم مقـــام الخانات كنزل. وقد سميت مركز استقبال الحجاج المسيحيين بالهوسبيس h ospices، وبلـــغ عددها في فلسطين ٤٨ نزلا، وهي تماثل من حيث الدور التكايا الإسلامية.

ذكرت هذه المراكز عند:

Cuinet Vital. Syrie Liban et Palestine. Paris (1896) p.546.

١١ ـــ لقد زار المشرق العربي كثير من الرحالة الأوروبيين خـــلال القرنـــين الثـــامن والتاسع عشر وتعتبر أوصافهم وإنتاجاتهم مصدر هام من مصادر دراسة تاريخ المشرق في تلـــك الفترة. ومن أشهر هؤلاء الرحال:

Voleny, Lortet, Burkardt, Thoson, Robeinson... ets.

١٢ ــ لقد جاء هذا الوصف المذكور، عند الرحالة وليم هــ دكسون ترجمة سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين والأرض المقدسة. عمان ١٩٨٤ (نشر كمقال في جريدة الرأي ٣١/ ١٢/ ١٩٨٥).

١٣ ــ سليمان موسى، المصدر السابق.

١٤ ــ ابن شداد، عز الدين الحلبي المتوفى ٦٨٤هــ/ ١٢٨٥م. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق سامي الدهان ــ دمشق ١٩٦٢، صفحة ٢٣٧.

١٥ ــ انظر دراسة عن سوق القطانين في القدس:

Galvin L. , Quelque notes sur suq al Qattanin et ses Annexes a' Jerusalem B.E.O tom XX (1967) pp 101-117.

انظر أيضا:

Ashbee. Jerusalem- 1918 -1920 Crop- New Industries. p30.

حول تسمية أوتزبر Otuzbir، ذكر أن بالقاهرة يوجد خان يحمل نفس الاسم ربما يرجع أصل التسمية إلى وحدة عسكرية تركية.

انظر أيضا:

M. Van. Berchem Materiaux Pouruncorpus in scriptioum arabicarum 1- Jerusalem (Ville), le Caire (1922) p.265.

١٦ ــ مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. النجف ــ العراق، ١٩٦٨، صفحة ٧٨، ج٢. انظر أيضا:

M. Van Berchem. Materaux.. p.300.

١٧ ــ الدباغ. الجزء السابع، ص ٣١٦.

١٨ ــ الدباغ. الجزء السابع، ص٣١٦.

١٩ ــ الدباغ. الجزء السابع، ص٢١٧.

٢٠ ــ درست وثائق غزة التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر من قبل الدكتور عبد الكريم رافق، جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة ١٢٧٣-١٢٧٧هــ/ ١٨٥٧ ــ ١٨٦١م. من خلال الوثائق الشرعية، نشرت: في مجلة دراسات تاريخية، العدد٨، دمشق نيسان ١٩٨٢ (٧ ــ ٤٩). العدد ٩ و١٠ دمشق تشرين ١/ ١٩٨٢ (٥ ــ ٣٩).

فسجل محكمة غزة محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، ويتألف من ٤٥٩ صفحة ويحتوي على حوالي ٣٧٤٥ وثيقة. (صفحة٥).

٢١ ـــ الدباغ. الجزء الخامس، صفحة ١٠٠.

٢٢ ـــ وثائق حول المدن الفلسطينية واقتصادها، للقرن السابع عشر مستخلصة من الأرشيف العثماني. درست في كتاب:

Lewis Bernard et cohen Amnon Popliation and Revence in the Towns of Palestine the XVII. un- New Jersey (1978) p.55.

٢٣ ـــ الدباغ. الجزء الأول، صفحة ١٣٢.

٢٤ ـــ Lewis, B. Popleation.. p113.

حول الوقف هو حبس عقار (مال غير منقول) وصرفه لجهة، وغيرها والخان كونه مؤسسة اقتصادية يعتبر من أكثر العقارات عائدا للدخل الذي يصرف ريعه لجهة خيرية لصالح مسجد أو مدرسة أو رباط، هذا وقد ورد في كتاب: Lewis, B "ذكر سابقا"، بالأرقام عن عائدات وكالات وخانات في القدس والخليل في القرن السابع عشر.

وذكر من الخانات الموقوفة: لقد أوقف صلاح الدين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حوانيت في منطقة الدباغة وخان الزيت في القدس لصالح الخانقاه الصلاحية وفي القرن الحادي عشر، أوقف خان بسوق القطانين ـــ الغادرية ـــ لصالح المدرسة الغادرية وكان يحتوي على علوي وسفلي ومخازن ودكاكين، وخان الحبالين بغزة أوقف لصالح المدرسة المالكية بالقدس ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، وقد أوقف على مدرسة السلطان الملك الناصر بن أيوب ٥٥٨هـ/ ١١٩٢م، أوساق العطارين وخان في باب حطة بالقدس.

لقد ذكرت هذه الأوقاف في كتاب: كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان ١٩٨١ (ص: ٦٤، ٢٠٧).

٢٥ ـــ Burkhardt, John Lewis Travels in Syria and in the Holy Land. London 1822. p.319.

٢٦ ـــ الدباغ، صفحة ٤١٢

أنظر أيضا Thomson W.M. The Land and The Book. London (1893).

٢٧ ـــ الدباغ: الجزء السادس، ص١٧٧.

انظر أيضا: عبد الغني النابلسي "توفي ١٦٨٩م" الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية/ ٦

وذكره أيضا المقدسي ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. في كتابه "أحسن التقاسيم على معرفة الأقاليم"

انظر أيضا ابن بطوطة، الرحلة

٢٨ ـــ Burkhardt. J. Travales.. p.343.

٢٩ ـــ الدباغ: الجزء الثامن، صفحة ٣٨٤

٣٠ ـــ الدباغ: الجزء الخامس، صفحة ٢٧٢.

٣١ ـــ حول دراسة الأسواق وكل ما يتعلق بها: راجع المصادر المذكورة في الموسوعة الإسلامية (الطبعة الفرنسية) ١٩٣٤ الجزء الرابع (Suk pp.31-32)

حول البازار والسوق في الشرق والعالم الإسلامي انظر:

Wirth. E. Zum rpoplolem Bazar (suq- Carzi) dans, der Islam (no51 (1974) (pp260- 303) et, 52 (1975) (pp6- 46).

Wirth. E: der Bazar von Isfahan wies baden 1978.

أنظر أيضا دراسة هامة عن أسواق القاهرة في القرن الخامس عشر، تلك التي وردت في كتاب المقريزي أحمد بن علي "توفي ١٤٤٢م" الخطط المقريزية، المواعظ

درسها:

Raymond, A et Wiet. a les marches du caire tradetion Annotee de text de Maqrizi. I.F.A.O. de Caire (1979)

أنظر أيضا: Golvin (ذكر سابقا) ودراسته حول سوق القطانين بالقدس. نشر في مجلة Bultan etudes Orientale.

٣٢ ـــ Writh. E Der Bazar von Isfahan Wies badan 1978 p. 215.

٣٣ ـــ Raymond, Andree les marchee du Caire. p36.

٣٤ ـــ الدباغ: الجزء العاشر صفحة ٦٩.

٣٥ ـــ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل: الجزء الثاني صفحة ٥٠.

٣٦ ـــ Golvin. L. Quelque notes.. p101.

٣٧ ـــ نفس المصدر: Golvin. L. Quelque notes.. p112

٣٨ ـــ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٥٠.

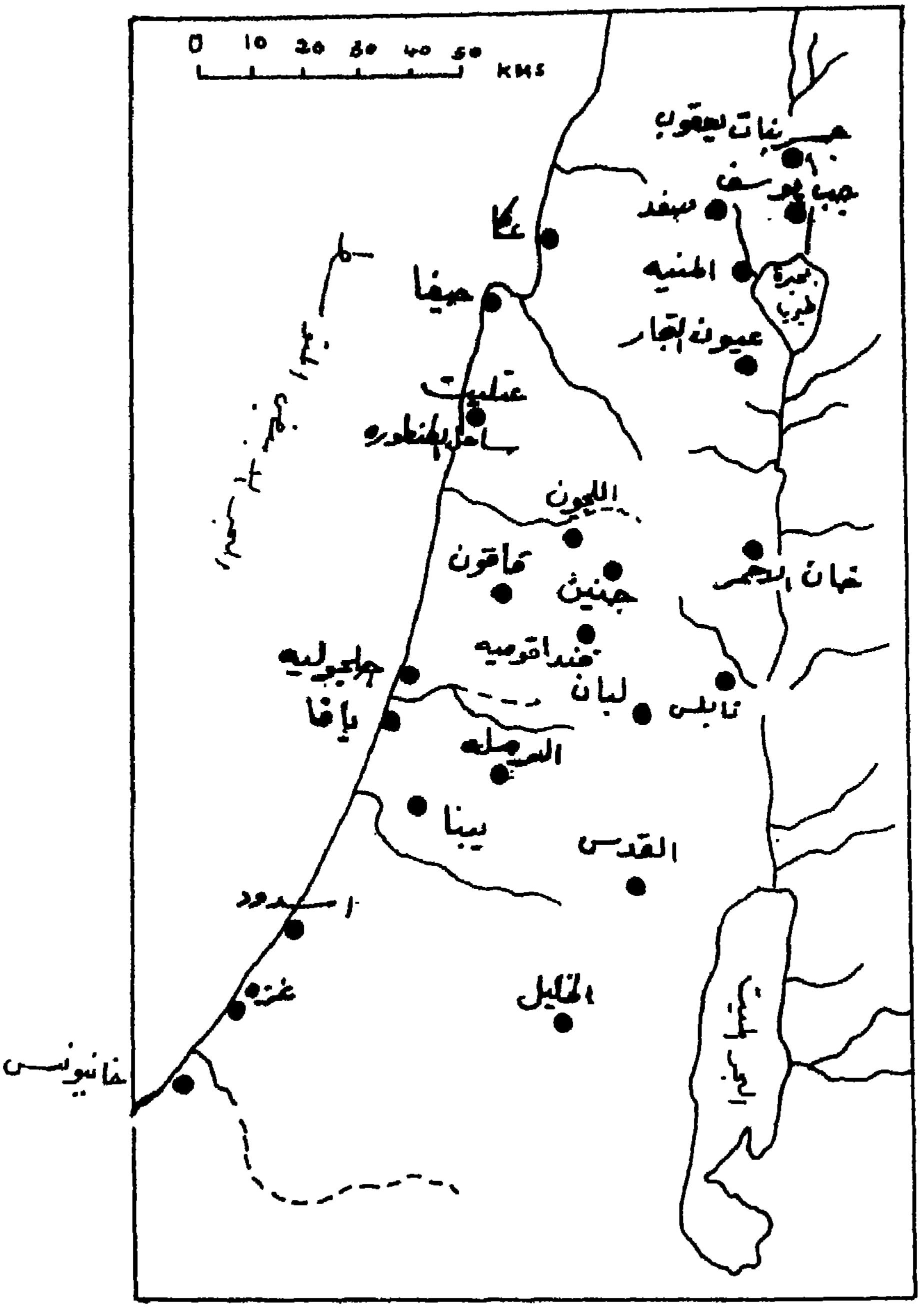
٣٩ ـــ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٣٠٤.

٤٠ ـــ ناصر خسرو (زار القدس ٣٤٨هـ/ ١٠٧٤م)، سفرنامة ـــ ترجمة د. يحيى الخشاب، بيروت ١٩٨٣. انظر أيضا الدباغ: الجزء التاسع صفحة ١٣٦.

٤١ ـــ الدباغ: الجزء التاسع/ قسم٢ صفحة ٣٠٧.

٤٢ ـــ أوليا شلبي. رحال تركي (١٦٢١ ـــ ١٦٧٩م) زار القدس نحو ١٦٧٠م، ورد هذا الوصف عند الدباغ: جزء العاشر صفحة ٥٥-٥٦.

٤٣ ـــ الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤٠٩.
٤٤ ـــ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٦٨.
٤٥ ـــ الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤١٢.
٤٦ ـــ المقريزي، أحمد بن علي. السلوك في معرفة الملوك.
تصحيح محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية ١٩٣٤، صفحة ٩٤.
٤٧ ـــ الدباغ: الجزء السابع، صفحة ٢٤٩.
لقد بنى الوالي العثماني سليمان باشا، خانا في دمشق في سوق مدحت باشا ١٧٣٢ دعي باسمه وأحيانا عرف بخان الحماضة.
٤٨ ـــ د. عبد الكريم رافق، جوانب من التاريخ ومجلة دراسات تاريخية ـــ دمشق عدد تشرين أول ١٩٨٢ (٩،١٠) صفحة ٨.
٤٩ ـــ Lewis. B Popalation.. p53, 131.
٥٠ ـــ الدباغ: الجزء الأول، صفحة ١٠٠.
٥١ ـــ الدباغ: الجزء الأول، صفحة ٣٠١، ٣٠٥.
٥٢ ـــ مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل، الجزء الثاني، صفحة ٧٨.
٥٣ ـــ الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤٩٥.
٥٤ ـــ الدباغ: الجزء السابع، صفحة ٥٠.
٥٥ ـــ الدباغ: الجزء السادس، صفحة ٣٢٠.
٥٦ ـــ عارف العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١/ صفحة ١٢٥، ٢٠٩.
٥٧ ـــ الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٢٢٠.
٥٨ ـــ الدباغ: الجزء الأول، صفحة ٢٢٤.
٥٩ ـــ الدباغ: الجزء الخامس، صفحة ٤٧١.
٦٠ ـــ أخذت هذه المعلومات عن مقالة نشرت في مجلة: التراث الشعبي، العدد الخامس ـــ السنة الثامنة، بغداد ١٩٧٧. (عدد خاص حول التراث والفلكلور الفلسطيني).
الأسواق الشعبية ونداءات الباعة (صفحة ١٨٣-١٨٤).
انظر أيضا حول موضعة الأسواق الشعبية ونداءات الباعة، مجلة المشرق ـــ المطبعة الكاثوليكية ـــ بيروت ١٩١٠. صفحة ٣٣.
٦١ ـــ Thomson W.M. the Land and the book. London 1893.
أنظر أيضا: الدباغ: الجزء السادس صفحة ٤١٢ ـــ ٤١٣.



شكل ١ خريطة تبين مواقع الخانات بفلسطين